

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الكيلانى

القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الخامس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٠/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
١٧١٨-١٩٨٠-٢٥٠٠٤

(* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾)

التفسير

٥٣ - (وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

قلنا فى آخر الجزء السابق يحتمل أن تكون هذه الآية والتى قبلها من قول يوسف عليه السلام أو من قول امرأة العزيز ، وقد شرحنا الآية السابقة على الوجهين . وفيما يلى شرح هذه الآية عليهما :

إذا كانت هذه الآية من قول يوسف يكون معناها : وما أبرئُ نفسى عن السوء والخطيئة بغير معونة من الله سبحانه ولا أُسْنِد إليها هذه الفضيلة باعتبار طبعها من غير توفيق من الله تعالى ، فإن النفس البشرية فى حد ذاتها لداعية إلى السوء ، مائلة إلى الشهوات ، إلا ما رحم ربِّى من النفوس بعصمتها من الوقوع فى المهالك ، وفى جملتها نفسى ، إن ربى لعظيم الغفران لما يحدث من النفوس بموجب طبعها ، عظيم الرحمة لها بعصمتها من الخطيئة التى تسوقها إليها بشريتها ، وإنما يقول ذلك يوسف - عليه السلام - هضمًا لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء ، وإبعادًا لها عن الإعجاب بما وصلت إليه من كمال النزاهة .

وإذا كانت هذه الآية من كلام امرأة العزيز يكون معناها : وما أبرئُ نفسى مع ذلك من الخيانة ، حيث قلت فى حق يوسف ما قلت ، وفعلت به ما فعلت ، إنَّ كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام ، إن ربى غفور لمن استغفر لذنبه ، رحيم له بقبول استغفاره .

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)).

المفردات :

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) : أجعله خالصًا لى أى خاصًا بى .

(مَكِينٌ أَمِينٌ) : ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شىء .

(حَفِيظٌ عَلِيمٌ) : قوى الحفظ كثير العلم .

التفسير

٥٤ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) :

ولما ثبت للملك براءة يوسف مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وتحقق أنه أمين لايخونه بالغيب ، وأدرك صبره وجلده وإيثاره السجن على ما تدعوه إليه امرأة العزيز وصواحباتها وعرف مبالغته فى حماية نفسه من قالة السوء ، بطلبه التحقيق مع أولئك النسوة قبل خروجه من السجن ليتلقاه الملك نظيفًا محكومًا ببراءته ، بدلا من أن يقابله قبل ذلك متهمًا عفا عنه الملك لأنه أوّل رؤياه لا لأنه برىء - ولمّا ثبت للملك كل ذلك - قال الملك لرجاله : أحضروا إلىّ يوسف أتخذه خالصًا لنفسى فى تدبير أمور مملكتى وليكون صاحب مكانة خاصة عندى .

وإذا نظرت إلى أسلوب الملك فى طلب إحضار يوسف إليه فإنك تراه أولًا بعد أن علم بتأويله رؤياه قال : (ائْتُونِي بِهِ) ولم يزد على ذلك ، فلما ظهر إباؤه ووضحت أمانته وعفته فى قصة امرأة العزيز ، عظمت منزلته عنده ، فطلبه ليكون ذا مكانة ممتازة لديه

خاصة به، بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه سواه، وذلك بقوله :

(ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) . وهكذا يرفع الله درجات أهل العلم والأمانة والعفة

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) :

أى فأتَوْا بيوسف فلما كلم يوسفُ الملكَ بما يناسب لقاءَ الملوك الذين يَرُدون الحق لأهله وينصفون المظلوم ، قال له الملك إنك يا يوسف عندنا ابتداءً من هذا اليوم ذو مكانة رفيعة ومنزلة ممتازة ، وإنك أمين على كل شيء لدينا ، بعد ما عرفناه فيك من العلم والشرف والأمانة .

وبعد أن اختار الملك يوسف مستشارًا له فيما هو مقبل عليه من أمره كله ، وأعلمه بأنه عنده ذو مكانة ممتازة ابتداءً من هذا اليوم الذى يحدثه فيه ، وأنه أمين عنده أمانة مطلقة ليست لها حدود ، وبعد أن علم يوسف ما تحتاج إليه أرض مصر وأهلها فى السنين السبع الخصيبة والسنين السبع العجاف من حسن التدبير والحزم والحفظ والعلم والأمانة وأن ذلك كله قد منَّ الله عليه به ـ بعد أن حدث كل ذلك ـ عرض يوسف على الملك أن يعهد إليه بإدارة البلاد وذلك ما حكاه الله بقوله :

٥٥ ـ (قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

أى اجعلنى واليا على مصادر خيرات أرض مصر ، زراعة وحصادا ، وإيرادا وصرفا ، وبيعا وخزنا ، وتدبيرا ، فإنى حفيظ لها من التبذير والتقتير والإفراط والتفريط ، عليم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها ، وقد كان يوسف فى كل ذلك أقدر من غيره .

وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية ، إذا كان طالبها قادرًا على نفع العباد وإقامة العدل بينهم وإجراء أحكام الشريعة فيهم ، والبعد عن التلوث بمظالم الحكام ومآثمهم .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبى بريدة قال : قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العملَ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَاكُ فقال : « ما تقول يا أبا موسى ـ

أو يا عبد الله بن قيس ؟ قال : قلت والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ـ قال ـ وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت[1] فقال : لَنْ أَوْ لا نَسْتَعْمِلُ على عملنا مَنْ أراده » وذكر الحديث . ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمَارة ، فإنك إن أُعطيتَهَا عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإن أُعطيتَهَا عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها » . وقد استفيد من الآية أيضًا إباحة طلب الرجل القادر الفاضل أن يعمل للرجل الكافر ، بشرط أن لايكون عمله لديه وفق شهواته وفجوره ، وإلا فلايجوز .

ويستفاد منها أيضًا أنه لو علم إنسان أنه لا يقوم سواه بمصالح الناس فى عدل وكفاية سواءٌ كان ذلك فى ولاية أو قضاءٍ أو نحوهما ، وجب عليه أن يطلب ذلك ، ويخبر بصفاته التى تجعله صالحا للقيام بها ، من العلم والحفظ والكفاية كما قال يوسف :

(اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

فقد سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب وغيره ، فإن كان هناك من يقوم بها ويصلح لها سواه ، وعلم بذلك فالأولى أن لايطلب لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : « لاتسأل الإمارة » الحديث .

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾)

(١) أى انقبضت .

المفـردات :

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : جعلنا له فى أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

(يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها حيث يشاء .

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا) : نجود بنعمتنا .

التفسير

٥٦ ـ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) :

ومثل ذلك التمكين فى قلب الملك ، مكَّنَّا ليوسف فى أرض مصر ، حيث ثبتنا فيها مكانته العظيمة ، وأقدرناه فيها على ما يريد فى جميع نواحيها ، فقد شملها سلطانه ، فكأنها منزلهُ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله ومكانه ، وكان ذلك بعدل وحكمة . روى أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا ، وأقام فيهم العدل فأحبه الناس ، وكانت له بذلك مكانة رفيعة بينهم .

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

نصل بنعمتنا مَنْ نشاءُ ولا نفوت على المحسنين شيئًا من أجرهم ، بل نوفيه بكماله لهم ، وكذلك فعلنا مع يوسف حين أحسن ، فقد كافأْناه بسلطانه العظيم على مصر وأهلها مع كامل المحبة والرضا .

٥٧ ـ (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى وإن أجر المحسنين فى الآخرة لأعظم من أجرهم فى الدنيا ، وقد عبر عنهم بالذين كانوا يتقون ، للإيذان بأن الإحسان الذى يستحق صاحبه الثواب الأُخروى ، هو الذى كان أساسه الإيمان والتقوى .

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

كان للقحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ، أثره على أرض كنعان بالشام فبعث يعقوب عليه السلام أولاده لشراء قمح وطعام من مصر ، بعد أن ذاع أمر يوسف فى الآفاق ، حيث عرفوا أنه اختزن الأقوات للمجاعة وأنه يوزعها بعدل ورحمة ، وكان - كما قيل يعطى الطعام بمقدار معين لكل فرد - كما كان يشرف على التوزيع بنفسه ضمانًا للعدالة والدقة . وجاء إخوة يوسف امتثالًا لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه ليطلبوا منه الطعام ، فعرفهم يوسف ، ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم ألقوه فى الجبِّ ثمَّ باعوهُ صبيًّا [1] ، ولم يتوهَّموا أنَّهُ بعد العبوديَّةِ يصير إلى هذا السُّلطانِ ، بالإضافةِ إلى أنه فارقهم منذ مدَّةٍ طويلة ، قيل : إنَّها كانت أربعين سنةً ، وقد تزيَّا بزىِّ أهل مصر ، وعليه مظاهر السُّلطان .

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : أعدَّ لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت وتجهيزه إحضاره . وقد أجمع القراءُ على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر .

(١) على ما جاء بإحدى الروايات ، انظر ما كتبناه شرحاً لقوله تعالى : (وشروه بثمن بخس) الخ . . .

(خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) : أى خير المضيفين - مأخوذ من النُّزُل وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الَّذِين ينزلون . أو خَيْرُ مَن يُنْزِلُونَ الناس فى منازلهم مأخوذ من المنزل بِجَهَازِهِمْ وهو الدار . (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) : سنطلبه من أبيه ليرسله معنا .

التفسير

٥٩ - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ) :

بينت الآية السابقة أن إخوة يوسف جاءوه للحصول على الطعام زمن المجاعة ، وأن يوسف عرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم أن من ألقوه فى الجب يؤول أمره إلى حكم مصر والسلطان على أهلها وأرزاقها .

وجاءت هذه الآية لتبين أول الخطوات التى اتخذها يوسف لإحضار أسرته إليه ، وهى طلبه من إخوته هؤلاء أن يحضروا أخًا لهم من أبيهم .

ويظهر أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخًا من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذى حمل يوسف ظاهرًا على أن يطلبه بالذات ، حتى لايثير انتباههم إلى السبب الحقيقى فى طلبه .

والمعنى : ولمَّا جَهَّز يوسف إخوته بالطعام الذى طلبوه من الحَبِّ الذى استبقاه فى سنابله لزمن المجاعة ، قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم ليتبين صدقكم فى طلب حمل زائد على أحمالكم من أجله .

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) :

أى ألا تنظرون أننى أُعطى الكيل وافيًا تامًّا لكم ولكل الناس بالعدل ، وأنا أَفْضَلُ المضيفين ، ومن أجل ذلك لا أُحب أن يكذب عَلَىَّ أحد بأخذ مالا يستحقه ، حتى لايحرم رب أُسرة آخر من حقه فى الطعام ، ولهذا طلبت أن أرى أخاكم بنيامين الذى طلبتم له الطعام لكى أتحقق من صدقكم .

٦٠ - (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُون) :

أى فإن لم تأتونى بأخ لكم من أبيكم ، فلا طعام أكيله لكم مستقبلا . ولا تقربون منى بنزولكم عندى فى ضيافتى ، يريد بذلك تهديدهم بالحرمان من الطعام وحسن الضيافة بعد هذه المرّة ، كلما احتاجوا إليه فى السنين العجاف ما لم يأتوه بأخيهم من أبيهم .

٦١ - (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) :

أثّر فيهم تهديد يوسف لهم بالحرمان من الطعام مستقبلا فقالوا له : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك - يشيرون بذلك إلى عِزّةِ المطلب وصعوبة مناله .

ومع صعوبته وَعَدُوا يوسف بتحقيقه بقولهم له : « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » . مرضاةً له وتفويتًا لما اعتقدوا أنه تسرب إلى ذهنه من أنهم كاذبون ، فإن قيل إن طلب يوسف لبنيامين ، سوف يدخل الحزن على أبيه فما حكمة ذلك ؟ وقد أجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها : أن ذلك كان بأمر من الله ابتلاءً ليعقوب ، ليعظم ثوابه ولكى تتضاعف مسرته برجوع ولديه ، إلى آخر ما قيل فى ذلك .

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فِتْيَانِهِ) : غلمانه الكيالين ؛ جمع فتى .

(بِضَاعَتَهُمْ) : ما جاءُوا به من المتاع ليشتروا به الطعام .

(فِي رِحَالِهِمْ) : فى أوعيتهم ، قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل . (انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) : رجعوا إليهم .

التفسير

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

كان إخوة يوسف يريدون شراء القمح مُبَادَلَةً ببضائع أُخرى جاءُوا بها معهم من الشام[1] ، وكان يوسف يريد أن يعطيهم القمح دون مقابل تفضلا عليهم، وخوفًا من أن لايكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أُخرى ليشتروا به طعامًا آخر غير الذى أخذوه فى هذه المرة ، ولكى يكون ذلك التفضل وسيلة لتحقيق مطلبه من حضور بنيامين معهم عند حضورهم للامتيار[2] مرة أُخرى ولهذا قال يوسف لغلمانه وعماله الموكول إليهم بَيْعُ القمح وكيلُه وقَبْضُ الثمن - قال لهم - : اجعلوا بضاعتهم التى جاءُوا بها ليجعلوها ثمنًا للطعام - اجعلوها - فى أَوعيتهم سِرًّا ولا تشعروهم أننى نزلت لهم عنها ، وأننى تفضلت عليهم بالقمح دون ثمن ، لعلهم يعرفون هذه المكرمة ويقدرونها قدرها حين يرجعون إلى أهلهم ويفاجؤُون بها فى متاعهم ، لعلهم يعودون إلىَّ بأَخيهم الذى طلبته ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند ندرة البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

---

(١) روى عن ابن عباس أنها كانت نعالا وأدما - أى جلداً - وقيل إنها كانت دراهم ودنانير .

(٢) الامتيار : طلب الطعام وجلبه .

٦٣ - (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى فلما عادوا إلى أبيهم من مصر بمتاعهم ، قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع : يا أبانا مَنَعَ مِنَّا العزيزُ أن نكتال الطعام من عنده بعد هذه المرة حتى نأتيه بأخ لنا من أبينا ، ولما حكوا لأبيهم القصة التى اقتضت أن يطلب منهم العزيز هذا الطلب قالوا لأبيهم : فأرسل معنا أخانا بنيامين إلى مصر نكتل بسببه الطعام كما قال العزيز ، وإنا له لحافظون من أن يصيبه مكروه .

٦٤ - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ) :

أى لم يحدث منكم ما يقتضى الاطمئنان على وعودكم ، فقد وعدتمونى من قبل بالمحافظة على أخيه يوسف وجئتمونى بدونه وزعمتم أن الذئب أكله : فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التى أمنتكم بها على أخيه . دون أن يتغير حالكم ، ويدعونى إلى الاطمئنان لوعودكم .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

أى فالله خير منكم ومن سواكم حافظًا ، وهو أرحم الراحمين ، فلذا أَكِل أمر حفظه إلى فضله ورحمته سبحانه ، ولا أعتمد فى ذلك عليكم فقد جربتكم فما وجدْت فيكم وفاءً بوعد ، ولا حفظًا لعهد .

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) : المقصود بمتاعهم؛ الأوعية التى فيها طعامهم وبضاعتهم وهى المعبر عنها سابقًا برحالهم فى قول يوسف: « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ » .

(مَا نَبْغِى) : أىُّ شىءٍ نبغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا وتوفيته الكيل لنا ؟ .

(نَمِيرُ أَهْلَنَا) : أى نجلب لهم الميرَة وهى الطعام ، من المَيْر وهو جلب الطعام[1] .

(كَيْلَ بَعِيرٍ) : أى طعامًا مكيلا مقداره حمل بعير لأخينا بنيامين.

(كَيْلٌ يَسِيرٌ) : مكيل سهل على عزيز مصر لا يمنعنا إياه لكرمه .

(مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ) : أى عهدًا منكم مع الله تعالى يدعونى إلى الثقة بوفائكم له .

(إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ) : أى إلا أن تُغْلَبُوا عليه .

(وَكِيلٌ) : موكول إليه تنفيذ هذا الميثاق .

---

(١) انظر مختار الصحاح .

التفسير

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) :

بيّنت الآيتان السابقتان أن إخوة يوسف لما رجعوا من مصر بالطعام إلى أبيهم، أخبروه بأن العزيز طلب منهم أخاً لهم من أبيهم جاء ذكره فى حديثهم معه ، وأنه منع منهم الطعام فى المستقبل إن لم يأتوه به ، وأن أباهم ذكر لهم أنهم لم يحدث منهم ما يوجب الثقة بهم وائتمانهم على شقيق يوسف بعد أن فجعوه فى يوسف ، وذكر لهم أن الله هو الحافظ الرحيم ، يكنى بهذه العبارة عن مخاوفه منهم على بنيامين ، وأنه يستعين بالله عليهم وجاءت هذه الآية ومابعدها لتبين أنهم أقنعوه بكرم عزيز مصر حيث أعطاهم الطعام ، ورد إليهم الثمن ، وأنهم سيزدادون به كيل بعير وأن أباهم وافقهم على إرساله معهم ، بعد أن أعطوه موثقا من الله برده إليه.

والمعنى : ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام بمصر قد ردت إليهم ، حيث وضعت دون علمهم فى رحالهم ففوجئوا بها فى أوعية طعامهم ، فماذا قالوا لأبيهم ؟

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) :

قال إخوة يوسف لأبيهم لكى يوافق على إرسال بنيامين معهم أى شىء نطلبه ليكون شاهدا على أن سفر بنيامين معنا سيكون سببا فى خير يأتينا فى هذه المجاعة ، أى شىء نطلبه وراء هذا – أكرمنا وَوَفَّى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن الذى هو بضاعتنا ، فكيف لا نستجيب لطلبه ونجيئه بأخ لنا من أبينا ؟

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) :

أى هذه بضاعتنا التى كنا نريد دفعها ثمنا للطعام ردَّها إلينا العزيز نستعين بها ونَمير أهلنا أى نجلب الطعام إليهم مرة أخرى ونحفظ أخانا فى هذه المرة حتى لا يصيبه مكروه ، لأنَّا لَنْ نشغل عنه باللهو واللعب ، ونزداد بحضور بنيامين معنا وسق بعير يكال لنا من أجله ، زائدا على أوساق أباعرنا وأحمالها ذلك الكيل الزائد الذى نطلبه من أجل بنيامين كيل يسير على عزيز مصر وسهل عليه ، فلا يخيبنا فى طلبه فأى شىء نبتغى وراء هذه الأغراض المشتملة على إطعام أهلنا

مرة أخرى وسلامة أخينا ، وسعة الرزق علينا ، فلماذا لا تبعث به معنا حتى نحقق هذه المطالب .

٦٦ ـ (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ) :

قال يعقوب لأولاده وقد ألانه كلامهم ، وهيأه لقبول مطلبهم لن أرسل بنيامين معكم كما طلبتم حتى تعطونى عهدا مع الله على رده وموثقا من جهته على ذلك . ليكون شهيدا عليكم ومنتقما منكم إن لم تكونوا أوفياء .

(لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) :

مرتبط بالقسم المفهوم مما قبله كأنه قال لهم : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله لتأتنني ببنيامين حين ترجعون من رحلتكم ثانيا إلى مصر ، إلا أن تغلبوا بما لا قبل لكم به فيحول دون وفائكم بقسمكم .

وصورة الميثاق الذى طلبه أبوهم منهم أن يقولوا مثلا : والله لنأتينك ببنيامين ونحن عائدون من مصر بالطعام إلا أن نغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به .

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

أى فلما أعطى الأسباط أباهم يعقوب ـ عليه السلام ـ يمينهم وعهدهم مع الله ، قال يعقوب مؤكدا التوثيق : (اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ) : أنا وأنتم من طلبي القسم وصدور العهد منكم ، (وَكِيلٌ) : مطلع رقيب ، فإن وفيتم أجرتم وإن خنتم انتقم الله منكم .

(وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾)

التفسير

٦٧ ـ (وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ) الآية .

كان بنو يعقوب فيهم جمال وكانوا أحد عشر متجانسين تجانس الكواكب ، وقد تجملوا فى هذه المرة أكثر من المرة الأُولى بعد أن أدركوا كرامتهم على العزيز من إعطائهم الطعام فى المرة السابقة دون مقابل ورده بضاعتهم عليهم ، ولهذا كله خَافَ عليهم أبوهم العين إن دخلوا مصر من باب واحد وهم على هذا النمط الفريد . وبخاصة فى زمن المجاعة حيث الناس فى شدة ، وكانت المدن فى الزمان السابق يحيط بها أسوار لحمايتها من الأَعداء ، وفى هذه الأَسوار أبواب للدخول والخروج منها ، فلهذا أوصاهم أبوهم أن لا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة .

قال العلامة أبوالسعود : وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنْكر ، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ . » : وقوله « : إِنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلَ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ » وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَوّذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ » وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « كان أبوكما يُعَوِّذُ بهَا إسماعيل وإسحاق عليهم السلام » .رواه البخارى فى صحيحه ، وقد شهدت بذلك التجارب . ا هـ .

والمعنى : وقال يعقوب لبنيه بعد أن حلفوا له : لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة بحيث لا يبدو لكم اجتماع حتى تسلموا من حسد الحاسدين ولست أغنى عنكم بحذرى هذا من قضاءِ الله من شىءٍ وإنما هو نوع من التدبير ، وأما ترتيب المنفعة عليه فهو إلى الله العزيز القدير ، كما أنه استعان بالله وهرب منه إليه ، وقال يعقوب أيضا ماالحكم فى أمر الخلائق جميعا إلا لله وحده ، عليه دون سواه توكلت واعتمدت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، فإنه مفزع كل خائف ، ومجيب كل سائل ، ومعاذ كل مستعيذ .

وفى الآية الكريمة هداية يعقوب لأولاده ، وإرشادهم إلى التوكل على الله فيما هم بصدده غير معتمدين كل الاعتماد على ماوصاهم به من التدبير .

(وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) : من الأبواب المتفرقة التى أمرهم بالدخول منها .

(لِمَا عَلَّمْنَاهُ) : لتعليمنا إياه بالوحى .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ماصنعوا.

التفسير

٦٨ - (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ . .) الآية .

أى خرج إخوة يوسف من الشام متجهين إلى مصر حتى وصلوا إلى مداخلها ، ولما دخلوها من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم .

(مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إلاَّ حَاجَةً فى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) :

أى ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يدفع عنهم من أمر الله شيئا مما قضاه عليهم مخالفا لما أمله أبوهم بتدبيره ، ولكن قضى حاجة فى نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب إرادته ، لعلَّه يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها العادية كما جرَّبه الناس ، ولكن إصابة العين لم تقع لهم لكونها غير مقدرة عليهم ، ولو كانت مقدرة لم يدفعها دخولهم من أبواب متفرقة.

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) :

وإن يعقوب لصاحب علم جليل لأجل تعليمنا إياه بالوحى ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير بتغيير قضاء الله ، ولهذا قال لهم : «وَمَاأُغْنِى عَنْكُم مِّنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ »أى وماأدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله ، وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره. فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

أى ولكن أكثر الناس لايعلمون أسرار القدر ، ويزعمون أن الحذر يغنى من القدر

٦٩ ـ (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) :

أى ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين أكرمهم لأنهم وفوا بوعدهم معه ، وآوى إليه أخاه الشقيق بنيامين حيث ضمه إليه سكنا وطعاماً ، بطريقة لا تدخل ريبة فى نفوسهم ، ولما خلا به .

(قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى قال يوسف لبنيامين مؤنسا له وكاشفا له عن سره الخطير ، إنى يابنيامين أنا يوسف أخوك ، وسرد عليه قصته ثم قال فلا تحزن بسبب ما كانوا يعملونه بنا فيما مضى ، فقد أحسن الله إلينا وجمعنا بخير ، ولا تعلمنهم بما أعلمتك به ، حتى تمضى الأمور إلى غايتها.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : الجهازة فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم تنجيز مايحتاجون إليه من الطعام وإعداده فى أوعيتهم .

(السِّقَايَة) : المشربة التى يُشْرَبُ بها ،وهى والصواع شىءٌ واحد،قال الشاعر :
نشرب الخمر بالصُّواع جهاراً .
(رَحْلِ أَخِيهِ) : المراد به وعاءُ الطعام الخاص بأخيه بنيامين . (أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) : نادى منادٍ .
(أَيَّتُهَا الْعِيرُ) : العير هى الأبل التى عليها الأحمال ، والمراد بندائها نداءُ أصحابها ، وقال أبو عبيد هى الإبل الْمَرْحُولَةُ المركوبة . (زعيم) : كفيل وضمين .

التفسير

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ) :

تقدم بيان أن يوسف عليه السلام عقد العزم على استقدام آل يعقوب إلى مصر بعد أن وفد إخوته عليه أول مرة ليحصلوا على الطعام لذويهم، وكانوا قد حدثوه عن أخ لهم من أبيهم هو بنيامين ، ولعلهم طلبوا له طعاما ، فطلب منهم أن يحضروه معهم فى المرة المقبلة ليأخذ طعامه بنفسه ، ولهذا قالوا لأبيهم حين طلبوه منه بعد عودتهم من مصر : «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ونَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ».أى نزداد كيل بعير من أجل بنيامين فلما حضروا به فى المرة الثانية وأراد يوسف أن يستبقيه ، لم يجد سببا لاستبقائه عنده إلا أن يأمر بدس إنائه الذى يشرب به فى رحل بنيامين ، وكان إناءً ثمينًا يمكن الاتهام بسرقته لارتفاع قيمته ، فلهذا جعل ذلك الإناء المعبر عنه بالسّقاية فى الآية - جعله فى رحل أخيه بنيامين أى وعاءِ طعامه ،وسيأتى الكلام عن الحكمة فى اختياره هذا السبب لاستبقائه لديه .

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) :

أى ثم بعد أن جعل السقاية فى رحل بنيامين وركب إخوة يوسف دوابهم ، نادى منادٍ فيهم ياأصحاب العير إنكم لسارقون ، ولم يعين لهم ماسرقوه فى ندائه ليسترعى كامل انتباههم ، ويَظْهَرُ- والله أعلم- أن هذا الذى حدث كان بموافقة من بنيامين ليبقى عند أخيه يوسف حتى يأتى والداه وأسرته.

فإن قيل كيف رضي بنيامين بذلك مع مافيه من زيادة الحزن على أبيه ، وكيف ينسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برآءٌ منها .

والجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بفقد يوسف فلا يؤثر فيه كثيرا فَقْدُ بنيامين ، ولهذا لمَّا لَمْ يَعُدْ بنيامين لم يذكرْ يعقوبُ سوى يوسف ، إذ قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » .

والجواب عن الثانى : أنهم قد سرقوا يوسف من أبيه وألقوه فى الجب ، ولذا قيل لهم إنكم لسارقون ولم يعين لهم ماسرقوه .

٧١ ـ (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ) :

أى قال إخوة يوسف وقد أقبلوا على من ينادونهم ويتهمونهم بالسرقة ماذا ضاع منكم حتى اتهمتمونا بسرقته ؟

٧٢ ـ (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) :

أى قال هؤلاء المنادون نفقد سقاية الملك الثمينة التى يشرب بها ، ويطلق عليها صواعَ .

(وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) :

أى وقال من آذنهم وأعلمهم بأنهم سارقون ـ تلطفا معهم ومنعا لإحراجهم بتفتيش جهازهم ، وإثبات السرقة عليهم ـ قال لهم ـ : سيكون لمن جاء بصواع الملك من تلقاء نفسه قبل التفتيش حمل بعير من الطعام مكافأةً له على إظهاره ، فربما وجد فى رحالهم اتفاقا من غير قصد ، فلذا يكافأُ من جاء به وعثر عليه ، وأكد المنادى تحقيق هذا الوعد بقوله وأنا بتحقيقه زعيم أى ضمين وكفيل.

(قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾)

التفسير

٧٣ – (قَالُوا تَا للهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) :

تالله بمعنى والله ، وتختص التاء بالدخول على لفظ الجلالة على الأرجح ، ويُقْسَمُ بهذا القسم عند التعجب .

والمعنى : وحق الله لقد عرفتم من استقامتنا فى المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتَّصَوُّن ، أننا ما جئنا لكى نفسد فى الأرض بسرقة أو غيرها ، بل جئنا للحصول على الطعام ، وماكنا من قبل سارقين ، فما حدثت منا سرقة فى حياتنا ولا وصفنا بها فكيف يستقيم وصفكم لنا بسرقة صواع الملك ؟

٧٤ – (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ) :

قال عمال الملك لإخوة يوسف فما جزاءُ سرقة صواع الملك فى شريعتكم ، إن كنتم كاذبين فى دعواكم أن الصواع ليس فى أوعيتكم .

٧٥ - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) :

أى قال إخوة يوسف جزاءُ الصواع المفقود فى شريعتنا أخذ من وجد فى رحله ، واسترقاقه فكذا يعاقب السارق عندنا وهذا جزؤه ، ثم أكدوا هذا الحكم مرة أخرى بقولهم :

(كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا الجزاء نجزى الظالمين بالسرقة فى شريعتنا ، يقولون ذلك ثقة ببراءتهم منها ، وهم غافلون عما دُبِّر لهم .

٧٦ - (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ) :

فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق بنيامين ، لِنَفْيِ التهمة فى أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، فإنهم حينئذ يقولون إنه جعلنا نطلبه من أبيه ليفتعل هذه التهمة لأمر يريده لم ينكشف لنا بعد ، فلهذا أبقاه بعدهم ، ولينسيهم فرحهم ببراءتهم أولا ، ماحدث لأخيهم من أبيهم أخيرا ، بل وليدفعهم ذلك إلى قالة السوء فيه وفى يوسف وهو قولهم : « إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ » وسيأتى الكلام فى بيانه .

(كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) :

أى مثل ذلك الكيد المحكم حيث أرشدنا الإخوة إلى الإفتاء باسترقاق من وجد فى رحله ، مثل ذلك الكيد كدنا لأجل يوسف أى دبرنا له المقدمات لكى يحصل بها على غرضه ، وتلك المقدمات هى دس الصواع فى رحالهم وما تلاه حتى آل الأمر إلى تحقيق ما أراده من بقاء بنيامين معه .

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) :

هذا تعليل لما قبله ، أى كدنا ليوسف بهذه الطريقة ، لأنه ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه فيما يدين به الملك فى أمر السارق أى فى حكمه وقضائه الذى يَدِينُ به هو وشعبه ، فإنه لم يكن جزاءُ السارق فيه الاسترقاق ، بل عقوبة أخرى كالضرب والتغريم ، فلهذا جعله يحتكم إلى شريعتهم حتى يستبقيه لديه .

(إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ) :

أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك فى حال من الأحوال إلا فى حالة مشيئة الله هذا الكيد والتدبير ، فإن دين الملك حينئذ يقره مادام السارق يدين به ويعتقده ، لأنه يحقق له من الجزاء أكثر مما عنده فى قوانينه ، ولهذا وافقهم على فتواهم وأبقاه عنده .

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) :

أى نرفع درجاتٍ عالية من العلم والحكمة فى التصرف من نشاءُ من عبادنا كما رفعنا يوسف ، وماكان ليصل إلى ماوصل إليه لولا تدبير الله وتهيئته أسبابه ، فإنه فوق كل صاحب علمٍ من الخلق عليم لا غاية لعلمه وهو الله تعالى ، ولولا إرشاده وتعليمه لما وصل ذو علم إلى علمه .

(* قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(شَرٌّ مَّكَانًا) : أسوأُ مكانة ومنزلة .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) : والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون منْ صدور السرقة عن أخيه .

التفسير

٧٧ـ (قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) :

تقدم الحديث عن وضع صواع الملك الثمين فى رحل بنيامين سرًّا ، وأن رجال يوسف اتهموا إخوته بسرقة الصواع قائلين لهم : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » . فلما نفوا

عن أنفسهم هذه التهمة سألوهم عن حكم سارقه فى شريعتهم إن ظهر كذبهم .

« قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ». فبحث يوسف فى أوعيتهم قبل وعاء شقيقه بنيامين ، ثم استخرجه من وعائه . وبهذه الحيلة استطاع إبقاء أخيه معه وهم لا يشعرون أن هذه القصة مصنوعة لتحقيق هذا الغرض ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لبيان الأحداث التى تلت ذلك،والمعنى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء إن يسرق بنيامين فقد سرق أخ شقيق له من قبله ، يقولون ذلك تبرئة لأنفسهم من وصمة السرقة ، مُدَّعين أن خلق السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه أخ شقيق أكبر منه — يعنون يوسف عليه السلام — وأنهم برآءُ من هذا الخلق لأن الأُم مختلفة وماَدَرَوْا أن يوسف الذى اتهموه زُورًا يسمع كلامهم ويعرف أنهم كاذبون .

واختلف فيما نسبوه إلى يوسف، ومن أظهر ما قيل فيه ما أخرجه ابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآية : «سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ،فعيره إخوته بذلك» ويرى الحسن أنهم كذبوا على يوسف فيما نسبوه إليه ،ولعله لا تنافى بين هذا وما روى عن ابن عباس إن صح فإن من أخذ الصنم لكى يحطمه لا يعتبر سارقا شرعا ،فيكون وصفهم له بالسرقة كذبا ، لأنه مخالف للشرائع ، ويكونون بذلك كاذبين على يوسف .

(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) :

أى فأخفى يوسف فى نفسه هذه الفرية التى افتروها عليه ، ولم يظهرها لهم أنها فرية . كتمانا لأمره حتى يفاجئوا فى نهاية القصة بما آل إليه أمره فى الملك فيندموا على ما فرط منهم فى حقه . ولكن قال فى نفسه عنهم : أنتم أسوأ منى منزلة فى السرقة ،وأقوى فى الاتِّصَافِ بهذا الوصف ،حيث سرقتمونى من أبى وألقيتمونى فى الجب،ولولا رحمة ربى لكنت من الهالكين ، أما أنا فلم أسرق ولكننى حطمت الصنم وألقيته على الطريق .

وقال بعض المفسرين : إن الذى أسرَّه يوسف فى نفسه ولم يبده لإخوته هو قوله : ـ (أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ): فهذه الجملة تفسير للضمير فى قوله : « فَأَسَرَّهَا ». وبه قال الزجاج .

ثم أتمَّ يوسف كلامه الذى أسرَّه فى نفسه فقال :

(وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) :

أى والله أعلم بحقيقة ما تقولون وصفا لى ولأخى من أنه سرق وأننى سرقت قبله فكلانا برىءٌ من السرقة كما يعلم الله تعالى .

(قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾)

المفـردات :

(مَعَاذَ اللهِ) : المعاذ والعياذ والعوذ بمعنى الالتجاء . وقد يقصد منها التبرؤ كما هنا. فمعاذ الله هنا بمعنى نبرأ إلى الله .

(مَتَاعَنَا) : المتاع ماينتفع به إلى حين ، والمقصود منه هنا صواع الملك .

التفسير

٧٨ ـ (قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شيْخًا كَبِيرًا . .) الآية.

أى قال إخوة يوسف حينما رأَوا أن يوسف سيستبقى بنيامين عنده طبقًا لفتواهم ، قالوا له مستعطفين : يأَيها العزيز إن لبنيامين أباً شيخًا طاعنا فى السن لا يستطيع فراقه ، وهو سلواه عن شقيقه المفقود ، فخذ أَحدنا بدلا منه ، فلسنا عنده بمنزلته من المحبة .

إنا نراك من المحسنين إلينا ، فأتْممْ إحسانك علينا ، أو نراك ممَّن عادتهم الإحسان ، فلا تغير عادتك معنا ، فنحن أحق الناس بذلك ، نظرا لحال أبيه والتزامنا أن نرده إليه !

وهم حين عرضوا عليه أن يسْتَرِقَّ أحدهم مكانه لايرون أن ذلك مشروع عندهم ، فإنَّه لا يؤاخذ بالذنب سوى صاحبه ، ولكنهم يقولون ذلك مبالغة فى استنزاله عن أخذ بنيامين .

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أن نَّأْخُذَ إلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إنَّا إذًا لَّظَالِمُونَ) :

قال يوسف : نعوذ بالله ونبرأُ إليه من أن نأْخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده بموجب فتواكم طبقا لشرعكم ، فلا نحب الإخلال بها ، إنا إذا أخذنا غيره ولو يرضاه لظالمون فى مذهبكم وشريعتكم ونحن لا نحب ذلك .

والتعبير بضمير المعظم نفسه (إنَّا إذًا لَّظَالِمونَ) بدلا من ضمير المفرد - إنِّى إذًا لَظَالِم - جرى على سنن الملوك .

(فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ) : يئسوا منه أشد اليأس. (خَلَصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أى متسارّين ، والنَّجِيُّ من تتحدث معه سِرًّا واحدًا أو أكثر ، والنجوى السر .
(الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) : هى مصر والمراد بها أهلها. (وَالْعِيرَ): وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) :

أى فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما طلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم: «مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعوَّذ بالله من حصوله - فلما يئسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحادثين سِرًّا فى طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم؟ وماذا يكون وقعها عليه؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه فى فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ) :

قال كبيرهم فى السن أو فى المنزلة حين رآهم مجمعين على أن يعودوا جميعًا دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدا وثيقًا من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لنرجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، أو لم تعلموا مِنْ قَبْلُ - أى من قبل بنيامين - تفريطكمْ وتقصيرَكُم فى شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا فى حقه عهدكم مع أبيكم ، إذْ قلتم له مرة : «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» . وأخرى : «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» . فكيف نعود إليه بعد كل هذا ؟

(فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي) :

فبعد كل هذا لن أُفارق أرض مصر حتى يأْذن لى أبى بالعودة إليه ، أو يحكم الله لى بالخروج منها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق ، أو بخلاص أخى بسبب من الأسباب.

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) : لأَنه لا يحكم إلا بالحق والعدل.

ثم وصل الكبير كلامه بقوله :

٨١ - (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) :

أى عودوا إلى والدكم يعقوب فحدثوه بما وقع ، قولوا له يا أبانا إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه فى رحله ، فأَخذه وزير العزيز طبقا لشريعتنا وكان قد استفتانا قبل أن نعلم الأُمور ويتبين لنا الحال ، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من وجود الصواع فى رحله ، وما كنا لما غاب من أمره عالمين ، فلذا أعطيناك المواثيق فاعذرنا ، فإن الذنب ليس ذنبنا .

ثمَّ أشار عليهم بما ظن أنه يحمل أباهم على التصديق فقال :

٨٢ - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) :

أى وأَرْسِلْ إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كُنَّا معهم فيها واسأَلهم عن ذلك ، واسأَل القافلة التى كُنَّا فيها ، فإن القصة شائعة فيهم ومعروفة لديهم ، ثم ختم الكبير كلامه لإخوته بجملة يؤكدون لأَبيهم بها أنهم صادقون فقال : (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) : فلا نخاف سؤالهم - قيل إن أصحاب العير كانوا من الكنعانيين ، وكانوا جيران يعقوب عليه السلام .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(سَوَّلَتْ) : زينت وسهّلت. (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :هو الذى لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد . (يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :الألف فى « أَسَفَى » بدلا من ياء المتكلم للتخفيف والأصل ياأسفِى بكسر الفاء ، والأسف أشد الحزن على مافات. (فَهُوَ كَظِيمٌ) : فهو مملوءُ القلب غيظا ،لكنه لا يظهر ،وقيل مملوءُ القلب حزنا ممسك له لا يبديه من كَظَمَ السِّقَاءَ إذا شدَّه بَعْد ملئه ، فَهُوَ فَعِيل بمعنى مفعول. (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) :أصابتها غشاوة بيضاءُ .

التفسير

٨٣ـ (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

طوى القرآن من القصة ماليس بحاجة إلى التصريح ،وبيان ذلك أن هذا القول من يعقوب رَدٌّ به على أولاده بعد عودتهم إلى أرض الشام وإخباره بالقصة على نحو ما أوصاهم به كبيرهم .

والمعنى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، وأخبروا أباهم بالقصة على نحو ما وصَّاهم به كبيرهم-قال يعقوب متهما لهم : ليس الأمر كما زعمتم ،بل زينت لكم أنفسكم أمرا فى شأنه لتتخلصوا منه ففعلتم مازينته لكم أنفسكم ،فصبر جميل على مافعلتم أحق بى .

واعلم أنهم لم يخبروا أباهم فى شأن بنيامين إلا بما ظهر لهم ، وأنهم لم تسول لهم نفوسهم فى شأنه أمرًا ــ كما قال أبوهم يعقوب عليه السلام ــ فكيف قال لهم ماقال؟ !

أجاب ابن المنيِّر عن هذا السؤال بقوله :إنهم كانوا عند أبيهم متهمين لما أسلفوه فى حق يوسف، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها وهى أخذ الملك له فى السرقة ،ولم يكن ذلك فى دين ملك مصر ،ولا فى دين غيره ،وإنما كان ذلك فى شرع يعقوب الذى يدين به أولاده ، فظن أنهم هم الذين أفتوه بذلك عمدا بعد ظهور السرقة التى ذكروها ، ليتخلف بنيامين دونهم. ا هـ . هذا تلخيص ما حكاه الآلوسى عن ابن المنير فى جواب هذا السؤال .

(عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

لم يفقد يعقوب الأمل فى رحمة الله ، ولم يقطع الرجاء فى عودة يوسف وبنيامين إليه فلذا قال عقب اتهامه لأولاده فى شأن بنيامين : عسى الله أن يأتينى بأولادى جميعا يوسف وبنيامين ،وابنى الكبير الذى تخلف فى مصر حتى آذن له بالعودة أو يحكم الله له . وأكد رجاءه فى الله بقوله : (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) : إنه هو الواسع العلم الذى يبتلى بحكمة ويرفع البلاء بحكمة وهو أرحم الراحمين ، هذا وقد قيل إن مبعث الرجاء عنده تلك الرؤيا التى رآها يوسف فى صغره « إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ». فكان ينتظر تحقيقها ، ويحسن ظنه بالله تعالى . وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدَّة المستحكمة فرجاً ، وبعد العسر يُسْرًا .

٨٤ - (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :

وأعرض عن أولاده كراهة لما سمعه منهم، وقال: يا أشد الحزن والأسف على يوسف تَعالَ إلىَّ ، فقد تجدد ما يدعونى إلى استدعائك ،قالوا :وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث الجديد هو مصيبة بنيامين وابنه الكبير الذى تخلف لأجله ،لأن مصيبة يوسف كانت أساس حزنه ،وحبه كان آخذاً بمجامع قلبه ،ولأنه كان واثقا بحياة ولديه بمصر ، طامعا فى عودتهما إليه ، أما يوسف فلم تكن عنده بارقة أمل إلا فى رحمة الله تعالى .

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) :

وابيضت عينا يعقوب بسبب الحزن وما كان يسببه له من دوام البكاء ، فهو مملوءٌ من الحزن على أولاده الغائبين ،ومملوءٌ من الغيظ من أولاده الحاضرين ،وكان عماه هذا موقتا إن صح القول به ،وكان بعد أن بلَّغ دعوة ربه ،فلا يقال :إنه من الأمراض المانعة من التكليف بالرسالة . ومن العلماء من قال :إن أمره لم يصل إلى حد العمى .فقد كان يرى إلى حدٍّ ما .

فَإِنْ قِيل كيف يكون نبيًّا ويبلغ به الحزن إلى هذا الحد؟قلنا أُجيب عن ذلك بعدَّةِ أَجْوبة ، خَيْرُهَا :أَنَّ الحزن ليس محظورًا ، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب والكلام بما لا ينبغي . فقد روى الشيخان من حديثِ أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : « إنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ وَلَا نَقُولُ إِلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » .

وقد بين الله شدة حزن يعقوب بقوله : (فَهُوَ كَظِيمٌ):أى مملوءٌ من الحزن ممسك عليه لا يبثه.

ومِمَّا شَدَّد عليه الحزن حتى امتلأ ، ما روى عن ابن عباس أنه كان يعلم أن يوسف حَيٌّ ولا يدرى أين هو ؟ انظر القرطبي والآلوسي .

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات :

(تَاللهِ) : أى والله،فالتاء حرف يستعمل فى القسم بالله خاصة .

(تَفْتَأُ) : أى مازلت .

قال الكسائي : فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أى مازلتُ ، وقال الفراء : إن الكلام هنا بتقدير

(لا) أى: (لاَ تَفْتَأُ) . وكثيرًا ماتضمر (لا) فى جواب القسم كمافى قول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطَّعوا رأسِى لديكِ وأوصالى

أى بحق الله لاأبرح ،وهو رأى الخليل وسيبويه ،وعلَّلُوا جواز ذلك بأنه لايلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَا لله لأفعلنّ كذا .

(حَرَضًا) : الحرض لُغَةً فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم كما قال أبو عبيد وغيره.

(بَثِّى) : البث المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير

٨٥ـ (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالكِينَ) :

أى قال أولاد يعقوب لما سمعوه يردد الأسف على يوسف بعد فجيعته فى بنيامين دون أن يذكر فى أسفه بنيامين ـ قالوا له :والله ياأبانا لا تبرح تتذكر يوسف بعد مضى هذه السنين الكثيرة على فقده ، وتبدى أشد الحزن وأغزر البكاء عليه ،حتى تشرف على الهلاك أو تكون من الهالكين حقيقة فخفف على نفسك ولا تتلفها بالهم والأسى !

٨٦ـ (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ) :

قال يعقوب مجيبًا أولاده عقب لومهم إياه على حزنه الذى طال أمده بعد فقده يوسف: ـ قال يعقوب لهم ـ ما أشكو مصيبتى التى لا أستطيع إخفاءها ، ولا أشكو حزنى لأحد إلا إلى الله فهو القادر على كشف الضر ، وأتبع يعقوب كلامه هذا بما يفيد أمله فى رحمة الله فقال :

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) :

وأعلم من شأن الله ورحمته مالا تعلمون ، فقد كان يحس بوجدانه النبوى الصادق وبما قام لديه من الأمارات أن يوسف حى لم يمت وأنه وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس ، وأن شمل الأسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف .

وأول الشواهد على ذلك : رؤيا يوسف التى رآها فى صباه ؛ لقد رأى أحد عشر كوكبًا ، ورأى الشمس والقمر ، رأى هؤلاء جميعًا له ساجدين ، فلما سمع يعقوب من يوسف هذه الرؤيا الصادقة أدرك أنها ستتحقق ، وأوصاه أن يكتمها عن إخوته حتى لا يكيدوا له .

وثانى هذه الشواهد : هذا القميص الذى جاءوا به ملوثًا بالدم ، زاعمين أن الذئب أكله وأن الذى تلوث به القميص دمه ، وكان القميص بغير تمزق ، فأدرك أن قصة الذئب مخترعة مصنوعة إذ لو أكله لمزّق قميصه . ولذا كذبهم فقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

وثالث هذه الأمارات : ماأخبره به أولاده من سيرة عزيز مصر نحوهم وعطفه عليهم ، وضيافته لهم ، فأحسَّ أنهم يتحدثون عن أمله المنشود ولذلك قال لهم :

(يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(فَتَحَسَّسُوا) : التحسس ؛ طلب معرفة الشيء بالحواس .

(وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ) : ولا تقنطوا من رحمته التى يحيى بها العباد .

التفسير

٨٧ - (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...) الآية .

أى يا بنىَّ ارجعوا إلى مصر حيث ينتظركم أخوكم الكبير فتعرَّفوا جميعًا من أخبار يوسف وأخيه ، وابحثوا عنهما بكل قواكم جادّين دائبين ، ولاتقنطوا من رحمة الله التى وسعت كل شىء ، إنه لايقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون ، لجهلهم به وبصفاته ، وأما العالمون به فلا يقنطون بحال .

واستدل بالآية جمع من العلماء على أن اليأس من رحمة الله كفر !

والجمهور على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر ، اللهم إلا إذا اقترن بمايدل على نسبته سبحانه إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب ،وأيًّا ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار ، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى .

ووصية يعقوب عليه السلام لبنيه فى الآية الكريمة درس من دروس النبوّة فى شحذ الهمم وتربية العزائم .

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ) : المراد من البضاعة هنا :الثمن والمزجاة المدفوعة التى يردها من يراها لرداءتها من أزجيته إذا دفعته ، والريح تزجى السحاب :تسوقه وتدفعه . وقال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة اهـ . ومن معانيها القليلة كما ذكره صاحب القاموس . ولعل هذا المعنى هو المراد هنا .

التفسير

٨٨ـ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . . ﴾الآية .

أى فلما دخلوا على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر امتثالًا لأمر أبيهم! وإنما لم يذكر هذا المطوىّ إيذانًا بمسارعتهم إلى الامتثال ، وإشعارًا بأن هذا أمر محقق لايفتقر إلى الذكر والبيان . وهذه هى المرة الثالثة من ذهابهم إلى مصر .

﴿ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ : خاطبوه بذلك تعظيمًا على حد خطابهم السابق ، والمراد ـ كما قال الفخر الرازى وغيره ـ يأيها الملك القادر المنيع .

﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ : أى الهزال من شدة الجوع ـ والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ : قليلة القيمة . لا تصلح أن تكون ثمنًا للطعام الذى نريده ، قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب . صوفًا وسمنًا . ونحوهما . وإنما قالوا ذلك ليكون باعثًا على الشفقة والرأفة وتحريك عاطفة الرحمة . وتمهيدًا لقولهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ : أى أتممه لنا كعادتك .

﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ : برد أخينا إلينا وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم . وإنَّما سمَّوه تصدقًا ـ قصدًا إلى استعطافه!

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ : بما هم أهله . بل بما هو ـ تبارك وتعالى ـ أهله : بإخلاف ما ينفقونه . وإثابتهم بما هو خير منه فى الآخرة والأولى .

٨٩ـ ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . .. ﴾ :

أى قال يوسف عليه السلام مُجيبًا لإخوته وقد هزَّه استعطافهم ، وأخذته الشفقة عليهم : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون بقبحه فلذا أقدمتم عليه. أو جاهلون عاقبته ! ! ـ قال ذلك نُصْحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفقةً عليهم لما رأى عجزهم ،

ومسكنتهم ، لا معاتبةً لهم وتثريبًا[١] . . . إيثارًا لحق الله تعالى على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ويتشفى فيه المغيظ المحنق. فلله تعالى هذا الخلق النبوى الكريم .

٩٠ـ (قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. .) الآية .

هذا استفهام تقريرى ولذا أكَّدوه بإن واللام . قالوه استغرابًا وتعجبًا وفرحًا بنجاح تحسسهم الذى وصاهم أبوهم به . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) : جوابًا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله :

(وَهَذَا أَخِي) : ـ أى أخى من أبوىَّ ـ مبالغة فى تعريفهم بنفسه . وتفخيما لشأن أخيه ؛ وتحدُّثًا بنعمة الله عليهما قال :

(قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : بالخلاص مما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة .والعزة بعد الذلة والأُنس بعد الوحشة ، ثم علل ذلك بقوله : (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ) : الله فى جميع أحواله . (وَيَصْبِرْ) : على أداء طاعاته وتجنب معاصيه .

(فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) : أى فإن الله لا يضيع أجرهم ، وعبر عنهم بالمحسنين ، ليشير بذلك إلى أن أهل التقوى والصبر هم أهل الإحسان .وهم الأحقاء بجزاء الله العظيم وإحسانه ورحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »[٢] . وقال تعالى : « إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[٣] .

---

(١) التثريب : اللوم .

(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣))

المفردات :

(تَاللهِ) : أى والله . وتقدم قريبًا أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

(آثَرَكَ) : اختارك وفضَّلك .

(لَخَاطِئِينَ) : لمذنبين متعمدين .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : لا لوم عليكم ولا تأنيب ؛ يقال ثَرَبه يَثْرِبه وثَرَّبه إذا بكَّته بفعله وعدَّد عليه ذنوبه .

التفسير

٩١ ـ (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) :

أى قال إخوة يوسف تصديقًا له عليه السلام واعترافًا بخطيئتهم : والله لقد اختارك الله وقدَّمك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة التى أنعم الله بها عليك . وإن الشأن والأمر الذى لاريب فيه أننا كنا مذنبين متعمدين . إذْ فعلنا ما فعلنا ، وفرقنا بينك وبين أخيك ! !

ولقد أكدوا قولهم هذا بعدّة تأكيدات إشعارًا بالتوبة والندم على ما كان منهم ، وانتظارًا للصفح عنهم . . وهو ما حكاه الله بقوله :

٩٢ ـ (قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) :

أى لا لوم عليكم ولا تأنيب فى هذا اليوم الذى هو مظنة للمؤاخذة والمعاتبة فما ظنكم

بالأيام التى بعده ؟ ! عفا عنهم عليه السلام عفوًا لا مؤاخذة معه وهذا هو الصفح الجميل ؛ ثم دعا لهم بمغفرة الله تعالى فقال :

(يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) : لأن كل رحمة من غيره سبحانه وإن عظمت فهى مستمدة من رحمته .

وفى ختام دعائه بقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) إشارة إلى وثوقه بإجابة دعائه لأنه عفا عنهم ، فالله تبارك وتعالى أولى منه بالعفو عنهم والرحمة لهم ! والذى أشرنا إليه من الوقف على « اليوم » وأن الجملة بعده دعائية مستأنفة هو اختيار الطبرىّ وابن إسحق وغيرهم . قال الآلوسى : وهو الذى يميل إليه الذوق .

ويجوز الوقف على قوله : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : والاستئناف بقوله : (الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) : والمعنى فى هذا اليوم العظيم يغفر الله لكم ويرحمكم وهو أرحم الراحمين . وقد استشهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى عفوه عن قريش بما حدث من يوسف مع إخوته . إذ قال فى خطبته يوم الفتح الأعظم : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ ! قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ » .

٩٣ - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) :

عَلِمَ يوسف عليه السلام بطريق الوحى أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد — فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه حينئذ فيلقوه على وجه أبيه فتتم البشارة بعود بصره كما كان أو أحسن مما كان ، وفى قوله : (وَجْهِ أَبِى) دون أبيكم لطيفة يوسفية لا تخفى على ذى فطنة إنها تشير فيما تشير إلى أن الحنان الأبوى الذى فقدوه فى غيبة يوسف سيعود إليهم جميعًا بسببه فى لَمِّ الشمل واكتمال الأهل كما أشرنا إلى ذلك آنفًا فى تفسير قوله تعالى حكايةً عن أبيهم عليه السلام : « وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

وقوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) : جواب الأمر أى يَصِرْ بصيرًا .

(وَأْتونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) : المراد بأهلهم نساؤهم وذراريهم والعاملون معهم من خدمهم ، دعاهم للإقامة فى جواره آمنين .

ولم يذكر الإتيان بأبيه لا لكونه داخلا فى الأهل ؛ فإنه يجل عن التبعية بل ليتفادى أمر الإخوة أن يأتوا بأبيهم لأن فيه نوع إجبار على مَنْ يؤتى به فهو عليه السلام موكول إلى اختياره ومحبته وشوقه ، ولا شك أن هذا من أدب النُّبُوَّةِ والبُنُوَّةِ مَعًا !

(وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(فَصَلَتِ الْعِيرُ) : خرجت القافلة ؛ يقال فصل من البلد يفصل فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه . (تُفَنِّدُونِ) : تنسبونى إلى الفَنَد وهو الخرفُ وفساد العقل من الْهَرَم والشيخوخة ، وفى معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسَفِّهون . (ضَلَالِكَ) : ذهابك عن الصواب وبعدك عنه.

التفسير

٩٤ ـ (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ) :

ولما خرجت قافلة بنى يعقوب من عريش مصر أو حدودها قاصدة مكان يعقوب عليه السلام ، وكان قريبًا من بيت المقدس ، (قَالَ أَبُوهُمْ) : لمن كان بِحَضْرَتِهِ من ذوى قرابته ، (إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) : أى إنِّى لأَشُمُّ ريح يوسف .

أوجد الله سبحانه ما عَبِقَ بالقميص[1] من ريح يوسف فى نفحة طيبة هبت على يعقوب فَعَرَف ريحه وبينهما مسافاتٌ بعيدة .

(لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ) : أى لولا تفنيدكم إيَّاىَ بنسبتى إلى الخرف من الشيخوخة لصدقتمونى فى أننى أجد ريح يوسف حقيقة غير متوهم ولا مخطئ .

قال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طَرْفُه - انظر القرطبى ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك فى التفسير .

٩٥ - (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) : أى قال الحاضرون عنده وقتئذ والله إنك لا تزال تعيش فى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف والإكثار من ذكره وتوقع لقائه ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

(فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦))

التفسير

٩٦ - (فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) :

أى فلما جاء البشير الذى حمل قميص يوسف من بنى يعقوب ، ألقى القميص على وجهه امتثالاً لأمر يوسف ، فعاد يعقوب بصيرًا تام البصر كما كان أو خيرًا مما كان ، لمجرد إلقاء القميص على وجهه ، قيل : إن هذا البشير هو الذى حمل القميص الملطخ بالدم الكذب

(١) عَبِقَ بالقميص : أى لصق به .

بعد إلقاء يوسف فى البئر ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إلى أبي بقميص الترحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة ، أراد أن يمحو السيئة بالحسنة.

فتركوه يتقدمهم استعجالا بنعمة البشارة ، وهم على أثره ، وحكى السُّدِّىُّ أنه يهوذا ، وأنه قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب ، وأنا الذى أحمله إليه الآن لأسره وليعود إليه بصره ـ والله أعلم .

والظاهر أن يوسف عليه السلام علم بالوحى أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره بإذن الله تعالى .

وقيل : إن يوسف لما علم أن أباه عرا بصره ماعراه من كثرة البكاء عليه بعث إليه قميصه ليجد ريحه ، فيزول بكاؤه ويفرح قلبه فرحًا شديدا فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر ، بل يقوى الروح والبدن كلاهما ، ولاعجب ، فللسرور والفرح بإذن الله آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

(قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) : هذا خطاب لبنيه القادمين وفى مقدمتهم البشير ، يذكرهم ـ وقد عاد بنعمة الله بصيرا ـ بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن ، وهو أنه يعلم من أمر يوسف وحياته مالا يعلمون ، وكان هذا العلم إلهاما من الله عز وجل وطمأنَةً منه على أن يوسف لايزال حيا ، أما بكاؤه عليه فهو بكاءُ شفقة وحرمان من رؤيته يأسا من حياته ، ولهذا قال لبنيه : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيه وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله . . . » الآية .

(قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾)

التفسير

٩٧ـ (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) :

طلبوا منه عليه السلام أن يستغفر لهم ، ونادَوه بعنوان الأُبُوَّة تحريكا للعطف والشفقة ؛ وعلَّلُوا ذلك بقولهم :

(إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) : مذنبين متعمدين ، يرجون بذلك الاعتراف أن يصفح عنهم وَيستَغْفِرَ لَهُمْ فإن من اعترف لأبيه بذنبه نادما ، كان أدنى إلى عفوه واستغفاره الله له .

قال القرطبي : وإنما سألوه المغفرة لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله . وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه . أو ماله أو غير ذلك ظالما له ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها . ثم قال : وفى صحيح البخارى وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عِرْضِه أو شيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولادرهم . إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بقدر مظلمته [1] وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فَحُمِلَ عليه » . ــ انظر القرطبي . والمراد بتحلُّلِه منه اليوم أن يستبرئ منه ذمته فى الدنيا .

٩٨ ـ (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى) :

اعترفوا لأبيهم بذنوبهم كما اعترفوا لأخيهم بها ولكن أخاهم بادر بالاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ؛ وأما أبوهم فوعدهم باستغفار ربه لهم فى المستقبل ، وختم وعده بهذه الجملة المؤكدة بعدَّة تأكيدات فقال :

---

(١) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : وبذلك تم الجوابان الحكيمان ؛ جواب الصديق وجواب أبيه ـ عليهما السلام ـ على اعترافات إخوة يوسف بالذنب ، وقد عرف من جواب الصديق أنه عفا عنهم فورًا وعرف من جواب أبيه أنه وعد بالاستغفار لهم ، ولم يعجل بالعفو عنهم ، وعن السر فى ذلك الاختلاف أجاب السيد محمد رشيد رضا فى تفسيره الخاص بسورة يوسف بما خلاصته : أنَّ حال يوسف مع إخوته هى حال الحاكم القادر ، بل الملك القاهر مع المسىء إليه الضعيف لديه ، الذى كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها ، فتبرع أخوهم بغفرانها تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرًا عليه . وتعجيلا لهم بسرور الحياة التى جعل الله أزمتها فى يديه ، فكان المثل الأعلى فى حسن الأُسوة ، وما ينبغى أن يكون عليه الإخوة ، وأما حال أبيهم معهم فإنها حال المربى المرشد للمذنب الذى لايخشى منه انتقاما ، وليس من حسن التربية أن يُرِيَهُم أن ذنبهم هيِّنٌ لديه ، فليس بينهم وبين غفرانه لهم إلا كلمة يقولونها بألسنتهم ، على أن ذنبهم كان موجها إليه وإلى يوسف وأخيه ، فمن العدل أن يكون استغفاره لهم ، بعد علمه بحالهم مع أخويهم ولم يكن على علم بعفو يوسف عنهم .

ثم إن ذنوبهم من الذنوب العِظام التى طال عليها الأمد ، والتى لاتغفر ـ بحسب شرع الله وسنته ـ إلاَّ بتوبة نصوح تجدد حياتهم . اه ماقاله السيد رشيد ملخصا هذا ، وقد رُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يعقوب عليه السلام أَخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَرَ لأَن الدعاء فيه مستجاب ، وروى عنه أيضا أنه أَخَّرَه إلى ليلة الجمعة ، وفى رواية عن طاووس سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك فى حديث طويل رواه الترمذى وحسَّنَه عن ابن عباس برفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : ضمهما إليه .

التفسير

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . .) الآية .

هُنا كلام مطوى دل عليه السياق ومعناه ؛ أنَّ إخوة يوسف بَلَّغوا أباهم وسائر أهلهم أن يأتوا إليه جميعا ليقيموا معه استجابة لطلبه ، وأخبروهم بمكانة يوسف ومنزلته فى مصر ، وأنه الحاكم المفوض فيها من قبل الملك . لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر حتى بلغوا مقرَّ الملك .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ) : استقبلهم استقبالا كريما بدأه بأن :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : أباه وأمه ، وكانت على قيد الحياة كما هو ظاهر القرآن الكريم - وقيل إنها ماتت وهذه أختها . وكان أبوه قد تزوجها بعد وفاة أمه . والخالة بمنزلة الأُم . كما أن العم بمنزلة الأب ، ولكننا نرجح الظاهر من النص ، لأنه لم يثبت لدينا مايخالفه . والمراد من إيوائهما إليه أنه جمعهما معه فى قصره الخاص به ، تكرمةً لهما ومبالغةً فى البرِّ بهما . وقال لهما ولسائر أهله :

(ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) : أمناً عامًّا شاملا ، على أنفسكم ومواشيكم من الجوع والخوف وسائر المكاره . ولعل سنى القحط لم تكن انتهت بعدُ . ولاغرابة فى هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ، فهو كريم من سلالة رسل كرام[1] .

---

(١) روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ومعنى قوله عليه السلام : «ادْخُلُوا مِصْرَ» وهم قد دخلوها ـ معناه : أقيموا فيها كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وكأن الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها .

وقيل إن يوسف عليه السلام لما علم باقترابهم خرج يتلقاهم فى موكب عظيم ، وضرب مضربا على مقربة من حدود مصر للنزول فيه ، وفى هذا المنزل آوى إليه أبويه . وقال لهما ولبقية الركب : «ادْخُلُوا مِصْرَ إن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ» . وتعليق دخولهم آمنين ، بالمشيئة الإلهية للتيمن والتبرك ، وللتبرؤ من حوله عليه السلام ومشيئته وقوته ، إلى حول الله تبارك وتعالى ومشيئته وقوته وفضله العظيم .

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(الْعَرْش) : سرير الملك . (الْبَدْو) : البادية . وأصل البدو المبسوط من الأرض ، سُمِّى بذلك لأن مافيه يبدو للناظر لعدم مايواريه .

(نَزَغَ) : أفسد وأغرى . وأصله من نزغ الرائض الدابةَ ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير

استقبل يوسف أبويه وأهله بعد غيبة طويلة حدثت فيها تلك الأحداث التى مر بيانها فى السورة الكريمة .

١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) : وخَصَّ أبويه بمزيد من التّجلة والإكرام ، فأجلسهما على سريره الذى يجلس عليه لتدبير الملك إذ هو الملك صاحب السلطان فى الحقيقة .

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) : أى وخرَّ أبَوا يوسف وإخوته له خاضعين . وصورة الخضوع لم يأْتنا بها نص شرعى . فتحمل على ما كان معروفا يومئذ فى تعظيم الملوك والله تعالى أعلم .

أما القول بأَن سجودهم هذا كان لله ، وإليه سبحانه يعود الضمير فى قوله : (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) فينافيه ماجاء فى أول السورة : « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

قال القرطبى : وأَجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحيّة لا عبادة . وعلى أثر سجودهم هذا ذكّر يوسف أباه برؤياه فى صباه .

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) : أى أن هذا السجود منكما ومن إخوتى هو المآل الذى آلت إليه رؤياى التى رأيتها فى صغرى إذ « رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا) : أى أَمرًا واقعًا لاريب فيه وقد رأَيتموه الآن رأى العين . فإخوتى مثال الكواكب الأَحد عشر وأَنت وأُمى مثال الشمس والقمر .

ثم أثنى على ربه شاكرًا لأَنعمه فقال :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِى) : ربى إحسانًا عظيمًا .

(إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) : معززًا مكرمًا . إلى عرش الملك والسيادة .

(وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) : حيث كنتم تعيشون فى شظف البادية وخشونة العيش ، واضطراب الأمن ـ إلى الحضر ـ حيث تعيشون فى رغد واستقرار آمنين .

قال الزمخشرى : كانوا أهل عَمَدٍ[1] وأصحاب مواش يتنقلون فى الحياة والمناجع : ا هـ

وفى الآية إشارة إلى تفضيل الحضارة على البداوة ولم يذكر عليه السلام خروجه من الجب لئلا يُخجل إخوته بعد أن قال لهم : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم » . ثم أتم حديثه لأبيه قائلًا :

(مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وبَيْنَ إِخْوَتِي) : أى وقد أحسن بى ربى وأنعم على بهذه النعم من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث أتلف عاطفة الأخوة وقطع مودة القربى ، فأنت ترى من حديث يوسف عليه السلام أنه جعل الإغراء بالشر والقطيعة مشتركًا بين الشيطان وبين إخوته فتقع تبعته عليه وعليهم ، ليخفف بذلك شعورهم بالندم على ما اقترفوه فى حقه ، وهذا من كمال أدبه وتواضعه وكرمه .

ثم أشار إلى لطف الله وتدبيره له حتى بلَّغه هذه المنزلة فقال :

(إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) : أى لطيف التدبير لما يشاؤه ، حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه وقدَّره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال .

وهل كان يخطر بالبال أن الإلقاء فى الجب يفضى إلى السجن وأن السجن يفضى إلى العزة والملك ؟ !

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ) : بمصالح عباده . (الْحَكِيمُ) : فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره .

---

(١) أى أصحاب خيام تنصب وتقام على عمد .

(* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) : تفسير ما غمض منها . والمراد هنا تفسير الأحلام .

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سابق .

(وَلِيِّي) : ناصرى ومعينى .

التفسير

غمر الله سبحانه وتعالى يوسف بنعمه الجزيلة حيث نَجَّاه من تآمر إخوته عليه . وعصمه من السوءِ والفحشاءِ ، ورد من كيد امرأة العزيز وصواحبها . وبرأه مما اتَّهمَتْهُ به . وأخرجه من السجن عزيزًا كريمًا ، وبوأه من الملك ، وجمع بينه وبين والديه . وأصلح بينه وبين إخوته ، فاتجه إلى ربه بالحمد والثناءِ ضارعًا إليه أن يتم نعمته عليه فى الآخرة كما أتمها عليه فى الدنيا قائلًا :

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

يا إلٰهى يا من ربيتنى وكفلتنى ، وأنعمت علىَّ فوهبتنى نصيبًا وافرًا من الحكم والسلطان وعلمتنى مالم أكن أعلم من تفسير بعض الأُمور الغيبية وشرح الأَحلام الغامضة .

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) :

أَى يا خالق السموات والأَرض على غير مثال سبق ، فكانت على هذا النحو العجيب . ورفعت كل كوكب فى السماء فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم « وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . إنك متولى أمرى فى الحياة الدنيا وفى دار البقاء ، أَضرع إليك خاشعًا - داعيًا إياك :

(تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) :

أَى أَسأَلك أن تتوفانى مؤمنًا بك مخلصًا لك وأَلحقنى يارب بالصالحين من عبادك .

وفى طلب يوسف من الله سبحانه أن يلحقه بالصالحين إشارة إلى أن مرتبة الصلاح رفيعة القدر وأن طلبها لايقتصر على المؤمن العادى بل تهفو إليها نفوس الأنبياء .

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾)

المفـردات :

(أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) : أحكموا تدبيرهم .

(يَمْكُرُونَ) : يتآمرون وَيَحْتالُون .

التفسـير

ماكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أخبار يوسف ولاغيره من الأنبياء السابقين إلا بوحى من الله تعالى ، ولهذا عقب ماسبق من قصة يوسف بقوله جل من قائل :

١٠٢ ـ (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) :

أى هذا القصص تناول أحداثًا تاريخية تفصلك عنها آلافُ السنين، فهو من أخبار الغيب ، أوحيناها إليك ليعلم قومك ويعلم أهل الكتاب أنك صادق فيما ترويه عن الله وكلهم يعلمون أنك أُمى لاتقرأُ الكتاب مطلقا كما قال تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[1] » .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) :

أى وما كنت يامحمد حاضرا مع إخوة يوسف حينما أجمعوا أمرهم ، وأحكموا تدبيرهم على الكيد له عليه السلام فى خبث واحتيال ، حيث تآمروا على إلقائه فى الجب ، وادعاء أن

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨

الذئب أكله ، وإحضار قميصه لأبيه ملوثا بدم كذب ، فروايتك لتلك الأحداث شاهدة بأنك تلقيتها من العليم الخبير الذى أنزل عليك القرآن مشتملا عليها وعلى غيرها من أحداث القصة بتفصيل دقيق محكم .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن عند إخوة يوسف وهم يمكرون به ، فإنه لم يشاهد سائر أحداث القصة التى جاءت بها السورة ، ولم يكن عند ذويها وقت حدوثها . وإنما اكتفى النص بما كان من إخوة يوسف لأنه مفتاح الأحداث كلها ، فهو رمز إليها . ألا ترى أنه قد جاء عقب قوله سبحانه : (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) . أى ذلك الذى تقدم فى السورة من أحداثها .

ومع أن المفسرين قد أجمعوا على إرجاع الضمير فى (لَدَيْهِمْ) إلى إخوة يوسف لمكرهم به فإنه يمكن إرجاعه إلى جميع من مكر به ، سواءٌ كانوا إخوته أو امرأة العزيز وصاحباتها أو غيرهم .

(وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾)

التفسير

١٠٣ ـ (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) :

كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه ، وكان يرجو هدايتهم بعد سماعهم قصة يوسف الموافقة لما فى التوراة ، فلما لم يؤمنوا نزلت هذه الآية يواسى بها الله رسوله وَيُسَرِّى عنه مايقاسيه من أحزان لانصراف معظم أهل مكة عن دعوة الحق التى جاءهم بها ، وإمعانهم فى المكابرة والضلال مع ظهور آياتها وبراهينها ، فيُقَرِّرُ له سبحانه أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم ، فكأنه تعالى يقول لرسوله : وما أكثر أهل الأرض بمؤمن ولو حرصت على إيمانهم ، وبالغت فى إقامة الحجج والبراهين لهم ، فإن عقولهم تتحكم فيها أهواؤهم وتقليدهم لآبائهم .

فليس غريبا أن ترى معظم قومك « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ »[١] . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[٢] : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »[٣].

١٠٤ – (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

إنك تدعوهم إلى مافيه فلاحهم فى الدنيا والآخرة وتهديهم إلى الرشاد ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ولا تطالبهم بأجر يقدمونه إليك نظير هدايتهم وإرشادهم ، فإنما أجرك على الله وحده وما الكتاب الذى أنزله الله عليك إلا تذكرة لأصحاب العقول الراجحة والبصائر المميزة من أهل الأرض جميعا لعلهم يعتبرون ويتعظون ،وليس خاصا بأهل مكة « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ »[٤] .

(وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ) : وكم من علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر صفاته .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٣) سورة النمل ، الآية : ٨١

(٤) سورة ص ، الآية : ٨٨

(مُعْرِضُونَ) : منصرفون . (غَاشِيَةٌ) : كارثة كبرى تغمرهم .

(السَّاعَةُ) : القيامة . (بَغْتَةً) : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير

١٠٥ - (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) :

جاءت هذه الآية الكريمة لتبين أن قريشا لم تكتف بالإعراض عن القرآن الكريم ، بل يعرضون أيضا عن آيات الله الكونية الكثيرة التي بثها في آفاق السموات وأرجاء الأرض والتي تدل على وحدانية الله وسائر كمالاته ، وتستلزم إفراده تعالى بالعبادة . وكلما مروا عليها أغمضوا عيونهم وكفوا بصائرهم ، فلاهم آمنوا بالآيات القرآنية ولا تدبروا الآيات الكونية ، وإنما آثروا العمى على الهدى وفضلوا الضلال على الرشاد في عناد ولجاج .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ » [1] .

١٠٦ - (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) :

وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق . إلا وكان إيمانهم به مشوبا بالشرك ، فإذا سألتهم من خلق السموات والأرض قالوا خلقهن الله وهم مع ذلك يشركون به في العبادة .

وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » .

١٠٧ - (أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ) : أي أن هؤلاء المعرضين عن آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، يعرضون أنفسهم لغضب الله وعذابه الشديد في الدنيا والآخرة

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٥ .

فهل أمنوا أن ينتقم الله منهم فى الدنيا فيصيبهم بكارثة تغشاهم وتبيدهم : مثل الزلازل والبراكين والشهب والصواعق والأعاصير والعواصف .

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

وهل أمنوا أن تنتهى حياتهم فجأة بأن تباغتهم الساعة بأهوالها وشدائدها دون شعور بمقدمها وقبل أن يتوبوا وينيبوا إلى الله . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

« بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »[1] .

(قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سَبِيلِى) : طريقى وطريقتى .

(عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) : على يقين ناشىء من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى) :

قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين هذه هى طريقتى ومنهجى أدعو إلى عبادة الله وحده على يقين ثابت ، ناشىء عن وحى الله تعالى ، وقائم على الحجة البينة والبرهان الواضح أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

وقد استفيد من الآية الكريمة أن القادرين على الدعوة إلى الله تعالى من علماء المسلمين ينبغى أن يتحملوا نصيبهم فيها ، ويقوموا بها خير قيام ، كما قام بها أسلافهم من قبل.

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٠

(وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى وقل لهم يامحمد أُنزه الله وأُجله عن أن يكون له شريك أو نظير أَوْ وَلَدٌ أو صاحبة ولست أنا ولا أصحابى من المشركين لا شركًا خفيًّا ولا شركًا ظاهرًا . بل نعبد الله . « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[1] » .

وهذا هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾)

التفسير

١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) :

لَسْتَ - يا محمد- بدعًا من الرسل فجميع من أرسلناهم قبلك بشر لا ملائكة أوحينا إليهم شرائعنا وأَمرناهم بإبلاغها إلى أقوامهم وهم ليسوا غرباء عنهم بل هم منهم يتحدثون بأَلسنتهم كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »[2] :

فكل قوم يعرفون رسولهم وما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة حتى لا تكون لهم حجة على تكذيبه والإعراض عنه ، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البوادى ، لأَن أهل القرى فيهم عقل وحلم ، وأهل البوادى على العكس منهم .

---

(١) سورة غافر ، من الآية : ١٤

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) :

أَقَعَدَ قومك فلم يتنقلوا فى أرجاء الأرض ليروا كيف كان مصير الأمم السابقة بعد ما كذبوا رسلهم وأصروا على تكذيبهم ، كلا . فإنهم ساروا فى الأرض وعرفوا أنه تعالى أصابهم بالهلاك والتدمير والاستئصال ، وهم يمرون عليهم فى أسفارهم كما قال تعالى :

« ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(١)

فلماذا لا يتعظون بما شاهدوا .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى ولثواب الدار الآخرة للمتقين خير وأبقى من لذات الدنيا الفانية ، وشتان بين دار الفتنة والابتلاء والزوال ، ودار الخلد والبقاء والنعيم المقيم ، كما قال سبحانه : « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ »(٢)

فهلا استعملتم عقولكم فاعتبرتم بأحداث الحياة وعلمتم أن العاقبة للمتقين .

(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) : أغرقوا فى اليأس والقنوط .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) : أى رجح عندهم أن نفوسهم حدثتهم بالنصر وكانت كاذبة فى حديثها . (بَأْسُنَا) : عذابنا .

(١) الصافات ، الآية ١٣٦-١٣٧

(٢) آل عمران ، الآية ١٥

التفسير

١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بجمل مقدرة دل عليها السياق . والتقدير : لاتغترّ قريش بما هى فيه من السلام وعدم العقاب على كفرهم حتى الآن . فإن من قبلهم من الكفار قد أمهلوا . حتى إذا أيس الأنبياء المرسلون إليهم من إيمانهم لتماديهم فى الطغيان والتكذيب من غير وازع وتوهموا أن نفوسهم كذبت عليهم حين توقعت النصر على من كفر بهم وعقابهم فى الدنيا - حتى إذا حدث كل ذلك - جاءهم نصر الله فجأة فأنزل الله بهم العذاب ونجّى الله منه من يشاء إنجاءه وهم المرسلون ومن آمنوا بهم ، ولا يمنع أحد عذاب الله عن القوم الذين أجرموا بكفرهم إذا قدره عليهم ، فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم . واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

(لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١))

المفردات :

(عِبْرَةٌ) : عظة . (لِأُولِي الْأَلْبَاب) : لأصحاب العقول .

(يُفْتَرَى) : يخترع ويلفق . (بَيْنَ يَدَيْهِ) : ما تقدم عليه .

التفسير

١١١ - (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) :

انتهت قصة يوسف عليه السلام بهذه الآية الكريمة ، التى أبرزت الهدف منها ومن أمثالها ، وهو العظة والاعتبار والإيقان بأن العاقبة للمتقين ، وأن الهلاك والدمار للمجرمين وهى نهاية يدركها أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة الملهمة .

(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) :

ما صح ولا استقام عقلا أن يكون هذا القرآن الكريم حديثًا يفتريه بشر على الله فيما جاء به من قصص الأمم الخالية التى بعث الله رسله إليها ، ولا فيما جاء به من تشريعات وعقائد وأخلاق فيها صلاح أمور الدنيا والآخرة ، ولا فيما اشتمل عليه من أعلى درجات البلاغة والفصاحة فإن ذلك كله فوق طاقة الإنس والجن . « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[(١)] .

فكيف يستقيم قول المشركين فيما يحكيه الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »[(٢)] .

(وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الصادق الأمين مصدقًا للكتب السماوية التى بين يديه أى التى سبقته ، ومؤيدًا لها فيما كلفت به البشر من عقائد وطاعة للخالق جل وعلا ، وما أمرتهم به من تنزيه له عن الشريك والصاحبة والولد ، وعن كل مالا يليق به من النعوت

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥

والصفات المنافية للربوبية ، كما أنزله تفصيلا لكل شيء يحتاج إليه في شئون الدين والدنيا والآخرة ، حيث ضمنه القواعد الكلية لها ، وأحال بيانها على نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[١] . وأنزله هدى للناس من الضلال والحيرة ، وإرشادًا لهم إلى سبيل السعادة ، وأنزله رحمة لقوم يؤمنون به . ويسلكون سبيله ويهتدون بهديه .

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

سورة الرعد

أرجح الآراء أنها كلها مدنية وهى ثلاث وأربعون آية وسميت السورة بسورة الرعد إشارة إلى قوله تعالى فيها : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ »[1] .

مقاصد السورة :

١ ـ استهلت السورة بالإشارة إلى آيات القرآن الكريم المنزلة بالحق على سيد الخلق للهداية والإرشاد .

٢ ـ ثم أشارت إلى ما بثه الله فى السموات والأرض من آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعظمته ، من سماءٍ مرفوعة وعرش عظيم وأجرام فلكية مسخرة ، وأرض تجرى فيها الأنهار وتزدان بالحدائق الغناء والمروج الفيحاء .

٣ ـ ثم تناولت أحوال البشر وتنكر كثير منهم لآيات الله المنزلة وآياته الكونية ، مع أن الله مطلع على نياتهم وأقوالهم وأفعالهم ، وسيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء .

٤ ـ ثم دعت البشر إلى أن يَفيئوا إلى الصواب ، وأن يبادروا بإصلاح ما فى نفوسهم من فساد وتغيير ما فيها من انحرافات ، حتى يعينهم الله ويهديهم فإنه سبحانه « لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

٥ ـ ثم عادت السورة لتذكِّر البشر بآيات الله الكونية ـ وأنها كما تكون نِعَمًا تكون نِقَمًا ـ مثل الرعد والصواعق ، وكلها منقادة لإرادة الله خاضعة لمشيئته ، وبينت أن الذين يدعون من دونه ـ لا يستجيبون لهم بشىءٍ ، ولا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ، وأنه لايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

٦ ـ ثم وعدت الذين يستجيبون لدعوة ربهم بالمثوبة الحسنى ، وتوعدت من لايستجيبون لها بأن لهم سوءَ الحساب والخلود فى جهنم وبئس المهاد .

---

(١) من الآية : ١٣

٧-ثم تحدثت عن أنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاءُ ويضيِّقه على من يشاءُ ، وأن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ونعيمها ماهى إلا متاع قليل .

٨-ثم ذكرت عناد المشركين بطلبهم من الرسول آية من ربه - وبينت أن هذا ضلال منهم وانحراف عن الآية الكبرى وهى القرآن ، وأنه تعالى يضل من يشاءُ من المنحرفين فلا يعينه ، ويهدى إليه من أناب ويعينه ،وأن القرآن هو ذكر الله وأنه تطمئن به القلوب .

٩-ثم تحدثت عن عظمة القرآن وأن الكفار لم يقدروه قدره حيث اقترحوا غيره . مع أنه جدير بأن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى .

١٠-ثم نبهت الذين آمنوا إلى أنه تعالى لو شاءَ لهدى الناس جميعا . وتوعدت الكافرين بقارعة تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .

١١-ثم تحدثت عن الجنة التى وعدها الله المتقين . ووصفتها بالصفات الجليلة ، وبيَّنت أن الذين آتاهم الله الكتاب من المخلصين يفرحون بالقرآن الذى أنزله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن من أحزابهم من ينكر بعضه وهو مايخالف ضلالاتهم ، أو يغاير ماكان مشروعا لهم - مع أن لكل أمة رسولها وكتابها « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ». ونهته عن اتباع أهوائهم كالصلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة . وبينت أن الرسل السابقين جعل الله لهم أزواجا وذرية كما جعل لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلا وجه لاعتراض أهل الكتاب عليك يامحمد .

١٢-ثم توعدت الكافرين ، وذكرت أن على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، وأنه تعالى يحكم ولا معقب لحكمه : « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ».إلى غير ذلك من المقاصد الشريفة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾)

المفردات :

(الْكِتَاب) : الْقُرْآن . (الْحَقُّ) : الثَّابت .

التفسير

١ ـ (الٓمٓر) : تقدم الكلام على أمثالها فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وأرجح الآراء فيها أنها تشير إلى أن القرآن الكريم مركب من كلمات ذات حروف كهذه الحروف التى ينظم منها العرب كلامهم ، فإن كانوا صادقين فى زعمهم أن محمدا تقوله وافتراه فليأتوا بمثله فهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإذا عجزوا فمحمد مثلهم لايستطيع أن يأتى بمثله وإذا كان كذلك وجب الإيمان بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا إلى جانب مافى بدء الكلام بها من الغرابة الداعية إلى الانتباه واستماع مايليها من فنون الهدى والرشاد ، لعلهم يهتدون ويكفون عن الإعراض عن سماع القرآن العظيم .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) :

هذه آيات الكتاب العظيم الغنى عن الوصف من بين سائر الكتب ، الجدير باختصاصه باسم الكتاب .

(وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ) :

أى وهذا الكتاب الذى أنزله الله إليك يا محمد هو الحق الثابت المطابق للواقع فلا مجال للشك والارتياب من قومك فى صدوره إليك من ربك أيها النبى .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أكثر الناس الذين دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه أُنزل إليك من ربك ، لإخلالهم بواجب النظر والتأمل فيه ، وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم ، وإيثارهم الضلال على الهدى ، والظلمات على النور فاصبر على أذاهم « . . . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ »[1] .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾)

المفردات :

(الْعَمَدُ) : بفتح العين والميم وضمهما هى الأساطين التى تحمل السقف جمع عمود .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : أى يقضى فيه ويقدره بحكمته .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : يأتى بها مفصلة مبينة للاستدلال بها على كمال قدرة الله وحكمته .

(تُوقِنُونَ) : تصدقون تصديقًا جازمًا لاشك فيه .

التفسير

بعد أن ذكر الله أن آيات القرآن أنزلها على رسوله بالحق عقب ذلك بذكر آياته الكونية العظيمة التى تدل على وحدانيته وعظمته وقدرته وهيمنته على كل شىء فقال تعالى :

٢ ـ (اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) :

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٧

إن الإنسان لينظر إلى السماء ومافيها من نجوم وكواكب فيأخذه الإعجاب بِسُمُوِّها وعظمتها وجمالها واتساعها وإبداعها ، والقرآن يذكرنا بأن الله وحده هو الذى رفع هذه السموات فى آفاقها السامية الفسيحة بغير ارتكاز على عمد مرئية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يمسكها فى أفلاكها ، ويدفعها فى مداراتها ، طبقًا لسنن كونية ثابتة أبدعتها قدرته سبحانه .

فقال جل شأنه : « إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ »[1]. وقال تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[2]

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

المراد من الاستواء هنا الاستيلاء والسيطرة ؛ ومنه قول الشاعر :

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والعرش هنا كناية عن الملك والسلطان ، والمعنى أنه تعالى هيمن وسيطر على ملك السموات بعد أن رفعها بغير عمد ، فلم يدع فيها لأحد غيره سيطرة عليها ولا تدبيرًا لشىء فيها ، فكما كان له الأمر فيها حين تقديرها خلقًا وإبداعًا فله الأمر والسلطان فيها بعد ذلك حفظًا وتدبيرًا ، لا يشاركه فى ذلك كله شريك «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»[3]

ومن العلماء من فسر العرش بأنه شىءٌ عظيم لا يعلم كنهه غير الله ، مع تنزيهه جل وعلا من الجلوس عليه ، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، فإذا عرفت أنه تعالى لا أول لوجوده ، وأنه سبحانه كان ولاشىءَ معه ، وأنه أوجد العرش واستحدثه بعد أن لم يكن ، عرفت أنه ليس بحاجة إلى عرش يجلس عليه كما يفعل الملوك ، فالعرش على تسليم أنه جرم عظيم ، خلقه الله لمصلحة ملكوته ، وقد استند أصحاب هذا الرأى إلى أحاديث منها ما ذكره البيهقى وأخرجه الآجرى وأبو حاتم البستى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِىِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِى أَرْض فَلاة ،

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١

(٢) سورة الحج ، الآية : ٦٥

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

وَفَضْل الْعَرْش عَلَى الكُرسِيّ كَفَضْل الفَلاة عَلَى الْحَلقَة » . وتركوا علم ذلك وإدراكه إلى الله علام الغيوب .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى أن الله سبحانه خلق الشمس وهى نجم كبير وخلق القمر وهو كوكب صغير وسخرهما لينتفع البشر بنورهما وحرارة الشمس ذات المنافع الغزيرة ، فانظر إلى رحمة الله ، حيث جعل الشمس إذا غابت بالحجاب وغابت معها أنوارها ، أتبعها القمر حتى لا يحرم عباده من نور السماء ليلا ونهارًا ، وجعل كلا منهما يجرى فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم إلى أَمَد مقدر وزمن محدود يعلمه سبحانه .

وقال ابن عباس : الأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها ولا يتجاوزانها .

يريد بذلك أن الشمس تقطع مدارها متنقلة فى أبراجها فى سنة شمسية . والقمر يقطع مداره متنقلا فى منازله فى شهر قمرى ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[1] . وذهب معظم المفسرين إلى أن الأجل المسمى هو يوم القيامة يوم أن تكون السموات مطويات بيمينه سبحانه .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) :

والمعنى أن الله سبحانه يقدر الأُمور بمقتضى حكمته ويجريها طبقًا لسنته الكونية فى أرضه وسمائه فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وغير ذلك من شئونه تعالى فى سمواته وأرضه ، تلك الشئون التى تحير العقول والألباب ولا تدخل تحت حصر ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ »[2] . وكما أنه تعالى يدبر الأمر فإنه يفصل الآيات ويبينها فى كتبه المنزلة على رسله ويوجهنا إلى التأمل فيها ، والاعتبار بدلالتها ، فإنها تَدُلُّكَ على عظيم قدرته ، وجليل حكمته ، ووافر رحمته ونعمته ، وأن الذى بدأ الخلق قادر على

(١) سورة يس ، من الآية : ٤٠

(٢) سورة الرحمن من الآية ٢٩ .

إعادته ، وأن مصيرنا جميعًا إلى الله فنحن جميعًا منه وإليه ، فإذا انتفعنا بما فضله الله لنا من الآيات ،وعرفنا أننا سنلقى الله طال الزمن أم قصر ، فإننا نستعد لهذااللقاء بالإيمان الثابت والعمل الصالح والاستقامة على طريق الحق ، لننال ثوابه وننجو من عقابه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(مَدَّ الْأَرْضَ) : بسطها . (الرَّواسِى) : الجبال . (يُغْشِى) : يغطى .

التفسير

٣ ـ (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا) :

تابعت هذه الآية سرد آيات الله الكونية ، فذكرت أنه تعالى بسط الأرض أمام البصر ، وسوى معظم سطحها ، ليسهل الانتقال عليه من مكان إلى مكان ، كما قال سبحانه :

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا »[1] .

وليسهل على عباده زرعها والانتفاع بخيراتها ، ولا يتنافى ذلك مع كروية الأرض التى أشارت إليها الآية الكريمة : « يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ »[2] .

وسنعرض لها بالشرح فى موضعها إن شاء الله ، وكما سوى الله سطح الأرض جعل منها جبالا راسخة لتثبيتها فلا تموج ولا تضطرب ، حتى لا يهلك من على سطحها من الكائنات أثناء

(١) سورة نوح الآية ١٩

(٢) سورة الزمر من الآية ٥

اضطرابها وزلزالها ، قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا »[١] . ومن أيات الله الكونية التى أشارت الآية إليها تكوين الأنهار من الأمطار التى تهطل على سفوح الجبال ، فتشق طريقها فوق سطح الأرض ممتدة مئات أو آلاف الأميال ، ليرتوى منها عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) :

أى وجعل الله فى الأرض من كل أنواع الثمرات فردين متزاوجين ، أحدهما ذكرُ والآخر أُنثى ، والذكر قد يكون منفصلا عن الأنثى كالنخل ، وقد يكونان فى شجرة واحدة كشجرة الذرة ، وهنا يتجلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فما كان العرب يعلمون أن فى كل نبات أعضاءً للتذكير وأُخرى للتأنيث ، يتم بينهما التلاقح فتثمر أطيب الثمرات ، ما كانوا يعلمون ذلك إلا فى نبات واحد هو النخل ، ولكن القرآن أنبأنا منذ أربعة عشر قرنًا بما اهتدى إليه العلم الحديث فى العصر الحاضر « سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »[٢] .

(يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ) :

أى يجعل الليل يغطى ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليستريح الناس من متاعبهم فى النهار ويدركوا رحمة ربِّهم بهم وقدرته على هذا الكون العجيب ، واكتفى بتغشية الليل النهار مع تحقق عكسه لأنه معلوم ، وتتابع الليل والنهار نعمة منَّ الله بها على خلقه ليتسنى لهم الكسب فى ضوء النهار والراحة تحت أسدال الظلام .

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فى هذه الآيات الكونية العديدة فى السموات والأرض لعلامات وبراهين دالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، يدركها من استعملوا عقولهم وتركوا تقليد أهل الجهالة فى جهالتهم ، فمن شاء الهداية فأمامه آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، وكلتاهما تدعو إلى الإيمان العميق «فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ »[٣] .

---

(١) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧

(٢) سورة يس ، الآية ٣٦

(٣) سورة الجاثية ، من الآية ٦

(وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(صِنْوَانٌ) : جمع صنو ، وهو المثل ، ومنه الحديث الشريف : «عم الرجل صنو أبيه» . والصِّنْوُ أيضًا نخلتان أو أكثر تتشعب من أصل واحد ، وكما تُطلق كلمة الصنو على ماذكر ، يطلق عليه أيضًا : (صنوان) : روى عن البراء : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ، وقال النحاس : يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أُخرى أو أكثر صنوان ا هـ . راجع القرطبي .

التفسير

٤ - (وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ) الآية .

واصلت الآية الحديث عن آيات الله الكونية .

والمعنى : أنه يوجد فى الأَرض قطع متجاورة متماثلة فى تربتها وانتفاعها بأَشعة الشمس وفيها بساتين كثيرة مزروعة فى قطع الأَرض المتجاورة ، وتشتمل على أَشجار الكروم التى تثمر أَنواع العنب والزبيب ، وتشمل أَيضًا على الزرع الذى يثمر أَنواع الحبوب والبقول ، وفيها النخل الذى يثمر البلح والرطب والتمر .

وبعض النخيل مفرد وبعضه متعدد على أَصل واحد ، وهو الذى عبر عنه فى الآية بكلمة (صنوان) ، ونلاحظ فى الآية أَنها لم تستوعب حاصلات البساتين ، بل ذكرت نموذجًا لما يتسلق ويقوم على عرائش ، وهو الأَعناب ، وآخر للشجر الذى يقوم على ساق ، وهو النخيل الذى له جذوع صلبة وطويلة ، أَما الزرع فإِنه شامل لكل أَنواع الحبوب والبقول .

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ) :

هذه الجملة مستأنفة للتعجيب من قدرة الله تعالى فيما يبدعه فى عالم البساتين . حيث بينت أن هذا النبات والشجر على اختلاف أنواع كل منهما يسقى بماء واحد فى أرض متجاورة ومتشابهة فى التربة والجو ، ولكن الثمرات متنوعة فى الطعم والشكل واللون والرائحة . وربما كان ذلك فى الشجرة الواحدة ولا شك أن هذا ناشئ من أن وراء الطبيعة ربا حكيما ، هو الذى ينوع النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف ، ويخالف المألوف ليعرفه عباده بما يبدعه لهم من هذه المؤتلفات والمختلفات ، ولو كانت الطبيعة هى الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف ، بل لما وجد من ذلك شئ فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة ، ولهذا عقب الله تلك الجملة بقوله :

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

إن فى هذا التنوع والتعدد – مع وحدة الأصل والبيئة – لعلامات وشواهد يدركها أصحاب العقول الراجحة فيعلمون أن من ورائها قدرة الخلاق العظيم الذى أحسن كل شئ خلقه ، فيؤمنون وينقادون إليه ويعبدونه على الوجه اللائق بما له من عظمة وجلال .

(۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَإِن تَعْجَبْ) : العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين :

أحدهما فيما يستحسن ويحمد . والثانى فيما يكره وينكر .

(الْأَغْلَالُ) : جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد أو غيره يوضع فى العنق أو فى اليد فتشد به إلى العنق .

التفسير

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً . . .) الآية .

بينت الآيات السابقة دلائل قدرة الله فى السموات والأرض وأنها آيات لأصحاب العقول السليمة . والأفهام المستقيمة على عظمة قدرة الله وحكمته ، وأن من هذا شأنه فهو قادر على كل مقدور ، وجاءت هذه الآية للتعجب من إنكارهم للبعث مع مايشاهدون من المظاهرالكونية ، ولإنذارهم بالعذاب الدائم الذى لاغاية له جزاءِ تكذيبهم . والخطاب فى الآية للرسول أو لكل من يصلحُ للخطاب من العقلاء .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ماشهدوه مندلائل قدرة الله فعجب لايوجد أشد منه قولهم فى إنكارهم للبعث

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) :

هذا القول مشتمل على استفهامين من المشركين ، يقصدون بهما أقصى درجات الإنكار ، للعودة إلى الحياة مرة أخرى ، حيث يخلقون خلقًا جديدًا بعد أن تحللت أجسامهم ، ونخرت عظامهم ، وأصبحوا ترابًا تذروه الرياح ، ولو فكر هؤلاءِ المنكرون بعقولهم لعلموا أن من قدر على إنشاءِ تلك الكائنات وإبداعها من تراب ، فإنه قادر على إعادتها ، بل الإعادة فىنظر القياس أهون . وإن كان كل شيءٍ أمام قدرة الله سواءٌ . فهو الذى يقول للشيءِ كن فيكون .

وقد عقب الله هذه الجملة التى نعت عليهم تكذيبهم بقوله :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) : أى هؤلاءِ المكذبون للبعث هم الذين كفروا بربهم ولم يؤمنوا به. إذ لو آمنوا به وبأنه خالق السموات والأرض – كما يجيبون إذا سئلوا – لعلموا أنه قادر على بعث الأجساد بعد استحالتها إلى تراب تفرقت ذراته . فهم ليسوا أشد خلقًا من السماءِ التى بناها ورفع سمكها وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

ولما كان هذا الكفر مع وضوح الأدلة أمرًا منكرًا فظيعًا يستحقون عليه أشد العقاب أنذرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ) : أى أن جزاءهم يوم الحساب أن يسحبوا إلى النار بأطواق فى أعناقهم تحقيرًا لهم وتسفيهًا .

وقال بعض المفسرين هو تمثيل لحالهم الشنيعة في الضلال وتقليد الآباء بحال المقيدين بالأغلال في أعناقهم، فهم مثلهم في الحرمان من نعمة الحرية وكَبْتِ الإرادة، وضيق آفاقها، والحرمان من الخير، وسوء العاقبة.

ثم ختمت الآية بقوله تبارك وتعالى:

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى وأولئك المكذبون بالبعث الكافرون بربهم المكبلون بالأغلال فى أعناقهم – أولئك الموصوفون بهذه الصفات – هم أصحاب النار الملازمون لها – الماكثون فيها، فلا ينفكون عنها ولا يخرجون منها أبدًا.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾)

المفردات :

(السَّيِّئَةِ) : العقوبة. (الْحَسَنَةِ) : العافية والسلامة.

(الْمَثُلَاتُ) : جمع مثله – بفتح الميم وضم الثاء. وهى العقوبة؛ سميت بذلك لأنها تماثل الذنب، والمراد بالمثلات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم.

التفسير

٦ – (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ . . .) الآية.

كان الرسول صلوات الله عليه ينذر المشركين بالعذاب فى الدنيا والآخرة لإصرارهم على الكفر، فكانوا يستعجلونه فى وقوعه استهزاءً به وطعنًا فى خبره فنزلت.

والمعنى : ويطلب منك المشركون يامحمد أن تعجل لهم بالعقوبة التى أنذرتهم بها . لإصرارهم على الكفر وتكذيب ماجئتهم به من عند الله ، وكان عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعدلوا عن شركهم . ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى السلامة والعافية . وماكان ينبغى لهم أن يؤثروا العقوبة على السلامة ،وهم يعلمون مما يشاهدونه حولهم من آثار ما أنزله الله من العقوبات بالكافرين قبلهم . كما حدث لعاد قوم هود . ولثمود قوم صالح ، ولقوم لوط ولغيرهم وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) :

أى أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التى استأصلتهم . فما لهؤلاء لم يعتبروا بتلك الأمم ؟ فيكفوا عن الكفر والتكذيب حتى لايحل بهم ما حل بمن قبلهم من المكذبين .

ثم عقب الله سبحانه وتعالى هذه الجملة من الآية الكريمة بما يفتح باب الأمل للتائبين المستغفرين – ويحذر من شدة العقوبة للعصاة المصرين فيقول :

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ):

أى أنه تعالى . صاحب مغفرة عظيمة وستر شامل لمن ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصى . فلا يعجل لهم بالعقوبة ، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويستغفرون فيغفر لهم .

وكما أنه سبحانه صاحب مغفرة للناس وإن كانوا ظالمين . إن تابوا وأنابوا ؛ فإنه شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانه كما قال تعالى فى سورة الحجر: « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ».وفى سورة الأنعام :« فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » . إلى غير ذلك من الآيات التى تجمع بين الرجاء والخوف .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المراد بهم هنا كفارُ أهل مكة .

(لَوْلَا أُنزِلَ) : لولا بمعنى هلَّا ، فكلتاهما للحض والحث على فعل الشيء .

(آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) : الآية ؛ العلامة ، والمراد بها هنا ما طلبوه من الخوارق مثل تفجير الينابيع والأنهار والرقى فى السماء .

التفسير

٧ ـ (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ) :

بعد أن حكى الله عن أهل مكة كفرهم بالبعث ، واستعجالهم بالعذاب الذى توعدهم الله به على لسان رسوله ، جاءت هذه الآية لبيان لون من ألوان كفرهم وعنادهم .

والمعنى : ويقول الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة زاعمين أنه لا يكفى للدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : هلَّا أُنزل عليه آية من ربه ، على منهاج الآيات الكونية التى أيد الله بها رسله السابقين ، كعصا موسى التى أبطلت سحر الساحرين ، وناقة صالح ، وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ، ولما كان هذا المطلب لا يخرج إلا من فم كافر لما فيه من التجنى على الحق ، فلذا حكى الله مقالتهم موصوفين بالكفر بقوله : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بدلا من أن يعبر عنهم بأُسلوب الإضمار : (وَيَقُولُونَ) والغرض من ذلك ذمهم بالكفر بهذا الكتاب المبين الذى تخر له صم الجبال ، ولو تفتحت على الحق قلوبهم . وبرأت من الحقد نفوسهم ، لوجدوا السبيل إلى الهدى ميسرة بآياته ؛ فهى أجدى على الحق من تحويل الصفا إلى جبل من ذهب ، وتحويل صحرائهم إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار

كما طلبوا ، فإن العقل البشرى قد شب عن الطوق ، والذى كان آية للأُمم السابقة ، لا يصلح آية لأُمة محمد التى فتح القرآن لها أبواب العلم ، وكشف لها آفاق المعرفة فلم يعد يفيدها ناقة تخرج من الصخر ، ولا يد تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ، ولا إبراء الأكمه والأبرص وإحياء ميت أو ميتين ، فكل ذلك لا يساوى إحياء القلوب باليقين ، وتنوير العقول بأشعة المعرفة ، ووضع المنارات على الطريق ليهتدى بها الناس إلى الحق سبحانه وتبرئته من الشريك والنظير ، وتنزيهه عن الصاحبة وعن الولد ، وليهتدوا بها إلى أسرار الملك والملكوت ، فيعملوا للدنيا فى حدود ما هو حلال لهم ، ولا عليهم من بأس أن يتوسعوا فى نعمه وزينته والطيبات من الرزق ما داموا يؤدون حق الله وحق المجتمع فيما رزقهم ربهم ، ويعملوا للآخرة ، حيث لاينفعهم مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ . وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ومن مميزات معجزة القرآن أنها باقية ما بقى الزمان ، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين ، فقد أصبحت خبرًا بعد عين ، وعرضة لإنكار المنكرين ، وتكذيب المكذبين .

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) :

أى ليس من شأنك يا محمد أن تقترح علينا الآيات ، أو تبلغنا اقتراح قومك لها ، فما أرسلناك إلا لإنذار الكفار سوء عاقبة ما هم عليه من الكفر ، وقد أيدناك بما يكفى الاستدلال به على نبوتك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو القرآن العظيم ، فما أنت إلا منذر لهم ولكل قوم كافرين ، بما جاء فيه من القوارع والنوائب التى تحل بهم إن أصروا على كفرهم ، وهاد مرشد إلى طريق السلامة فى الدنيا والآخرة بما جاء فيه من الآيات ، فإن سلكوه كانت غايتهم السلامة والسعادة الأبدية ، وإن أعرضوا عنه كانت غايتهم الندامة والشقاوة الأبدية ، فلا تكترث باقتراحهم الآيات عنادًا ، فلكل أمة رسولها مؤيدًا بالآيات اللائقة بها .

ثم عقب الله هذه الآية بما يدل على كمال قدرته وشمول علمه وقضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح ، تنبيهًا على أن تخصيص كل قوم بنبي ، وكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَمِ الداعية إليها ، وذلك بقوله سبحانه :

(ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾)

التفسير

٨ - (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) :

لمَّا تقدم إنكارهم البعث . وكان من أقوى شبههم ما شهدوه من تفرق الأجزاء وزوال صفاتها . نبه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جل شأنه . فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء دحضًا لشبهتهم . وإزاحة لها .

والمعنى : الله يحيط علمه بما تحمله الحوامل من مبدإ الحمل إلى زمن الولادة فلا يخفى عليه شيءٌ مما يتعلق بذات الجنين أو صفاته من كونه ذكرًا أو أنثى ، أو صبيحًا أو قبيحًا أو صالحًا أو طالحًا أو شقيًّا أو سعيدًا .

(وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) : أي يعلم ما تنقصه الأرحام في ذات المولود أو مدته نتيجة لما يغيض له في أطواره من أسباب تجعله ينزل سقطًا أو لأقل من مدة الحمل الغالبة أو لأكثر منها أو لما أُلف وعهد فيها .

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) :

أي وكل شيء في علم الله وتقديره من الأعيان والأعراض له في كل مرتبة من مراتب التكوين قدر معين في ذاته وفي زمنه ، وحاله لا يتخطاه ولا يجاوزه بأي حال من الأحوال .

وذلك عام فى الأجنة والآجال والأرزاق وغيرها. وفى الحديث الصحيح: « أن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه أن ابنًا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره. فبعث إليها: « إنَّ لِلَّه ما أخذ وله ما أعطى وكل شىءٍ عنده بأجل مسمى فمروها فلتصبر ولتحتسب ». والحديث لمسلم ورواه البخارى فى كتاب الجنائز بمخالفة يسيرة. والمقصود بإحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم زينب امرأة أبى العاص بن الربيع .

٩ ـ (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . .) الآية .

أى يعلم سبحانه وتعالى الغائب عن الخلق والظاهر لهم. فينفرد بكل باطن خفى ـ لايشاركه فى علمه به أحد، وأما مايقوله أهل الطب من استدلالهم فى طلبهم على ما خفى بأمارات وعلامات فذلك ظنى لايقينى[1] . والتعبير عن الغائب والحاضر بالمصدر مبالغة فى كون الغائب كأنه نفس الغيب لشدة خفائه . وكون الحاضر لقوة وضوحه كأنه نفس الشهادة والوضوح . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن الغيب السِّر والشهادة العلانية .

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) : الذى تعالى قدره وعظم شأنه، واستعلى على سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله .

١٠ ـ (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) :

بعد ما بين الله تعالى أنه عالم بجميع أحوال الإنسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة ، جاءت هذه الآية لبيان أنه لا فرق فى علمه بين السِّرِّ والعلن ، والجلى والخفى ، فيستوى فى علمه من أسر القول منهم وأخفاه عن غيره ، ومن جهر به وأذاعه خيرًا كان أو شرًّا، فيعلم سر الأول كعلمه بجهر الثانى من غير تفاوت بينهما فى كيفية علمه بهما ودرجته ، كما يستوى فى علمه من يبالغ فى الاستتار والتخفى فى ظلمة الليل ، ومن هو ساربٌ وبارز بالنهار .

---

(١) أما الآلات التى اخترعت لكشف ما فى جوف الأرض من معادن وبترول فإن العلم بوساطتها لايعتبر علمًا بالغيب، فقد أصبح الغيب فى حكم الظاهر بوساطة هذه الآلات ولذا يستوى فى العلم بوساطتها كل من عرف طريقة استعمالها .

وقال الأخفش وقطرب : المستخفى بالليل : الظاهر ، ومنه خفيتُ الشيء وأخفيته أى أظهرته والسارب المختفى بالنهار يدخل سربًا يختفى فيه - انتهى بتصرف . وتلك عادة لبعض العابثين يختفون نهارًا . ويظهرون ليلا ، ليأخذوا الناس على غرة وهؤلاء وأمثالهم كغيرهم يحيط بهم علمه مهما تذرعوا به من إحكام التخفى بمختلف الوسائل والأساليب .

(لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١))

التفسير

١١ - (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ) :

أى لله ملائكة يعتقبون على حفظ عبده من جميع جهاته يأتى بعضهم إثر بعض بدون إبطاء . كأن كلا منهم يطأ عقب الآخر لشدة قربه منه يتناوبون عليه بالليل والنهار لوقايته من كل ضرر يمسه . أو سوء يلحق به وذلك الحفظ من أمر الله ، أى بسبب أمر الله لهم به . فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه [(١)] . ويجوز أن يكون المعنى : يحفظونه إذا أذنب من بأس الله بالاستمهال والاستغفار له . كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لإحصاء كل عمل له خيرًا كان أو شرًّا . فهو بين أربعة من الملائكة حافظين وكاتبين بالليل ومثلهم بالنهار . يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . وفى الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُم مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ ومَلائِكَةٌ بِالنَّهارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ . فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُم ، فَيَسْأَلُهم

(١) قال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى على فقال : احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مالم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله ، وإن الأجل حصن حصينة » أخرجه الإمام مسلم .

وَهُو أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى ؟ فَيَقُولُونَ آتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ».
أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى إحاطة علمه بالعباد وأن لهم معقبات يحفظونه من أمره ، نبَّه على أن النجاة فى لزوم الطاعة والوبال فى اختيار المعصية فقال ـ جل شأنه ـ :

(إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) :

أى جرت السنَّةُ الإلٰهيةُ بأنه تعالى لايبدل ما بقومٍ من نعمةٍ وعافيةٍ وأمنٍ ودعةٍ حتى يتركوا ما تعودوه واتصفوا به من عمل صالحٍ وخلق قويم متجهين إلى أضدادها . لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة وقد يضم إليه إنزال العذاب بهم إن عظمت ذنوبهم وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ؛ وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ردًّا على من سأله . « أنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : نعم . إذا كَثُرَ الخبثُ[1] » .

وقد يشتركون فى استحقاق العقوبة ؛ لتراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ : « إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب[2] » . ويصح أن يكون المعنى : إن الله لايغير ما بقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصى . ليكون أهلا لعفوه ورحمته .

(وإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) :

أى وإذا شاء الله بقوم بلاءً من مرض أو فقر أو هزيمة أو عذاب أو غير ذلك مما يسوءُ ويؤلم .

(فَلَا مَرَدَّ لَهُ) :

أى فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى أبصارهم وبصائرهم فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وعملوه بأنفسهم فيستحيل لذلك رده عنهم .

---

(١) الخبث : الفسق والفجور .

(٢) معنى ذلك أن المصائب قد تنزل بشؤم ذنوب الآخرين .

(وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) :

أى ليس لهم ملجأ غيره يقيهم من أخذ الله لهم ويتولى أمورهم فيمنعهم ويدفع عنهم السوء الذى ينزله بهم ، بسبب تغيير ما بأنفسهم ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله محال ، وإيذان بأنهم بسبب إنكارهم البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد استحقوا العذاب الشديد ، والعقاب الأليم الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم ، إذا أراده الله بهم .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُونَ) : مفاعلة من الجدل بالتحريك وهو المناقشة والمخاصمة .

(المِحَالِ) : بكسر الميم ؛ الكيد والمكر . والمماحلة المكايدة ، ويستعمل فى الحيلة والقوة والجدال ، يقال : ماحل عن رأيه جادل . والمِحَالُ من الله معناه التدبير بالحق كما قاله النحاس .

التفسير

١٢ - (هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) :

فى هذه الآية الكريمة بيان لبعض الظواهر الكونية التى تنطق بكمال قدرته تعالى ، وتبرز للحس عظيم صُنْعِهِ ، فقد جاء فيها أنه تعالى يرينا البرق لإخافتنا من آثاره التى قد

تتمثل فى صواعق حارقة ، وبرق قوى يكاد عند إنبعاثه يذهب بالأبصار ، ومطر غزير يشق على المسافر ويؤذيه ،وقد ينفر منه المقيم ولا يبتغيه ، كما يرينا البرق أيضا لإطماع عباده فى غيث نافع يغيث الزرع ويُدِرُّ الضرع ، وينشر الخصب والرخاء ، قال الحسن : خوفا من صواعق البرق وطمعا فى غيثه المزيل للقحط ، وقال قتادة : خوفا للمسافر يخاف مشقته وأذاه ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله .

(وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) :

أى السحب الممتلئة بالمطر . لذلك يعم نفعها ويعظم أثرها ، والثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمل من ماء المطر .

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . .) :

أى أن الرعد خاضع لله خضوعا تاما شأنه شأن جميع الكائنات فالتسبيح منه مجاز عن الخضوع ،ويجوز أن يكون تسبيحه تسبيحا مقاليا ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول:« سبحان من يسبح الرعد بحمده »[١] . وإسناد يسبح إلى مضاف محذوف كما يقول بعض المفسرين والتقدير ويسبح ملك الرعد ، مخالف لظاهر النص الذى ينطق بأن الرعد هو الذى يسبح تسبيحا مجازيا أوحقيقيا[٢] كما تقدم .

وللملائكة كذلك تسبيح وتنزيه إذ هم ملأ سماوى لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ينبئ بذلك قوله تعالى :

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) : أى وتسبح الملائكة من هيبته تعالى وإجلاله .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ) :

أى أن الله سبحانه وتعالى ينزل الصواعق[٣] فيصيب من يشاء هلاكه من عباده فيهلكه ، وقد تكون مظهرًا من مظاهر قدرته وجبروته وهى فى كلتا الحالتين آية من آيات الله تعالى .

---

(١) أخرجه : ابن جرير عن أبى هريرة

(٢) وليس هذا مستحيلا على الله ، فإن عباده اخترعوا الحاسبات الألكترونية وغيرها وهو الذى أقدرهم على ذلك ، وهو الذى سخر الجبال مع داود يسبحن بالعشى والإشراق ، وجعل الطير تؤوب وتسبح معه .

(٣) مرّ بيان الصواعق فى تفسير الآية ١٩ من البقرة ، فارجع إليه .

ولما نعى الله على المشركين عنادهم فى اقتراح الآيات وإنكارهم كون الذى جاء به الرسول من جنس الآيات ، ولم يعتبروا بما شاهدوا من ظواهر هى آيات على قدرة الله . عقب ذلك ببيان طبيعتهم تسلية لرسوله فقال سبحانه :

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ) :

أى لاتحزن لما ترى منهم فى شأنك . فهم مع أمارات القدرة العظيمة ،ودلائل التوحيد الباهرة . يجادلون فى الله بادعاء الشركاء وإثبات الأولاد له تعالى ، وإنكار البعث . ويلحون فى استعجال العذاب ، ومع سلطانه القاهر يمعنون فى العناد والمكابرة .

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) :

أى أنه سبحانه شديد القوة على أعدائه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر فيصيبُ منْهم من يشاءُ وفق إرادته . وقال الحسن شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط .

(لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ) : كمن مدهما مبسوطتين . (لِيَبْلُغَ فَاهُ) : ليصل إلَى فَمِه .

التفسير

١٤ ــ(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَيَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ) الآية .

أى أن دعوة الحق تختص به تعالى ، أمَّا دعوة غيره كالأصنام والكواكب ، فليست دعوة حق ، بل هى دعوة باطل ، ولهذا فإنه تعالى : يجيب دعاء من دعاه ، فهو أهل

للإجابة كما هو أهل للدعاء . أما الذين يدعونهم من دونه من الشركاء ، فإنهم لايجيبون دعاء من دعاهم بشيء فهم ليسوا أهلاً للإجابة ، كما أنهم ليسوا أهلا للدعاء .

وكيف يستجيبُون لهم وهم صمّ بكم عُميٌ فلايسمعون ولاينطقون ولايبصرون ، وكل من يتوقع من هذه الأصنام الاستجابة وتحقيق أى أمل يرجوه ماهو إلا (كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : فكما أن من بسط كفيه إلى الماء يدعوه أن يرتفع إلى فمه فلا يستجيب له فكذلك من بسط كفيه إلى الأصنام يدعوها لتحقيق أمل له لاتستجيب دعاءه .

(وَمَا هُو بِبَالِغِهِ) : أى لايصل الماءُ إلى فمه أبدا إن دعاه وبسط كفيه إليه ؛ لأنه جماد لايشعر بظَمئه ، ولا بِبَسْطِ الكفين إليه وهو يدعوه أن يصل إلى فمه ، ولا يستطيع بنفسه سلوك السبيل إليه ، فكذلك الآلهة لأنها لاتملك لنفسها نفعا ولا ضراً ، فإنها عاجزة فكيف تملك الاستجابة للذين يدعونها ، ولذلك كان دعاؤهم لها كما يقول جل شأنه :

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ) :

أى أن دعاءهم إلى ضياع وخسار لأنها غير أهل للدعاء ولا للإجابة ، فكيف يعبدها المشركون ، وهى غير أهل للدعاء فضلا عن العبادة ، وقد ضرب الله الماء مثلا رائعا ليأس الكافرين من استجابة الأصنام إليهم ، ويذكر القرطبى فى معناه ثلاثة أوجه :

الأول : أن الذى يدعو إلٓها غير الله كالظمآن الذى يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيديه فلا يأتيه أبداً لأن الماءَ لا يستجيب وما الماءُ ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد فى كفيه شيءٌ منه اهـ .

والوجه الذى ذكرناه أوضح من هذا كله والله تعالى أعلم .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ (١٦))

المفردات :

(يَسْجُدُ) : يخضع وينقاد . (طَوْعاً) : اختياراً .

(وَكَرْهاً) : بفتح الكاف ؛ إكراهاً . وبضمها ؛ مشقة .

(الغُدُوّ) : جمع غداة لمقابلته بالآصال ، وقيل مصدر غدا ، يقال غَدَا غدواً بمعنى دخل فى الغدوة . والغدوة والغداة من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . (وَالْآصَالِ) : جمع أصيل ، والأصيل مابين العصر وغروب الشمس.

التفسير

١٥ ـ(وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ...) الآية .

أى أن جميع من فيهما من الإنس والجن والملائكة وغيرهم خاضعون لعظمته منقادون لإرادته شاءُوا أو أبوا ، يستوى فى ذلك مؤْمنهم وكافرهم ، ومن له عقل وإرادة وما لا

عقل له ولا إرادة. والتعبير بِمَنْ وهى للعقلاء لتغليبهم على غيرهم ، وجميع هؤلاء يسجدون لله (طَوْعاً وَكَرْهاً) : فانقياد المؤمن يقع منه اختياراً طائعا لأنه خاضع لله بظاهره وباطنه وانقياد الكافر يقع منه اضطرارا ، فإنه خاضع لله فى تربيتهِ ورزقه ، وصحته ومرضه وغير ذلك . فمشيئته تعالى ماضية فيه . (وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : أى تنقاد لله كذلك ظلال من له ظل منهم فهى تحت سلطانه ومشيئته فى الامتداد والتقلص والرجوع والزوال . خاضعة له منقادة لإرادته بالغدو والآصال . لأن ظلال الأشياء تظهر فى هذين الوقتين وتتضح حركتها زيادة ونقصا وميلا من ناحية إلى أخرى بتصريف الله . إذ الحركة والسكون بيده تعالى ، والمتحرك والساكن فى قبضته .

١٦ ـ (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ . . .) الآية .

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلوات الله عليه أن يبين للمشركين طريق الهداية بمحاورتهم سائلًا ومجيبًا ، ليلفت أنظارهم إلى البحث والتأمل فقال له : (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ) : أى قل يا محمد لأُولئك الكفار الذين اتخذوا الشركاء لله والأولياء من دونه : مَن ربُّ هذه الأجرام العظيمة التى ترونها فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال ؟ ثم أمره أن يذكر لهم الجواب فقال : (قُلِ اللهُ) : للإيذان بأنه جواب متعين إذْ لا جواب سواه ، ولهذا فالسائل والمجيب فى تقريره سواءٌ ، وَفِى ذلك إشعار لهم بمخالفتهم لما علموه مما لا يصح إخفاؤه بدليل قوله تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ـ لَيَقُولُنَّ اللهُ » . ثم أمره أن يبين لهم خطأهم الفاضح فيما سلكوه بجانبه تعالى فقال :

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) :

أى قل لهم تبكيتًا وتقريعًا أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض الذى ينقاد لسلطانه وتقديره كل من فيهما ، أبعد أن علمتم هذا عميت قلوبكم فاتخذتم من دونه تعالى

أولياء عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعًا يأتون به أو ضررًا يدفعونه ، فهم عن جلب النفع ودفع الضر عن غيرهم أضعف وأعجز .

ثم ضرب لهم مثلا يصور آراءهم الفاسدة بصورة المُحَس فقال جل شأنه :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : أى قل لهم مُقَرِّعًا هل يستوى الأعمى وهو مثل المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ، والبصير وهو مثل الموحد العالم بذلك ، والمراد لا يستوى المؤمن والكافر .

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) : ويراد من الظلمات الكفر والضلال ومن النور الإيمان والتوحيد أى هما لا يستويان .

ثم إنه تعالى أكد ما أشارت إليه الآية فيما سبق من تخطئة المشركين فقال :

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) : أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يميزون بين خلق الله وخلق آلهتهم ، فاستحقوا بذلك العبادة عندهم كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ خطئهم . ولكن الأمر ليس كذلك لأنهم جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على نفع أنفسهم أو دفع الضر عنها ، فكيف يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من الإيجاد والإبداع ؟

وإجمال المعنى أن الله تعالى نعى عليهم اتخاذهم الشركاء ، ووصفها بأنها عاجزة ذليلة لاتملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ، وأنها ليس لها شيءٌ من الخلق ، وعقب ذلك بأمر نبيه أن يخبرهم أنه تعالى هو الخالق وحده ، فقال :

(قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) : أى قل يا محمد ؛ الله خالق كل شيء ؛ فلهذا لزم أن تعبدُوه وحده لأنه لا خالق غيره .

(وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) : وهو سبحانه المختص بالألوهية المنفرد بالربوبية ، القهار لكل متكبر ، الغالب لما سواه ، فكيف يتوهم أن يكون المغلوب شريكًا له ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

(أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(أَوْدِيَةٌ) : جمع واد ؛ وهو كل مُنْفَرَجٍ بين جبال أو آكام . ويكون مَنْفَذًا للسيل.

(الزَّبَدُ) : ما يعلو وجه الماء كالرغوة ، (رَابِيًا) : مرتفعًا فوق الماء .

(الْحِلْيَة) : ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

(مَتَاعٍ) : الْمتَاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

(جُفَاءً) : مرميًّا به ؛ يقال : جفأ الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به . وجَفَأَتِ الْقِدْرُ : رمت بزبدها عند الغليان . (اسْتَجَابُوا) : أجابُوا بصدق .

(الْحُسْنَى) : مُؤَنث الأَحسن ، والمراد بها المثوبة الحسنى وهى الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

التفسير

١٧ - (أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ...) الآية .

ضرب الله جل ثناؤه بهذه الآية الكريمة مثلا للحق فى عموم فائدته وعظيم بركته . بالماء الصافى الذى أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والآكام بالقدر الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته لنَفْع الناس ؛ يسيل مندفعاً فى مجاريه حتى يصل إلى غايته ، وجعل الباطل فى اضمحلاله وزواله كالزبد وهو الرغوة التى تعلو سطح الماء ثم تكون نهايته أَنْ يضمحل ويذهب ، ويشير جل شأنه إلى مثل ثانٍ للحق والباطل بقوله :

(وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) : فى هذا المثل جعل الله الحق كالمعادن التى يوقد عليها فى النَّار لصهرها وإذابتها لتصفيتها وتَنْقِيتها من كل الشوائب تيسيرًا للانتفاع بها فى اتخاذ الحلى من الذهب والفضة ونحوهما . وفى أثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زبد كزبد الماء فى كونه رابيا فوقه ولا ينتفع به . وقد جعله الله مثلا للباطل فى الفلزات المذابة ، كما جعله مثلا له فى الماء ، فالزبد فى كليهما يشير إلى الباطل .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحقَّ والْبَاطِلَ) : أى مثل ذلك يضرب الله للناس مثل الحق ومثل الباطل ، ثم بَيّن الله ذهاب الباطل وثبات الحق فقال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَايَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) :

أى أن الباطل الشبيه بالزبد مهما علا وظهر فإن مآله إلى اضمحلال وفناء حيث يرمى به وينبذ كما يذهب الزبد جفاءً .

والجُفاءُ ما أَجفأَه الوادى أى رمى به وما أَجفأته القدر إذا غلت أى رمت به وصبته وأما ماينفع الناس من الماءِ الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وسائر المعادن فيمكث فى الأَرض ، فالماءُ يبقى بعضه فوق سطحها لينتفع به ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأَرض ، لينتفع به فى العيون والآبار ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلى ويؤْخذ من بعضها الأَوانى وأَصناف الآلات والأَدوات ، فهذا هو المقصود من مكثها فى الأَرض .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ) :

أى كهذين المثلين فى الوضوح والجلاءِ يضرب الله الأمثال للناس دائما ليبصرهم بالخير والشر ، إظهارا لكمال العناية بالتوجيه والإرشاد . ولما بين الله شأْن كل من الحق والباطل شرع يبين حال أَهل كل منهما فقال سبحانه :

١٨ ـ (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىَ ....) الآية .

أى للذين استجابوا لله فأَطاعوه ، وأَطاعوا رسوله ، إذا دعاهم إلى الحق بطرق الدعوة المتنوعة ومن بينها ضرب الأَمثال الذى يوصل المعانى إلى القلوب فى يسر وسهولة ، لما له من تأْثير بليغ فى النفوس لتصويره المعقول بصورة المحسوس ، لهؤُلاءِ المهتدين المثوبة الحسنى وهى الجنة كما قال قتادة وغيره . وعن مجاهد أَنها الحياة الحسنى التى لايشوبها كدر أَصلا ، أَو هى النصر فى الدنيا والنعيم المقيم غداً .

(والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) :

أى أن الذين عاندوا وأعرضوا عن الحق مع وضوحه وجلائه لو أنهم يملكون مافى الأرض جميعا من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدموه افتداء لأنفسهم ، ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب ونكال ، وفيه من تهويل ماينزل بهم مالايحيط به بيان .

(أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) : فلا تقبل منهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ، ويحاسب كل منهم على ذنبه كله لايترك منه شىء .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : أى أن مقامهم ومسكنهم جهنم يتخذون منها فراشا لهم وإنه لبئس الفراش الذى أعدوه لأنفسهم . يسيل عليه ماينساب من جلودهم مما يصلَونه من نارها وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا أشد العذاب وأقساه .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السادس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٥٠٨٧-١٩٨٠-٢٥٠٠٠٤

(* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٩ - (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . .) الآية .

قبل هذه الآية ضرب الله مثلا للحق بماءٍ أنزله من السماء ، فسالت به أودية بقدرها وانتفع به الناس ، وضرب مثلا للباطل بالزَّبَد الذى يعلو فوق الماء ولا يلبث أن يضمحلَّ ويزول ، وبيَّن أن الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى والذين لم يستجيبوا لربهم لهم سوءُ الحساب ومأْواهم جهنم وبئس المهاد .

وجاءت هذه الآية لتقرير استحقاق المستجيب لربه أحسن الجزاء ، واستحقاق المعرض عنه سوءَ الحساب وشر العقاب .

والمعنى : أيستوى فى الجزاء مؤْمن وكافر ؟ - كلا - فمن هو بصير يعلم بنور قلبه وإرشاد عقله وهداية ربه أن القرآن الذى أنزله إليك ربك يامحمد هو الحق الذى لايشوبه باطل ، مَنْ كان هذا شأْنه - لايتساوى عقلا مع من هو أعمى القلب لايتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، فلهذا أحسن الله جزاءَ من استجاب له وآمن بكتابه ، وأساءَ حساب وجزاء من أعرض عن دعائه ، وكذَّب برسوله وكتابه .

ثُمَّ ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) : ليبين أن أصحاب العقول النظيفة ، والأَفكارالمستنيرة ، هم الذين يتذكَّرون ويتَّعظون بما يسمعونه مْن آيات الله البينات ، دون سواهم من أصحاب العقول المغطاة بحجب الباطل ، وغياهب التقليد .

روى أن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب – رضى الله عنه – وأبى جهل لعنه الله ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

(ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بِعَهْدِ اللهِ) : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به فى كتبه التى أنزلها إليهم .

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : المراد بالميثاق ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم ونحو عباده وقال القفال : هو ما ركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ، ونقض الميثاق : عدم العمل به .

(ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) : الابتغاءُ معناه الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

(وَيَدْرَءُونَ) : أى يدفعون .

(عُقْبَى الدَّارِ) : عاقبة دار الدنيا التى أعدت للصالحين – وهى الجنة .

التفسير

٢٠ – (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) :

بعد أن بيّنت الآية السابقة أن الذين يتذكرون ويتعظون بالمواعظ هم أصحاب العقول الصافية من عوامل الهوى ، جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان أوصافهم .

والمعنى : وما يتذكر إلا أُولو العقول الصافية الذين يوفون بما عاهدوا الله عليه من الاعتراف بربوبيته بقولهم : «بلى» جوابا لسؤاله البشر «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» : وذلك حين أخرج من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .

ويحتمل أن يكون المراد من عهده تعالى ما خَلَقَه فيهم من القوى العقلية والجسدية التى توجب عليهم عبادة الله ، ويتمكنون بها من أداء ما كلفهم به ، فإن ذلك بمنزلة العهد بينهم وبين ربهم ، ومن العلماء من فسر عهد الله بتكاليفه التى عهد إليهم بها فى كتبه التى أنزلها إليهم .

ثم ختم الآية بقوله : (وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : وهو تعميم بعد تخصيص إن أُريد من العهد الاعتراف بالربوبية ، أى ولا ينقضون ماوثقوه على أنفسهم من إيمانهم بربهم ومواثيقهم مع خلقه سبحانه مؤمنين أو كافرين ، فإن أُريد من كُلٍّ من العهد والميثاق العموم كانت هذه الجملة مؤكدة للأولى .

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ) :

هذه هى الصفة الثانية لأُولى الألباب الذين مدحهم الله بأنهم هم الذين يتذكرون .

والمعنى : وما يتذكر بالمواعظ إلا أُولو الألباب الأوفياء والذين يصلون ما أمر الله بوصله من الطاعات كَبِرِّ الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وأداء الحقوق للناس ، والإيمان بجميع الأنبياء دون تفريق بينهم ، والإحسان إلى جميع الحيوانات ، فكل ذلك وأمثاله من الطاعات يعتبر وصلا لما أمر الله به أن يوصل .

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) : أى ويخافون إلهههم ومالكهم وخالقهم ومربيهم ؛ يخافونه خوف إجلال وإعظام ، ويخافون أيضا سوء حسابه تعالى لهم فيبعثهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر الله بوصله ، ويبتعدوا عما يغضبه عليهم ، وسوءُ الحساب يكون بالمناقشة والاستيفاء وعدم التجاوز ، ومن نوقش الحساب عذب - نعوذ بالله من ذلك - فلا طوق لأحد بعذابه .

٢٢ ـ (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) :

هذه هى الصفة الثالثة لأولى الألباب .

والمعنى : وما يتذكر إلَّا أولو الألباب الذين صبروا على التكاليف . وقهروا النفس الأمارة بالسوء حتى أخضعوها لطاعة ربها ، وكان صبرهم هذا طلبا لرضا ذات ربهم ، من غير نظر منهم إلى جانب الخلق رياءً وسمعة ، ولا إلى جانب النفس زينة وعجباً . وأقاموا الصلاة المفروضة فأدَّوْها مستوفية الأركان والشروط ، وأنفقوا بعض مارزقناهم بحيث لايقل عما فرضه الله عليهم فى الزكاة ، وكان إنفاقهم له سرًّا . حينما يكون السر أولى فى الإنفاق من الجهر ، وجهرًا حينما يكون الجهر أرجح من السر . والإنفاق سرًّا أولى فيما إذا كان المنفق لايتَّهم بترك الزكاة ، أوكان الآخذ مستور الحال خشية أن يخدش حياؤه بأخذه الزكاة جهرًا ، وكما فى صدقة التطوع ، إلى غير ذلك من المقتضيات . والإنفاق جهرا أولى إذا كان لحمل المياسير على الاقتداء به ، أو خوفا من أن يتَّهم بالشحِّ ، أو لغير ذلك من الأغراض الشريفة .

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) :

أى ويقابلون السيئة بالحسنة ليمنعوا تكرارها ، فإنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك ، يستحى أن يكرر مساءته بعد أن قابلتها بإحسانك . مالم يكن المسىءُ لئيماً لايَثْنِيه الإحسانْ عن المساءة فإن مقابلة شره بمثله تكون أولى ، فإن من لم يتذأب أكلته الذئاب . وفسَّرها بعضُهم بأنهم يتبعون السيئةَ الحسنة فتمحوها كما جاء فى السُّنَّة .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) :

أى أُولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، لهم عاقبة دار الدنيا التى ينبغى أن تكون عاقبة لها بالنسبة للمكلفين فيها ، وهى الجنة .

(جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : العدن فى اللغة :الإقامة .ومنه عدن بالمكان أى أقام به ، وفى عرف الشرع اسم لجنة من جنان الآخرة . والمراد هنا المعنى الأول . أى جنات إقامة ، فهم يقيمون فيها لايبرحونها .

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان لكم من المحن والآفات .

التفسير

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) : لما بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة أن الصابرين ابتغاء وجه ربهم المتصفين بما جاء فيها من الصفات الجليلة ، لهم عاقبة حسنة بعد دار الدنيا ،جاءت هذه الآية لبيان أن هذه العاقبة هى الجنة ، وبيان من يدخلها معهم وما يقال لهم فيها .

والمعنى : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واتصفوا بتلك الصفات الجليلة ،لهم عاقبة الدار الدنيوية ، وهذه العاقبة هى جنات إقامة واستقرار يدخلونها ، ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم وإن لم يبلغوا فى الصلاح مبلغهم ،إكراما لهم وتعظيما لشأنهم ،وزيادة فى أنسهم ، وهذا الفضل يشهد به ماجاء فى قوله تعالى فى سورة الطور : « وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد فهم من هذه الآية وتلك ، أن دخول الجنة أولا بالصلاح ،وأساس الصلاح الإيمان ويكمله العمل الصالح ، وأما إلحاقهم بأقاربهم فى منازلهم العالية فيكون بالانتساب إليهم أصولا أو فروعا أو أزواجا.ولايحدث هذا الإلحاق إلا بعد استيفاء هؤلاء جزاء أعمالهم ، كما يصرح به قوله تعالى : «وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم

مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ». ولا يقتصر أمرهم على ذلك بل تبشرهم الملائكة بالأمن والسلام ، وذلك ماجاء فى قوله سبحانه : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ » أى تلك المنازل فى منازلهم الكريمة بالجنة ، يدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبوابها قائلين لهم :

٢٤ - (سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ) : أى أن الملائكة يبشرونهم بدوام السلامة من المخاوف بسبب صبرهم على التكاليف واحتمالهم آلام الحياة ومتاعبها ، وكأنهم يقولون لهم لئن تعبتم فى دنياكم فلقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى أخراكم ، ولم يعد للخوف والمشقة سبيل إليكم .

(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) :

يحتمل أن تكون هذه الجملة مما يقوله الملائكة للصابرين ، ويحتمل أنها ثناء من الله على الجنة التى جعلت عاقبة لدنياهم ومدح منه لها ، أى فنعم عاقبة الدار التى كنتم فيها حين التكليف ، هذه الجنة التى آل أمركم إليها حين الجزاء ، وكيف لا تكون كذلك وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) : المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ، وبنقضه عصيانه .

(مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) : من بعد توثيقه وتوكيده . (اللَّعْنَةُ) : الطرد من رحمة الله .

(سُوءُ الدَّارِ) : أى سوءُ عاقبة الدار الدنيا ، أو هو من إضافة الصفة للموصوف ، أى الدار السيئة ، وهى جهنم فهى دارهم ومأْواهم - وبئست الدار والمأْوى . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه . (ويَقْدِرُ) : يضيق . (مَتَاعُ) : شيءٌ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير

٢٥ - (وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ . .) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال أهل الوفاء بعهد الله وحسن مآلهم ، جاءت هذه الآية لتبين سوء حال من يتصفون بنقائض صفاتهم ، وسوء مآلهم يوم الجزاء ، وقد تحدثنا فى الآيات السابقة عن الوفاء بعهد الله بشىءٍ من التفصيل ، وتحدثنا هنا فى المفردات عن معنى هذا العهد إجمالا . ونَزيد عليه ماذكره الإمام الرازى فنقول : فسر الرازى عهد الله بما أَلزمه عباده عن طريق الأَدلة العقلية ، لأَن ذلك أَوْكَدُ من كل عهد ومن كُلِّ أَيْمان ، إذ الأَيمانُ إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، ثم قال والمراد من نقضها أن لاينظر المرءُ فيها فلا يمكنه حينئذ العمل بموجبها أو بأَن ينظر ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه ، أو بأَن ينظر فى الشبه فلا يعتقد الحق ، والمراد بقوله سبحانه : (مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) من بعد أن أَوثق الله تلك الأَدلة وأحكمها بدلائل أُخرى عقلية أَو سمعية ، لأَنه « شيء أَقوى مما دَلَّ على وجوبه فى أنه ينفع فعله ويضر تركه » : ا هـ باختصار ، ونقل الآلوسى عن بعض العلماء تفسيره للعهد بما أَوصى الله به عباده من التكاليف ، وتفسيره للميثاق بالإقرار والقبول - أى من بعد إقراره وقبوله .

ومعنى الآية إجمالا : والذين لايعملون بما كلفهم الله به عن طريق الأَدلة العقلية والنقلية ، من بعد ما أَكد الله تلك التكاليف بمختلف الأَدلة ، ويقطعون ما أَمر الله بوصله من الإيمان بجميع الأَنبياء الذين بعثهم الله بالحق هُدَاةً إلى البشر ، فتراهم يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض آخر ، كما يفعله أَهل الكتاب حيث يكفر اليهود بعيسى ومحمد

عليهما السلام ، ويكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويقطعون أيضا ما أمر الله بوصله من حقوق الأرحام ومحبة المؤمنين وموالاتهم وغير ذلك مما تقدم بيانه فى صفات أهل الوفاء من الصبر والصلاة والإنفاق فى وجوه البر ، ودرء السيئة بالحسنة ويضيفون إلى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل أنهم يفسدون فى الأرض بالظلم وإثارة الفتن ، فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات السيئة لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة الله .ولهم الدار السيئة التى جعلها الله مقرا لهم ، وهى جهنم وبئست دارًا ومقرًّا .

٢٦ - (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى أهل مكة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما - نقول : وكأنها نزلت لتنعى عليهم فرحهم بالحياة الدنيا مع أنها إلى زوال .وليبين أن سعة الرزق على الكافر ليست لإكرامه ،وتضييقه على المؤمن ليس لإهانته ؛ فكلا الأمرين صادر من الله تعالى لحكم إلهية يعلمها سبحانه ، فقد يوسع على الكافر إملاءً واستدراجا ؛ فلا وجه لفرحه ، وقد يضيق على المؤمن زيادة فى أجره ، والآية دستور عام ، وإن نزلت بسبب خاص .

والمعنى :الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيق الرزق على من يشاءُ ، دون أن يجعل الأول برهانا على الرضا ،ولا أن يجعل الثانى أمارة على المقت والغضب ، فكلاهما يخضع لمشيئته ،وحقٌّ لربوبيته لعباده ،وهو أعلم بحكمته . فلا يسأل عما يفعل ولايفترى عليه بالأسباب والعلل ، وقد فرح أهلُ مكة وَمَنْ على شاكلتهم بما أُوتوا من نعيم الحياة الدنيا وسعة الرزق فيها فركنوا إليها ، ولم يعملوا لما بعدها ،ومانعيم الحياة الدنيا فى جانب نعيم الآخرة إلاشيء قليل يتمتع به وليس له بقاءٌ ،كعجالة الراكب وزاد الراعى ، ولهذا لايهتم بنعيمها أصحاب المقامات العالية إذا غاب عنهم . أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : « نَامَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم عَلَى حَصَيرٍ فَقَامَ وقَدْ أثر فى جَنْبه ، فقُلْنَا يارسولَ الله : لو اتَّخَذْنَا لك وِطاءً ، فقال : مَالِي وللدُّنيا ، مَا أَنَا فى الدُّنياَ إلاَّ كَراكِبٍ اسْتَظَل تَحْت شَجَرَةٍ ثم راحَ وَتركَهَا » .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مَنْ أَنَابَ) : من رجع إلى الحق. (تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ) :تستقر وتستريح وتستأنس. (طُوبَى لَهُمْ) :قال الزجاج : طوبى فُعْلَى من الطِّيب ،وهى الحالة المستطابةُ لهم .وقال ابن عباس : فرحٌ لهم وقُرَّةُ عين . وقال قتاده : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى ترجع إلى ما ذكره الزجاج ، وقيل : هى اسم للجنة ، أو لشجرة فيها. (وَحُسْنُ مآبٍ) : وحسن مرجع .

التفسير

٢٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

لايزال الحديث مُتَّصلا فى شأن أهل مكة ، وذكرهم بعنوان الكفر لذمهم وتقبيح حالهم ، وبيان أنه السبب فى مقالتهم الآتية ، والمراد بهم عبد الله بن أبى أُمَيَّة وأصحابه حين طالبوا النبى صلى الله عليه وسلم بالآيات الكونية .

والمعنى : ويقول الذين كفروا من أهل مكة : هلا أُنزل على محمد آية من ربه كالتى اقترحوها عليه من سقوط السماء كِسَفًا عليهم ،وتحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ، وإحياء جدهم قصى ، وغير ذلك مما يتنافى مع الحكمة ولايناسب عصر رسالة القرآن .

وهؤلاء المقترحون لم يشعروا بأن القرآن الذى يتلى عليهم هو آية الآيات ، وأبقى المعجزات فما من آية جاء بها رسول قبله إلا أصبحت خبرا ، ولم تترك أثرا ، وهى لذلك مجال

لإنكار المنكرين ،وزعم أنها ضرب من الحكايات والأساطير ،يقولها أرباب الديانات ولا أساس لها من الصحة ، ولو صحت لكانت سحرا ، أما القرآنُ فهو باق مابقى الزمان ،وإعجازه عام للإنْسِ والجان ، وهو الذى أيد معجزات الأنبياء ، وحماها من إنكار المكذبين .

(قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) :

قل لهم أيها الرسول : إن الله تعالى يتخلى عن هداية من يشاءُ من أهل الإصرار على الكفر ، فلا يوفقهم إلى معرفة مافى القرآن من آيات وإعجاز ،ولا إلى الإيمان بِهِ وبِمَا أظهر الله على يدى رسوله من سائر الآيات ، ويهدى إليه سبحانه من رجع عن العناد والمكابرة ، وألقى السمع وهو شهيد ، ثم بين حال من أناب إليه فقال :

٢٨ـ (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) :

المقصود من الذين آمنوا الذين اتَّجهوا إلى الإيمان لحسن استعدادهم عندما سمعوا آيات الله ، لرقة قلوبهم وصفاء نفوسهم ، وانعدام مكابرتهم ، فهؤلاء هم الذين يهديهم الله إليه.

والمعنى : ويهدى الله إليه من أناب ورجع إليه بعد الكفر حين سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، وهم الذين استعدت للإيمان نفوسهم ،واطمأنت قلوبهم بذكر الله وآياته ، ألابذكر الله وقرآنه تطمئن القلوب الصافية ،وتسكن النفوس الحائرة ، واستعمال الإيمان فى الآية بمعنى الاستعداد له والتأهب للوصول إليه يماثل استعمال المتقين فى قوله تعالى : «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» .بمعنى هدى للصائرين إلى التقوى لحسن استعدادهم .

٢٩ ـ (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) :

جاءت هذه الآية لتبشر الذين اهتدوا إلى الله فآمنوا وعملوا الصالحات ، .

والمعنى : الذين آمنوا بربهم ونبيهم وعملوا الأعمال الصالحة بعد أن هداهم الله إليه لحسن استعدادهم وصفاء قلوبهم ، هؤلاء لهم فرح وكرامة ، وحسن مرجع فى الدار الآخرة ، فإن مرجعهم إلى جنة الله ورضوانه .

(كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾)

التفسير

٣٠ - (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ . . .) الآية . (١)

أى كما أرسلنا المرسلين قبلك يامحمد أرسلناك فى أمة قد مضت من قبلها أممٌ أولئك المرسلين - أرسلناك فى هذه الأمة - لكى تقرأ عليها القرآن الذى أوحيناه إليك - وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن لعلهم بعد سماع القرآن يثوبون إلى رشدهم ، فيؤمنون بوحدانيته تعالى ، ويدركون مبلغ نعمته ورحمته ، ومن أعظم مظاهرها إرسالك يامحمد بالهدى ودين الحق إليهم ، قل لهم أيها الرسول : الرحمن الذى كفرتم به وعبدتم سواه هو ربى وحده دون غيره ، فإنه لايستحق الألوهية أو العبادة إلا هو ، عليه اعتمدت فى الأمر كله ، وإليه مرجعى ومرجعكم ، فكيف تكفرون به وهو محاسبكم ومجازيكم ،والتعبير بقوله تعالى : « كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ » ، إيذان بأنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وليسوا بدعا من الأمم - هذا : وقد جاء فى سبب نزول الآية أقوال . فمقاتل وابن جريج يقولان : نزلت فى صلح الحديبية حين أرادوا كتابة وثيقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلىّ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون : مانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب باسمك اللهم - وهكذا كان أهل

(١) الإشارة فى (كذلك) راجعة إلى إرسال الرسل قبله وإن لم يجر لهم ذكر ، لدلالة قوله : (قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم) قاله الحسن ، وقيل الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بمعجزة القرآن ، فكأنه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يامحمد فى أمة..الخ .

الجاهلية يكتبون – فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : «اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب . هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله ؛ فقال أصحاب النبى : دعنا نقاتلهم ، فقال : «لا ولكن اكتب مايريدون» فنزلت . وابن عباس يقول : نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى : «اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ» [١] .

وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحجر قائلا : «يا ألله يارحمن» فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين . فنزلت هذه الآية ونزل أيضا قوله تعالى : «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) : أزيلت من أماكنها . (يَيْئَس) : بمعنى يعلم ، كما حكاه القشيرى عن ابن عباس ، وذكره بهذا المعنى الجوهرى فى الصحاح ويرى هذا الرأى مجاهد والحسن وأبو عبيدة ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرى .

أقول لهم بالشعب إذ يَيْسَرُونَنِى . . ألم تيئسوا أنِّى ابنُ فَارِسِ زَهْدَم

وييسروننى من الميسر – ويُرْوَى يأْسروننى من الأسر [٢] – انظر القرطبى . وقال رباح بن عدى

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١١٠ . (٢) وكان الشاعر قد أسر ؛ فضربوا عليه بالميسر يتقاسمون فداءه .

ألم ييئس الأقوام أنى أنا ابنه : وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا .

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع - كما حكاه الفَرَّاءُ عن الكلبى - انظر القرطبى - وقيل فى لغة هوازن كما قاله القاسم بن معْن ، وسيأْتى لذلك مزيد بيان فى التفسير . (قارِعةٌ) : مصيبة تصيبهم - من قَرعه إذا أصابه ، والأَصل فى القرع - الضرب ، فكأَنها إذ تصيبهم تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) :

حكت الآية (٢٧) من هذه السورة اقتراحهم آيات كونية على الرسول ، إذ قالوا : «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ» ، ثم نَعَتْ تلك الآية المذكورة وما بعدها عليهم ضلالهم ، وبينت أن ذكر الله - وهو القرآن - تطمئن به القلوب ؛ فهو خير لهم مما اقترحوه من الآيات ، ووعدت المؤْمنين الصالحين بالجنة ؛ وبينت لهم أن الرسول إنما أُرسل بمعجزة القرآن ليتلو عليهم الذى أَوحاه الله إليهم ؛ فهو المعجزة الباقية مابقى الزمان دون سائر المعجزات ، فإنها تصبح خبرا بعد عين ، وحكاية ترْوَى بعد الرسول الذى جاء بها ؛ فتكون فى الأَجيال التالية عرضة للتصديق والتكذيب ؛ وما كذلك القرآن .

وجاءت هذه الآية لتبين عظمة القرآن ورجحانه على مايقترحونه من الآيات . يروى أَن نفرا من مشركى قريش فيهم أَبو جهل وعبد الله بن أَبى أُمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أَرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأَتاهم فقال له عبد الله : إنْ سَرَّك أَن نَتَّبعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأَذهبها عنا حتى تتسع أَرضنا الضيقة ؛ واجعل لنا فيها عيونا وأَنهارا حتى نغرس ونزرع ، فلست كما زعمت - بأَهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مِيرتَنَا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا ، فقد سخرت لسليمان الريح كما زعمت ، فلست بأَهون على ربك من سليمان بن داود ، وأَحْىِ لنا قَصَب[1] جدك أَو مَنْ شئت من موتانا نسأَله ، أَحقٌّ

(١) القصب : العظم المستطيل الأجوف .

ماتقول أم باطل ، فإن عيسى كان يحيى الموتى ، ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله هذه الآية والآيات التى قبلها للرد عليهم .

والمعنى : ولو أن أىَّ قرآنٍ تسير به الجبال وتزول عن أماكنها حين يقرأ عليها ، أوتقطع وتُشَقَّقُ به الأرض أنهاراً وعيونا تروى بمائها الأرض بعد إزالة جبالها ، أو تكلم به الموتى لتصبح أحياء ، لكان الذى يحدث عنده كل هذا هو القرآن الذى أنزله الله علىّ لأبلغكم إياه ، لانطوائه على بيان عجائب قدرة الله وعظيم جلاله ، ولأنه كلام الحق سبحانه ، الذى يقول للشىء «كن فيكون» ولكن القرآن لم ينزل ليحقق لكم بذاته هذه المطالب الكونية من الينابيع وتسخير الرياح وغيرهما ، بل نزل ليرشدكم إلى وسائل تحقيقها ، ويعلمكم بذل الجهد العقلى والعملى لكى تحصلوا عليها ، فإن العالم الأكبر ينطوى فى الإنسان بعقله وذكائه وقدرته وقواه التى أودعها الله فيه .

وليعلم العاقل أن الهدف الأول للقرآن هو معرفة الله وأداءُ واجباته ، والعمل للدنيا والآخرة ، فقد مضى الزمن الذى كان يرتزق فيه الكسالى من دعاء أنبيائهم ، حيث كانوا يحصلون به على المن والسلوى ونحوهما ، ويحصلون على الماء بالمعجزات ، وجاء الزمن الذى يبرز فيه المولى سبحانه خيرات الأرض والماء والهواء والطاقة بجهد الإنسان وعرقه ، واستخدام الطاقات التى أودعها الله فيه ، وهذا ما عنى القرآن بتوجيه البشر إليه ، كما فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » . وقوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ » . وقوله : « والخَيْلَ والْبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ » وقوله : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ والْأَرْضِ » . وقوله : « فاعْتَبِرُوا يا أُولى الْأَبْصَارِ » .

وغير ذلك من الآيات التى تحض على النظر والاستنباط ، والانتفاع بخيرات الله ونعمه بالجد والاجتهاد والكدح .

ومن أجل هذا المنهج السديد الذى رسمه القرآن لأمة القرآن ، امتلك المسلمون مفاتيح العلم ، وتمكنوا من ولوج أبوابه إلى معاقد العز والرفعة والمجد فى كل ناحية من نواحى الكرامة ، والأمم من حولهم يغطون فى سبات عميق ، وينتظرون موائد تنزل لهم من السماء ، أو يفسدون فى الأرض بغير الحق .

ذلك هو شأن القرآن الذى لم يحرك قلوب قريش ليؤمنوا به ، ويكتفوا بمعجزته ، مع أنه تعالى يقول فى شأنه : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

واعلم أن لكل نبى معجزة أيده الله بها تناسب أمته ومدة بقائها على شريعته ، واختار الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن ليكون دستورا لها وآية إلى أن تقوم الساعة ، فإن الله تعالى جعلها الأمة الخاتمة للرسالات ، فكانت معجزةُ نبيِّها صلى الله عليه وسلم ، باقيةً ببقائها ، وهاديًا يهديها ما بقى الزمان . ولقد أوتى النبى صلى الله عليه وسلم غير القرآن معجزات كثيرة ، ولكنها لم تكن للتحدى ، بل لتكريمه صلى الله عليه وسلم ، ورحمة بالمؤمنين فى مواقف الشدة ، ومعظمها ظهر فى المدينة كإنزال الغيث ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل .

وقليل منها ظهر بمكة كانشقاق القمر ، ووصْفِه لبيت المقدس وأحوال عير قريش صباح ليلة الإسراء والمعراج ولكن الله لم يأذن له بالتحدى بشىء من ذلك ، ولم يجعل تلك الخوارق آية رسالته الحاسمة ، بل جعل آيتها دستورها الباقى بقاء الزمان ، وهو القرآن ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَامِنَ الأَنبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ . وإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » أخرجه البخارى فى صحيحه .

(بَلْ للهِ الأَمْرُ جَمِيعًا) : أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى لكان هذا القرآن ، لكنَّ هذا لم يحدث بل حدث سواه ، لأن الأمر لله وحده يفعل ما يريد وفقا لمشيئته وحكمته ، التى اقتضت أن تكون آية النبوة فى الإسلام هى دستوره ، وهو القرآن لا غيره من الخوارق ، ولهذا لم يأذن الله للرسول بأن يتحدى بما ظهر على يده من الخوارق سواه .

(أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَىَ النَّاسَ جَمِيعًا) :

لم ينزل القرآن بلغة قريش وحدها . بل اشتمل عليها وعلى غيرها حتى يعلم العرب أن القرآن بلغتهم جميعًا . وهذا ماعناه النبى صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف

وكلمة « ييئس » هنا بمعنى يعلم فى لغة النخع - كما حكاه الفراء [١] - وفى لغة هوازن - كما حكاه مجاهد والحسن والقاسم بن معين. [٢]

والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لويشاء الله هداية الناس جميعا لفعل . ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله ، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها .

ومن العلماء من حملها على معناها المعروف وفسر الآية عليه كما يلى : أفلم ييئس الذين آمنُوا من إيمان المشركين لأنه لو يشاء الله لهداهم جميعا ، وهم لم يهتدوا بل أصروا على الكفر ، فكان حقٌّ المؤمنين أن ييئسوا من إيمانهم ، ويدركوا أنه تعالى لم يشأْ هدايتهم .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْتَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ) :

أى ولايزال الكافرون من أهل مكة تنزل بهم بسبب مافعلوه من الكفر بالله وإيذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم - تنزل بهم بسبب ذلك - داهية تقرعهم وتقلقهم من آن لآخر ، كالذى كان يحدث لهم حينا بعد حين من القتل وَالأَسْر وأخذ غنائمهم فى غزوات المسلمين وسراياهم ، أو تحل تلك الداهية فى مكان قريب من دارهم (مكة) فيتطاير إليهم شررها ويصابون بلهبها [٣] ، حتى يأْتى وعد الله بفتح مكة وسقوط معقل الشرك ، فيتم للمؤمنين النصر ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، إن الله لايخلف وعده فى الأَمر كله .

ويصح أن يراد من الذين كفروا ، كل من كفر بالإسلام ، فتكون الآية وعيدا لمن يؤذى المسلمين بانتقام الله فى الدنيا من آن لآخر ، حتى يأْتى وعد الله بموتهم أو بالقيامة فيجزيهم شر الجزاء ، وإلى هذا الرأْى مال الحسن وابن السائب .

---

(١) عن الكلبى ، وحكاه الآلوسى عن ابن الكلبى .

(٢) انظر القرطبى والآلوسى .

(٣) ومن ذلك ما كان من صلح الحديبية ، حيث عاد عليهم بالضرر وعلى المسلمين بالخير .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفـردات :

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى أمهلتهم وتركتهم ملاوة [1] من الزمان دون عقاب .

(قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) : رقيب ومهيمن عليها .

التفسير

٣٢ـ (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من الاستهزاء والتكذيب واقتراح الآيات .

والمعنى : ولقد استهزأ الكفار السابقون ، برسل كثيرين بعثناهم من قبلك إليهم لهدايتهم ، وأيدناهم بالمعجزات الشاهدة بصدقهم ، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وأهانوهم فلست وحدك

(١) الملاوة : الفترة من الزمان وهى مثلثة الميم .

فى استهزاء الكافرين بك فإن ذلك أمر مطرد يلقاه رسلنا من أقوامهم . فأمهلت أولئك المستهزئين لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذتهم بعقابى حين لم ينفعهم الإمهال ، وكان عقابى لهم هائلا ، حيث لم يبق من الكافرين ديارٌ .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى: « فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب » التعجيب من شدة العقاب وفظاعته .

٣٣ـ (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ) :

هذا الاستفهام مترتب على ما سبق بيانه ، من أن الأمر كله لله وأنه يهدى من يشاء ويخذل من يشاء من أهل الضلال ، وأنه يملى للكافرين ثم يأخذهم بذنوبهم إلى غير ذلك مما تقدم .

والمعنى : أفمن كان شأنه ما تقدم من هيمنته على كل نفس يعلم سرها ونجواها ، ويجزيها بما كسبت من خير أو شر . أفمن كان كذلك يشبه الأصنام التى ليس لها عليهم من سبيل وقد جعلوها له شركاء مع ضعفها وعدم فائدتها ، ثم أمر الله رسوله أن يبكتهم فقال :

(قُلْ سَمُّوهُمْ) : أى قل لهم أيها الرسول تأنيبا وتقريعا : اذكروا لى أسماءهم وأوصافهم التى جعلتهم فى نظركم يستحقون العبادة مع الله ، ولن يجدوا لهم من الأوصاف ما يستحقون به شيئا من التكريم فضلا عن العبادة .

(أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ) :

أى بل أتخبرون الله بشركاء زاعمين استحقاقها للعبادة وهو لايعلمها فى أرضه ، مع أنه سبحانه لا تغيب عن علمه ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل أتخبرونه عن ألوهيتها بظاهر من القول من غير أن يكون لها حقيقة ولا دليل ،كتسمية القبيح وسيما والزنجى كافورا .

(بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) : بل زين الشيطان لهؤلاء المشركين باطلهم وصدهم عن سبيل الحق .

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) : ومن يتخل الله عن معونته بسبب إصراره على الكفر فليس له من هاد يوصله إلى الحق ، وينجيه من عاقبة ضلاله .

٣٤ـ (لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) :
أى لأولئك المشركين عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والأسر والمصائب والمحن ، ولعذاب الآخرة أكثر من عذاب الدنيا مشقة لشدته ودوامه ، وما لهم من عذاب الله من حافظ يعصمهم ويقيهم ، نسأل الله السلامة وحسن العاقبة .

(* مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مَثَلُ الجَنَّةِ) : المثل هنا بمعنى الصفة العجيبة ، وأصله بمعنى الشبيه والنظير .

(أُكُلُهَا دَائِمٌ) : أى ثمرها باق لا يغيب ولا ينقطع .

(عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى مآلهم وعاقبتهم .

التفسير

٣٥ـ (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه فى الآية السابقة عقاب الكفار فى الدنيا والآخرة ، عقبها بهذه الآية لبيان ثواب المتقين فى الآخرة ، والمقارنة بين عاقبتهم وعاقبة الكافرين .

والمعنى : صفة الجنة التى وعدها الله عباده المتقين وحالتها العجيبة الشأن أنها تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار بين جوانبها وحيث شاء أهلها ، كما قال تعالى : « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » .

فهم يصرفونها حيث شاءوا وكيف أرادوا ، وتلك الأنهار كما قال سبحانه فى سورة محمد : « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غيرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » .

ومن صفتها : (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) : أى ثمرها باق لا ينقطع فى أى وقت من الأوقات وظلالها باقية لا تنحسر ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها . كما قال سبحانه : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »(١)

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ) : أى هذه الجنة العظيمة الشأن عاقبة الذين اتقوا ربهم فتجنبوا الكفر والمعاصى ، وعاقبة الكافرين به وبنبيه النار ، وشتان بين العاقبتين ، فما بال الكافرين لا يعقلون .

(وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْكِتَاب) : المراد به هنا التوراة والإنجيل .

(الْأَحْزَاب) : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

(مَئَاب) : مرجع ومصير .

(١) الآيتين ١٣ ، ١٤ من سورة الإنسان .

التفسير

٣٦ - (وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ...) الآية .

يرى الإمام ابن عباس رضى الله عنه أن المقصود من الذين آتيناهم الكتاب هم مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلام وكعب، ومؤمنى نجران والحبشة فهؤلاء كانوا يفرحون بالقرآن حين يسمعونه إيمانًا منهم بأنه كتاب الله الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر - وقيل : إن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون وقد كانوا يفرحون بنور القرآن الكريم وتوالى نزول آياته .

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) : المراد بالأحزاب على رأى ابن عباس : كفرة اليهود والنصارى الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة والبغضاء ، ككعب ابن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأتباعهما ، أما على الرأى الثانى القائل بأن الذى يفرح هم المسلمون فالمراد بالأحزاب كفار اليهود والنصارى ، والمراد من (بعضه) الذى ينكره أهل الكتاب هو الشرائعُ التى جاءت مخالفة للتوراة والإنجيل تبعًا لتغير الزمان والأجيال ، أو هو مالا يوافق ماغيروه وبدلوه فى كتبهم ، وأما ما يوافق مافى كتبهم فإنهم لاينكرونه وإن لم يفرحوا به .

(قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) : أى قُل يا محمد صادعًا بالحق غير مكترث بإنكارهم بعض القرآن ، قل لهم : ما أمرنى الله فى القرآن الذى تنكرونه أو تنكرون بعضه إلا بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئًا فى عبادته ، وقد أمرنى أن أدعوكم إلى ذلك بقوله سبحانه : « قُلْ يـأَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) : أى إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعًا ، وإليه وحده مرجعى ومرجعهم للجزاء ، فلذلك لا أُقِرُّ ما أنتم عليه من اتخاذ اليهود عزيرًا ابْنًا لله واتخاذ النصارى

المسيح ابنًا له كذلك لاستحالة ذلك على الله تعالى ، وإذا كنت أدعوكم إلى وحدانيته ، ولابرهان لكم على مزاعمكم ، فلماذا لا تستجيبون لما دعوتكم إليه ، وكل الآيات تدل عليه وترشد إليه.

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) : أى أنزلنا القرآن حاكمًا للناس فى قضاياهم بلسان العرب

(وَلَا وَاقٍ) : أى ولا حافظ . من وقاه يقيه وقاية ؛ أى حفظه .

التفسير

٣٧ - (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ...) . الآية .

أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنتهم ، أرسلناك وأنزلنا عليك القرآن عربيًّا بلسانك ولسان قومك ، ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره والرجوع إليه فى الأحكام ، وإنما سمى القرآن حكمًا لما فيه من الأحكام والشرائع التى يحتاج إليها المكلفون ، وتقتضيها الحكمة ليصلوا بها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ، وكان عربيا لأن الأُمة التى بعث منها الرسول لغتها العربية ، فجاء القرآن بلغتهم ليفهموه ويبلغوه لغيرهم .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) : أى ولئن اتبعت يا محمد أهواء الكافرين التى يدعونك إليها مخالفةً لما أُنزل إليك من الحق كاستقبال بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وكعبادة غير الله ابتغاء مرضاتهم .

(مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) : أى بعد ثبوت العلم عن طريق الوحى والحجج الساطعة والبراهين القاطعة .

(مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنَ وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ) : أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينقذك منه ، ويقيك من عذابه إن أراد عذابك . والخطاب هنا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد الأُمة ، وفى هذا وعيد لأهل العلم إن هم حادوا عن الطريق واتبعوا سبل أهل الضلالة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : الأَجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير

٣٨ – (ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ...) الآية .

فى هذه الآية جواب عن شبهات أوردها أعداءُ النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قولهم : مانرى لهذا الرجل همة إلا النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقًّا لما اشتغل عن رسالته بالنساء ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى هذا تذكير بما كان عليه سليمان وداود عليهما السلام حيث كانت لهما أزواج كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك فى نبوتهما ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اقتصرت حياته الأُولى على زوجة واحدة إلى سن الثالثة والخمسين فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حدثت ظروف ودواع اقتضت الإصهار إلى القبائل لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ، بذلك تظهر الحكمة فى هذا التعدد فلا مجال لإثارة الشبه حول هذا التعدد فى أواخر حياته ، لأَنه لايعقل أن يكون ذلك لدواعى الشهوة فى سن الشيخوخة .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين من قبلك أيها الرسول شأنهم كشأنك ، حيث جعلنا لهم أزواجًا كثيرات وذرية كثيرة ، فلست فى ذلك بدعًا من الرسل .

وحين قالوا : لو كان رسولا لجاء بالآيات التى طلبناها منه . رد الله عليهم بقوله سبحانه :

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : أى ليس فى وسع رسول من الرسل أن يأتى بمعجزة وفق ما يقترحه قومه إلا متى شاء الله . فهو وحده يحكم مايشاء ويفعل مايريد . ثم بين الله سبحانه الحكمة فى تغيير الشرائع بقوله جل شأنه :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : أى لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله . وينتهى بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد ، ويترتب على ذلك أن الشريعة تختلف على حسب اختلاف أحوال الناس التى تتغير بتغير الأوقات وتتابع الأزمان والأجيال . ومثل ذلك كمثل اختلاف العلاج باختلاف أحوال المرضى وبحسب الأوقات .

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(يَمْحُو) : المحو الإزالة ، والمراد به هنا نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .

(أُمُّ الكِتَابِ) : أصل الكتاب ، والمراد به علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٣٩- (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ . . .) الآية .

أى يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويبقى ما يشاء منها ثابتًا كما هو فلا ينسخه ولا يبدله ، أو يأتى بشرع جديد مكان شرع سابق ينسخه به ، فإن الحكمة تقتضى أن ينسخ الله ما يشاء أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ويثبت بدله أو يبقيه على حاله من غير نسخ ، لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد .

واعلم أنه سبحانه وتعالى جعل الشرائع كلها متفقة فى الأصول ، فكلما أتى نبى جاء بشريعة متفقة مع الشرائع السابقة فى تلك الأصول التى لا سبيل إلى تغييرها ، ومن ذلك ما تضمنه قوله تبارك وتعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . » الآيات من سورة الأنعام. فهذه الأصول وأمثالها لاتتغير ولا تتبدل بتغير الرسالات والكتب السماوية ، أما الفروع فإنها عرضة للتغيير والتبديل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التى تزكى ، وكتحليل بعض المحرمات ، وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . » . وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم . هذا ، ويمكن أن تكون الآية الكريمة عامة فى كل ما يمحوه الله ويثبته من شئون الكون ، فالأمر كله لله يفعل ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بحكمته .

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) : أى وعند الله تعالى أصل الكتاب وقد فصل فيه كل ما يجريه سبحانه فى الشرائع من المحو والإثبات ، وفى الكون من التغيير والتبديل ، فكل ذلك لايثبته الله ابتداءً ، وإنما هو قضاءٌ عنده قديم يبرزه فى وقته وحينه الذى حدده سبحانه وتعالى طبقًا لحكمته ، وقد عرفت فى المفردات أن المراد بأم الكتاب علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ) : ما هنا لتأكيد معنى الشرط ، أى وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية أو لإفادة تجدد الوعيد .

(مِنْ أَطْرَافِهَا) : الأَطراف ؛ الجوانب .

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) : أى لا راد له . والمعقب هو الذى يكر على الشىء فيبطله . ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به معقب ، لأنه يتتبع غريمه بالاقتضاء والطلب .

التفسير

٤٠ـ (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) : أى إن أريناك يا محمد مصارع أعدائك المصرين على الكفر وما وعدناهم من إنزال العذاب بهم ، فذلك انتقام عاجل لك من أعدائك ،وإن توفيناك قبل حلول وعيدنا بهم ، فلا تجزع لذلك ، فما عليك إلا تبليغ الدعوة وتبليغ الوعيد على الكفر بها ، وعلينا وحدنا حسابهم وجزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم ، فى الوقت الذى تقتضيه الحكمة فإننا نعلم من المصالح الخفية مالا تعلم ، فدع الأمر لنا وبلغ ما أُنزل إليك من ربك ،وفى التعبير بقوله : « نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ » إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم سيرى بعض الموعود ، ولهذا بشره الله عقب هذه الآية بظهور تباشير النصر بقوله :

٤١ـ (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : أى أينكر المشركون تنفيذ وعيدنا ونصرنا لرسولنا ، ولم يروا أننا ننقص أرض الكفر من جوانبها ونواحيها ، بفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا وإلحاقها بأرض الإسلام ، وقتل بعض من يقف فى سبيل الدعوة أو أسرهم أو إجلاء البعض الآخر ، أليس هذا بعض الذى نعدهم ؟

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) :أى والله يحكم فى خلقه بما يشاءُ لا يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ، وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون ، بإقامة موازين العدل فيها والسير على نهج الحق ــ وقد حكم للإسلام وأهله بالغلبة والإقبال ما داموا فى طاعة الله ،يجاهدون فى سبيله ، واثقين من صدق وعده بالنصر لمن ينصرونه ،وكما حكم للإسلام وأهله بالإقبال والنصر لأنهم أهل الحق ،حكم على الكفر وأهله بالإدبار و الانتكاس ، لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : أى سيحاسبهم ويجازيهم بعد قليل فى الآخرة بألوان العذاب ، وكل آت قريب ، وذلك بعد تحقيق الوعيد عليهم فى دنياهم بالقتل والأسر والإجلاء .

(وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(مَكَرَ) : المكر ؛ هو تدبير المكروه فى خفية .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه.

(عُقْبَى الدَّارِ) : أى عاقبة دار الدنيا .

(عِلْمُ الكِتَابِ) : أى علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز، والحكمة التى لاتضارع ، أو علم التوراة والإنجيل وما فيها من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير

٤٢ ـ (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مكر الذين كفروا من قبل مشركى مكة برُسُلِهم ، وكادوا لهم . وكفروا بهم ، كما فعل نمروذ وقومه بإبراهيم، وفرعون وقومه بموسى ، واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين المفسدين .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى فالله تعالى محيط بمكرهم كله ، فلا يغيب عن علمه شىءٌ منه ، وهو قادر على إحباطه والانتقام من مدبريه، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأمين له من مكرهم ، وقد صارحه الله بذلك حيث قال له : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

(١) المائدة ؛ ٦٧

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) : من خير أو شر ، فيثبت أولياءه ، ويحميهم من شرور أعدائهم ، ويعاقب الماكرين بهم بما يستحقونه من عقاب ، وفى هذا تهديد ووعيد للكافرين الماكرين أكده بقوله .

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) : أى وسيعلم الكفار إذا قدموا على ربهم يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة ، لهذه الدار الدنيا ، أهى لهم ؟ أم للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعه من المؤمنين ، ولاشك أنهم سيعلمون يومئذ أن العاقبة الحميدة للمتقين ، كما قال تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »[1] .

٤٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) : أى ويقول المشركون من العرب ، الجاحدون لنبوتك : يا محمد لَسْتَ برسول من عند الله ، وإنما أنت متقول على الله تعالى ، يقولون له ذلك بعد أن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ليعالجوا بهذا الإنكار قصورهم وضعف حجتهم ، فهم حينما ينكرون لا مستند لهم فى إنكارهم ، بل قامت الأدلة الواضحة على أنه مرسل من عند ربه ، فما أكثر المعجزات التى أيده الله بها .

(قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) : أى حسبى الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدق وأننى قد بلَّغت ، وشاهدا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) : مِمَّن أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل فإنهم كانوا يجدون البشارات عنه فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهله من أهل الكتاب فإنهم بجواركم ، كما قال تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ »[2] .

والله أعلم

(١) سورة القصص ٦٣ (٢) سورة الأنبياء ٧٧

سورة إبراهيم

آياتها اثنتان وخمسون ، وهي مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر ، وهو الذى عليه الجمهور ، وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا آيتين منها فهما مدنيتان ، وهما قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) »

فقد نزلتا فى قتلى بدر من المشركين ، أخرجه البخارى عن ابن عباس وأبو الشيخ عن قتادة .

المقاصد التى تناولتها السورة

اشتملت سورة إبراهيم على المقاصد التالية :

١ - الحديث عن القرآن الكريم وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وأثرهما فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بفضل الله وهداه ، وإنذار الذين ينصرفون عن الهدى بالهلاك إذا أصروا على الكفر والضلال .

٢ - تقرير أن الله سبحانه أرسل الرسل بلغات أقوامهم حتى يستطيعوا فهمها وأداء شعائرها ولتقوم عليهم حُجة الله .

٣ - ذكر نبذة من قصة موسى عليه السلام مع قومه ، وتذكيره إياهم بنعم الله ومايجب عليهم له سبحانه من عبادة وشكر .

٤ - ذكر نبذة من أخبار الرسل مع أقوامهم ، وماقابلوا به رسالاتهم من جحود وإنكار وانتقام الله من هؤلاء المعاندين المكابرين .

٥ - تقرير ضلال الكفار وحبوط ما قدموه من أعمال طيبة ، لأنها لا تقوم على الإيمان .

٦ـ ذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث يتبرأ أتباع الكفار من رؤسائهم وحيث يتبرأ الشيطان ممن أغواهم ودفعهم إلى الفساد . على حين يمن الله على عباده الأتقياء بأحسن الجزاء .

٧ـ ذكر الآثار الطيبة للكلمة الطيبة، وأن الله يبارك فيها وفيمن دعا إليها ومن استجاب لها ، وذكر الآثار السيئة للكلمة الخبيثة وأن الله يمحقها ويمحق من دعا إليها ومن استجاب لها من المنحرفين .

٨ـ الدعوة إلى التعجب ممن يقابلون نعم الله بالجحود و الكفران . ويضلون أقوامهم فيقودونهم إلى النار .

٩ـ دعوة المؤمنين إلى التمسك بإيمانهم وأداء شعائر دينهم . وإلى شكر نعم الله العديدة عليهم ، وأنها لا يمكن إحصاؤها سواء فى أرجاء الأرض أم آفاق السموات .

١٠ـ تذكير قريش بنعم الله عليهم ، واستجابته لدعاء إبراهيم عليه السلام من أجلهم وأن عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع و آمنهم من خوف .

١١ـ إنذار المشركين بما أعده الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة . وتأكيد هذا الإنذار وأنه واقع بهم لا محالة « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

١٢ـ تقرير ما ورد فى السورة الكريمة من تبشير للمؤمنين وإنذار للكافرين . وأنَّ فى هذا بلاغًا للجميع ليسرعوا بالعودة إلى توحيد الله وعبادته ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وإيقاظ العقول لتتجه إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾)

المفــردات :

(الٓر) : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل إنها أسماءٌ لها ، وقيل أسرار محجوبة ، وقيل إنها رمز للتحدى ، وقيل إشارة لابتداء كلام وانتهاءِ كلام ، وقيل غير ذلك .

وقد سبق تفصيل الكلام فيها أول سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت .

(الظُّلُمَاتِ) : الضلالات ، فإنها ظلمات معنوية .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهدى إلى الحق .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : بتيسيره وتوفيقه.

(إِلَى صِرَاطِ) : أى إلى طريق .

(الْحَمِيدِ) : أى المحمود ، والمراد أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

(وَوَيْلٌ) : الويل : الشر والهلاك .

(يَسْتَحِبُّونَ) : يختارون .

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : يمنعون غيرهم عن دينه الذى يوصل إلى مرضاته وثوابه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى ويطلبونها. والضمير عائد على السبيل فإنها مؤنثة . أى ويطلبون لسبيل الله العوج .

التفسير

١ - (الٓر) :

أجملنا الكلام على (الٓر) فى المفردات . وأحلنا القارىء على ما كتبناه منفصلا عن الفواتح الهجائية فى أول سورة البقرة فارجع إليه إن شئت .

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) : أى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم .

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : أى بعثناك بهذا القرآن وأنزلناه إليك لِتُخرِجَ الناسَ عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم من ظلمات الكفر والجهل والحياة الضالة إلى نور الإيمان والعلم والحياة البارة الرشيدة -لما اشتمل عليه من الآيات الباهرات التى تحث على التفكر والتدبر ، والنظر فى حقائق الكون الدالة على وحدانية الله وتفرده بالخلق - والإبداع . . . ولما حواه من المنهج السديد الذى تسعد به البشرية كلما سلكته ، وتشقى كلما ابتعدت عنه .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، فهو الهادى لمن أراد له الهداية على يدى نبى هذه الأُمة صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وبما تركه لأُمته من كتاب الله تعالى وسنته بعد انتقاله إلى ربه .

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : أى إلى الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، طريق العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع ، فهو القاهر لكل ما سواه المستحق للحمد ، ويلاحظ أن « صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بيان للنور فى قوله: « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . فهو النور الذى أخرجهم من الظلمات إليه فى العقائد والأَخلاق والتشريعات الرشيدة .

٢ ـ (اللهِ[١] الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) : أى هذا الكتاب أنزلناه لتخرج الناس إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى الكون ملكًا وإبداعًا وتصرفًا ، فهو سبحانه يتصرف فيه وحده حسب ما تقتضيه حكمته الأزلية.

وقرأ نافع وابن عامر : (اللهُ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموات . . .) برفع لفظ الجلالة ، على الاستئناف .

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عذَابٍ شَدِيدٍ) : هذا وعيد لمن كفر بالقرآن وخالف من أنزله ، وكفر بمن أُنزل عليه ، أى وهلاك يوم القيامة ناشىء من عذاب شديد لمن كذبك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد للفرد الصمد، القوى المنتقم الجبار . . وقد وصف الله الكافرين بصفات ثلاث ـ الأُولى فى قوله :

٣ ـ (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) : أى ويل للكافرين الذين يختارون الحياة الدنيا وما فيها من شهوات مهلكات ، ويؤثرونها على الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم.

ـ والصفة الثانية فى قوله سبحانه :

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسوله محمد بن عبد الله ، وذلك لما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، والبعد عمًّا يقرب من الرحيم الرحمن .

ـ والصفة الثالثة فى قوله تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يطلبون لها الميل والزيغ لتتفق مع أهوائهم وشهواتهم التى هى ، أبعد ما تكون عن صراط الله المستقيم ، وبعد أن وصفهم بهذه الصفات ، قضى بضلالهم فقال :

(أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : أى أُولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصدهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج ، أُولئك فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم والحالة هذه هداية ولا رشاد .

---

(١) بجر لفظ الجلالة بدلا من العزيز الحميد أو عطف بيان له ، وبه قرأ السبعة عدا نافع وابن عامر فقد قرآ برفع لفظ الجلالة ... كما سيأتى فى الشرح .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بِلِسَانِ قَوْمِهِ) : أى بلغة قومه .

(بِآيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام وهى : الطوفان – والجراد – والقمل – والضفادع – والدم – والعصا – ويده – والسنون– ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ) : من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادى إلى سواء السبيل .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى بوقائعه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بحروبها وملاحمها .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثيرَ الصبر ، كثير الشكر .

التفسير

٤ – (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . .) الآية .

أى وما أرسلنا قبلك من رسول إلا بلسان القوم الذين أرسله الله إليهم ، ليبين لهم شريعة ربهم فى سهولة ويسر ، وليقطع أعذارهم وتقوم به حجة الله عليهم ، ومحمد

صلوات الله وسلامه عليه وإن بعث إلى الناس جميعًا وألسنتهم مختلفة فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ليحملوا معه عبء الدعوة ، ويبينوا الدين لمن كانوا على غير لسانهم ، ويترجموه حتى يصير مفهومًا لهم كما فهموه، وعلى هذا فكل من تُرجِمَ له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة دقيقة يفهمها لزمته الحجة . قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّة لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أُرسل كل نبي إلى أُمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » .

وقال : « والذى نَفْسِي بِيَدِهِ لَايَسْمعُ بى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانيٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمنْ بالَّذى أُرْسِلْتُ به إِلَّا كَانَ منْ أَصْحاب النَّار » . أخرجه مسلم .

وحيث كانت رسالة الإسلام عامة لأهل الأرض ، فيجب على المسلمين أن يكون فيهم من يعرفون اللغات المختلفة ، ليحسنوا تبليغ الدعوة المحمدية التى تركها النبى أمانة فى أعناقهم جميعاً ، وعلى من أسلم من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية ليحسن فهم الإسلام من منابعه والعمل بشرائعه .

(فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَّشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَّشَاءُ) : أى فبعد إرسال الله كل رسول بلسان قومه ، لتقوم به حجة الله ، يضل من ران على قلبه الغَواية والضلالة بما اجترح من آثام ، ويهدى من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أُسلوب العناد ، فانشرح صدره للإسلام ، واستقام على المنهج السديد بتوفيق الله رب العالمين .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : فلا يغالب فى مشيئته . (الْحَكِيمُ) : العظيم الحكمة فيما أوجبه على الناس من شريعته .

٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » . أى ولقد أرسلنا موسى بلسان قومه بنى إسرئيل ، وأيدناه بالآيات المعجزة الدالة على

صدقه وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده ليخرجوا من ظلمات ما كانوا عليه من الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى وذكرهم بوقائع الله فى الأمم قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود أو بأيام الله التى أنعم فيه على بنى إسرائيل بمختلف النعم ، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره ، وفلقه البحر لهم ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى . ويجوز أن يراد منها المحن الشديدة والنعم الجميلة ، فكلتاهما من أيام الله وآياته البينات .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) : أى إن فى المذكور من أيام الله لدلائل على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته ، لكل صبار فى المحنة والبلية شكور فى المنحة والعطية . قال قتاده : « نعم العبد ، إذا ابتلى صبر وإذا أعطى شكر » .

وقال ابن كثير : جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ لَا يَقْضِى اللهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) : أى يبغون لكم سوء العذاب من قولهم : سمت كذا أى ابتغيته وطلبته .

(وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) : أى ويبقونهن أحياءً فلا يقتلونهن .

(بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : أى ابتلاءٌ بمعنى اختبار .

(تَأَذَّنَ) : أى آذن بمعنى أعلم كتوعده بمعنى أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير

٦ – (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) ... الآية .

يقول الله تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم وما أفاض عليهم من النعم ، إذْ أنجاهم من آل فرعون ، وما كانوا يكلفونهم به من التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب السيء ، وكيف كانوا يذبحون أبناءهم الذكور ويستبقون إناثهم مستضعفات ذليلات ، وهذا من أسوأ ألوان البلايا والرزايا ، ولهذا قال سبحانه :

(وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) : أى وفيما ذكر ابتلاءٌ واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من التعذيب والمحن التى كان يصنعها بهم فرعون وقومه ، ثم لما فيه من نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والتنكيل .

فالابتلاءُ كما يكون بالضرر يكون بالمنفعة كما قال تعالى: « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . فبالخير يبلو عباده أيشكرون أم يكفرون ؟ وبالشر يبلوهم أيصبرون أم يجزعون؟ وهو فى كلتا الحالتين يُثِيبُ المحسن ويعاقب المسيء .

٧ – (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ) : أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده ووعيده إعلاماً مؤكَّدًا حيث قال :

(لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) : أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى ونعمتى والتوفيق لطاعتى .

والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإن من شكر الله على رزقه وسع عليه فى الرزق ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زَادَ ثوابَهُ فى طاعته ، ومن شكره

على ما أنعم به عليه من صحة زاده الله صحة وهكذا ... وقد أُثر عن جعفر الصادق أنه قال: « إذَا سَمِعَتِ النعمةُ نِعْمَةَ الشُّكْر فتأَهب للمزيد ». وسئل بعض الصلحاء عن الشكر فقال: « أَلَّا تتقوَّى بنِعمِهِ على معَاصِيهِ » .

فَحَقيقة الشكر على هذا الرأى اعتراف المنعم عليه بالنعمة للمنعم، وألا يصرفها فى غير طاعته، وأنشد الهادى وهو يأكل:

أَنَالَكَ رِزْقَهُ لِتَقُومَ فيه بطاعته وتشكر بَعْضَ حقّه
فلم تشكر لنعمته ولكن قويتَ على معاصيه برِزْقِه

فَغُصَّ باللقمة وخنقته العبرة.

(وَلَئِن كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ): أى ولئن كفرتم نعمة الله بإنكار نسبتها إليه أو التقصير فى شكره عليها بالطاعة قولًا وعملا، فترقبوا أليم العذاب، إن عذابه لشديد، وذلك بسلب النعم فى الدنيا، وإنزال النقم فى الدنيا والآخرة، وفى الحديث: « إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنب يُصِيبه ».

(وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾)

المفردات:

(حَمِيدٌ): مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد.

(بالْبَيِّنَاتِ) : أى بالآيات الواضحات .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ) : أى ردوها لكى يعضوها فى أفواههم غيظاً .

(مُرِيبٍ) : الريبة هنا بمعنى اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير

٨ - (وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ) :

أى وقال موسى لقومه : إن تُنكرُوا نعمة الله التى أَضفاها عليكم ولاتَشكروها ، إن تَفعَلوا ذلك يابنى إسرائيل ومعكم من فى الأَرض جميعاً ، فما أَلحقتم الضرر إلا بأَنفسكم إذحرمتموها من مزيد النعم وعرضتموها لشديد العذاب ، فى الوقت الذى أَنتم إلى الله أَحوج ، وهو غنى عن شكركم وشكر غيركم ، فإنه لا تنفعه طاعتكم ، كما لا تضره معصيتكم ؛ وأَنتم إن لم تحمدوه بأَلسنتكم ، فإن جوارحكم تلهج بحمده وأَنتم لا تشعرون ، فإنه تعالى يقول : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » [1] .

وفى صحيح مسلم عن أَبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِّنْكُمْ مَازَادَ ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفجر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » .

فسبحانه وتعالى هو الغنى الحميد.

٩ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ . . .) الآية .

---

(١) الإسراء(٤٤)

أى ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ممن لايحصى عددهم ولا يعرف نسبهم إلا الله عز وجل .

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :

أى جاءوهم بالحجج الواضحات والدلائل الباهرات ، وقد بين كل رسول لقومه طريق الهداية والأمن ودعاهم إليه ، ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) : أى جعل أولئك القوم أيديهم فى أفواههم ليعضوها غيظا مما جاء به الرسل ، مقرونا بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم . أو ردوها إلى أفواههم مشيرين بها إلى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة ، لينبهوا الرسل إلى تلقيها منهم وليقنطوهم من التصديق والإيمان من جهتهم ، وذلك ماحكاه الله سبحانه وتعالى عنهم فى قولهم : «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ . . .» الآية .

وقيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل ، قال أبو عبيدة والأخفش : هو ضرب مثل أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قَدْ رَدَّ يده فى فيه .

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) :

أى أننا لا نصدقكم فيما جئتم به ، وإنا لفى شك قوى موقع فى الريب وعدم الطمأنينة بسبب ما جئتم به من التعاليم والشرائع وماتدعوننا إليه من إيمان وتوحيد .

(۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَفِي اللهِ شَكٌّ) : الاستفهام للإنكار بمعنى النفى وفيه معنى التعجب .

(فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سبق .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير

١٠ - (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

حكى الله فى الآية السابقة قول الكافرين لرسلهم : « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » . وجاءت هذه الآية تحكى رد المرسلين واستنكارهم لما زعموه والتعجب منه .

والمعنى : قالت الرسل لأممهم مستنكرين شكهم فى ربهم : أفى وجود الله شك وارتياب حتى تقولوا لنا : «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ».فى حين أنه فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، أليس لكل صنعة صانع فلا بد للسموات والأرض من منشئ صانع له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة والعلم المحيط .

وقد جاء هذا الاستنكار والاحتجاج فى محاجة الأنبياء جميعا ، فكل رسول من الرسل جعل نصب عينيه توجيه أمته إلى التفكر والتدبر فى السموات والأرض ، والتبصر فى أسرارهما ، ليتعرفوا بذلك وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته ،واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص .

ويجوز أن يكون المعنى : أفى ألوهية الله وتفرده بوجوب العبادة شك . . ؟ وهو الخالق لجميع الأرض والسموات المدبر لأمورها ،فلا يستحق العبادة أحد سواه .

وربما كان هذا المعنى أولى ، فإن أغلب الأمم كانت تقر بوجود الخالق المدبر ولكنها ، كانت تعبد معه غيره من الوسائط التى زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى . ثم قالت لهم رسلهم : (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى) : أى يدعوكم الله إلى الإيمان به وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته ،على ألسنة رسله وشواهد آياته الكونية وكتبه المنزلة، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وضياء التوحيد، لِيَغْفِرَ لَكُمْ بعض الذنوب ، ويمحو عنكم بعض ما اقترفتموه من الآثام . وهى التى تتعلق بحقوق الله وحده . وفى ذلك يقول تعالى : « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ » .

أما حقوق العباد فإن الله سبحانه وتعالى لا يعفو عنها إلا برضا أصحابها وعفوهم عنها ، ولهذا عبر فى الآية بِمِنْ فى قوله : «يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ».فإنها أفادت التبعيض وهذا البعض الذى يغفر هو ما يتعلق بحق الله تعالى ،فإن حق الله تعالى مبنى على المسامحة بمقتضى هذا الوعد الكريم . أما حقوق العباد فإنها مبنية على المطالبة والمؤاخذة ، وكما يدعوكم الله إلى الإيمان ليغفر لكم من ذنوبكم ،يدعوكم أيضًا إلى الإيمان لفائدة أخرى ، وهى أن لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل الكافرين قبلكم ،بل يبقيكم تتمتعون فى دنياكم حتى الأجل الذى

سَمَّاهُ وقدره لكل فرد من البشر، وهذا هو المعنى الذى عناه ابن عباس رضى الله عنهما بقوله : يمتعكم باللذات والطيبات إلى الموت، ويؤيد هذا قوله تعالى : « أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثم تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ »(١) ويحكى الله سبحانه وتعالى رد الأمم الكافرة على دعوة رسلهم إياهم إلى الإيمان فيقول :

(قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى قالوا عُتُوًّا وعنادا ومكابرة : ما أنتم إلا بشر مثلنا فى الصورة والهيئة، فلا فضل لكم علينا يؤهلكم للرسالة التى تدعونها، وتريدون بها أن تمنعونا عن آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا فإن كنتم رسلا من عند الله كما ادعيتم :

(فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : أى فأتونا ببرهان ذى سلطان بَيِّن واضح، يدل دلالة قاطعة على استحقاقكم لمرتبة الرسالة وصحة ماتدعوننا إليه، حتى نترك عبادة آلهتنا التى وجدنا عليها آباءنا .

لقد جاءهم الرسل بالآيات والمعجزات التى تخر لها صم الجبال، ولكن القوم زعموا أن ماجاءتهم به الرسل من معجزات ليس من جنس السلطان المبين الذى يقترحونه، وهكذا كانوا يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم. ثم يحكى الله سبحانه وتعالى جواب الرسل لأقوامهم فيقول :

١١ - (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...) الآية.

أى قالت الرسل لأممهم : مانحن إلا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن الله ينعم على من يشاء من عباده ، فيصطفيهم لرسالته ، ويختصهم بها بمحض فضله وامتنانه ، لا بحسب ولا نسب ولا باجتهاد منهم فى العبادة !

---

(١) من الآية ٣ سورة هود .

والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعلا أن يتفضل بهذاالاختصاص على من يشاء من عباده من أهل الفضل والكمال، «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[١]» . ولم يرسل الله إلى البشر ملكاً، لِأَنَّهُ لَا طَاقَةَ للناس بالتلقى عن الملائكة كما قال تعالى : «وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ» .

ثم قالت الرسل جوابا لقول أممهم : «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» :

(وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : أى وماصح لنا وما استقام أن نأتيكم ببرهان كما طلبتم غيرما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلا بإذن الله وتيسيره، فإن لم يأذن فلا سبيل إليه ، ولا قدرة لنا عليه، مع ماخصنا الله به من النبوة وشرّفنا به من الرسالة .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) : أى قال كل رسول لأمته بعد ما تقدم : وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون وليفوضوا جميع أمورهم إليه، وليصبروا على معاندة الكافرين ومعاداتهم، ثم أيدوا وجوب توكلهم على الله بقولهم :

١٢ـ (وَمَالَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا . . .) الآية .

وأى عذر لنا فى ترك التوكل على الله وحده والاعتماد عليه فى رفع أذاكم وسلوك سبيله، وقد أرشدنا إلى سبيله المستقيم، ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه .

(وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا) : بالعناد والتكذيب واقتراح الآيات ، وما إلى ذلك من السفه واللّجاج ؛ حتى يأتينا نصر الله .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) : أى وعلى الله فليعتمد المؤمنون المتوكلون دائما فإنه هو الذى ينصرهم، وبيده وحده هزيمة أعدائهم . «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[٢]» .

---

(١) الأنعام : من الآية ١٢٤

(٢) سورة الطلاق : من الآية ٣

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(لَتَعُودُنَّ) :لَتَصِيرُنَّ.(مَقَامِى) : أى الموقف المَمْلُوك لله ، الذى يقف به العباد بين يَدَيه للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه.(وَعِيدِ) : وعدى بعذاب الكفار والعصاة يوم القيامة .

التفسير

١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا ...) الآية.
استمر الكفار فى جدالهم للرسل بالباطل ، وضاقت صدورهم بالحق بعد ماتبين ، وكبر عليهم أن يرجعوا إليه ، فسلكوا مسلك العنف والقوة وقالوا تهديدًا للرسل ووعيدا لهم :

(لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) :

لم يكتفوا بعصيانهم للرسل ومعاندتهم للحق بعد ما رأوا الآيات البينات حتى اجترؤا على مقالتهم الشنعاء التى يعجز عنها الوصف ، وأقسموا : ليكونَنَّ أحد الأمرين لامحالة : إما أن نخرجكم من أرضنا ، وإما أن تعودوا إلى ديننا وتتحولوا إلى ملتنا .

(فَأَوْحَى إِلَيْهِم رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) :

أى فأوحى إلى الرسل ربهم ومالك أمرهم تثبيتا للمؤمنين ووعيدا للكافرين قائلا :

(لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) : أى لنقتلنَّ الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ،وظلموا الرسل والمؤمنين بتكذيبهم وإيذائهم - لنهلكنهم - ان استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم أكمل الله وعيده للكافرين ووعده للمؤمنين بصيغة التوكيد فقال سبحانه :

١٤ - (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بعْدِهِمْ ....[1]) الآية.

أى ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم ،عقوبة لهم فى الدنيا على قولهم لرسلهم : «لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ».وتلك سنة الله فى رسله وعباده المؤمنين . ألاترى إلى قوله تعالى : « وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بارَكْنَا فِيهَا ».وإلى قوله جل سلطانه : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنهاَ وإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلا ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدْ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً[2] » .

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ) : أفادت هذه الجملة أنه تعالى جرت سنته معرسله ومن آمن بهمأن ينصرهم على من كفربهم ، ويسكنهم الأرض من بعد إهلاكهم .

والمعنى : ذلك الذى مَرَّ بيانه من إهلاك الظالمين ،وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم أمرثابت لكل من خاف موقفى الذى يقف به العباد بين يدىَّ للحساب يوم القيامة . أو خاف قيامى عليه بحفظ أعماله ومراقبتى إياه ، فإنى قائم على كل نفس بما كسبت ، وذلك أيضا لمن خاف وعيدى بالعذاب للكفرة والعصاة .

---

(١) الأعراف : من الآية ١٣٧

(٢) الإسراء : الآيتين ٧٦ - ٧٧

(وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾)

المفـردات :

(وَاسْتَفْتَحُوا) : وطلبوا الفتح ، والمراد به هنا النصر .(وَخَابَ) : وخسر وهلك .

(كُلُّ جَبَّارٍ): الجبار فى اللغة ؛ من يقهر الناس على ما يريده ، والمراد به هنا المتكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته المتعالى على رسله . (عَنِيدٍ) : شديد العناد والمكابرة .

(مِنْ وَرَائِهِ) : من خلفه ـ أو من أمامه . وأصل معنى وراء : ماتوارى عنك قدامك أو خلفك .

(مَاءٍ صَدِيدٍ) : هومايسيل من أجساد أهل النار . وأصل الصديد : الماءُ الرقيق الذى يخرج من الجرح .

(يَتَجَرَّعُهُ) : أى يتكلف بلعه مرة بعد أُخرى من الجَرْع وهو البلع .

(وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) : ولايقارب أن يبتلعه بسهولة .

التفسير

يخبر الله تبارك وتعالى عما انتهى إليه أمر الرسل مع مكذبيهم ، بعد أنصبروا عليهم وصابروهم حتى يئسوا كل اليأس من إيمانهم فيقول جل من قائل :

١٥ - (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) :

أى لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح والنصر على عدوهم ، فاستجاب الله لرسله ونصرهم فظفروا وأفلحوا ، وخسر أعداؤهم وهلكوا ، جزاء تكبرهم وعنادهم .

والتعبير بقوله تعالى : « كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » بدلا من التعبير بقوله : وخابوا لِذَمِّهِمْ وتسجيل التجبر والعناد عليهم ،وواضح على هذا المعنى أن الضمير فى قوله تعالى : «وَاسْتَفْتَحُوا» للرسل وحدهم كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقيل إن الضمير للمكذبين وحدهم ، وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للرسل ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأن ما جاءت به الرسل باطل ، فاستفتحوا على الرسل واستنصروا عليهم ، أو استفتحوا على أنفسهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء ، كقول قوم نوح : « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[١] وقول قوم شعيب : «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[٢]. وقول المشركين من قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[٣].

وقيل : إن الضمير للرسل عليهم السلام ولمكذبيهم ، أى أنهم جميعا سألوا الله تعالى أن ينصر المحق ويهلك المبطل ، وقد نصر الله رسله والمؤمنين «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[٤].

١٦ - (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) :

بينت الآية السابقة مالقى مكذبو الرسل ومعاندوهم من الهزيمة والهلاك فى هذه الدار ، وتبين هذه الآية وما بعدها مايلقاه كل منهم من أنواع العذاب وألوانه فى دار القرار .

والمعنى : مِنْ خَلْفِ كُلِّ جبارٍ معاندللرسل جهنمُ تستقبله عقب انتهاء حياته فى الدنيا .

---

(١) هود : ٣٢
(٢) الشعراء : ١٨٧
(٣) الأنفال : ٣٢
(٤) الأنعام : الآية ٤٥

وقال ابن كثير: «وراء» هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»[1]. وكان ابن عباس يفسرها بذلك؛ وسواء فسرت وراء بهذا أو بذاك فالمقصود أنهم يلقون عقابهم في جهنم يوم القيامة فهى، أمامهم يستقبلونها وهى خلفهم بعد انقضاء حياتهم. والمعنى: من ورائه جهنم يلقاها ويسقى فيها من ماءٍ يشبه الصديد الذى مر بيانه فى المفردات، ويجوز أن يكون من الصَّدِّ بمعنى الإعراض، أن يسقى من ماء كريه يعرض عنه. ويصف الله سبحانه وتعالى هذا الماءَ الذى لايستساغ فيقول جل شأنه:

١٧ - (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . .) الآية .

أى يتكلف الجبار العنيد جرعه وبلعه مرة بعد أخرى فلا يقرب من استساغته، ولا يسهل عليه بلعه لحرارته ومرارته. وقيل إن المعنى: لايقارب أن يدخله فى جوفه قبل أن يشربه فيُسقاه على الرغم منه قهراً وقسراً، أخرج أحمد والترمذى والنسائى والحاكم - وصححه - وغيرهم عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآيه: (يُقَرَّب إليه فيتكرّهه فإذا أُدنى منه شَوى وجهه ووقعت فروة رأسه. فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُرِه) يقول الله تعالى: «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»[2]. وتستمر الآية فى وصف عذاب الجبار العنيد وذلك فى قوله تعالى:

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ): أى ويأتيه أسباب الموت من الشَّدَائِدِ وأنواع العذاب من كل موضع، والمراد أنه يحيط به من جميع الجهات، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقيل من كل مكان فى جسده حتى أطراف شعره وإبهام رجله «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» فيستريح بالموت. بل إنه لايخفف عنه العذاب فى وقتٍ مَّا، كى ينفس عن نفسه بعض الكرب كما قال تعالى: «لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ»[3]. وكما قال عز وجل: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»[4]. فهم مخلدون فى جهنم يستقبلون فى كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان

(١) الكهف من الآية ٧٩

(٢) سورة محمد من الآية: ١٥، وقال تعالى فى سورة الكهف: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» من الآية: ٢٩

(٣) سورة فاطر من الآية: ٣٦

(٤) سورة النساء من الآية: ٥٦

قبله . ولهذا ختمت الآية بقوله سبحانه وتعالى :

(وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) : والضمير فى (ورائه) يعود إلى كل جبار أو إلى العذاب المفهوم من الكلام السابق.والمعنى : وأمام كل جبار أو : وأمام كل عذاب ذاقه الجبار - عذابٌ آخر شديد الغلظة ، وأهوال العذاب وأنواعه وأشكاله لايحصيها إلا الله تعالى : «جَزَاءً وِفَاقًا ».[1] « وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .[2] واعلم أن عذاب الكفر يتفاوت فى الشدة وأن النار دَرَكَات كما أن الجنة درجات ،وأنه لايستوى كافر عنيد متمرد يسعى فى الأرض فسادا ، وكافر مغلوب على أمره ،وفى تفاوت عذاب الكفار يقول اللهُ تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا ».[3] ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما إن « أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ وُضِعَ فى أخمص قدميه جمْرةٌ يغلى منها دماغه » .[4]

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾)

المفـردات :

(مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) . المثل فى أصل اللغة : بمعنى الشبيه والنظير ، كالمثل والمثيل . ويطلق على الحال والصفة التى لها شأن وفيها غرابة ،كمافى هذه الآية وأمثالها مماتقدم مرارا

(١) سورة النبأ : الآية : ٢٦
(٢) سورة فصلت من الآية : ٤٦
(٣) سورة النساء من الآية : ١٤٥
(٤) الأخمص من باطن القدم ماتجافى عن الأرض وهو بوزن (أحمد) والدماغ بوزن كتاب هو مخ الرأس .

ويأتى كثيرا . (فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ) : العصف : اشتداد الريح ،وُصف به زمان هبوبها تقوية لشدتها وتوكيدا ، كما وصف النهار بالصيام والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم؛ لكثير الصيام والقيام .

التفسير

١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ...) الآية .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ، ما يلقاه الكفار من العذاب الشديد يوم القيامة - بيّن فى هذه الآية أن أعمال الخير التى عملوها فى الدنيا ، تصير كلها فى الآخرة ضائعةً باطلة ، لاينتفعون بشىء منها ، وكذلك ماقدموه من القرابين لآلهتهم زاعمين أنها تقربهم إلى الله تعالى .

والمعنى : أن أعمال الكافرين التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، أو يفعلونها رغبةً فى البر - صِفتُها فى حبوطها وذهابها دونأن ينتفع بها أصحابها يوم القيامة ، وهم فى أشد الحاجة إلى ثوابها - صِفَتُها - كصفة رماد بعثرته الريح الشديدة وفرّقته فلم تدعْ له أثرا ، لأنها مَبْنيةٌ على أساس باطل وهو الكفر ، وما بنى على باطل فهو مردود ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَدِمْنَا إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً »[1] .

ثم أكد سبحانه حبوط هذه الأعمال وذهابَها ، وعجزَ الكفرة عن الانتفاع بها فقال :

(لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ) : أى لايقدر أُولئك الكافرون على نيل ثواب لما عملوه ينفعهم يومئذ ، فقد أضاعه كفرهم ، كما أضاعت الريح الشديدة التراب وبعثرته ولم تُبْقِ منه شيئا .

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ) :

أى ذلك الكفر الذى جعل أعمالهم الصالحة ضائعة لاينتفعون بها ، هو الضلال البعيد عن الطريق الموصل إلى الخير ، وإلى الغاية الحميدة .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٣

ومما ورد فى السنة دليلا على أن عمل الكافر لا ينفعه يوم القيامة ولو كان صالحا، ما رواه مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: يارسول الله: ابنُ جُدْعَان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: « لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين ».

وكان عبد الله بن جدعانَ من وجوه بنى تيْم ورؤساء قريش، وكان قريبا لأُم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وله تاريخ حافل بالجود والمكارم، فأَهَمَّها شَأْنُه، فسأَلت عنه من لاينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فأجابها بأَن شيئا من هذه الصالحات التى عملها لاتنفعه يوم القيامة، لأَنه لم يصدق بالبعث فمات كافرا، والإيمانُ هو الشرط الأَساسى فى قبول الصالحات وحُسْنِ جزائها فى الآخرة بقوله تعالى فى شأْن الكافرين: « وقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ». أما المؤمنون الصالحون، فإنهم يُثابون أحسن الثواب ولايظلمون، قال تعالى: « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »(١) وقال سبحانه: « فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »(٢).

وإنما حُرِم الكفار يوم القيامة ثواب ماعملوه فى الدنيا منَ الصَّالحاتِ والمكارم؛ لأَنهم بنوها على غير أَساس سليم من معرفة الحق تبارك وتعالى، والإيمان به والإخلاص لوجهه، فجعلها الله هباءً منثورا، وحسبهم من عدل الله الذى لا يظلم أَحدا مثقال ذرة، أَن يكافئهم على هذه الصالحات فى الدنيا، من سعة فى الرزق، ورغد فى العيش، وماإليهما من الطيبات المعجلة لهم فى هذه الحياة. وقد بيَّن ذلك مارواه مسلم فى صحيحه عن أَنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لايظلم مؤمنا حسنة: يُعطى بها فى الدنيا، ويُجزَى بها فى الآخرة، وأَما الكافر فيُطعم بحسنات ماعمل بها

---

(١) سورة طه: الآية ١١٢
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٤

لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها. وفى هذا الحديث الصحيح الصريح فصل الخطاب .

ويرى بعض العلماء أنه يجوز أن يخفف الله تعالى عذاب بعض الكفار فى الآخرة بما له من حسنات دنيوية ، أخذا من قوله عزّ سلطانه : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[1] . فهذه الآية يفيد ظاهرها أن عذاب الكفار فيه شديد وفيه أشد ، وذلك يقتضى أن بعضهم أخف عذابا من بعض ، ويرجع هذا إلى استفادتهم من أعمال الخير التى عملوها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » .[2] وقوله تعالى : «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[3] . كما استدلوا بما رواه البخارى ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما أَغْنَيْتَ عن عمك ،[4] فإنه كان يَحُوطك ويَغْضَبُ لك؟ قال : (هو فى ضَحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرْك الأسفل من النار)[5] . وكما أن الجنة درجات ، فالنار دَرَكات .

وبالجملة فقد وقع الإجماع على خلود الكفار فى النار ، على اختلاف دركاتهم ، كما قال عز وجل : « وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ »[6] .

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧

(٣) سورة الزلزلة : الآيتين ٧ ، ٨ وفى تفسيرهما — وفى الآلوسى — مزيد بيان لمن شاء .

(٤) يريد به أبا طالب .

(٥) يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك : والضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين استعير هنا للنار القليلة جدا بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار ، والدرك بسكون الراء وفتحها قراءتان سبعيتان : والدرك فى اللغة أقصى قاع الشىء ، والمراد به هنا مقر جهنم والعياذ بالله تعالى .

(٦) سورة البقرة : من الآية : ١٦٧ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : أى ألم تعلم . والاستفهام للتقرير ، أى لقد علمت أيها المخاطب فاشهد بما تعلم . (بالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

(يُذْهِبْكُمْ) : يُفنكم حتى لايبقى لكم أثر . (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) : أى وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

(وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعًا) : أى ظهروا لله جميعا . والمراد أنهم خرجوا من قبورهم لحساب الله تعالى وحكمه .

(مُغْنُونَ عنَّا) : أى دافعون عنا ، يقال أغنى عنه : إذا دفع عنه الضرّ ، وأغناه : إذا وَصَّل له النفع .

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : أى مستو علينا الجزعُ والصبرُ ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

(مَحِيصٍ) : مَعْدِلٌ ومهرب ، يقال : حاص عنه يحيص : إذا عدل عنه وحاد ، إلى جهة الفِرار .

التفسير

١٩ ـ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

بعدأن قص الله تبارك وتعالى مالقى رسله فى سبيل الدعوة إليه من العناد والإيذاء ، والتكذيب والاستهزاء ـ توعد المكذبين لهم بأنه قادر على أن يهلكهم ويستبدل بهم خيرا منهم فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ » .

الظاهر أن الخطاب فى الآية الكريمة لكل أحد من الكفرة ، لقوله: « يُذْهِبْكُمْ » . وهذا أنسب بالوعيد والتهديد . والاستفهام هنا للتقرير ، ولذا يستعمل فى الأمر الواضح الذى يكفى فيه مجرد تنبيه المخاطب ، ليعترف ويشهد به .

والمعنى : ألم تعلم أن الله جلت قدرته خلق السموات والأرض بالحكمة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى يَحق أن يُخلَق عليه ، ليُستدل بخلقهما ـ بهذا النظام الدقيق والنمط البديع ـ ، على قدرته ووحدانيته وسائر كمالاته .

(إن يَّشَأْ يُذهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى إن يرد الله سبحانه وتعالى إهلاككُم أيها المكذبون ، يُفْنِكُم حتى لايبقى منكم أحد ، ويأْت بخلق جديد يكون أطوع لله منكم ، وأسبق إلى الحق ، وأسرع إلى الهدى أرشد سبحانه بخلق السموات والأرض ـ وَهما أكبر من خلق الناس ـ إلى طريق الاستدلال . على وحدانيته وقدرته على إهلاكهم وخلق سواهم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة التى لايحيط بعظمتها إلّا مبدعها ، فهو على تبديلهم بخلق آخر أقدر ، ولهذا قال :

٢٠ ـ (وَمَاذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) :

أى وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله تعالى ولامتعسر ، فإنه قادر بذاته على جميع الممكنات ، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومَن هذا شأْنه فهو حقيق بأن يُعْبَدَ وحده ، ويُرجى ثوابه ، ويُخاف عقابه . والضمير فى قوله تعالى :

٢١ - (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) :

إما لمكذبى الرسل ، لأن الكلام لهم كما تقدم بيانه ، وبهذا قال كثير من المفسرين وفى مقدمتهم الإمام الطبرى ، وإما للمصدقين والمكذبين جميعا ، فإن الحشر يوم القيامة للعباد جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، وبهذ قال أكثر المفسرين ، ومنهم ابن كثير إذْ قال فى الآية : (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) : أى برزت الخلائق كلها ؛ برُّها وفاجرها لله الواحد القهار ، أى اجتمعوا له فى بَراز من الأَرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدًا .... ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم لحساب الله تعالى وجزائه .

ولما كان هذا البروز أمرًا متحققاً كائناً لامحالة ، عبر عنه بصيغة الماضى ، كأنه وقع فعلا ودخل فى دائرة الوجود ، وإن كان لا يزال مستقبلا واقعاً بعد الموت ؛ أو لأنه لامضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه ؛ ومن هذا قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ (١) » . وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ (٢) » .

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ) : جمع ضعيف . والمراد بهم ضعاف الرأى ، وهم الأتباع ، قالوا ! (لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : أى لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغْوَوْهم :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) : فى تكذيب الرسل عليهم السلام ، والإعراض عن نصائحهم ، وكلما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ، والاستفهام فى قولهم :

(فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ) : للتوبيخ والتقريع ، أى فهل أنتم اليوم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا ؟ !

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٤٤

(٢) أول سورة النحل .

(قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ) :

أى قال المستكبرون جواباً عن تقريع الضعفاء وتوبيخهم واعتذاراً عما فعلوا بهم : لوهدانا الله إلى الإيمان ووفقنا له لهديناكم ، ولكن لم يوفقنا ، فضَلَلنا وأضللناكم ، أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هدانا الله إلى طريق النجاة من العذاب لهديناكم ودفعنا عنكم ، ولكن سُدَّ دوننا طريق الخلاص ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . .

والمقصود من قول المستكبرين للمستضعفين : (سَوَاءٌ عَلَيْنا أَجزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : مُبالغتهم فى النهى عن التوبيخ ، بإعلامهم أنهم شركاءُ لهم فيما ابتُلُوا به وتسلية لهم ؛ أى سيان علينا الجزعُ مما نحن فيه من العذاب والصبرُ عليه .

والهمزة فى قوله « أجزعنا » للتسوية بين جزعهم وصبرهم ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[١].

(مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) : أى ليس لنا على الحالين مَهْرَبٌ ولا خلاص من عذاب الله . وهذه الجملة لتقرير ما قالوه وتأكيده ، أى أنهم لا مناص لهم البته مما هم فيه .

ويجوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعاً ، يسلِّى بعضهم بعضاً ، ويتأسى بعضهم ببعض . ولكن الأمر كما قال تعالى : « وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »[٢]. والظاهر أن هذه المراجعة تكون فى النار بعد دخولهم فيها ، كما قال تعالى : « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »[٣] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٦

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٩

(٣) سورة غافر : الآيتين ٤٧ ، ٤٨ .

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان أنها فى موضع العرض وقت البروز بين يدى الله تعالى . ا هـ . وأيا ماكان الأمر فالمواقف فى يوم القيامة متعددة ، ومن الجائز أن تتعدد المراجعة والخصومة تبعاً لتعددها.

(وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾)

التفسير

٢٢ - (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ..) الآية : لما ذكر الله تعالى المحاورة التى تكون بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس والجن ، أردفها بالمحاورة التى تكون بين الشيطان وأتباعه ، وهى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة وما بعدها .

والمعنى : وقال الشيطان لأتباعه بعد أن قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة وأسكن الكافرين النار - قال الشيطان لأتباعه - ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم (إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) : على ألسنة رسله أن يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شراً فشر ، ووعد الله حق ، وخبره صدق ، وقد أنجز الله ما وعد .

(وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) :

أى ووعدتكم ألّا بعث ولا جزاء، ولو صح أنكم تبعثون فلأصنامكم شفاعة عند ربكم وقد أخلفتكم فيما وعدتكم، فحق عليكم وعيد ربكم، وقد كان عليكم ألا تنخدعوا بما زخرفته لكم من القول ، وأن تعصونى فيما أمرتكم به .

(وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) :أى وما كان لى عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتباعى، فلا قوة لى ولا حجة معى، حتى تستجيبوا إلى مادعوتكم إليه ، لكنكم أسرعتم إلى إجابتى تلبية لشهواتكم وإشباع نزواتكم .

(فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم) : أى فلا تلومونى اليوم على ما انتهى أمركم إليه من عذاب النار ، ولوموا أنفسكم، فإن لكم النصيب الأوفى من اختيار السبيل الموصل إليه .

ثم بين لهم الشيطان حقيقة أمره وأمرهم وهوانهم على الله تبارك وتعالى وذلك ما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ) :أى لست اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من عذاب الضلال ووباله، ولستم بمغيثىَّ مما أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله . ثم زادهم غما على غمهم بإعلان تبرئه من إشراكهم إيَّاه ، فقال فى استنكار وإصرار :

(إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ) : أى إنى برئت من إشراككم إياى، مع الله فى الدنيا، حيث أطعتمونى فى الشركما يطاع الله فى الخير كأنى معبود معه، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »(1) . ويجوز أن يكون هذا النص حكاية لما كان من إبليس فى الدنيا فى حق الله تعالى ، يقوله على سبيل الندم وأن مثله لا يستطيع أن يغيثهم مع ذنبه .

والمعنى حينئذ : إنى حين أبيت السجود لأبيكم آدم كفرت بالله الذى جعلتمونى له شريكاً، فكيف أستطيع أن أطلب من الله أن يغيثكم مما أنتم فيه وذنبى عظيم بالنسبة إليه سبحانه ، ثم ختم الشيطان كلامه بقوله فيما حكاه الله عنه : (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

(1) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وبهذا سجل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنهم ظالمون فيما أحدثوه من الضلال والإضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذابَ الأَليمَ .

ويجوز أن يكون هذا القول حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعاً إقناطاً لهم من رحمة الله – تابعين كانوا أو متبوعين – أى إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم فلا ينفعهم فى ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاءُ بعضهم التبعة على بعض .

وقد دلت الآية على فساد التقليد فى الاعتقاد ، لأن أتباع الشيطان لما صدقوه بمجرد دعواه لم يعذرهم الله سبحانه بل عاقبهم كما عاقبه ، فعلى كل قادر على النظر والاستدلال أن ينهج فى عقيدته منهج الاحتجاج بالآيات والاستدلال بالبراهين القطعية .

ولما ذكر سبحانه وتعالى جزاءَ الأَشقياء بما صاروا إليه من الخزى والعذاب الأَليم ، أتبع ذلك جزاءَ السعداء بما أعد لهم من النعيم المقيم فقال جل ثناؤه :

٢٣ – (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ....) الآية . أى أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات – أدخلوهم – جنات أُعدَّت لهم ، تجرى من تحت أَشجارها وقصورها الأَنهار . (خَالِدِينَ فِيهَا) : أَى ماكثين فيها أبدًا لايخرجون منها ولا يُخْرِجهم منها أَحد ، فنعيمهم دائم وسعادتهم لا نهاية لها ، وكل ذلك (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : وأَمره وفضله لابعملهم فحسب ، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُدْخل أَحدًا عملُهُ الجنَّةَ ، قالوا ولا أَنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة » . الحديث أخرجه الصحاح واللفظ للبخارى . (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) : أَى يحيى بعضهم بعضاً بالسلام ، والسلام هو تحية الله وملائكته اختارها الله لعباده المؤمنين فى الدنيا وفى الجنة دار السَّلام .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ تَرَ) : الخطاب هنا لكل ذى عقل يحسن فهم الخطاب ، والاستفهام هنا للتقرير بالعلم ، والمعنى : ألم تعلم .

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) : المثل الصفة العجيبة ، وضرب المثل تبيينه ووضعه فى المكان اللائق به .

(كَلِمَةً طَيِّبَةً) : المراد بها هنا كلمة التوحيد .

(تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ) : تعطى ثمرها فى كل وقت .

التفسير

٢٤ ـ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...) الآية .

لما بين الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدم ، ضرب لكل من الفريقين مثلا يتميز به عن صاحبه ، فقال عز مِنْ قائل يخاطب كل من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجحة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) :

أى ألم تعلم أيها العاقل الفطن كيف بين الله للناس مثلا يعرفون به منزلة كلمة التوحيد فى الإسلام ، حيث شبهها بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه فى الأرض ، وفرعها ـ أى أعلاها ـ متجه إلى السماء ، تعطى ثمرها فى كل و قت وقَّته الله لإثمارها بإذن خالقها ومربيها .

فالمراد بالكلمة الطيبة هى شهادة ألا إله إلا الله التى هى الأساس الأول للإسلام وهذا ما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عباس .

وعن الأصم أنها القرآن الكريم ، فإنه أصل يتفرع عليه كل خير فى الدنيا والآخرة ، وقد شبهها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة ، والمراد بها عند جمهور المفسرين النخلة ، وبه أخذ ابن عباس وابن مسعود ، ويؤيده مارواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فَأُتِى بجُمَّار فأكل منه وقال : إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها ، وإنها مَثَلُ المسلم ، فحدثونى ماهى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ،

قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فأردت أن أقول هى النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم - وكنت عاشر عشرة أنا أحْدَثُهمْ ورأيت أبابكر وعمر لايتكلمان ، فكرهت أن أتكلم واستحييت : ثُم قالوا : حدثنا ماهى يارسول الله؟ قال : هى النخلة ، قال عبدالله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى فقال : لأن تكون قُلْتَها أَحبُّ إلَّى من كذا كذا . وعند ابن حبان فى صحيحه : أحسبه قال : من حُمْر النَّعم . والإبل الحمراء كانت أحب أموال العرب إليهم وأنْفَسها .

وقيل : هى كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة . وقيل غير ذلك . وأرجح هذه الأقوال أولها وهو كونها النخلة ، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة فى الأرض ، وأن مايتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » [1] . وأن مايترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها ، والانتفاع بها فى كل وقت ، فإن ثمر النخيل يؤكل أبدا : ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، فيؤكل منها الجمار والبلح ، والبسر والرطب والتمر ، وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعا تُسْتَعْمل فى مصالح الناس ومرافقهم ، ولن ترى شيئا منها مهملا أبدا ، وكم من الناس يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون على التمر كما

---

(١) سورة فاطر : من الآية ١٠

تعيش إبلهم على النوى ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : « إن كنا آل محمد لنمكث شهرين مانُوقد ناراً ، إنْ هما إلا الأَسْودانِ : التمر والماءُ » .

وكذلك المؤمن القوى والمسلم الحق ، كله خير وبركة أينما حل وارتحل : لنفسه وعشيرته وأُمته ، فى حياته وبعد مماته ، ومن هنا فسرت الكلمة الطيبة بالمؤمن كما قال بعض السلف، فما أروع هذا التشبيه المقتبس من مشكاة النور الإلهى .

وفى ختام الآية الكريمة يقول الله تعالى : (وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ): تنبيها على شأْن الأَمثال وعظيم فائدتها ، فى تجلية الحقائق وتنويرها ، عونا على التبصير والتذكير ، ودوام النظر والتدبر فى كتاب الله الحكيم .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(اجْتُثَّتْ) : قطعت واستؤصلت. (مِن قَرَارٍ) : من ثبات فى الأَرض .

(بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) : بكلمة التوحيد .

التفسير

٢٦ ـ (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ . . .) الآية .

الكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر وما يدعو إليها ويتصل بها ، ضد الكلمة الطيبة ، ولا يجتمعان فى قلب واحد أبدًا ، والشجرة الخبيثة هى الحنظلة ،فقد روى أبو يعلى فى مسنده

عن أنس رضى الله عنه قال :(أُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِنَاع [طبق] عليه رطب فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أُكلها كل حين بإِذْنِ رَبِّهَا » قال : هى النخلة « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا من قَرَارٍ » : قال هى الحنظلة) .

وقيل : هى كل شجرة لايطيب لها ثمر ؛ ضد الشجرة الطيبة وهى التى يطيب ثمرها .

قال الآلوسى تبعا لأَبى السعود : ولعل تغيير الأُسلوب - يعنى فى قوله : « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » بدلا من قوله : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا . . . » - للإِيذان بأَن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان : وإنما ذلك أَمر ظاهر يعرفه كل أحد . ا هـ .

(اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ) :

أَى اقتلعت من أَصلها واستؤصلت جثتها ؛إذ حقيقة الاجتثاث أَخذ الجُثَّة كلها ،وهى شخص الشىء كما قال الراغب .

وهذا فى مقابلة قوله : « أَصلها ثابت » وقال : « من فوق الأَرض » لأَن عروقها قريبة من الفوق فكأَنها فوق .

(مَالَهَا مِن قَرَارٍ) :

أَى ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات فى الأَرض ولا استقرار ،إذ ليس لها أَصل ثابت ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر لا خير فيه: لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ،إذ ليس لهما عنده أَساس يبنيان عليه ، فهذا وَجْهُ تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

٢٧- (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ...) الآية .

أَى أنه تعالى يثبِّت الذين صدقوا برسالة الأَنبياء والمرسلين - يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد الله وطمأْنينتهم به ؛ فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإِيذاءُ أَو التشكيك ؛ فيَظلُّون على ما هم عليه من اليقين الثابت فى الحياة الدنيا ، لاتزحزحهم عنه الشدائد والفتن ، وإن كانت كموج البحر أَو كقطع الليل المظلم !!

وإليك أيها القارئ مثلين اثنين مما صنعه الكفرة الفجرة ، فى مؤمنى الأمم السابقة وفى المستضعفين من المؤمنين فى هذه الأمة المحمدية ، فثبتهم الله ولم يضعف لهم إيمان .

(ا) أخرج البخارى بسنده فى أعلام النبوّة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ كَانَ من قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فى الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بالْمِنْشَار فَيُوضَع علَى رأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفين ، وَيُمْشَطُ بأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَادُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عن دِينِه » .

(ب) بلغ من تعنُّت قريش ووقوفهم فى سبيل الدعوة المحمدية أن أذاهم لم يكن مقصوراً على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، بل تعداه إلى المستضعفين والأرقاء الذين لم يكن لهم من يحتمون به أو يحتزون بعصبيته ، فقد عذب أهل مكة الكثير منهم ليفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم من بعد إيمانهم كفاراً فلم يفلحوا . ومن هؤلاء بلال بن رباح الحبشى ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، أوقع بهم المشركون من العذاب مالا طاقة لأحد به ! وقصصُ تعذيب هؤلاء وغيرهم مشهورة فى السيرة النبوية وفى التاريخ ... وكلها نماذج من الطراز الأول فى قوة الإيمان ، والثبات على الحق الذى ثبَّتهم الله عليه فى هذه الحياة الدنيا .

(وَفِى الْآخِرَةِ) :يثبتهم الله بعد الموت ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا فى قبورهم ، أو بين يدى ربهم حينما يُسألون عن معتقدهم ، ولا تدهشهم أهوال القيامة ، والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ،ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن عثمان رضى الله عنه ؛ كما صح عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال : (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِل فِى الْقَبْر يَشْهَدُ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ) فذلك قوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْل الثَّابتِ» الآية . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فى قَبْرِه وَتَوَلَّى عنه أصحابه ، وإِنَّهُ لَيَسْمَع قَرْعَ نِعَالِهم إِذَا انصَرَفُوا ـ أَتَاه مَلَكَان فيُقْعِدَانِه فَيَقُولَانَ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُول فى هَذَا الرَّجل (محمد صلى الله عليه وسلم) فأَمَّا المؤمِنَ فَيَقُول : أَشْهد أَنَّه عَبْدُ الله وَرَسُولُه .

فَيُقَالُ لَهُ : انْظُر إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ،وَيُفْتَحُ لَهُ مِنْ قَبْرِهِ إِلَيْهِ ؛وَأَمَّا الكَافِرُ أَو المُنَافِقُ فَيَقُولُ : لَا أَدْرِى كُنْتُ أَقُولُ كَمَا يَقُولُ النَّاسُ . فَيُقَالُ :لَا دَرَيتَ ولَا تَلَيْتَ[1] . ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِن حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَينَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً فَيَسْمَعُهَا مَنَ يَلِيهِ إِلَا الثَّقَلَيْنِ[2] » . أخرجه الشيخان وغيرهما .

(وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ) : أى يتخلى الله سبحانه عن الكافرين الظالمين لأنفسهم فيخذلهم ولا يعينهم ، لإصرارهم على الكفر والضلال ، حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فلم يهتدوا إلى القول الثابت الذى ثبَّت الله به المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يصرفهم عن الحجة يوم القيامة ،فلا يستطيعون الدفاع عن كفرهم ومعاصيهم . والمقصود أنه لا حجة لهم على ما اقترفوه من الكفر والمعاصى .

(وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ) : أى يفعل الله جلت حكمته ما يريد من تثبيت أهل الإيمان ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفر وعقابهم ، فله الحجة البالغة . وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى .

(* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾)

(١) الأصل : ولا تلوت ، وقلبت الواو ياء للازدواج والمناسبة لماقبلها .

(٢) الإنس والجن ، والحكمة فى عدم سماعهما الامتحان والابتلاء ، إذ لوسمعا لكان الإيمان منهما ضروريا .

المفردات :

(كفروا نعمة الله) كفر النعمة : جحدها . (دَارَ الْبَوَارِ) : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضًا على الكساد .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : وبئس المستقر . (أَنْدَادًا) : جمع ند وهو المثل والنظير .

(مَصِيرَكُمْ) : مرجعكم . (لَابَيْعٌ فِيهِ) : لا فدية فيه .

(وَلَا خِلَالٌ) : الخلال معناه المخالَّة وهى المُوَادَّة . أو جمع خليل وهو الصديق ، أو جمع خُلَّة . بضم الخاء وتشديد اللام مفتوحة : وهى الصداقة .

التفسير

٢٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا) :

بين الله فى ختام الآيات السابقة حال المؤمنين ، وحال الظالمين وأنه سبحانه يثبت المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، ويضل الظالمين بأن يتخلى عنهم لإصرارهم على الكفر . ويفعل بكلا الفريقين ما يشاءُ من تثبيت المؤمنين،والتخلِّ عن هداية الظالمين، وَمِنْ ثَوَابِ الأولين ، وعقاب الآخرين.وجاءت هذه الآية وما بعدها بيانًا للأسباب التى أدت إلى ضلال الظالمين واستحقاقهم سوءَ العاقبة . وقبح المصير .

والخطاب فى قوله : « أَلَمْ تَرَ » موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى كل من يصلح للخطاب مقصود به التعجيب مما صنع الكفار من اقتراف الأباطيل الكثيرة، التى كان من جملتها جحد نعم الله الظاهرة والباطنة . والمراد بهم مشركو قريش فالآية نزلت فيهم ، المعنى : ألم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم . فجعلوا مكانه كفرًا عظيمًا فبدلا من أن يشكروه بتوحيده فى العبادة أشركوا معه غيره . أو بدلوا شكر النعمة كفرًا لها بإهمالها . وعدم رعاية شأنها فسُلبوها وحُرموا منها ،وذلك ما حدث لأهل مكة . أسكنهم الله حرمه الآمن الذى يجبى إليه ثمرات كل شىءٍ وجعلهم قُوَّامَ بيته . وشرفهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بذلك ، وأذوا النبى وأصحابه فأصابهم القحط سبع سنين وعوقبوا بالقتل والأسر يوم بدر .

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) : أى أنزلوا أهلهم واللائذين بهم دار الهلاك . بما قادوهم إليه من شرك وضلال . وعن ابن عباس أنهم قادة قريش ، وعن عمر وعلى أنهم أشد قريش فجورا ، وهم بنو المغيرة وبنو أمية .

والتعبير عن الهلاك بالبوار مع أن أصله كما قال الراغب : فرط الكساد لأنه يفضى إلى الفساد المؤدى إلى الهلاك .

ولم تتعرض الآية للنص على حلولهم أنفسهم دار البوار . لأن إحلال قومهم فيها فرع لحلولهم إذ هم رأس الشرك ودعاة الضلال : كما قال تعالى فى شأن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُم النَّارَ » .

ثم بين الله دار البوار بعد إبهامها فقال جل شأنه : (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) : أى أن دار الهلاك هى جهنم التى يدخلونها ويخلدون فيها . ولا ريب أن فى البيان بعد الإبهام من التهويل والتخويف مالا يخفى حيث تذهب النفس فى رسم صورتها المفزعة كل مذهب .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : أى بئس المقر جهنم الذى جعلوه مكانا لقومهم تبعا لهم ، فليس له ما يضارعه فى أهواله ولا فيما يذم به لسوء حاله ، أو بئس القرار قرارهم فيها ، وفى التعبير بالقرار إشعار بأن حلولهم فيها وصليهم إياها على سبيل الدوام والاستمرار .

٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . . .) الآية .

هذه الآية تعجيب مما اقترفوه كالتى قبلها . حيث جعلوا لله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء أمثالا فى التسمية أو فى العبادة . وهى الأصنام والأوثان . جعلوها آلهة فى اعتقادهم وحكمهم .

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) :أى لإضلال قومهم الذين يدينون بالولاء لهم - لإضلالهم - عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء (قُلْ) : يا محمد لهؤلاء المشركين تهديدا لهم ووعيدا : (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) :

أى تمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التى تماديتم فيها ، ومن جملتها تبديل نعمة الله كفرا . وإضلال الأتباع ، وسمى عملهم هذا تمتعا تشبيها له بالمشتهيات المعروفة ، لتلذذهم به كتلذذهم

بها . ثم بين سبحانه جزاءهم الذى لا مفر منه ، ولا محيص عنه فقال تعالى :

(فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) :أى إن دمتم على ما أنتم عليه . من الاستجابة لداعى الشهوة ، ودافع الانحراف . فإن مآلكم إلى نار جهنم فيها مستقركم ومأواكم ، أو هو تعليل لأمرهم بالتمتع ، وفيه من التهديد الشديد ، والوعيد القوى مالا يوصف.

والمعنى تمتعوا بما شئتم فلا أمل لكم فى النجاة لأن مردكم،ومرجعكم إلى النار لا لشئ سواها .

٣١ - (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . .) الآية .

لما هدد الله الكفار وعجب من قبح ما فعلوا حيث بدلوا نعمة الله كفرًا ، وأضلوا أتباعهم وأشركوا به تعالى ، واقترفوا كل منكر . أنزل هذه الآية تكليفًا لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يأمر عباده المؤمنين بأداء العبادة البدنية تامة كاملة ، والإقبال على العبادة المالية بنفوس راضية .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين استجابوا دعوة ربهم فآمنوا ، قل لهم : أقيموا الصلاة وأدوها حق أدائها بأركانها وشروطها فى أوقاتها ، وقل لهم أيضًا أدوا الزكاة وأنفقوا مما رزقكم الله على المحتاجين والمعوزين ، فإن المال مال الله فهو معطيه ومسبب أسبابه ، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وقد أبحنا لهم أن ينفقوا سرًّا كما يشاءون ، وعلنًا كما يحبون ، بغير مَنٍّ ولا رياء .

والمراد حث المؤمنين على أداء عبادته البدنية والمالية شكرًا ،لنعمه التى تفضل بها عليهم.

واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاء،وفى إنفاق الواجب الإعلان، وعلى العباد أن يسارعوا إلى امتثال ما أمروا به من إقامة الصلاة والإنفاق.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) : فإنه إذا جاء ذلك اليوم لايتسنى لمقصر فى دنياه ، أن يتلافى تقصيره هذا ، أو يفتدى نفسه بما يكسبه من بيع أو شراء أو بشفاعة خليل ، فإنه لا بيع فى هذا اليوم ولا شراء ، ولا تنفع فيه شفاعة الأصدقاء والأخلاء إذا لقى العبد ربه كافرًا ، حيث « لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] . وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح ، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[2] .

(١) الشعراء – ٨٨ (٢) سورة الليل من ١٩ – ٢١

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : كل ماعلا الإنسان فأظله فهو سماءٌ. والمرادبه هنا السحاب .

(رِزْقًا) : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أويلبس أو ينتفع به .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) : أى يَسَّر الْفُلْكَ لإرادتكم . (والْفُلْكَ):بسكون اللام ؛ السفينةُ . يستعل فى الواحد فيذكر ، وفى الجمع فيؤنث .

(دَائِبَيْنِ): فى حركة دائمة لايفتران . يقال دأب فى عمله دأبا ويحرك جدَّ فيه .

(لَاتُحْصُوهَا): لاتقدرون على حصرها وعَدِّها. والإحصاءُ فى الأَصل : العد بالحصى ، ثم أُطلق على العَدِّ مطلقا .

(ظَلُومٌ) : ظالم شديد الظلم يقال :ظلم، يظلم ،ظلما ،من باب ضرب فهو ظالم وظلوم . والظلم : وضع الشيء فى غير محله .

(كَفَّارٌ) : جاحد النعمة . يقال كفر النعمة وكفر بالنعمة جحدها .

التفسير

٣٢ـ (اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً . ...) الآية .

لما ذكر الله أحوال الكافرين المعاندين الذين جحدوا نعمهُ ، بالكفر بوحدانيته ، والإشراك فى عبادته ، وتكذيب رسوله ، وأتبع ذلك أمر المؤمنين بطاعته البدنية والمالية ، شكرا له على نعمه ، لما ذكر ذلك ـ جاء بهذه الآية وما بعدها ليوجه عباده إلى أدلة القدرة الماثلة فى الآفاق. ويذكرهم بالنعم العظيمة التى يتقلبون فى أعطافها . حثًا للمؤمنين على المزيد من شكرها ، وتقريعًا للكافرين الجاحدين لها ، وقد بدئت هذه الآية بلفظ الجلالة وأخبر عنه بالاسم الموصول بسبع جمل ، تبرز أدلة باهرة على قدرة الله تعالى ووحدانيته . فهو وحده الذى خلق السموات ، وأبدع صنعها على غير مثال سبق ، وأوجد فيها الأجرام العلوية من نجوم وكواكب ، وخلق كذلك الأرض ومافيها من أنواع المخلوقات .

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) : المراد من السماء هنا السحاب ، أى أنزل من السحاب نوعا خاصا من الماء وهو المطر ، فأخرج به أزواجا أى أنواعًا من نبات شتى ، أخرج به زروعًا وثمارًا مختلفة الألوان والأحجام والطعوم والمنافع . وجعلها رزقًا لكم تعيشون به . مطعومًا كان أو ملبوسا أو غير ذلك .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : أى ذلَّلَ لكم السفن لتجرى فى البحر بمشيئته ، وذلك بأن أقدركم على صنع السفن ويسر لكم استعمالها . فجرت على وجه الماء فى البحر مذللة خاضعة لإرادتكم بأمره : أى بمشيئته التى ارتبط بها كل شىء فى الوجود ، فتسيير الآلات ليس بمعزل من توفيق الله ومدده .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) : أى ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم . وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم .

٣٣ـ (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) : أى أنه تعالى يذللهما ليلا ونهارًا لايفتران عن حركتهما وإصلاحهما لما ارتبط بهما صلاحه من الموجودات وفق تقدير الله. وهما لايلتقيان إلى قيام الساعة . « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : فهما يتتابعان فيكم ويتعاقبان ،لتتخذوا من النهار معاشًا فتبتغوا فيه من فضله ، ومن الليل سكنًا تستعيدون به قوتكم ونشاطكم، وبهما يتم عقد ثماركم وإنضاجها واختلاف الفصول بما يكون فيه صلاح أمركم واستقامة شأنكم، وما به تتنوع أصناف زروعكم وتتعدد أجناس ثماركم ، إلى غير ذلك من النعم الجليلة كالاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر .

٣٤ـ (وَآتَاكُمْ مِّن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) : أى تفضل عليكم فأعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئًا اقتضته مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ، كما فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ » .

أو أعطاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ـ فحذف الثانى لدلالة الأول عليه ، ونظيره : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى أمدكم بما تحتاجون إليه فى جميع شئونكم، من كل ما هو جدير بسؤالكم ، سواء أسألتموه أم لم تسألوه . وفى هذه الحياة أشياءُ كثيرة لازال يجهلها الإنسان وهى مُعَدَّةٌ له ، ومتى حان وقت إبرازها كشف الله له عنها ، بما أمده به من عمق فى العلم وقوة فى العقل و توفُّر على البحث ، أو عن طريق الصدفة ، وقرئ بتنوين كل : والمعنى على هذه القراءة وأعطاكم من كل شئ :ما سألتموه ـ على أن (ما) نافيه ـ أى من كل شئ حال كونكم غير سائليه .

(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا) : أى أن نعم الله عليكم كثيرة متعددة ، فإن حاولتم إحصاءها ولو إجمالًا فإنكم لن تطيقوه ، لأنها لا يلم بها الحصر ولا يحيط بها العد فهلا استعنتم بها على الطاعة . وشكر النعمة وعدم الإشراك به فى العبادة .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) : المراد من الإنسان الجنس ومن الكفر كفر النعمة بالتقصير فى شكرها .

والمعنى : أن الإنسان لا يقدر نعم الله عليه وهى لاتحصى ، فتراه عظيم الظلم لنفسه ، شديد الكفران لنعم ربه ، فهو دائم الانتفاع بها ، والتقصير فى أداء شكرها ، ووضعها فى غير موضعها ، ولو أنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره ، والوفاءُ بحقه جل وعلا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(الْبَلَد) : مكة المكرمة . (اجْنُبْنِي) : أبعدني . يقال :جَنَبْتُ الرجلَ الشَّرَّ من باب نصر . أبعدته عنه ، وجنَّبْتُه بالتشديد مبالغة . (بِوَادٍ) :الوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسَّيل . والمراد به هنا ما يحيط بالبيت الحرام .(تَهْوِى إِلَيْهِمْ): تسرع إليهم شوقًا وحُبًّا . يقال : هوى إليه يَهْوِى هُوِيًّا بضم الهاء إذا أسرع فى السَّير ـ (مَا نُخْفِى) : ما نضمر ونستر. يقال : أخفيت الشيءَ سترتُه . وخَفِى الشيءُ اسْتَتَر أو ظهر ضدٌّ . (ومَا نُعْلِنُ) : وَما نظهر. يقال عَلَنَ الأَمْرَ من باب قعد ظهر،وأعلنته ؛ أظهرته .

التفسير

٣٥ ـ (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً) :

هذه الآية ومابعدها يذكر الله فيها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بماوقع من مخالفة قريش لوصايا أَبى الأَنبياءِ إبراهيم عليه السلام ، تـأْكيدًا لما سبق من تعجيبه صلوات الله وسلامه عليه من أَحوالهم ، وتماديهم فى الطغيان والضلال ـ والمعنى : واذكر أَيها النبى وقت قول

إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادى مكة « ربِّ اجْعلْ هذا الْبَلَدَ آمِنًا » : أى يا إلٰهى الذى أعبده اجعل مكة - شرفها الله - بلداً ذا أمن ، حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

(وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) : أى أبعدنى وذريتى عن عبادة الأصنام ، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من البعد عن عبادتها ، وإنما سأل إبراهيم هذا لنفسه مع أن الأنبياء جميعاً معصومون من الشرك ، للإيذان بأن العصمة بفضل الله ومعونته وتوفيقه ، كما أن فيه هضماً لنفسه واعترافاً بحاجته إلى فضل ربه فى كل أمر ، والمراد من بنيه من اتبعه فى شريعته من ذريته بدليل قوله تعالى : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى » فكأنه لا يعتبر من ذريته من لم يتبعه ، وعلى هذا تكون دعوته مستجابة تماماً حسب نيته ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى سورة البقرة من قوله تعالى : « قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » [1] .

٣٦ - (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) :

لما كانت الأصنام سبباً للإضلال أسند إليها الإضلال مجازاً ، لأنهن جماد فلا يعقل منهن ذلك على الحقيقة .

وجملة : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » : تعليل لدعاء إبراهيم السابق ، وهو قوله : « واجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ » . وصدر هذا التعليل بقوله (رَبِّ) ، إظهارا للاعتناء به ، ورغبة فى استجابته - والمعنى : وأبعدنى وذريتى عن أن نعبد الأصنام يارب لأنهن تسببن فى إضلال كثير من الناس ، بنصبها شركاء لله فى العبادة ومشاهدة الأبناء للآباء فى تقديسهم لها ، فكان ذلك مُغْرياً لهم بعبادتها ، ثم إن إبراهيم عليه السلام أدرك بفطرته أن بنيه سوف ينقسمون بعده إلى موحدين ومشركين ، فلذلك أظهر لربه أنه لا يستحق الانتساب إليه إلا من اتبعه فى دينه دون من عصاه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

(فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن تبعنى منهم فى التوحيد والإسلام الذى هو دين الله ، فإنه متصل بى نسباً وديناً ، ومن عصانى بإعراضه عن التوحيد الذى أدعو إليه ، وإصراره على المعاصى .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٢٤ .

(فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإنك أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة ، ومن كان كذلك فإنه يغفر لأمثالهم ويرحمهم ، فإن قيل : إن من ذريته من عصاه بالإشراك بالله ، فكيف يدعو له بالمغفرة والرحمة ، فالجواب أنه دعا هذا الدعاء الشامل قبل أن يعرف أن الله لا يغفر أن يشرك به ، أو أنه قيده فى نفسه بالتوبة من الشرك ، فكأنه قال : فإنك غفور رحيم لمن تاب منهم قبل موته ، وقال مقاتل وابن حَبَّان المعنى : « ومن عصانى » فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم .

٣٧- (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) :

المقصود من ذريته فى الآية ابنه البكر إسماعيل الذى ولد له فى شيخوخته من أَمَتِهِ هاجر التى وهبها ملك مصر لزوجته سارة ، فوهبتها له .

وكانت سارة عقيماً زمنا طويلا ، فلما ولدت هاجر التى كانت جاريتها ، حدث فى نفسها ما يحدث للنساء من الغيرة ، فناشدته أن يخرجهما من عندها ، فذهب بهما إلى أرض مكة ، ووضعهما هناك ، حيث لا يوجد زرع ولا ماء ، ولا أحد يقيم بتلك الأرض الموحشة ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم عليه السلام راجعاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شىء ، ولما لم يجبها قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ؛ ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ،حتى إذا كان عند الثنية – حيث لا يريانه استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتفعاً من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعاً يديه فقال : « رب إنى أسكنت من ذريتى » إلى قوله « لعلهم يشكرون [1] » . وقد آثر عليه السلام فى نداء ربه صيغة الجماعة بقوله . « رَبَّنا » لتقدم ذكره وذكر بنيه ، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أدخل فى القبول وإجابة المطلوب .

والمعنى : ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى بواد لا ماء به ولا زرع ،عند المكان الذى أعددته لبيتك المحرم ،مع أن هذا المكان غير صالح للسكنى لفقد الماء والزرع، وقد أقدمت على ذلك استجابة لأمرك ، وتقرباً إليك ،وثقة بأنك سترعى ذريتى بعد أن لجأت إلى جوارك الكريم .

(١) القصة رواها البخارى مطولة فارجع إليه إن شئت .

وإضافة البيت إلى الله تعالى لأنه لا يملكه غيره ، ولا يُصَلَّى نحوه إلى سواه ، ووصف البيت بالمحرم للإيذان بعزة الملجإ ، وعصمته عن المكاره ، حيث حرم التعرض له والتهاون به .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) : فى هذه الجملة تعليل لإسكان بعض ذريته فى هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام .

والمعنى : ياربنا ما أسكنت بعض ذريتى بهذا الوادى البلقع الخالى من كل مرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بالذكر والعبادة ، والتعبير بصيغة الجمع فى قوله : « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » : ، مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أعلمه أن ولده إسماعيل ، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة ، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ) :

أى فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً وودًّا ليساكنوهم ويعيشوا معهم ، وأول آثار هذه الدعوة أنه تعالى أنبع ماء زمزم ، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير تحوم على الجبل ، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء ، فأشرفوا ، فإذا هم بهاجر ، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك .

(وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) : فاستجاب الله دعاءه ، ورزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أنبت لهم من أشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف ، أو مايجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار ، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفورة ، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة فى اليوم الواحد ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا »[1] .

وهذا من فضل الله وكرمه ، ليكون عونا على عبادته والرغبة فى البقاء فى حراسة حرمه ، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الموحش . مطمح الأنظار ومحط الرحال . وهى لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكرا له تعالى وثناء عليه .

٣٨ - (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ . . .) الآية .

كرر إبراهيم نداء ربه للمبالغة فى الضراعة .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٥٧

والمعنى : ياربنا إنك تعلم كل أحوالنا ، لايخفى عليك شئ منها . فتعلم مانخفيه ونستره ومانعلنه ونظهره ،فكل ذلك عندك فى العلم سواءٌ .

وقال ابن عباس ومقاتل فى تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أُخفيه وما أُعلنه من الوجد بإسماعيل وأُمه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

ولكن حمل الآية على عموم أحوالهم أولى ، ويدخل فيه مايتعلق بإسماعيل وأُمه ،وقدم نخفى على نعلن فى الذكر ،لأن مرتبة الإسرار متقدمة على مرتبة الإعلان ،فما من شئ أُظهر إلا كان قبل ذلك فى طى الكتمان ، وبعد أن اعترف إبراهيم لربه بأنه سبحانه يعلم ما يخفيه وما يعلنه هو وذريته ، أقرّ لربه بعلمه بكل مافى الكون حيث قال :

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) : أى أنه تعالى لا يخفى عليه فى سماواته وأرضه شيء من الذرات والأجزاء والأوصاف والأعراض ، وما يصلح ذلك ومايفسده ، وما يبقيه ومايفنيه : « وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

ويقصد إبراهيم عليه السلام بقوله : « وما يخفى على الله من شيء » إلخ أداء حق ربه عليه ، وتعليم ذريته مايجب عليهم إدراكه من شئون ربهم ، ليخافوه فى سرهم وعلنهم .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من قوله تعالى ، إجابة منه لإبراهيم حين قال : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ » . تصديقا له وتأييدًا لشهادته ، وتوسيعا لدائرة علمه جل وعلا تعليما لعباده .

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ) : رزقني مع تقدمي في السن .

(إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) : أي إنك مجيب دعاء من دعاك .

التفسير

٣٩ ـ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . .) الآية .

أي الثناء مني على الله شكرًا له حيث منحني مع كبر سني ويأسي من الولد ـ منحني ـ إسماعيل وإسحاق . وقال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة .

(إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) : المقصود من سماع الدعاء قبوله وإجابته ، أي إن ربي ومالك أمري لمستجيب دعاء من دعاه ، وقد استجاب دعائي فيما سألته من الولد .

٤٠ ـ (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي . .) : أي وفقني إلى دوام المحافظة عليها والخشوع فيها ، وإقامة حدودها واجعل من ذريتي من يقيمها ، وقد خص الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لايكون مقيما للصلاة ، بأن يكون كافرا أومؤمنا لايؤدي الصلاة ، ويجوز أن يكون قد علم من استقرائه عادة الله في الأمم السابقة ، أن يكون في ذريته من لايقيمها ، وهذا كقوله تعالى : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ »

(رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) : أي دعائي بتحقيق ماطلبته من الأدعية السابقة .

٤١ ـ (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ....) : بما أن إبراهيم لايرتكب ذنبا كشأن جميع الأنبياء فيكون معنى هذه الجملة ، ربنا تجاوز عما فرط مني من ترك الأولى في أعمالي الدينية وغيرها مما لايسلم منه البشر . واغفر لوالدي . وكان ذلك الاستغفار منه لهما قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله ، وقال القشيري : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة ، لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه فقال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[1] . وروى عن الحسن أيضا أن أمه كانت مؤمنة ، وختم إبرهيم عليه السلام دعاءه بقوله :

(١) سورة التوبة (١١٤)

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) : أى واغفر للمؤمنين جميعا من ذريتى وغيرهم حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعة منه للمؤمنين المذنبين نرجو أن يتقبلها الله منه .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لاتَطْرِف . يقال شخص البصر إذا ارتفع ، ويتعدى بنفسه ، فيقال شخص الرجل بصره . إذا فتح عينيه لايطرف . (مُهْطِعِينَ) : مسرعين ، من أهطع فى عَدْوِه إذا أسرع .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : رافعيها من إدامة النظر لايلتفتون إلى شىء ، يقال أقنع رأسه رفعه.

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : الطرف : العين ولايجمع لأنه فى الأصل مصدر . والمراد لاترجع إليهم أجفانهم التى تحتها العيون بل تظل مفتوحة .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى وقلوبهم خالية لايشغلها منوى الخوف .

التفسير

٤٢ - (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . . .) الآية .

الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم . والمراد منه تثبيته على ما كان عليه من علمه أنه تعالى ليس غافلا عما يعمله المشركون الظالمون ، كما أن فيه تسلية للرسول عما يفعلونه : بما يشعر به من الوعيد لهم والوعد له .

والمعنى : ولاتحسبنَّ أيها الرسول أنه تعالى فى إمهالهم وتأْخير عذابهم غافل عما يعمل الظالمون ، فإنه سبحانه لاتخفى عليه منهم خافية .

أو لاتحسبن الله يترك عقابهم لِلطْفِهِ وكرمه . بل هو معاقبهم على القليل والكثير .
وعن ابن عُيَيْنَةَ أن هذا تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، وروى نحو هذا عن ميمون بن مهران .
والمراد بالظالمين على هذا جنس الظالمين وأهل مكة داخلون فى الحكم دخولا أوليا .

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : هذا النص الكريم استئناف وقع تعليلا للنهى السابق وهو : «ولَاتَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ».وإيقاع التأْخير عليهم مع أن المؤَخر عقابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب موقوفون عليه رغما عنهم ، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال فلا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر ، وهذا التأْخير ليوم هائل لاتغمض فيه أبصار أهل الموقف لهول مايرونه فى ذلك اليوم من شدائد ، بل تبقى مفتوحة لاتتحرك أجفانها ولاحَدَقاتها ، قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ لشدة الحيرة ، أى تبقى مفتوحة لاتطرف .

٤٣ - (مُهطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ....) : هؤُلاءِ الظالمون يقبلون على الداعى يوم القيامة مسرعين إليه تتعلق به أبصارهم لاتتحول عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : أى رافعيها مع إدامة النظر إلى مابين أيديهم .

(لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : أى لايرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلا عن النظر إلى شىءٍ آخر . بل يبقون مبهوتين حائرين .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى قلوبهم خاوية خالية ليس فيها فهم ولاعقل ، لفرط الحيرة والدهشة ، كقولك فى البيت الذى ليس فيه شىءٌ إنما هو هواءٌ. وهذا المعنى قاله ابن عباس وغيره ويجوز أن يكون المراد أن عقولهم خرجت رعبا وهلعا كأنها هواءٌ .

(وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَأَنْذِرِ) : وخوف . (يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) : يوم القيامة .

(أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .

(مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى مالكم من بعث ونشور .

التفسير

٤٤ - (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ . .) : هذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمره بإنذار الناس ، والمراد بهم الكفار المعبر عنهم بالظالمين فى قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » . وقال الجبائى وأبو مسلم :المراد بالناس مايشمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين.والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما فى قوله سبحانه : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ».وإتيان العذاب يعم الفريقين من حيث كونهما فى الموقف (وإن كان لحوقه بالكفار خاصة - أنذرهم - :

(يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) . أى خوفهم ذلك اليوم المعهود وهو يوم القيامة الذى وصف بما يذهب الألباب ، لما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيبا .

(فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أى يصدر عنهم هذا القول فى ذلك اليوم ، والعدول عن لفظ – فيقولون – إلى ما فى النظم الكريم . لتسجيل الظلم عليهم ، وأنه سبب ماينالهم من شدة ونكال ، وفى قولهم (رَبَّنَا أَخِّرْنَا) إلخ إشارة إلى ندمهم وعجزهم عن الاحتمال . قال الضحاك ومجاهد : إنهم طلبوا الإمهال والرد إلى الدنيا للرجوع إلى حال التكليف ، وقد طلبوه إلى أمد من الزمن قريب حين ظهر لهم الحق . ليعملوا فيه مايرضيه جل شأنه ، وسجلوا ذلك على أنفسهم فقالوا : (نُجِبْ دَعْوَتَكَ) : إلى الإسلام بتوحيدك ، واتباع تعاليم دينك ، وذلك ما صرحوا به فى قولهم : (وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) : فيما جاءوا به مبشرين ومنذرين ، أى نتدارك ما فرطنا فيه بإعراضنا عن إجابة الدعوة واتباع الرسل ، وجئ بلفظ الرسل لأن الحديث عن يوم القيامة الذى يجمع الرسل وأممهم .

ولما كانت طبيعة الظالمين الكذب والافتراء ، وأن يقولوا ما لا يفعلون أجابهم الله تعالى : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى فيقال لهم ردا على قولهم توبيخا لهم وتبكيتا ، وبعثا على اليأس والحسرة : أو لم تكونوا فى الدنيا تحلفون بألسنتكم أنكم لاتزولون ولاتتحولون من قبوركم إلى دار أخرى ، وأنه لامعاد ولاجزاء – كما أخبر عنهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ . بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا » .

٤٥ – (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . .) : أى وأقمتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين المهلكين قبلكم ، وكنتم فيها سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر واقتراف المعاصى ، وليس لكم فيهم معتبر ولافيما أوقعناه بهم مزدجر .

(وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) : أى ظهر لكم بمشاهدة الآثار الباقية من ديارهم التى أبيدت وأصبحت أثرا بعد عين ، وبتواتر أخبارهم – ظهر لكم – ماصنعناه بهم من تدمير وإهلاك بسبب مااقترفوا من ظلم وإفساد . (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) : أى بينا لكم فى التنزيل على ألسنة

الأنبياء أحوالهم جميعها : ما فعلوه ومافُعل بهم من الأُمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة : لتكون لكم فيها عظة وعبرة . بقياس أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم . فترتدعوا عما أنتم فيه من الشرك والضلال طلبا للنجاة ، أوبينا لكم أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، وتكون الأمثال على هذا جمع مِثْل بمعنى الشبيه والنظير .

٤٦ - (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ . . .) : أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم مكروا مكرهم البالغ الذى استنفدوا فيه طاقتهم ، وبذلوا فى تدبيره كل مجهود لهم ، سعيا فى إبطال الحق وتقرير الباطل ، وقد جاوزوا بمكرهم كل حد . وفى هـــذا إشارة إلى تمام استحقاقهم مافعل بهم .

(وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ) : أى وعنده عِلْمُ مكرهم الذى يهلكهم به . أو عنده جزاءُ مكرهم الذى فعلوه ، وتسمية عقابهم مكرا لكونه فى مقابلة مكرهم وجودا وذكرا ويسمى هذا مشاكلة فى اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه فى صورة المكر لوقوعه من حيث لايشعرون .

(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) : أى وإن كان مكرهم فى غاية القوة ومنتهى الشدة ، بحيث يكون معدا لإزالة الجبال عن مقارها ،وهى التى جعلها الله للأرض أوتادا تحفظ توازنها وتضمن سلامتها . والمراد أن الله مجازيهم على مكرهم ومبطل أثره . وإن كانت تزول منه الجبال . وذلك إشارة إلى مؤاخذتهم على أى حال ،وعدم التفاوت بين كون مكرهم ضعيفا أو قويا .

وعن الحسن وجماعة أن «إن» نافية . واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ».والمعنى على هذا : وَمَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعند الله جزاء مكرهم والحال أنه ماكان له أثر وخطر عند الله حتى يزول منه ما هو كالجبال فى الرسوخ من آيات الله وشرائعه ومعجزاته على أيدى الرسل السابقين عليهم السلام [1] .

---

(١) قالوا ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود « وما كان مكرهم لتزول منه الجبال » . حيث جاءت فيها (ما) النافية مكان (إن) .

(فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(بَرَزُوا) : خرجوا من قبورهم . (مُقَرَّنِينَ) : المقرَّنون؛ المجموعون بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو الحبل الذى يربط به . (الأَصْفَادِ) : القيود والأغلال وهو جمع صفْد أو صَفَدٌ قيد يوضع فى الرِّجل . والغُلُّ : قيد تضم به اليد إلى العنق وقد يقصر على العنق [١] ، (سَرَابِيلُهُمْ) : جمع سربال ، وهو القميص . (قَطِرَانٍ) : القطران ؛ سائل أسود تطلى به الإبل الجربى . (تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : تعلوها وتحيط بها .

التفسير

٤٧ ـ (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ . . .) : إن كان الخطاب للرسول فمعناه دُم على ما أنت عليه من الثقة بصدق وعد الله ، وإن كان لكل مكلف فهو للتحذير والإرشاد ، أى فلا تظن أنه سبحانه مخلف وعده لرسله بتعذيب الظالمين فى مثل قوله :

«وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا . . .» إلى آخر الآيات .

واقتران النهى هنا بالفاء يشير إلى ترتبه على ما سبق ، وكأنه قيل خطابا للرسول :

(١) ومنه قوله تعالى : « إذ الأغلال فى أعناقهم » .

وإذا كان الله قد أمرك أن تنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ويكون من أمر الظالمين فيه ماتقدم بيانه ، فدم على ما أنت عليه من كمال الثقة بالله . واليقين بإنجاز وعده الذى وعده رسله.

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) : أى أنه جل شأنه غالب لايغالَبُ ، قادر يفعل مايريد ، فينتقم لأوليائه من أعدائه . والجملة تذييل وتعليل للنهى السابق وهو قوله سبحانه : « فَلَا تَحْسَبَنَّ » . والتعرض لوصف العزة والانتقام يؤكد عدم إخلاف وعده رسله بتعذيب الظالمين جزاء ما اقترفوا من إفك وطغيان ، وفى جملتهم قريش .

٤٨ ـ (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .....) : أى أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض غير الأرض .

واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات وقد يكون فى الصفات ، والآية ليست نصا فى أحد الوجهين ، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل .

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) : أى وخرج الخلائق من قبورهم ، أو الظالمون المدلول عليهم بما سبق ، أو المراد ظهورهم بأعمالهم التى عملوها سرا وزعموا أنها لاتظهر ، وعبر عن البروز بصيغة الماضى لتحقق الوقوع . لأنه لامناص لهم من لقاء الله الواحد الغالب على أمره ، الفعال لمايريد ، لمحاسبتهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وفى وصفه سبحانه بالوحدانية والقهر إشعار بأنهم عنده على خطر عظيم ، وإيذان بتحقق العذاب الموعود.

٤٩ ـ (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ...) : أىَ تبصرُ الكافرين يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) : أى مجموعًا بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو الوثاق الذى يربط به ويضم كل امرئ لمشاركه.

٥٠ ـ (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ....) : أى قُمُصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطلى به الإبل الجربى فيحرق الجرب كما تطلى به جلود أهل النار حتى يكون عليهم كالسرابيل ، ليذوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال . شديدة الإيلام تجعل أجسامهم سوداء داكنة ، تفوح منها الروائح التى تزكم الأنوف ، وتقبض النفوس .

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : أى تعلوها وتحيط بها كما تحيط بأجسادهم المسربلة بالقطران . وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن غشيان النار حكم عام لسائر الأعضاء ،

لتنبههم إلى أن أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها تحيط بها النار ، لكونها مجمع المشاعر والحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أجرموا بالإعراض عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره والوصول إليه . ولعل تركها من الطلاء بالقطران ليتعارفوا عند انحسار اللهب أحيانا ، ويتضاعف عذابهم بالخزى على رءوس الأشهاد

٥١ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...) : أى يفعل الله بهم ماذكر. ليجزى كل نفس مجرمة . جزاءً موافقًا لما اقترفت من كفر وعصيان ، ويجوز أن يراد من النفس ما يعم المطيعة والعاصية فيكون المعنى : وبرزوا لله الواحد القهار ، ليجزى كل نفس مطيعة أو عاصية ماكسبت من خير أو شر .

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : فهو سبحانه لايشغله شأن عن شأن ، ولايحتاج إلى تأمل وتدبر فى إصدار حكمه . بل يتمه فى أعجل وأسرع زمن .

٥٢ - (هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ . . . . .) : هذا إشارة إلى ماذكر من قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا » إلى قوله : « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . أى ذلك كفاية فى العظة والاعتبار والتذكير ، فما ظنك بما انطوت عليه السورة وما اشتمل عليه القرآن المجيد من فنون العظات و القوارع ،وهذا البلاغ إمّا للكفار خاصة على اعتبار اختصاص الإنذار بهم فى قوله تعالى : « وَأَنذِرِ النَّاسَ » . وإما للناس عامة على اعتبار شمول الإنذار لجميع الناس. (وَلِيُنذَرُوا بِهِ) : معطوف على مقدر أى هذا كفاية للناس لينصحوا ولينذروا به ويجوز أن يكون البلاغ بمعنى الإبلاغ ، كما فى قوله تعالى : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . والمعنى : هذا إبلاغ للناس ليفهموه ولينذروا به. (وَلِيَعْلَمُوا) : بالتفكر والتأمل فيما فيه من البراهين الساطعة ، والدلائل الواضحة التى أنبأت عن إهلاك الأمم السابقة ، وإسكان آخرين مساكنهم إلى غير ذلك مماحكته الآيات التى تقدمت . هذا كله ليعلموا :

(أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : تنزه عن الشريك والمثيل ، وتقديم الإنذار لأنه الداعى إلى التأمل المؤدى إلى الغاية منه ، وهو العلم بوحدانية الله جلّ وعلا .

(وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) : أى هذا بلاغ للناس لما تقدم وليتذكروا شئون الله مع عباده ومايعملون فى حياتهم فيرتدعوا عما يهلكهم ، وذلك باجتناب مااتصف به الكفار ، والتذرع بما يقربهم إلى الله ، من التمسك بالعقائد الحقة والأعمال الطيبة ، وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب إعلاء لشأنهم ، وحض الناس على أن يكونوا منهم لينتفعوا مثلهم بمواعظه — والله تعالى أعلم .



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب السابع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

أما أنها مكية فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم ، كما روى عن قتادة ومجاهد ، واستثنى الحسن قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧ ». وقوله سبحانه : « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٠-٩١ ». ذكره صاحب مجمع البيان .

وأما أنها تسع وتسعون آية فبالإجماع كما نقله الدانى والطبرسى .

وتناسب سورة إبراهيم التى قبلها فى أنها مثلها فى كونها مكية مفتتحة بأسماء بعض حروف المعجم ، وقد جاء فى كلتيهما النهى عن الكفر والوعيد بالعقاب عليه ، والحث على الإيمان والوعد بالثواب عليه ، وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، إلى غير ذلك من المناسبات التى جمعت بينهما .

مقاصدها

وقد اشتملت هذه السورة على مقاصد عظيمة ، أهمها ما يلى :

١ - أنها ابتدأت بالإشادة بآيات القرآن المبين ، وبينت أن من كفروا سوف يتمنون أن لو كانوا مسلمين ، وأمرت النبى أن يتركهم يتمتعون ويلهيهم الأمل فسوف يعلمون العاقبة السيئة لانصرافهم عن الحق ، وذلك فى وقت معلوم لله ، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون .

٢ - أنهم لما سفهوا على الرسول بوصفهم إياه بالجنون ، لأنه لم يأتهم بالملائكة تؤيده وتبلغهم عن الله نَبَّهَتْهُمْ هذه السورة إلى أن الملائكة لا تنزل إلا بحكمة ، وليس منها أن تكون رسلا من الله إليهم ، فإنهم يهلكون بمشاهدتهم لها على صورها الحقيقية ولا يُنْظَرُون ، أو يهلكون عقابا على كفرهم بعد مجىء الآية التى اقترحوها ، كما جرت عادته تعالى فى الأمم قبلهم ، وأرشدتهم إلى أنه تعالى هو الذى نزّل على محمد معجزة الذكر وهو القرآن ، وأنه حافظ له من كل ما يقدح فيه ليظل معجزة الإسلام ما بقى الزمان .

٣-تسلية الرسول عن استهزاء قومه ، بأن ذلك عادة أهل الباطل مع المرسلين وذلك فى قوله سبحانه :

« وما يأتِيهم مّن رّسُولٍ إلّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ -١١ » .

٤-التنبيه إلى الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته ، مثل بروج السماء ، والشهب التى تتساقط منها ، والأرض وإرسائها بالجبال . وتيسير أسباب المعايش فيها ، وإرسال الرياح لواقح ، وإنزال الماء لسقيانا ، وما نحن له بخازنين ، بل هو عطاء من رب العالمين ، وأنه تعالى هو المحيي والمميت وأنه سوف يحشر الناس أجمعين للحساب والجزاء .

٥-التنبيه إلى أن مبدأ خلق الإنسان كان من صلصال من حمإ مسنون ، والجان كان من نار السموم ، وأنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه ، فسجدوا إلا إبليس فطرده الله من الجنة ، لتكبره وعصيانه ، وأنه انتقم لنفسه ظلمًا من آدم ، بإغرائه بالأكل من الشجرة ،فأهبطه الله وزوجه إلى الأرض التى خلقه منها ليكون فيها خليفة ،وأن إبليس توعد بنى آدم بإغوائهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، فإنه ليس له عليهم سلطان ،وأن جهنم موعد العصاة أجمعين ، وأن المتقين فى جنات وعيون إخوانًا على سرر متقابلين .

٦-ذكر قصة إبراهيم وأضيافه من الملائكة ، وقد جاء فيها أنهم بشروه- فى شيخوخته- بغلام عليم ، فعجب من بشارتهم وقد تخطى سن الأمل إلى شيخوخة اليأس ، فطمأنوه قائلين : «بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ من رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ٥٥-٥٦ » : وأخبروه أن الله أرسلهم إلى قوم لوط لعقابهم على كفرهم وجريمتهم التى اشتهروا بها فى العالمين .

٧-ذكر قصة لوط وقومه ، وقد جاء فيها أمر الملائكة إياه بالإسراء بأهله فى جزء متأخر من الليل ، ونهيهم لهم عن الالتفات إلى ما وراءهم ، وأن عليهم أن يمضوا حيث يؤمرون وأعلموه أن قومه الآثمين هالكون جميعًا فى الصباح ،وقد حدث هذا؛ فإنه تعالى جعل فى الصباح عالى بلادهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، جزاء كفرهم وجرائمهم

٨ – إجمال قصة أصحاب الأيكة والانتقام منهم ، وتفصيل قصة أصحاب الحجر المكذبين وذكر سوء نهايتهم .

٩ – بيان أنه تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثًا ، وأن الساعة آتية ، وأن على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن قومه ويُسرِّى عن نفسه ، حتى يؤمر فى شأنهم بما يمكِّنهُ منهم .

١٠ – بيان أنه تعالى آتى نبيه صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، وأنه بما اشتمل عليه من الهدى يغنيه عن التطلع إلى الدنيا ، فإن الآخرة خير له من الأولى .

١١ – نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على المشركين إن لم يؤمنوا ، وأمره بلين الجانب والتواضع لمن معه من المؤمنين ، وأمره أن ينذر المشركين ويخوفهم مما آل إليه أمر المقتسمين الذين اقتسموا طرق مكة ومسالكها ليصدوا السابلة عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وينفروهم منه ، فقد أماتهم الله شر ميتة ، وسيأتى بيان آراء المفسرين فى هؤلاء المقتسمين .

١٢ – أمره صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بأمر ربه ويبلغ دينه ، ولا يكترث بإعراض المشركين ، وأن يجنح للصلاة حين يضيق صدره بما يقولونه عنه وعن دعوة الحق ، وأن يظل على ما هو عليه من عبادة ربه حتى يأتيه اليقين .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)[1] : أى قرآن مظهر شريعة الله والحق من الباطل ، أو بَيِّن واضح لايخفى الحق فيه ولاتلتبس معانيه .

(رُبَمَا)[2] : رب حرف يستعمل للتقليل تارة والتكثير أخرى ، سواءٌ اتصلت به ما أولم تتصل ، وسواءٌ أكان مخففاً أم مشدداً ، ويختص بالدخول على الأسماء إن كان مجرّدا من لفظ ما فإن اتصلت به سوغت دخوله على الأفعال كما هنا ، (لَوْ) : حرف يفيد التمنى .

(وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ) : أى يشغلهم عن طاعة الله .

التفسير

١ - (الٓر) : تقدم الكلام على مثله فى أول سورة البقرة وآل عمران ويوسف والرعد وإبراهيم وغيره ، فارجع إليه إن شئت .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) :

أى تلك السورة العظيمة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية ، الجدير بأن يختص من بين باقى الكتب باسم الكتاب ، وتلك السورة أيضاً بعض آيات

(١) مبين اسم فاعل من أبان وهى تستعمل متعدية للمفعول إذا كانت بمعنى أوضح وأظهر ، ولازمة - اى لا تنصب المفعول - إذا كانت بمعنى اتضح وظهر : وقد بينا ذلك فى المفردات .

(٢) وفى رُبَّ لغات أوصلها بعضهم إلى سبع عشرة انظر الألوسى فى الآية ، فقد فصل الكلام على تلك اللغات وإعرابها .

قرآن عظيم الشأن ، مبين شريعة الله التى ختم بها الشرائع السماوية ، ومُظْهرها للناس فى أبهى صورها وأوضحها ، وكما يُبينُ شريعة الله فهو واضح فى عباراته ومعانيه ، لايلتبس على قارئ يعرف العربية ،ولا تخفى عليه عجائبه ومزاياه .

وبعد أن أشار الله إلى عظمة آيات الله البينات التى منها هذه السورة ، تشويقاً وتوجيهاً إلى حسن تلقيها ، شرع يبين ما اشتملت عليه فقال سبحانه :

٢ - (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) :

أفادت هذه الآية الكريمة ، أن الكفار سوف يحصل منهم بكثرة ، أن يتمنوا فى الآخرة لو كانوا مسلمين فى دنياهم لكى ينجوا من استمرار العذاب الذى يقاسونه فى الآخرة ؛ كما نجا عصاة المؤمنين بعد أن عذبوا فيها على قدر معاصيهم ، أخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة والبيهقى وغيرهم عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم « أنهما تذاكرا هذه الآية فقالا : هذا حَيْثُ يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار ، فيقول المشركون : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . فيغضب الله تعالى لهم ، فيخرجهم بفضل رحمته » وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند صحيح عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاساً مِنْ أُمَّتِى يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَكُونُون فِى النَّار مَاشَاءَ اللهُ تَعالى أَنْ يَكُونُوا ثم يُعيِّرُهمْ أهل الشرك فيقولون : مانَرىَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَصْدِيقِكُمْ نَفَعَكُمْ ، فَلَا يَبْقَى مُوَحِّدٌ إلاَّ أَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّار ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله صَلَى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم الآيةِ » وذكر ابن الأنبارى أن هذه الودادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ، ويَسْلَمُ فيها المسلمون ، ومن العلماء من قال إن هذه الودادة منهم فى الدنيا ، فالضحاك يقول : إن ذلك يحدث منهم عند الموت وانكشاف وخامة الكفر لهم حينئذ ، وابن مسعود يقول : إن الآية فى كفار قريش وَدُّوا ذلك يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين . وحرف (ربما) لم يوجد فى القرآن إلا فى هذه الآية ، وباؤُه مفتوحة مخففة فى قراءة نافع وعاصم ، ومشددةٌ فى قراءة باقى القراء .

٣- (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة ، أن الكفار حين يقاسون أشد العذاب يوم القيامة يتمنون أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ليتخلصوا من عذابهم الذى كتب عليهم الخلود فيه بسبب كفرهم ، وجاءت هذه الآية تأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فيما هم فيه من متاع الحياة الدنيا الفانية ، وإعراضهم عن العمل للآخرة ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعدم مبالاتهم بما دعوتهم إليه من الحق المبين .

والمعنى : اتركهم أيها الرسول فى غيهم ، ولا تبال بإصرارهم على الكفر ، فلا سبيل إلى انتفاعهم بنصحك بعد ما بذلت فيه خالص جهدك ، اتركهم يأكلوا مايشاءون بدون وعى كما تأكل البهائم ، ويتمتعوا بدنياهم بغير حدود كما شاء لهم هواهم ، ويشغلهم عن الآخرة أمَلُهم فى طول الأعمار ، ونيْلِهم الأوطار ، واستقامة الأحوال ، فى الدنيا ويوم المآل ، فسوف يعلمون وخامة عاقبتهم فى أولاهم وأخراهم وأشد مرض تصاب به القلوب طول الأمل ، ومتى تمكن من القلب فَسد مزاجُه ، وعزَّ دَواؤُه ، وصعب علاجه ، ويئس من برئه حكماؤُه . وانتهى أمر صاحبه إلى الشقاء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة من الشقاء . جمودُ العين ، وقساوةُ القلب ، وطول الأَمل ، والحرصُ على الدنيا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « نجا أول هذه الأُمة باليقين والزهد ، ويهلك آخرها بالبخل والأَمل » . وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأَمل إلا أساء العمل .

(وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(مِن قَرْيَةٍ) : أى من أهل قرية . (كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) : أجل مكتوب معلوم لله . (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا) : ما تموت أمة قبل الأجل المقدور لها . (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) : وما يتأخرون عنه . (الذِّكْرُ) : القرآن . (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ) : أى هلاَّ تأتينا بهم ليشهدوا بصدقك يا محمد . (إِذَن) : أى حينئذ .

التفسير

٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) :

بعد ما أنذر الله قريشا فى الآية السابقة بسوء العقاب بقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . عقبها بهذه الآية ومابعدها لبيان أن هلاك الأمم الكافرة بمشيئة الله وحده وفق أجل معلوم له لاتتجاوزه ، فلا يقدمه استعجال ، ولايؤخره استغاثة ودعاء .

والمعنى : وما جرت عادتنا أن نهلك قرية عصى أهلها وتمردوا على رسلنا ، إلا ولهذه القرية المهلكة أجل مكتوب فى اللوح المحفوظ ، معلوم لنا وللملائكة الذين ينفذون فيها

أمرنا فلا يقدمه استعجال كما فعل قومك حين أنذرتهم ، ولايؤخره استغاثة وتوبة بعد ظهور مقدماته ، ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

٥ ـ (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى ما تتقدم أمة من الأمم التى كتب عليها الهلاك ـ ما تتقدم ـ على الوقت الذى كتبه الله لهلاكها ، وجعله أجلا وغاية لوجودها ، وما تتأخر عنه لأى سبب من الأسباب ، بل تهلك فى الوقت الذى كتبه الله تماما « وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

٦ ـ (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) :

هذا شروع فى بيان كفر أهل مكة بمن أنزل عليه الكتاب بعد ما أشير إليه فى صدر السورة من كفرهم بالكتاب نفسه ووعيدهم على ذلك .

والمعنى : وقال مشركو مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية ـ لا على سبيل الاعتراف ـ قالوا له : يـأيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى ، فإنها أكبر من قدره فى تقديرهم الخاطىء، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرياسة الدنيوية ، إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ». والقريتان هما مكة والطائف، والرجل المقصود فى مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى . والمقصود فى الطائف حَبِيبُ بن عَمْرو بن عُمَير الثقفى كما روى عن ابن عباس . وقيل: عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل فى الطائف ـ كما روى عن مجاهد ، وقيل غير ذلك ـ

والذكر فى اللغة له عدة معان منها: الشرف ، وقد أطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه فى نحو قوله تعالى فى سورة الزخرف : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ». وقوله سبحانه فى سورة الحجر : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » لعلو شرفه ، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجاراة للنص القرآنى على سبيل الاستخفاف .

٧ ـ (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

لوما ولولا وهلَّا: حروف ثلاثة يستعمل كل منها للحثِّ على الفعل والحضّ عليه .

ومعنى الآية : هَلَّا تأتينا يا محمد بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك ، ويساعدونك فى الإنذار كما حكاه الله عنهم بقوله : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا » . أو يعاقبوننا على تكذيبك إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، فإن ذلك يكون تأييداً لك من ربك ،ويجوز أن يكون المعنى : إن كنت من جملة الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨ ـ (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

أى ماننزل الملائكة إلا مرتبطا بالوجه الذى اقتضته الحكمة ، وليس فيها مااقترحوه فإن الملائكة إن نزلوا للشهادة بصدقه صلى الله عليه وسلم ، أو لمساعدته فى التبليغ ، فإما أن يكونوا على صورتهم الحقيقية أو على صورة بشر ، فإن كانوا على صورتهم فلا يستطيع البشر لقاءهم بل يهلكون ، لأن أعصابهم لا تتحمل القوة الملكية الهائلة التى أودعها الله فيهم ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام « . . . . ولَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) » وإن كانوا على صورة بشر التبس أمرهم عليهم وظنوهم بشرا حقيقيين ، وهذا ما عناه الله بقوله فى السورة المذكورة : « ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يلْبِسُونَ (٩) ».

أما إن نزل الملائكة لاستئصالهم على كفرهم كما طلبوه على وجه الاستعجال بقولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ». وقولهم : « اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [١] ». وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يوْمِ الْحِسَابِ [٢] » ـ أما إن نزل الملائكة لذلك ـ فليس من الحكمة أيضاً ، فقد وعد سبحانه أن لا يعذبهم والرسول فيهم بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [٣] » . وكانت ثمرة هذا الكرم الإلهى أن دخلوا فى دين الله أفواجا قبل أن يلقى النبى صلى الله عليه وسلم ربه ، وبعد أن بيَّن الله فى صدر الآية أنه لاينزل الملائكة إلا بالحكمة وليس منها ما طلبوه ، ختم الآية ببيان الضرر الذى يحل بهم إن حقق لهم مطلبهم بإنزال الملائكة على أى وجه ، فقال :

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ (٢) سورة ص الآية ١٦ (٣) سورة الأنفال الآية ٣٣

(وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ) :

أى وما كان المشركون ممهلين حين يُنزل الله الملائكة استجابة لطلبهم ، بل يهلكون لأى سبب مما تقدم بيانه ، أو لأنه تعالى جرت عادته فى الأُمم السابقة أنه إذا أتاهم بالآيات التى يقترحونها ولم يؤمنوا استأْصلهم بالعذاب ، وقد علم الله من أهل مكة أنه لو أنزل ملائكة لم يؤمنوا بسبب نزولهم ، وحينئذ فليس من الحكمة إنزال الملائكة ليكفروا بهم فيهلكوا ، فى حين أنه كتب لهم الإيمان حيث دخلوا فى دين الله أفواجا بعد فتح مكة .

ثم رد الله إنكارهم للقرآن العظيم فقال :

٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى إنا نحن -رب السموات والأرض- نزلنا القرآن الذى أنكروا أنه وحى من عندى ، نزلناه عليك ، وإنا نحن بِعِظَمِ شأْننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع ، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا مابقى الزمان ، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولازيادة ولا نقصان .

ولقد أورث الله قلب كل مؤمن غيرة عليه ، فلا نرى أحداً يتسامح فى لحنة لاحنٍ فيه ، ولو كان شيخا عظيما ، بل يسارع إلى رَدِّه إلى الصواب ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ولم يتعهد الله بحفظ كتاب سواه ، أما كتبه السابقة فقد استحفظها الربَّانيِّين والأَحبار ، على سبيل الامتحان والاختبار ، فأَساءُوا الحفظ والرعاية ، وغيَّروا فيها وبدَّلوا ، وما لم يبدلوه منها أساءُوا تأْويله ، وتعمَّدوا تحويله ، وقد زال أصل التوراة ولم يعد له وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ، ولهذا لاتجد نسخ التوراة أو الإنجيل متماثلة ، فترى بعضها أطول من بعض ، مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

أما القرآن الكريم فإنه نسخة واحدة فى جميع الأَمصار والأَعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمان فى أربع نسخ وزعها على الأَمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه منذ أنزله على رسوله بقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولم يستحفظ عليه أحداً سواه ، فطبع كل مسلم على الغيرة عليه والمبالغة فى صيانته بدافع وجدانى ، تنفيذا لوعد الله الكريم ، ليظل دستور

رسالة الإسلام الخاتمة للرسالات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح :
« ولن يزال أمر هذه الأُمة مستقيما حتى تقوم الساعة » .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا آية على أنه من عند الله جلَّ وعلا .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(شِيَعِ) : جمع شيعة وهى الفرقة والجماعة على طريقة ومذهب ، مأْخوذ من شاع المتعدى تقول : شاعهُ بمعنى تبعه ، وتطلق الشيعة على الأَعوان والأَنصار . (نَسْلُكُهُ) : ندخله ، ومنه سلكت الخيط فى الإبرة . (الْمُجْرِمِينَ) : المذنبين ، يقال أجرم فلان وجرم أى أذنب كاجترم ، فهو مجرم ، وجريم أى مذنب ، والجريمة الذنب ، وجرم عليهم وإليهم جريمة جنى عليهم جناية ـ انظر القاموس . (خَلَتْ) : مضت . (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) : طريقتهم .

التفسير

١٠ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة موقف أهل مكة من دعوة الإسلام وداعيها ، جاءت هذه الآيات لتسليته صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بما حصل للرسل قبله من تكذيب أقوامهم لرسلهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يامحمد رسلا فى أمم الأولين ، الذين يشايع بعضهم بعضا فى كفره ، ثم بيّن الله سبحانه كيف تعاملت هذه الأمم مع هؤلاء الرسل فقال :

١١ـ (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

أى وما يأتى كل أمة من رسول خاص بها إلا كانوا به يسخرون كما فعلت قريش معك يامحمد ، فلا تبتئس أيها الرسول بما فعله جهال قومك معك ، فإن هذه عادة متأصلة فى الجاهلين مع سائر المرسلين .

١٢ـ (كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) :

أى كما أدخل الله كتب المرسلين فى قلوب أممهم غير مقبولة لديهم ، ندخل الذكر أى القرآن ـ فى قلوب المجرمين الآثمين من قومك فيكون فيها غير مقبول ومسخورا منه ، لفساد عقولهم وظلمة قلوبهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولو شاء لهداهم أجمعين .

١٣ـ (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) :

أى كذلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين من قومك حال كونهم لايؤمنون به ، وقد مضت سنة الله فى الأولين من أمم الأنبياء قبلك على هذا النمط ، فقد كانت كتب الله تدخل قلوبهم مصحوبة بالاستهزاء وعدم الإيمان .

ويصح أن تكون جملة : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » مستأنفة لغرض الوعيد والتهديد أى وقد مضت طريقة الله فى المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وأهل مكة إن استمروا على تكذيبهم ، فسوف يحل بهم مثل ما حل بمن سبقهم جريا على سنة الله فى المكذبين .

وأعاد بعضهم الضمير فى نسلكه على الاستهزاء وما نشأ عنه من الضلال والكفر ، ومعنى الآيتين على هذا ما يلى :

أى كما سلكنا الضلال والكفر والاستهزاء فى قلوب الكافرين برسلهم قبلك ، نسلكه فى قلوب المجرمين من أمتك يامحمد . لايؤمنون بسبب ذلك ، وقد مضت سنة الأولين فى الكفر والاستهزاء وهى مماثلة لهم ، وأنت بها عليم فلا تحزن ، أومضت سنتهم فى الإهلاك فليحذر قومك مثل مصيرهم .

ثم بين الله تعالى أن اقتراح قريش نزول الملائكة ليس بغرض الاهتداء بل هو للعناد والمكابرة فقال :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(يَعْرُجُونَ) : يصعدون ، والمعارج المصاعد . (سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) : أى حُيِّرت ، من السُّكْر ضد الصحو – كما قال عمرو بن العلاء – أرادوا أنها فسدت ، واعتراها خلل كما يعترى عقل السكران فيختل إدراكه ، وهذا المعنى قريب من تفسيرها بِخُدِعتْ وقيل: تسكير الأبصار إغلاقها أو تغطيتها .

التفسير

١٤ – (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) :

أى ولو فتحنا على كفار مكة باباً من السماء ، ومكناهم من الصعود فيه ، فصاروا يعرجون ويصعدون فيه بآلة أو بغيرها ، وهم يرون مافى السماء من الملائكة والعجائب فى وضوح واستبانة .

١٥ـ (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) :

أى لو فتحنا عليهم باباً من السماء على النحو الذى تقدم بيانه ، لقالوا لفرط عنادهم ومكابرتهم : إنما خُدِعَتْ أبصارنا فلم نشاهد شيئاً على الحقيقة ، بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد حتى تخيلنا هذه المرائى ، كما يتخيل المسحور شيئاً لاحقيقة له ولا تراه العيون على حقيقته .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(بُرُوجاً) : جمع برج وهى فى الأصل بمعنى القصور أو الحصون ، ثم أطلقت على منازل الكواكب والنجوم لأنها تشبهها فى كونها منازل لها ، كما أن القصور منازل لساكنيها . (شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) : أى مطرود من الرحمة ، أو مَرْمِىٌّ بالرجام وهى الحجارة ، فإنهم يُقْذَفُونَ بشظايا النجوم . (اسْتَرَقَ السَّمْعَ) : أى اختلس بعض مايسمع من كلام الملائكة . (فَأَتْبَعَهُ[1]) : أى تبعه . (شِهَابٌ) : شعلة ساطعة تمرق فى الجو بسرعة خاطفة . (مُبِينٌ) : أى واضح من أبان اللازم بمعنى اتضح أو مبين غيره وموضحه ، من أبان الشىء أوضحه .

التفسير

١٦ ـ (ولَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) :

بعد أن بين الله حال الكافرين بالإسلام والنبوة ومآلهم ، شرع يقيم لهم الأدلة على

(١) يرى الأخفش أن أتبعه بمعنى تبعه ، فليست الهمزة للتعدية ، ومثله ردفته وأردفته ، وقيل غير ذلك ــ انظر الآلوسى .

وحدانية الله وقدرته وكماله ، لعلهم يتركون الشرك الذى حملهم على تكذيب النبوة المؤسسة على التوحيد .

والمعنى : ولقد خلقنا فى جهة السماء منازل تتنقل فيها الكواكب والنجوم على نظام فائق لايختلف ولايضطرب ، وجعلناه بحيث تترتب عليه مصالح البشر فى معاشهم ، وزينا السماء لمن ينظر إليها ويتأمل فى زينتها وجمالها وإحكامها وتماسكها فى الفضاء بقدرة مبدعها ، ووظائفها التى أنشأها الله من أجلها ، لينتقل الناظر من رؤيتها إلى التفكير فى عظمة مبدعها ووجوب اتصافه بالوحدانية ، وتنزهه عن الشريك والنظير .

١٧ـ (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) :

أى وحفظنا السماء من كل شيطان مطرود من رحمة الله ، فلا سبيل له ولا لذريته إليها بعد أن أهبطه الله عقاباً على امتناعه عن السجود لآدم بعدما أمره الله به ، وقد استثنى الله بعضهم بقوله :

١٨ـ (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ) :

أى أنه تعالى حفظ السماء من الشياطين إلا من اتجه نحوها واختلس بعض الكلام المسموع الذى يجرى بين أهل الملإ الأعلى من الملائكة ، فإنه لا يمكنُ من الاستمرار فى استماعه واستراقه ، بل يتبعه شهاب بيِّنٌ واضح فيقتله أو يخبله ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الصافات : « إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ »[1] والشهاب من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد وليست بالبياض الصافى ، والشهب أجزاء حجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور فى الفضاء ، فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض جذبتها إليها بسرعة خارقة فتشتعل وتتوهج باحتكاكها الشديد بالغلاف الجوى المشتمل على الأوكسجين الذى يساعد على الاحتراق ، وهو من الظواهر الكونية القديمة ، وقد كان الكهان ينتفعون بما ينقله الشياطين إليهم من أخبار الأرض التى تجرى فى الملإ الأعلى ، فيكتسبون قداسة فى نظر أتباعهم إذا حدثوهم عن الغيوب المنتظرة التى عرفوها من الشياطين المسترقين للسمع ، فوقعت كما أخبروهم بها فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، اشتدت حراسة السماء

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠

بالملائكة والشهب ، لإبطال عهد الكهان بمنع الغيوب عن أن تصل إليهم ، وإقامة صرح الحق الذى بعث به خاتم المرسلين ،وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الجن حكاية عن بعض مؤمنيهم : «وأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُباً (٨) وأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَدًا (٩) » قيل للزُّهْرى : أكان يُرْمى فى الجاهلية ؟ قال نعم ، قيل : أفرأيت قوله تعالى : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » . قال الزُّهرى : غُلِّظ وشُدِّدَ أمرها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : أى بسطناها ووسعناها . (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) : أى وخلقنا فيها جبالا ثوابت ؛ فرواسى جمع راس بمعنى ثابت وفعله رسا بمعنى ثبت ، ومثله أرسى، إذا كان لازمًا ، وقد يتعدى ، تقول : أرست السفينة أى ثبتت ووقفت ، وأرسيتها أى أوقفتها وثبّتها . (مَّوْزُونٍ) : مقدر بحكمة . (مَعَايِش) : أى أسبابا تعيشون بها .

(وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) : قيل المراد بهم الأولاد ، وقيل الدواب والأنعام،والأولى التعميم ليشمل الأولاد والحيوانات التى ينتفع بها . (خَزَائِنُهُ) : أى أسباب تحصيله والاستيلاء عليه (بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته .

التفسير

١٩ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) :

لايزال الكلام متصلا فى آيات الله ونعمه ، فقد بين الله فى هذه الجملة أنه تعالى مد الأرض ، أى بسطها ووسعها بحيث تكون صالحة لكى يعيش عليها الإنسان والحيوان ، ولإنبات ما يعيشون به . وظاهر النص يفيد أن الأرض خلقت أولا غير ممدودة ، ثم طرأ عليها المد ، حسبما تقتضيه الحكمة فى التدرج التكوينى ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة (النازعات) : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . ولم يقتصر إنعامه على مجرد مدها ، بل جعلها كالفراش الممهود ، كما قال سبحانه : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[1] » . وكما أنه تعالى خلق الأرض وبسطها ومهدها ، خلق فيها جبالا شوامخ ثوابت ، لكى تحفظها من الاضطراب بأهلها ، حتى يستريح أهلها عليها ، ولا يتعرضوا للهزات المدمرة الكثيرة ، وكان ذلك منه حكمة فى التكوين ، ورحمة بالعباد وآية على عظمته وجلاله ووحدانيته وكبريائه ، وبسط الأرض لاينافى أنها كروية الشكل ، فإنها لعظمتها ترى كالسطح المستوى فى حين أنها كرة تدور حول نفسها تحت شمسها التى ترتبط بها ، والتعبير عن خلق جبالها عليها بإلقائها فيها ، لإبراز كمال سهولته على الله ، كأنها شىء يسير موجود يلقى بسهولة فى الموضع الذى أريد له ، فسبحان من يقول للشىء كن فيكون .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) :

أى أنه تعالى أنبت فى الأرض التى بسطها وفرشها لنا - أنبت فيها - من كل نبات مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتا أو دواء ، أو وقاية من داء ، ومعلوم له أنه لمصلحة ما سخره لهم من الحيوانات المختلفة .

واستعمال الوزن بمعنى التقدير والعلم معروف فى لغة العرب ، قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ عِنْدِى لكُلِّ مخاصِمٍ ميزانُه

---

(١) سورة (الذاريات) : الآية ٤٨

أى عندى لكل خصم تقدير له وعلم به ، وهو معنى مجازى للوزن الذى هو فى الأصل تقدير الشىء بالميزان الحسى المعروف ، فاستعمل هنا فى لازم معناه ، وهو مطلق التقدير والعلم.

وفسر الحسن وابن زيد الإنبات بالإنشاء ، والوزن بمعناه الحقيقى مع إعادة الضمير على الجبال والمعنى على هذا الرأى : وأنشأنا فى الجبال الرواسى من كل شىء يوزن حقيقة ، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص إلخ ، والمعنى الأول أظهر .

٢٠ ـ (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :

بين الله سبحانه فى الآية السابقة أنه أنبت لنا فى الأرض أقواتنا وما نتقى به العلل والأمراض من مختلف النباتات ، وبين فى هذه الآية أنه يسر لنا فيها أسباب المعايش المختلفة ، ولم يجعلها قاصرة على الزراعة ، كما أنعم علينا بالأولاد والأنعام وتكفل بأرزاقهم والمعنى : وجعلنا لكم فى الأرض التى بسطناها أسبابًا للمعيشة كالصناعة والهندسة والزراعة والطب وغير ذلك من الحرف المختلفة ،وجعلنا لكم أيضا أولادًا تقرُّ بهم أعينكم ،وأنعامًا تحملون عليها أثقالكم ، وتستكملون بها أرزاقكم ، ولم نكلفكم شيئًا من أرزاق هؤلاء وأولئكم ، بل تكفلنا بأرزاقهم كما تكفلنا بأرزاقكم ، ثم بين أن كل شىء خاضع لتصرفه وحكمته فقال سبحانه :

٢١ ـ (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) :

ليس المقصودُ من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لايختزن مقدوراته فى خزائن ، كما يختزن الملوك نفائس الأموال فيها ، بل الآية فيها أسلوب بلاغى رفيع . ففيها استعارة مكنية تخييلية ، أو استعارة تمثيلية .

والمعنى : وما من شىء من المقدورات التى ينتفع بها الخلائق إلا وهو مقدورٌ لنا خفىٌّ عن أبصار عبادنا ، لا تصل إليه عقولهم وعلومهم قبل أن نبرزه لهم ، ونمُنّ به عليهم ، فهو يشبه النفائس المخبوءة فى خزائن الملوك ، فلا تعلمها رعاياهم ، ولا قدرة لهم على

شيء منها ، حتى يبرروا بعضها لهم ، وينعموا بشيء منها عليهم ثم يختم الله الآية بما يفيد أن الإنعام مضبوط بضوابط الحكمة ، وذلك بقوله تعالى :

﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ : أى وما ننزل الأمر بالشيء الذى ننعم به على عبادنا إلا مضبوطًا بقدر معلوم يتفق مع الحكمة فى نوعه وزمنه وقدره وأهله استحقاقًا أو ابتلاء أو إملاء ، ويجوز أن يكون تنزيل الشيء المنعم به مجازًا عن إبرازه وإيجاده ، والله أعلم — وعبر عنه بالتنزيل لأنه ناشيء عن أسباب سماوية ، فكأنه منزل من أعلى إلى أدنى .

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

﴿ الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ : أى حوامل بالماء ، جمع لاقح بمعنى حامل ، فهو من قولهم : ناقة لاقح ونوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها ، أو مُلَقِّحات للشجر كما قال أبو عبيدة وسيأتى بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه الآية . ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ : من السحاب . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ : أى فجعلناه لكم مَسْقى تسقون به مزارعكم ، قال الأزهرى : العرب تقول لما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار أسقيته ، أى جعلت له منه مَسْقًى ؛ فإذا كان للشَّفَة قالوا سقى ولم يقولوا أسقى ، وقال أبو على : يقال : سقيته حتى

رَوِىَ وأسقيته نهرًا ، أى جعلته شِرْبًا له أى مَوْرِدًا لشُرْبه . (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) : أى وليس لكم شأن فى إيجاده وحفظه لينزل عليكم وقت الحاجة ، أو وليس لكم شأن فى حفظه فى مجاريه وآباره ليكون تحت طلبكم ، فكل ذلك من صنع الله الرحمن الرحيم : (الْوَارِثُونَ) : الباقون بعد فناء الخلق . (الْمُسْتَقْدِمِينَ) : من تقدمكم من الأمم فمات قبلكم (الْمُسْتأْخِرِينَ) : من هو حىٌّ لم يمت بعد . (هُوَ يَحْشُرُهُمْ) : يجمعهم يوم القيامة لفصل القضاء .

التفسير

٢٢ ـ (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أن كل شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم تحت سيطرته تعالى ووفق مشيئته ، وأنه فى يسره عليه واختفائه عن خلقه ، كأنما هو مخزون فى خزائن ، بحيث يسهل إخراجه وإبرازه ومفاجأة عباده به فى أى وقت يشاؤه ، ليدخل به الفرح عليهم ، وأنه حين يبرزه يكون إبرازه بقدر معلوم يتفق مع الحكمة ومصالح العباد ـ وجاء بهذه الآية والتى تليها ، ليبين بعض الأسباب التى أبدعها سبحانه لتوصيل الرزق والخير لعباده بيسر وسهولة .

وَقَبْل الكلام على معنى الآية نقول : إنه تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار المالحة والأنهار العذبة والمستنقعات وكل رطوبة فوق سطح الأرض ، فتخرج حرارة الشمس من تلك المياه بخارًا عذبًا لا أثر للملوحة فيه ، ويسلط الله الرياح على هذا البخار لترفعه إلى حيث يكون سحابًا فيبسطه الله فى الفضاء كيف يشاءُ ، ويرزق به من عباده ما يشاءُ ، وبعْد هذا التمهيد نقول فى معنى الآية ما يلى :

المعنى : وأرسلنا الرياح حوامل ببخار الماء وذرات التراب وأسباب الخير والنفع حتى إذا وصلت إلى مستوى معين تحول ما حملته من البخار إلى سحاب كثيف فتصبح الرياح ثقيلة الحمل ،

كما قال تعالى فى سورة الأعراف : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ »[١] أى حملت سحابًا ثقالا .

وقيل « لَوَاقِحَ » بمعنى مُلقِّحات للشجر ، حكى المهدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح جمع مُلْقِحة أو مُلْقِح بحذف الزوائد .

فإن كان يقصد أنها تلقح إناث الأشجار بطلع ذكورها ، فذلك واقع بالفعل ، ولكن حمل الآية على هذا المعنى يبعده قوله تعالى عقبه : «فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ » فإن ذلك يؤذن بأنها حوامل بالماء ، أو ملقحات للشجر بالماء الذى ينزله الله من السماء ، ولذا عبر بالفاء التى تفيد أن إنزال الماء من السحاب مترتب على كون الرياح لواقح بالماء والله تعالى أعلم .

(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) :

أى فأنزلنا من السحاب الكثيف الذى أقلته الرياح - أنزلنا - منه مطرًا ، فأعددناه وهيأناه لسقياكم وزروعكم ومواشيكم ، حيث حفظناه فى بحيرات وأجريناه فى أنهار وجداول واختزنا بعضه فى جوف الأرض ، لكى تنتفعوا به وقت الحاجة بحفر الآبار وتفجير العيون .

(وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) :

أى أن هذا المطر الذى ننزله من السحاب لم تختزنوه أنتم ، ولا علم لكم به من قبل أنْ يأتيكم ، أو لستم له بحافظين فوق سطح الأرض أو فى جوفها ، لتنتفعوا وقت حاجتكم بل الله تعالى هو الذى سخر لكم أسبابه ، وحفظه لكم فى مجاريه وخزائنه ، وهو قادر على إمساكه منكم ، والذهاب به إذا أتاكم ، كما قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » .

وبعد أن بين أنه تعالى مصدر أرزاقهم ، عقبه ببيان أنه هو الذى يحييهم ويميتهم ويرثهم فقال :

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٥٧

٢٣ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) :

أى وإنا لنحن الذين ننشئكم من العدم ، ونجعلكم أحياء ترزقون ، ونحن الذين نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ، ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شىء فى هذا الوجود وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية مستردة ، والملك لله الواحد القهار .

٢٤ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) :

أى ولقد علمنا من سبقوكم من بنى جنسكم ، فإنا نحن الذين أحييناهم وأمتناهم ، وعلمنا أيضاً المتأخرين عمن هم أحياء أو سيوجدون بعدكم ، فإن الخالق الرازق الوارث لايغيب عن علمه شىء ، وكيف يغيب أحد من خلقه عن علمه وهو الذى سيحشرهم ليجازيهم كما ينطق به قوله سبحانه :

٢٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

أى وإن ربك أيها الرسول هو وحده الذى يحشرهم ويجمعهم للحساب والجزاء على حسب أعمالهم ، لأنه تعالى حكيم يضع الشىء فى موضعه ، فلا يسوى محسناً بمسىء ، واسع العلم فلا يغيب عنه عمل عامل - وبعد أن بين الله تعالى أن مصير العباد إليه وجزاءهم عليه ، شرع يبين قصة آدم مع إبليس ، ليعرف البشر عداوته لهم فيحذروه ، فقال سبحانه :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(صَلْصَالٍ) : هو الطين اليابس الذى إذا نقر يكون له صوت ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وبهذا قال معظم المفسرين ، وقال مجاهد : الصلصال هو الطين المنتن واختاره الكسائى وهو مأخوذ من قول العرب : صَلَّ اللَّحْمُ وأَصَلَّ إذا أَنْتَنَ .

(مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ): أي من طين أسود مُنْتِن ، وفسره بعضهم بمُصَوَّر ، ومنه سُنَّةُ الوجْهِ أي صُورته ، قال حمْزةُ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أغر كَأَن البدر سُنَّةُ وجهه جلا الْغيْمَ عنه ضوْؤُهُ فتَبَدَّدَا

وفسره بعضهم بمصبوب ، من سنَّ الماء صبَّه . (وَالْجَانَّ): قيل هو أبو الجن - وروى عن ابن عباس ، وقيل هو اسم لجنس الجن - كما قاله ابن بحر ، وقيل هو إبليس وروى عن الحسن وقتادة - (نَارِ السَّمُومِ) : المراد بها النار التي لادخان لها - كما جاء في إحدى الروايتين عن ابن عباس .

التفسير

٢٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

المراد من الإنسان هنا أصله وهو آدم عليه السلام ، أو الجنس كله تبعاً لأصله والمعنى ولقد أوجد الله آدم عليه السلام من طين جاف مُتحوِّل من طين أسود منتن وقد كان أساسه الأول تراباً[١] ، فلما خلط بالماء صار طيناً[٢] ، فلما اسود وأنتن صار حمأً مسنوناً ، فصور الله منه تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل أي ظهر لنقره صوت بسبب جفافه ، ثم غيره الله طورا بعد طور حتى نفخ فيه الروح بعد أن تمت صلاحيته لنفخها فيه فتبارك الله أحسن الخالقين .

٢٧ - (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) :

قد علمت في بيان معاني المفردات اللغوية ، أن بعض العلماء فسر الجان بأنه جنس الجن ، وعلى هذا الرأي تكون هذه الآية الكريمة مسوقة لبيان أن الله تعالى خلق الجن كما خلق الإنس وأنهم خلقوا قبل آدم ، وأنهم خلقوا من نار ، بخلاف آدم فقد خلق من طين

---

(١) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

(٢) وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة المؤمنون : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

كما علمت أن بعضهم فسر الجان بإبليس ، ليناسب ماسيأتى فى قصة آدم من أنه امتنع عن السجود له لأنه خلق من نار ، وخلق آدم من حمإ مسنون ، وكل من الرأيين أهل للاعتبار والقبول . «السَّمُوم» : الريح الشديدة الحرارة سميت بذلك لأنها تنفذ فى المسام ، وقيل هى نار لا دخان لها ـ رواه الضحاك عن ابن عباس ، وعليه فإضافة النار إلى السموم من إضافة العام إلى الخاص .

والمعنى : وجنس الجن أو إبليس خلقه الله من قبل آدم ، وكان خلقه من نار شديدة الحرارة لاشىء فيها من الدخان .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : تقدم بيانها .

(سَوَّيْتُهُ) : جعلته سويًّا معتدلا .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) : ونشرت فيه من الروح المنسوب إلىَّ نسبةَ تشريف وَمِلْكٍ وإيجاد ، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد ، وليست جزءًا من روحه تعالى ، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض .

(فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) : فَخِرُّوا لآدم خاضعين .

التفسير

٢٨ - ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ :

أجمل الله قصة خلق الإنسان فى قوله سابقًا : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حمإٍ مَّسْنُونٍ » . وقصة خلق الشيطان فى قوله : « والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ » . تمهيدًا للحديث المفصل الذى تحكى فيه هذه الآية وما بعدها من الآيات ماجرى بين الله وبين ملائكته فى شأن خلق آدم وأمرهم بالسجود له ،وخضوعهم لأمره سبحانه ، وعصيان إبليس تكبرًا وغرورًا ، ووسوسته لآدم حتى أخرجه من الجنة ، ووعيده بإغواء ذريته إلا عباد الله المخلصين إلى آخر ما سيأتى بيانه فى الآيات الواردة فى هذا الشأن . والغرض من سوق هذه القصة تحذير عباد الله من وسوسة الشيطان الذى أغوى أباهم آدم ،وهو لإغوائهم وإضلالهم بالمرصاد ، حتى يحذروه ولا يغتروا بوسوسته ، فالخطاب فى الآية وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منه بيان القصة لأمته عن طريقه ، لأنه إمامهم - صلى الله عليه وسلم -

والمعنى : واذكر أيها الرسول لأمتك وقت أن قال ربك للملائكة - إنى خالق فى الأرض إنسانًا من صلصال من حمإٍ مسنون ليكون فيها خليفة عنى فى عمارتها وتنفيذ شريعتى فيها ، أو خليفة عمن سبقه فى سكناها بعد ما هلكوا ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً [1] » ، وسمى الإنسان بشرًا لظهور بشرته ، وهى ظاهر الجلد ،حيث لايوجد عليها صوف ولا وبر ونحوهما بخلاف سائر الحيوانات .

وبعد أنْ ذكرنا فى تفسير الآية السابقة : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حمإٍ مَّسْنُونٍ » أن المراد من الصلصال الطين الجاف الذى يصلصل ويصوت إذا نُقر ،

(١) سورة البقرة من الآية ٣٠

وأن المراد من الحمإ المسنون الطين الأسود المنتن ، بعد أن ذكرنا هذا نقول :

من العلماءِ من فسر الصلصال بالطين المنتن وهو رأى مجاهد واختاره الكسائى ، وهو مأخوذ من قولهم صلَّ اللحم أى أنتن ، ومنهم من فسَّر المسنون بالمُصوَّر ، ومنه سُنَّة الوجه أى صورته ، ومنهم منْ فسَّره بمصبوب- كما تقدم بيانه ، وعلى هذه الآراء اللغوية ، يكون تفسير الآية ما يلى :

واذكر أيها الرسول حين قال ربك للملائكة إنى خالق إنسانًا من طين منتن مصبوب على صورة بشر . فسبحان مَنْ ينقل الشىء بقدرته من النقيض إلى النقيض .

٢٩ - (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) :

التسوية جعل الشىء سويًّا معتدلا ، وتسوية بشر من صلصال من حمإٍ مسنون جعل الصلصال المذكور فى صورة بشر سوى صالح لنفخ الروح فيه ، بأن ينقله الله من طور إلى طور إلى أن يصبح لحمًا وعظمًا وأعصابًا وشرايين وأوْردةً تسرى فيها روح الحياة - والنفخ فى الشىء هو دفع الريح فيه بالفم أو غيره ، ونفخ الروح فى تمثال آدم المتطور ليس من هذا القبيل ، بل هو تمثيلٌ لِنشرِ الروح فى جميع أجزائه ؛ فلم يكن فى بث الروح فيه نفخ ولا نافخ على الحقيقة ، وقد اختلف العلماءُ فى تعريف الروح ، فمنهم من قال إنه جسم شفاف يحل بالجسد ويسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، ومنهم من قال إنه عرض يحل بالقلب أو الدماغ حلول العِلْمِ فى العالمِ ، ومنهم من قال إنه جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه . والأسلم عدم الخوض فى تعريفه ، فقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتُمْ مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قلِيلًا[1]» وخيْرُ ما يقال فيه إنه سر من أسرار الله تحيا به الأبدان حينًا يتصل بها ، وتموت حينا ينفصل عنها .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥

والروح مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، وقد أضافه الله إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ، كقوله فى الأرض والسماء أرضى وسمائى مثلا ، وفى البيت الحرام بيتى أو بيت الله. وفى ناقة صالح ناقة الله ، وفى الشهر الحرام شهر الله .

وهذه الآية ترد على النصارى الذين استدلوا من القرآن على أن المسيح ابن الله ، بنحو قوله تعالى : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ الَّتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنا »[(١)] فقد زعموا أن هذا النص وأمثاله يدل على أن المسيح جزءٌ من روح الله وبعض منه ، فيكون بهذه البعضية ابن الله ، لأن الولد بعض أبيه ووجه الرد عليهم بهذه الآية أنه لو كان فهم الآية على نحو ما زعموا لاقتضى ذلك الفهم السقيم أن يكون آدم ابنًا لله ، لأنه قد وَرَدَ فيه مثل ما ورد فى عيسى وذلك قوله هنا : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ».وأنتم لاتقولون بذلك فلا وجه للتفرقة بينهما فى دلالة النص ، فإذا لم يدل النص فى آدم على بنوته لله، بل على أنه مخلوق شريف من مخلوقات الله ، فكذلك النص الوارد فى عيسى ، فرُوحُه مضافة إلى الله إضافة المخلوق للخالق تشريفًا وتكريماً ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[(٢)]

ومعنى الآية إجمالا : فإذا جعلت هذا البشر من الصلصال سويا معتدلًا متطورًا بحيث يصلح للحياة نفخت من الروح المنسوبة إلىَّ خلقًا وشرفًا ـ إذا فعلت ذلك بهذا البشر ـ فخروا له ساجدين ، تحية وتكريماً .

وقيل أمروا بالسجود لله عبادة وتعظيمًا عند تسويته آدم ونفخ الروح فيه ، والمعنى الأول أنسب .

٣٠ ـ (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) :

أى فسجد الملائكة لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه ، تحقيقًا لما شرطه الله وأوجبه

---

(١) سورة التحريم الآية : ١٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٥٩

عليهم قبل خلقه ، من السجود له بعد تمام خلقه ، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس كما حكاه الله بقوله :

٣١ـ (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى فسجد الملائكة جميعًا إلا إبليس ، فإنه امتنع من أن يكون معهم فى سجودهم ، وقد اعتبره الله آثماً بامتناعه عن السجود معهم ، وعاقبه بإخراجه من الجنة ولعْنِه كما سيأتى بيانه .

فإن قيل : إن الأمر بالسجود موجه إلى الملائكة ، وإبليس ليس منهم بل هو من الجن ، لقوله تعالى فى سورة الكهف : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ».ولأنه لو كان من الملائكة لسجد ، لأنهم كما قال الله فيهم : « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[1] » وإذا لم يكن من الملائكة فكيف اعتبر آثماً مع أن الأمر بالسجود لايتناوله ، لأنه خاص بالملائكة ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة نختار منها اثنين .

أحدهما : أنه وإن لم يكن من الملائكة نوعا فهو منهم إقامة ، حيث كان يقيم بينهم ، فيسرى عليه ما يسرى عليهم من التكاليف ، كالرجل يعيش فى غير قبيلته ، فتسرى عليه أحكام القبيلة التى يعيش فيها .

ثانيهما : أنه كان مأمورًا بأمر خاص به ، ولم يصرح به فى التكليف ابتداء ، اكتفاء بالإشارة إليه فى التوبيخ صراحة على عصيانه ، وذلك بقوله تعالى فى سورة الأعراف : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ[2] » .

(١) سورة التحريم من الآية : ٦

(٢) سورة الأعراف من الآية : ١٢

(قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(مَالَكَ أَنْ لا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) : أىُّ سبب لك فى عدم سجودك مع الملائكة . (حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : طين أسود منتن . (رَجِيمٌ) : مطرود من كل خير ، وأصل الرجم الضربُ بالرِّجام وهى الحجارة ، ثم كُنى به عن الطرد . (اللَّعْنَة) : أى الإبعاد على سبيل السخط .

التفسير

٣٢ــ (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى قال الله لإبليس توبيخًا له بعد امتناعه عن السجود لآدم : أى سبب لك فى أن لا تكون مع الملائكة الساجدين له استجابة لأمرى ، وتعظيما لقدرتى .

٣٣ــ (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

أى قال إبليس لربه بعد أن وبخه على تركه السجود لآدم : لايستقيم منى وقد خلقتنى من نار ، أن أسجد لبشر خلقته من طين جاف أصله من طين أسود منتن ، ويعنى بذلك أن مادته التى خلق منها وهى النار ، أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الطين الأسود المنتن ، فهو بذلك أعظم منه أصلا ــ كما زعم ــ ، فكيف يسجد مَن أصله أعظم ، لمن أصله دونه ، وقد أخطأ اللعين فى هذا القياس ، فإنه لافضل للنار على التراب ، فالتراب أساس لكل حى ، والنار تهلك كل حى ، كما أن الفضل ليس باعتبار المادة وحدها ، فلا بد من أن

يضاف إليها الصورة والفاعل والغاية ، والتحلي بالفضائل والتّخلي عن الرذائل ، وآدم قمّةٌ في هذا كله ، فقد خلقه الله في أحسن تقويم ، وخاطبه من غير واسطة - بلا وسائل ، كما يشير إليه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ » . كما أن الغاية من خلق آدم وذريته الخلافة عن الله في الأرض وأنه كان في أعلى مكارم الأخلاق ، فأين مِنْ هذا كله خلقُه من نار .

٣٤ـ (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) :

أي قال الله لإبليس ، بعد أن أعلن استعلاءه وتكبره عن آدم ـ قال الله لإبليس ـ اخرج من زمرة الملائكة أو من منزلة الكرامة التي تتمتع فيها أو الجنة ـ اخرج منها ـ فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة .

وقيل : المراد من كونه رجيما أنه وجميع الشياطين سوف يُرْجَمُون بالشهب ، فيكون في هذا المعنى إشارة لطيفة إلى أن اللّعين لما افتخر بالنار توعده الله بالتعذيب بها في الدنيا : كعابد النار يهواها وتحرقه .

٣٥ـ (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) :

أي وإن عليك الإبعاد من رحمة الله إلى يوم الجزاء ، فلا يوفقك في الدنيا للتوبة من شقوتك ولا يمدك فيها بقبس من هداية ، ولا يعفو عنك في الآخرة ، بل يجعل مقرك النار وبئس القرار .

وقيل إن المراد باللعنة هنا لعنة الخلائق له ،بأن يكون موضع سخطهم وطلبهم من الله إلى يوم الجزاء أن لايرحمه ، والمقصود منه يوم النفخة الأُولى التي يموت عندها الخلائق ، فإنه من يوم الدين ، لأنه مقدمة له ، والتفسير الأول أَوْلى .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(فَأَنظِرْنِي) : فأخّرني ، الإنظار التأخير . (إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ) : المراد من اليوم الحين مطلقًا ، أى إلى حين الزمن المعلوم لله دون سواه .

التفسير

٣٦ـ (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته ودار كرامته ، وبشديد عقوبته ، سأل ربه سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء ، وقد أراد الخبيث بذلك أمرين : أحدهما : أن يتسع له المدى لإغوائهم ، حتى يشتركوا معه فى سوء مصيره ، وليأخذ ثأره كاملا منهم ، فإنهم سبب شقائه ، فإن عدم سجوده لأبيهم كان السبب الأول فى نكبته ، ولو كان عنده إنصاف لأدرك أن غروره وكبرياءه هما محور شقائه . والغرض الثانى : من طلبه الإمهال إلى يوم البعث أن ينجو من الموت ـ إذ لا موت بعد البعث ، وإلى هذا الغرض ذهب ابن عباس والسدى وقد حكى القرآن ما أجاب به الله على سؤال إبليس بقوله :

٣٧ ، ٣٨ـ (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ) :

أى فإنك من المؤخرين إلى حين الزمن المعلوم لله وحده ، وتنتهى عنده حياة الخلائق وهو وقت النفخة الأولى كما قال سبحانه : «وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَمن فِي الْأَرْضِ إِلَّا من شَاءَ اللَّهُ »[١] ، فتموت حينئذ كما يموتون ، مصداقا لقوله تعالى : « كُلُّ منْ عَلَيْهَا فَانٍ ».[٢] ولن أؤخرك إلى يوم البعث كما طلبت لِتفرَّ من الموت كما أردت. وهنا سؤلان ؛ أحدهما :كيف كلَّمهُ الله ؟ وثانيهما :كيف أجابه الله إلى ما سأل مع أن فيه شقاء خلقه ؟

والجواب عن الأول : أنه تعالى كلَّمهُ على لسان ملك يبلغه ، أو كلمه وهو يسمع تغليظا عليه ، وتشديداً فى الوعيد . وليس على وجه التكريم والتقريب .

والجواب عن الثانى : أنه تعالى منحهم ما من شأنه حمايتهم من شره ، وهو نور العقل ، ودوافع الخير ، وآيات الهدى ، ودعاة المثل العليا من النبيين والمرسلين والصديقين ، فهذه العوامل تمثل فى الروح أسباب المناعة الخُلُقية ، كما تمثل الكُرَاتُ البيضاءُ فى الدم أسباب المناعة من الأمراض الجسدية ، وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة العنكبوت : « الٓمٓ.أَحَسِب النَّاسُ أن يُتْركُوا أَنْ يَقُولُوا آمنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون . وَلَقدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ » .

ولقد أدرك الشيطان قيمة الحماية التى منحها الله عباده ، فاعترف بها إثر وعيده وذلك ما يحكيه الله بقوله :

(قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(بِمَا أَغْوَيْتَنِى) : بسبب إغوائك إياى ، والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية بسبب تكبره وعدم خضوعه لأمره تعالى . (الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصتهم لطاعتك .

---

(١) سورة الزمر من الآية ٦٨

(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦

التفسير

٣٩ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) :

بعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإنظاره وإمهاله ؛ قال يارب بسبب حكمك علىَّ بالغواية من أجل آدم ، لأُحسِّننَّ لذريته فى الأرض المعاصى وأسباب الضلال حتى يضلوا ويكونوا أجمعين شركائى فيه ، فلا أبقى فيه وحدى ، وكما قدرتُ على إغواء أبيهم فى الجنة حتى عصى ، فإننى سأقدرُ على إغواء بنيه فى الأرض حتى يعصوا ، ولما أدرك اللعين أنه تعالى قد يمنح عباده الصالحين الحماية منه ، احتاط فاستثناهم من وعيده وذلك مايحكيه الله بقوله :

٤٠ - (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

أى لأُضلَّنَّ ذرية آدم أجمعين ، إلا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك ، وحصنت نفوسهم من الخضوع لعوامل الشر والضلال ، والتأثر بمغريات المعاصى ، فهؤلاء لا سبيل لى إليهم ولا سلطان لى عليهم .

(قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(صِرَاطٌ عَلَيَّ) : طريق ألتزم به . (سُلْطَانٌ) : تسلط واستيلاء

(الْغَاوِين) : الضالين عن الهدى . (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) : فريق مفروزٌ فى علمنا مميز .

التفسير

٤١ - (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ) :

لما استثنى إبليس المخلصين من التأثر بإغوائه ، لما أدركه فيهم من الحصانة الدينية والطهارة النفسية التى وهبها الله لهم ، قال الله مؤكدا حمايته وحفظه لهم : هذا الذى قلته أنت مِنْ أنَّ المخلصين لا سبيل لك عليهم ، طريق ومنهج مستقيم (علىَّ) أن ألتزم به نحوهم ، فلا أُسلطك عليهم ، بل أَحميهم من وسوستك وإضلالك إياهم - وقد ألْزم الله تعالى نفسه بذلك تفضلا منه على عباده المخلصين ، حماية لهم من إغوائه - وقال مجاهد والكسائى فى تفسير الآية : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهَدِّدُهُ : طريقك علىَّ ، ومصيرك إلىَّ ، وكقوله تعالى : « إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ». فكأن معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلىَّ فأُجازى كلاًّ بعمله - يعنى طريق العبودية - .

٤٢ - (إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) :

فى هذه الآية تأْكيد ثان لحماية الله للمخلصين من سلطان الشيطان عليهم ، كما أن فيها الإخْبار بخذلانه للمُصِرِّين على الغواية .

والمعنى : إن عبادى الذين خلقتُهم لكى يعبدونى ليس لك يا إبليس تسلط عليهم ينتهى بهم إلى الضلال المخرج من رحمة الله ، إلا من اتبعك من الضالين بسوء اختياره ، فإنه يخضع لسلطانك ، ويتأثر بإضلالك ، ويشترك معك فى سوء مصيرك .

فإن قيل إن آدم وحواء من عباد الله المخلصين « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيطَانُ » وإن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » وبذلك يكون له سلطان حتى على المخلصين. فالجواب : أن المقصود - والله أعلم - أنه ليس له سلطان على إيمانهم وقلوبهم بحيث يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفو الله ويضيقه عليهم ، فإيمانهم متين وقلوبهم طاهرة ، فإن هم أذنبوا تابوا - والتوبة تمحو الحَوبَة - ثم توعد الله المصرِّين على الغواية فقال :

٤٣ ـ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ :

أى وإن النار لموعد إبليس والغاوين أجمعين ، لا يتخلف عنها منهم أحد ، ثم بين الله أنها طبقات ، لكل طبقة فئة منهم فقال :

٤٤ ـ ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ :

فالمراد من أبواب النار طبقاتها ودركاتها ، فكما أن الجنة درجات فالنار دركات ، وقد جعل الله لكل طبقة من السبع فريقا معلوما ، وقسما معينا ، فيدخل كل فريق فى الطبقة التى تناسب معاصيه وعقائده ، وقيل الأبواب على معناها المعروف ، وإنما تعددت لكثرة من يدخل النار والله تعالى أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾

المفردات :

﴿ وَعُيُونٍ ﴾ : المراد بها أنهار الجنة ، وقيل غيرها . ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ : بسلامة من الآفات . ﴿ مِن غِلٍّ ﴾ : من حقد وعداوة . ﴿ نَصَبٌ ﴾ : تعب وإعياء .

التفسير

٤٥ ـ ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ :

بعد أن أنذر الله من اتبع الشيطان من الغاوين بسوء المصير بقوله : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبشير

من اتقى ربه وعصى إبليس بحسن المصير ، وبضدها تتميز الأشياء - والمراد بالمتقين الذين يدخلون الجنة من اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب يكفرها نحو الصلاة[1] ، وقال الآلوسى : نقل الإمام عن جمهور الصحابة والتابعين- وذكر أنه رأى ابن عباس - أن المراد بهم من اتقوا الشرك والكفر - ثم قال - وهذا هو الصحيح ، ثم أقام الدليل على ذلك حتى قال : فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كانوا من أهل المعصية . . . الخ .

ونحن نقول : ينبغى أن يقيد دخولهم الجنة إن كانوا من أهل المعاصى، بأنهم تابوا عنها وقبل الله توبتهم ،أو كانوا ممن غلبت حسناتهم على سيئاتهم ، فإن لم يكونوا من هؤلاء أو أولئك فإنهم يدخلونها بعد عقابهم فى النار على سيئاتهم ، تطبيقا لأدلة الوعيد على المعاصى الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله إلا أن يعفو الله فإن الأمر كله لله .

ومنْ يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه

والمراد بالعيون الموجودة بالجنة أنهارها المذكورة فى قوله تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ[2] . . . » الآية ، ويحتمل أن تكون عيونا ومنابع أخرى لا يعلمها إلا الله .

والمعنى : إن الذين يتقون الكفر والفواحش يعيشون فى الآخرة فى جنات عظيمة الشأن دانية الثمار ، ومن حولهم عيون وينابيع تجرى مياهها بين الجنات ، فتضفى عليها الجمال والحسن ، ليكمل بها متاعهم .

٤٦ - (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ) :

أى يقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة ،ادخلوها سالمين فيها من الآفات فى أجسادكم آمنين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم - ويجوز أن يراد من دخولهم بسلام أنهم يدخلون مسلَّماً عليهم مرحَّبًا بهم ، ويراد من أمنهم ما يعم الأمن من الآفات الجسدية والروحية .

(١) كما نقله الزمخشرى فى (كشافه) عن ابن عباس .

(٢) سورة محمد من الآية ١٥

٤٧ - (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) :

أى وأخرجنا ما فى صدورهم من حقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ، فدخلوا الجنة إخوانا متحابين ، على أسرة متقابلين ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض فى صفاء ومودة ولا يتدابرون ، أخرج ابن جرير وغيره عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا تدانوا وتقابلوا على السرر نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل : ويحتمل أن يكون نزع الغل من صدورهم كناية عن نزع أسبابه ، وأنهم يعيشون فى الجنة متحابين لأنهم مغمورون بنعم الله وأسباب الصفاء والمودة ، فلا يجدون فيها ما يوجب البغضاء كما كانوا يجدون فى الدنيا .

٤٨ - (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) :

أى لا يصيبهم فى الجنات أى تعب ، فإنّ أرزاقهم ميسّرة من غير كدّ ولا سعى « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »[1] . ويقوم بخدمتهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، قال تعالى فى سورة الإنسان : « وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوارِيرَا * قَوارِيرَ مِنْ فَضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا »[2] . . الآيات ـ وكما أنهم لا يمسهم فى الجنة تعب ، فهم ليسوا منها بمخرجين بل هم خالدون فيها أبدًا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وليجتهد المجتهدون ـ والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

(٢) سورة الإنسان الآيات : ١٥ - ١٩

(* نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣))

المفردات :

(نَبِّئْ) : أى خبِّر وبلغ ، من النبإ ، وهو الخبر مطلقاً وقيل هو الخبر الخطير ذو الشأن ، وهو الأنسب هنا ؛ قال الراغب : النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن . . ثم قال : ونبأته أبلغ من أنبأته . (ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : الضيف من مال إليك نازلا بك ، والأفصح ألا يُثنَّى ولا يجمع ، وسيأتى بيان المراد بضيف إبراهيم فى التفسير (وَجِلُونَ) : أى خائفون ، وفعله وجل يوجلْ كفزِع يفزع . وفى الراغب ؛ الوجل : استشعار الخوف .

التفسير

٤٩ - (نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة ماتوعَّد به الغاوين من عذابه ، وما وعد به المتقين من ثوابه ، أكد سبحانه فى هذه الآية وعده ووعيده ، بما اتصف به من عظيم مغفرته وواسع رحمته وشديد عقابه ، تقريرًا لما ذكر ، وتمكيناً له فى النفوس : فأمر رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ أمته جميعًا - المتقين منهم وغير المتقين - أن الله تبارك وتعالى هو العظيم الغفران ، الواسع الرحمة .

كما أمره أن يبلّغهم أن عذاب الله هو العذاب الأليم ، أى البالغ الغاية فى الشدة والإيلام لايشبهه عَذَاب غيره ولا يدانيه ، فقال جلّ وعلا :

٥٠ـ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ :

وفى معنى الآيتين قوله سبحانه : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ »[1] . وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إنَّ الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ؛ فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة : فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة ، لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار »[2] . وقد نبهت الآيتان على مقامى الرجاء والخوف ، ولابد للعبد من الجمع بينهما ؛ وينبغى أن يكونا سواء مادام العبد صحيحا معافى ؛ فإن المبالغة فى الرجاء تفضى به إلى تسويف الصالحات أو إهمالها ؛ والمبالغة فى الخوف تفضى به إلى القنوط واليأس ! وخير الأمور أوساطها .

وقيل يُغلِّب الخوف على الرجاء فى حال صحته ، فأما إذا مرض فليغلِّب الرجاء على الخوف حتى إذا دنت أمارات الموت فليكن رجاؤه فى ربه وإحسان الظن به محضاً خالصاً ، ولا سيما حال احتضاره ؛ فإنه حينئذ قادم على رب كريم ذى فضل عظيم سبقت رحمتُه غضبَه وعذابه ، وقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » وروى مسلم عن جابر أيضًا قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يُبعث كل عبد على مامات عليه » . وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[3] .

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٦

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، فى باب الرجاء والخوف ، ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه » .

(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده » ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

ولعل فى تقديمه سبحانه الوعد على الوعيد – مع زيادة فى تأكيد الوعد – تنبيهاً على هذا الفضل .

ولما أجمل الله سبحانه وعده ووعيده فى الآيتين السابقتين ، فصّل بعض ما أجمل فى الآيات التالية فذكر طائفة من أنباء رحمته وعذابه مما وقع فى هذه الدار ، عبرة وتذكرة لما يكون فى الدار الآخرة ، ساقها سبحانه ممثلة فى قصة خليله إبراهيم وبشارته ، ونبيه لوط ونجاته ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، وما حل بهم جميعاً من عذاب لا تزال آثاره باقيةً مرئية . وبدأ بقصة أبى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقال آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم :

٥١ – (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : أى أخبر أمتك أيها النبى عن ضيف إبراهيم خليله ؛ ليعتبروا بما جرى له ولابن أخيه لوط عليهما السلام من البشرى فى تضاعيف الخوف – على ما يأتى بيانه – والمراد بضيف إبراهيم : رسل من الملائكة أرسلهم الله تعالى فى صور بشر إلى قوم لوط ليهلكوهم ، ومروا فى طريقهم بإبراهيم ليبشروه بغلام عليم ، وبهلاك القوم المجرمين – وهم – على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما – جبريل وملكان معه ، وقيل أكثر من ملكين ، على خلاف بين المفسرين ، مع اتفاقهم على أن جبريل عليه السلام أولهم . وكانوا فى صور شبان حسان الوجوه .

وقد تقدمت قصتهم فى سورة هود فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » الآيات [1] . وتأتى فى سورة الذاريات فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [2] » . الآيات .

---

(١) ٦٩ – ٨٣

(٢) من ٢٤ – ٣٧ .

والقصة فى هاتين السورتين أكثر تفصيلا مما وقع فى هذه السورة . والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويتعين رَجْع بعضه إلى بعض فى القصة الواحدة . قال جل ثناؤه :

٥٢ـ (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) :

أى اذكر أيها الرسول حين دخل هؤلاء الأضياف على إبراهيم وحيّوه فقالوا سلاماً ، أى قالو هذا اللفظ تحية له . أى نسلّم عليك سلاماً فقال ردًّا لتحيتهم عليكم سلام ،إلا أن الرد لم يذكر فى هذه السورة اكتفاءً بذكره فى سورتى هود والذاريات ، كما لم يذكر مجيئه بالعجل السمين الحنيذ ، أى المشوى ، اكتفاءً بذكره فى السورتين كذلك .

وكان عليه السلام كريماً غاية الكرم ، وكان يقال له ـ فيما يؤثر ـ أبو الضّيفان ، ولا عجب فقد جاد بنفسه لربه الأكرم .... والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما امتنعوا عن الأكل ، وقد قدم إليهم العجل : (إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) : أى خائفون فزعون، لما جرت به العادة عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجىء بخير ! لهذا نَكِرهم قبل أن يُعلموه أنهم رسل الله ، وأوجس منهم خيفة ثم صرح بخيفته فقال : « إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » . وفى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَاتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ »[1]

٥٣ـ (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) :

طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام : إذ قالوا له لاتوجل أى لا تخف ولا تفزع ، ولكى يزيلوا خوفه بشروه بغلام عليم ليعلم سر مجيئهم إليه ، والمراد من كونه غلاماً عليماً أنه يكبر ويكون عظيم القدر كثير العلم ، وهو إسحق عليه السلام من امرأته ـ واشتهر أن اسمها سارَة ـ وقد بشروها أيضاً بيعقوب من ورائه كما جاء فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهَا

(١) الآية ٧٠

بإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ »[1] وفى هذه البشارة إشارة إلى بقاء الخليل وأهله فى سلامة وعافية زماناً طويلا .

وأما الغلام الحليم فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » فالمراد به ابنه البكر إسماعيل من جاريته هاجر وهو الذبيح . وتأتى قصة ذبحه فى سورة الصافات[2] .

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(مَسَّنِيَ الْكِبَرُ) : أى أدركنى وأصابنى كبر السنّ . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت المحقق .

(الْقَانِطِينَ) : أى اليائسين ، من القنوط وهو اليأس ، والمراد اليأس من الولد .

(الضَّالُّونَ) : أى المخطئون طريق الصواب والحق .

التفسير

٥٤ – (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) :

أى قال إبراهيم عليه السلام للملائكة متعجبا من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته – وقد جرت العادة بعدم الولادة فيها – كيف تبشروننى بالغلام وأنا على هذه الشيخوخة ؟ ! ثم أكد عجبه فقال بصيغة الاستفهام التعجبى :

---

(١) هود : من الآية ٧١

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٠١ – ١٠٧

(فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) : أى فبأى أعجوبة تبشروننى ؟ ! إن البشارة بما لم تجربه العادة أمر يدعو إلى العجب .

٥٥ ـ (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ) :

أى قالت الملائكة مجيبين إبراهيم عليه السلام : بشرناك بالأمر المحقق الثابت الذى لاريب فيه ولا لبس ، فلا تكن من اليائسين من خرق العادة لك؛ فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين : فكيف لا يخلقه من شيخ فان وعجوز عاقر؟ وكان تعجبه عليه السلام مما بشربه لمخالفته للعادة لا لأن الله تعالى لايقدر على مثله فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ما هو أعظم من ذلك؛ ولهذا قالت الملائكة له : « فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ » : ولم يقولوا له : فلا تكن من الممترين أو الشاكين . ولهذا أيضاً :

٥٦ ـ (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) :

والاستفهام هنا إنكارى معناه النفى ، أى لاييئس من رحمة ربه إلا الخاطئون المنصرفون عن طريق الحق والصواب والمعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ولا كمال علمه وقدرته .

ومراده عليه السلام نفى القنوط عن نفسه ، وبراءته منه على أبلغ وجه وأكمله ، أى ليس بى قنوط من رحمة ربى جل وعلا ، وإنما الذى قلته ، لبيان منافاة حالى وكبر سنى لإنجاب الذرية عادة ، وفى تعرضه عليه السلام لوصف الربوبية والرحمة مالايخفى من الجزالة .

ثم لم تكن هذه المحادثة بين الملائكة وإبراهيم خاصة ؛ فقد اشتركت فيها امرأته أيضاً إذ قالت للملائكة ما حكى الله عنها فى سورة هود : « يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ » [١] . ولم تُذكر محادثتهم مع امرأته هنا اكتفاء بذكرها فى سورة هود ، كما لم تذكر مع إبراهيم هناك اكتفاء بذكرها هنا . والكتاب العزيز ـ كما أسلفنا ـ يكمل بعضه بعضا ، ويفسر بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، دون تناقض أو اختلاف . وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً » [٢] .

---

(١) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) النساء : من الآية ٨٢

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : أى فما شأنكم وأمركم الخطير؟ قال الراغب : والخطب ، الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب .

(قَدَّرْنَا) : قضينا أو حكمنا ، من التقدير بمعنى الحكم . (الْغَابِرِينَ) : الباقين ، يقال : غبر يغبُر غبورا : أى بقى . (يَمْتَرُونَ) : يَشُكُّون ، من المرية بمعنى الشك ، يقال : امترى فى الأمر وتمارى فيه ، أى شك .

التفسير

٥٧ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

لما طمأنت الملائكة إبراهيم بأنهم رسل الله وبشروه بالغلام العليم ، ذهب عنه الروع واستأنس بهم ، لكنه عليه السلام تفرس فيهم أنهم أرسلوا لأمر آخر خطير غير البشارة ، إذ كان حديثهم موجزا يشعر بأن فى هذا الإيجاز كلاما مطويا ، ثم إنهم ذوو عدد والبشارة يكفى فيها واحد ، ولهذا خاطبهم بعنوان الرسالة وصدر خطابه بالفاء بعد أن كان خطابه

السابق مجرداً من ذلك، كأنه قال : يبدولى أن لكم شأنا آخر خطيراً فما هو ؟ وقد كانت إجابتهم مصدقةً لفراسته :

٥٨ ـ (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) :

يعنون قوم لوط عليه السلام ، فقد أفحشوا غاية الفحش بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء مع شركهم ، ولهذا وصفوا بالإجرام لأنه دأبهم ، وجيء بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانةً بهم .

أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام جوابا عن سؤاله : إنا أرسلنا الله تبارك وتعالى إلى قوم مجرمين .

وتتمة الجواب فى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ »[1] .

إلا أنه أوجز هنا اكتفاء بما ذكر هناك، كما تقدم مثل هذا وكما يأتى مراراً ، وهذا من دلائل حكمة الكتاب العزيز ، حيث لا يطنب فى مقام الإيجاز .

أى قال المرسلون لإبراهيم عليه السلام ، إن الله تعالى أرسلهم لإهلاك المجرمين من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وتنجية غير المجرمين منهم فهم مستثنون من القوم المهلكين . ولذلك قالوا :

٥٩ ـ (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) : والمراد من آل لوط من آمن به من قومه ولو كانوا من غير قرابته أو أصهاره ، وقد استثنوهم من أجل إيمانهم . ولما كانت امرأته كافرة ضالة ، استثنوها من آل لوط فقالوا :

٦٠ ـ (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) :

أى حكمنا وقضينا قضاء لا مرد له : بأنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة المهلكين ، من أجل كفرهم وجرمهم وكفرها معهم . وإنما أسند الملائكة التقدير والقضاء إلى أنفسهم

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

مع أن الله تعالى هو الذى قدَّر وقضى لأنهم هم المباشرون لإنفاذ ما أمر الله بإنفاذه ، كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا وفعلنا وإن كان الآمر هو الملك .

وقوله سبحانه :

٦١ـ (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) :

شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط ، مع تفصيل لما أُجمل فى الاستثناء السابق ؛ وذلك أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالغلام ، وعرفوه بما أُرسلوا به ، ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط وهم فى صور شبان حسان الوجوه :

٦٢ـ (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ) :

أى لا أعرفكم ، فمن أنتم ؟ ولأى أمر جئتم ؟ وإنما قال ذلك لأنهم ليسوا من أهل الحضر ، ولا تبدو عليهم آثار السفر . ويحكى الله سبحانه إجابتهم للوط لكى يطمئنوه ، ويعرفوه بما جاءوا من أجله ، فيقول جل شأنه :

٦٣ـ (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) :

أى ما جئناك بما يسوؤك ، بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله وأعدائك ، وهو إيقاع العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون أى يشكون فيه ويكذبونك . وهذا كما حكى الله عنهم فى شىء من التفصيل الذى تقدم فى سورة هود : « قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ »[1] .. ثم أكدوا بشارتهم بجملة من المؤكدات فقالوا :

٦٤ـ (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال للامتراء والشك فيه وهو عذابهم ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ، أو فى كل كلام نقوله ، لأنه من عند الله عز وجل فيكون كالدليل على صدقهم فيما أخبروا به .

---

(١) من الآية : ٨١ .

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾)

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ): أى سر واذهب بأهلك ليلا، من أسرى، وقرئ « فاسر » بهمزة الوصل من سرى ، وهما بمعنى واحد . وقيل : أسرى فى السير أول الليل ، وسرى فى السير آخره. (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : أى جزء منه، أومن آخره . (أَدْبَارَهُمْ) : آثارهم .

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ) : أى أوحيناه إليه . وأصل القضاء الحكم . ولكنه ضمن معنى الإيحاء فتعدى تعديته بإلى . (دَابِرَ هَؤُلَاءِ): آخرهم . (مُصْبِحِينَ) : داخلين فى الصباح . وتأتى صيغة « أفعل » للدخول فى الشىء نحو أشرق ، وأنجد، وأتهم[1].

(وَلَا تُخْزُونِ) : ولا تهينونى ، من الخزى ، وهو الذل والهوان ؛ أو لا تخجلونى ، من الخزاية ، وهى الحياء والخجل .

التفسير

٦٥ - (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ...) الآية .

لما بشرت الملائكة لوطا عليه السلام بما أرسلهم الله به ، من إهلاك المجرمين ، وإنجائه وإنجاء أهله إلا امرأته - أمروه بما أمرالله به وهو أن يسرى بأهله فى جزء من الليل أو فى آخره .

(١) أى دخل فى الشروق والنجد وهو المكان المرتفع ، والتهامة وهى المكان المنخفض .

والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم . وهذا شروع فى ترتيب مبادىء النجاة كى تتم على ماقضى الله ودبّر .

والمعنى : اذهب بأهلك فى جزء من الليل أو فى آخره ، وكن فى أثرهم ، لتطلع على أحوالهم ، وتبعث الطمأنينة فيهم .

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ) :

أى ولا يلتفت منك ولا منهم أحد ، لئلا يرى ماوراءه من هول العذاب فلايطيقه .

وقيل نُهوا عن الالتفات ، ليوطّنوا أنفسهم على المهاجرة أو المراد به النهى عن الابطاء فى السير فإن الملتفت قلما يخلو من أدنى وقفة .

ولم يذكر استثناء المرأة من الإسراء بأهله وعدم الالتفات ، اكتفاء بما ذكر فى آيات أخر .

(وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) :

أى واذهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه ، وهو الشام – على ماروى عن ابن عباس والسُّدّى – وقيل الأرْدُنّ ، وقيل مصر . وقيل موضع نجاة غير معيّن . والعلم عند الله تعالى . وأيًّا كان الأمر فالجملة تأكيد للنهى عن الالتفات مع الإسراع بالسير قُدُماً امتثالا لأمره تعالى . وربما كان معهم من يوجههم إلى المكان الذى أمروا أن يذهبوا إليه . أو عرفه الله إياه والطريق الموصل إليه ، والله تعالى أعلم .

٦٦ – (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) :

أى وأوحينا إلى لوط قضاء ذلك الأمر الذى حكمنا به على قومه حكماً لامردّ له ، وهو عذاب الاستئصال الذى فسره سبحانه بقوله :

« أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وفى إبهام الأمر أولا وتفسيره ثانياً بما ذكر أكبر دلالة على فظاعته وشدة شناعته . والمعنى أنهم يُسْتأصلون عن آخرهم وهم داخلون فى وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد . وقوله تعالى :

٦٧ـ (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) :

شروع فى بيان ماصدر من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف. والمراد بالمدينة مدينة قوم لوط ـ وتسمى سدوم ـ وبأهلها أولئك القوم المجرمون .

والمعنى : وجاء أهل المدينةمنزل لوط عليه السلام مستبشرين فرحين ، وذلك أن الرسل لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة ،وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك فجاءوا إلىداره طمعا فى أولئك الأضياف الغرباء الحسان ،فلماخشى منهم على أضيافه ولم يكن يعلم أنهم رسل الله :

٦٨ ـ (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ) :

أى إن هؤلاء أضيافى فحق علىّ أن أبذل الوسع فى إكرامهم ، وحق عليكم أن تعينونى فى رعايتهم وحمايتهم ، فإن لم تفعلوا فلا أقل من أن تتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء حتى لايفهموا أنه ليس لى عندكم قدر ولا حرمة وتلك فضيحة لى ، ومعرة علىّ ، أو فلا تفضحونى بفضيحة ضيفى ؛ فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه !

ثم أكد طلب الكف عن الإساءة إليهم إذا لم يكونوا أهلا للإحسان فقال ماحكاه الله سبحانه عنه بقوله :

٦٩ ـ (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ) :

أى واتقوا الله فى تعرضكم لما يسوءنى ، فلا ترتكبوا فاحشتكم فى ضيفى فتوقعونى فى الذل والخزى أمام الأضياف ؛ فإن ذلك أجلب للعار والفضيحة علىّ !

غير أن الخبث والانحراف عن الفضيلة كان متأصلا فيهم ، وكلمة العذاب حقت عليهم ومن أجل ذلك :

٧٠ ـ (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

أى ألم نتقدم إليك بعدم ضيافة الشبان وحمايتهم ولم ننهك عن العالمين ، فلماذا خالفتنا وآويت هؤلاء الشبان ، وجعلتنا نحضر إليك ونطلبهم منك ، يعنون أننا قد نهيناك فعلا عنذلك . فكأنهم ـ أخزاهم الله ـ قالوا ما ذكرته من العار والفضيحة إنما جاء من

قبلك لا من قبلنا ، إذلولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك مايسوءك ؛ وكانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء ، فكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا ينهونه جاهدين أن يضيف أحدًا أو يُجيره .

ولما رآهم عليه السلام مصرين على مُنْكرِهم لا يقلعون عنه ، وأن نصحه ذهب هباء :

٧١ ـ (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

يعني ببناته نساء قومه ، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم ؛ أو يعني بناته حقيقة ، أي فتزوجوهن وقد كانوا يطلبونهن فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية الزواج بين المسلمات والكفار ؛ فإنه كان جائزًا كما هو مبين فى المطولات .

وقوله : (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أيإن كنتم راغبين فى قضاء الشهوة فاقضوها بالطريق المشروع الذىأحله الله وهو الزواج ؛ فإنه أطهر لكم وأكرم ، دون الطريق الخبيث المحرم ، أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به عليكم من التزوج ، فهؤلاء بناتى فتزوجوا منهن .

وكان مجىءُ هؤلاء المجرمين إلى منزل لوط عليه السلام وما دار بينه وبينهم ، من نصحه لهم ومجادلتهم له ـ كان مجيئهم هذا قبل أن تُعلمه الملائكة بأنهم رسل ربه ، ويأمروه بأن يَسرِىَ بأهله ، على ما تقدم بيانه فى سورة هود فى قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً » .[1] إلى قوله عز سلطانه : «قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » .

وإنما أُخّر ذكر مجيئهم هنا وما تبعه من المجادلة ، وقُدم عليه ذكر ماكان بينه وبين الرسل من المقاولة ـ على خلاف الترتيب الواقعى ـ للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقب ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بهما . ولم يراع فى النظم الكريم الترتيب الواقعى ، ثقةً بمراعاته فى مواقع أخر . والواو للعطف ، ولكنها لاتقتضى الترتيب ، ولاسيما إذا دل الدليل على خلافه .

---

(١) سورة هود من الآية ٧٧ ـ إلى الآية ٨١

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(لَعَمْرُكَ) : أى لحياتك ، وهى صيغة قسم معناها أقسم بحياتك . والعَمر بالفتح هو العُمر بالضم ، ولكنه بالفتح اختص بالقسم للخفة وكثرة دورانه على الألسنة .

(سَكْرَتِهِمْ) :أى غفلتهم الشديدة التى أشبهت السُّكر فجعلتهم كالسكارى... أوضلالتهم كذلك .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون ، من العَمَه ، وهو فى البصيرة كالعمى فى البصر نعوذ بالله تعالى منه !

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد به العذاب الذى أهلكهم الله به . كما نقله ابن المنذر عن ابن جريج ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة !

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس . (سِجِّيلٍ) : طين متحجر .

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ) : للمتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بِسِمَتِهِ وعلامته .

(أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) : أصحاب الْغَيْضَة وهى جماعة الشجر الكثيف الملتف . والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار المثمرة .

(لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) : لفى طريق بيّن واضح يؤتمُّ به .

التفسير

٧٢ - (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

قيل : هذا قسم من الله تبارك وتعالى بحياة نبيه لوط عليه السلام : إن قومه لفى غفلة غامرة ، وضلالة منكرة ، جعلتهم كالسكارى يتحيرون ويترددون ، فكيف يستمعون للنصح ، أو يستجيبون لداعى الهدى وهم فى غوايتهم يتخبطون ؟ ! والمقصود من القسم تأكيد جهالتهم بعاقبة إعراضهم وغفلتهم ، وقيل هو قسم من الملائكة بأمر الله تعالى على تقدير القول ، أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون » غافلون عما يصبحهم من عذاب قريب لا ريب فيه ، كما قال تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »[1] . وقال قوم إنه قسم بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن جرير وابن كثير وجمهور من المفسرين ، وعلى رأسهم ابن عباس ، حيث قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره[2] . وعلى هذا تكون الضمائر فى قوله : « إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » عائدة على قريش ، غير أن القسم بحياة لوط عليه السلام أنسب بسياق القصة ولا ضرورة تدعو إلى أن يكون القسم هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم . فالله جل شأنه يقسم بما شاء على ما شاء ، لحكم وأسرار ، والحكمة هنا تكريم لوط وبيان حسن منزلته عند ربه وإن لم يستجب له قومه ، فقد بذل فى هدايتهم غاية الجهد ، ولكننا نهينا أن نحلف بغير الله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، كما قدمنا فى تفسير قوله سبحانه :

---

(١) سورة هود من الآية ٨١

(٢) فى كتاب : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم تأييد لهذا القول ورد لما سواه .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ [(١)] » الآية . قال صاحب الفتح : قال العلماء : السر فى النهى عن الحلف بغير الله ، أن الحلف بالشىء يقتضى تعظيمه ، والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده . . .

ولما أفادت الآيات السابقة أن قوم لوط بلغوا من الإجرام حدًّا لاينفع معه نصح ولا إنذار ذكر سبحانه عاقبة إجرامهم فقال :

٧٣ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) : الفاء فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ » للإشارة إلى أن عذابهم بالصيحة جاء عقب إخبار لوط بأن قومه فى سكرتهم يعمهون .

والمعنى : فبعد ما أُخْبِرَ لوط بغفلة قومه عما أعده الله لهم من العقاب على فاحشتهم ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون وهم مشرقون ـ أى داخلون فى وقت شروق الشمس ، ويجمع بين قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وبين قوله هنا « مُشْرِقِينَ » بأن ابتداء عذابهم كان عند الصبح ، وانتهاءه كان عند الإشراق .

ثم بين سبحانه صفة العذاب المدمر الذى أحيطوا به فقال :

٧٤ـ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) :

أى فجعلنا عالىَ مدينتهم ، أو عالى قراهم سافلها ، بأن دمرناها عليهم وقلبناها فوقهم ، وأرسلنا عليهم طينًا متحجرًا كالمطر المتتابع : أنزلناه قبل القلب ، أو فى أثنائه ليصيب الشذاذ المتفرقين ، فلا ينجو منهم جميعًا أحد . وفى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ » [(٢)] . ولاريب أنها حجارة صنعت من طين لايعلم كنهه إلا علام الغيوب والطين إذا تحجر سُمِّى سِجِّيلا !

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٨٩
(٢) الآية : ٣٣

ثم دعا سبحانه إلى النظر والاعتبار بما أصاب هؤلاء المجرمين فقال :

٧٥ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) :

أى إن فى ذَلكَ العذاب الذى أحاط بقوم لوط فدمَّرهم لعلامات بينةً على أخذ الله للمجرمين . يعرفها أهل الفطانة الذين يدركون الأمور بسماتها وعلاماتها . فيستدلون بها على حقائق الأشياء ، ويعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر !

وفى الآية تنويه بالفِراسة والمتفرسين . وفى تفسير ابن كثير عن أبى سعيد مرفوعًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه الترمذى وابن جرير . وأصدق الناس فِراسةً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان . قال ابن القيم : وكان الصدِّيق رضى الله عنه أعظم الأمة فِراسةً ، وبعده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه[1]

ثم بين سبحانه بيانا مؤكدًا أن مدينة قوم لوط لاتزال توحى بالعبرة والعظة فقال :

٧٦ - (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ) :

أى وإن هذه المدينة ، أو القرى - يعنى آثارها - لفى طريق باق ثابت يسلكه الناس يومئذ فيرونها رأى العين ليعتبر بها أولو الأبصار والبصائر ، وفى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[2] » . والخطاب لأهل مكة .

ثم حث المؤمنين على النظر مؤكدًا فقال :

٧٧ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى إن فيما ذكر من قصة قوم لوط وما حل بهم لعلامةً عظيمة للمؤمنين بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب وَجَعْلِ ديارهم خاويةً بلاقع ، إنما حل بهم لسوء صنيعهم ، وأما غيرهم فهم غارقون فى غوايتهم فلا يفكرون فى الآيات ولا يعرفون سبيل

(١) انظر كتابه : « مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » .
(٢) الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

الهدى . وإفراد لفظ (الآية) هنا وجمعها فيما سبق لأن المشار إليه هنا مجمل وهو كونها بسبيل مقيم ، والمشار إليه قبل ذلك مُفَصَّل حيث ذكرت قصة إهلاكهم وتدمير قراهم بسبب فاحشتهم ، ثم ساق سبحانه نبأ أصحاب الأيكة مجملا فقال :

٧٨ـ (وَإِن[1] كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) :

أى وإن الشأن والخبر كان أصحاب الأيكة لظالمين لأنفسهم ، وأصحابُ الأيكة قومٌ أرسل إليهم شعيب ،والأيكة الشجرة الملتفة المتكاثفة ، وكانت عامة شجرهم المقل الذى عبر عنه بالأيكة . فنسبوا إليها . وكانت قريبة من مدين قرية شعيب . ولما ظلموا أنفسهم بالشرك ومختلف المظالم أرسل الله إليهم شعيبًا كما أرسله إلى قومه أهل مدين . ولذا قال سبحانه فى كل من السور الثلاث ، الأعراف ، وهود ، والعنكبوت. « وإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعيبًا[2] » الآيات . وقال فى سورة الشعراء : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيبٌ أَلاَ تَتَّقُون ». إلى قوله عز من قائل : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخذهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يوْمٍ عظِيمٍ »[3] . وجملة القول أن شعيبًا عليه السلام ، أرسل إلى أمتين عذبتا بعذابين . كما قال ابن جرير وغيره وهو ظاهر الكتاب العزيز .

ويبدو أنهم فاقوا أهل مدين فى الشرك والطغيان والاستهزاء والبهتان . ولذا كان عذابهم بيوم الظلة أشد من عذاب أهل مدين بالصيحة والرجفة وهى الزلزلة كما يعرب عنه قوله سبحانه : « فَأَخَذهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[4] » حيث أكَّد سبحانه أنه كان عذاب يوم عظيم . روى غير واحد عن قتادة قال : ذُكر لنا أنه جل شأنه سلط عليهم

---

(١) أى وإنه « كان أصحاب الأيكة لظالمين » فان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والأصل وإنه . أى وإن الحال والشأن كان أصحاب الأيكة الخ ، ولذا وقعت اللام الفارقة فى الجملة التى بعدها لكونها فى محل رفع خبر إن هذه ، وسميت هذه اللام (اللام الفارقة) لأنها فرقت بين إن المؤكدة التى تنصب الاسم وترفع الخبر بعد أن خففت نونها بالسكون وبين إن النافية المشبهة لها فى سكون النون .

(٢) الأعراف أول الآية : ٨٥ – وهود أول الآية : ٨٤ – والعنكبوت أول الآية : ٣٦

(٣) الشعراء الآيات من ١٧٦ – ١٨٩

(٤) الشعراء الآية (١٨٩)

الحر سبعة أيام لايظلهم منه ظل ولايمنعهم منه شيء. ثم بعث سبحانه عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الرَّوْح[1] منها فبعث عليهم منها نارًا فأكلتهم فهو عذاب يوم الظلة. وقوله سبحانه:

٧٩ـ (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) :

مرتب على ظلمهم الذى تجاوز كل ظلم ، وإبهام نوع الانتقام هنا ثم تفسيره فى سورة الشعراء بعذاب يوم الظلة دليل على شدة هوله وعظمه . وقد قلنا مرارًا إن الكتاب العزيز يفسر بعضه بعضًا ، وضمير التثنية فى قوله تعالى : « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مبينٍ » قيل إنه يعود إلى الأيكة ومدين . لأنه لما كان رسولهما واحدًا هو شعيب عليه السلام كان ذكر أحدهما منبهًا على الآخر . والظاهر أنه يعود إلى مسكنى قوم لوط وأصحاب الأيكة ـ قال الآلوسى : وإلى ذلك ذهب الجمهور. أ. هـ. ويؤيده أنهما تقدما فى الذكر . وقد أضمر سابقًا إلى قرية قوم لوط بضمير المفرد فى قوله : « وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » . وأضمر لها وللأيكة هنا بضمير المثنى حيث قال تعالى : « وإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » . ولعل هذا لتكرير العبرة والعظة بما يصيب القوم المجرمين. والإمام المبين هو الطريق البين الواضح الذى يأتم به ويهتدى الغادى والرائح .

---

(١) الروح : يعنى الراحة .

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(الْحِجْرِ) : واد بين المدينة المنورة والشام. (أَصْحَابُ الْحِجْرِ) : هم ثمود قوم صالح عليه السلام ،ويسمون عادًا الثانية . وأصل الحجر كل ما أُحيط بالحجارة ومنه حجرُ الكعبة .

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد منها الرجفة التى أهلكوا بها كما سيأتى بيانه .

(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم) : فما دفع عنهم وما منعهم .

التفسير

٨٠ – (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) :

هذا شروع فى قصة أصحاب الحجر ، قوم صالح عليه السلام ، وهى من القصص التى لاتزال آثارها ناطقة بالعبرة والعظة لمن يمر بها . والحجر هو الوادى الذى كانوا يسكنونه . ولايزال معروفا بين المدينة النبوية والشام ، وقد كان يمر به ركب الحجاز إلى الشام ، ذاهبين وعائدين . وقصتهم هنا مجملة وفى مواطن أخرى ذكرت مفصلة . وإليك موجزا فى بيان قصتهم التى أجملتها هذه الآيات :

أرسل الله إليهم نبيهم صالحا فكذبوه فكانوا بتكذيبه مكذبين للرسل أجمعين ؛ لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول التى لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار . ولذلك حكى الله سبحانه تكذيبهم بقوله : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المرْسَلِينَ » .

٨١- (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى وأعلمناهم بحججنا البالغة الدالة على صدق صالح عليه السلام فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده ، والإيمان برسالته . وكانت الناقة إحدى آيات الله البينات : فى شربها ودرّها على خلاف غيرها من النياق ، ولذلك أضافها صالح إلى الله تعالى حين قال لقومه : « يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسوءٍ فيأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] . فكانوا عن هذه الآيات كلها معرضين ، بل مكذبين معاندين .

٨٢- (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ) :

أى ومكنّاهم فى الأرض وجعلناهم أولى قوة ومنعَة ، وحضارة ومهارة ، وحذْق بفنون البناء والعمارة ، حتى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة ، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ، ثم يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم ، وعلى أنفسهم من العدوان والسوء ؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها ؛ أو آمنين من العذاب لحسبانهم أن الحصون التى بنوها تحميهم منه ـ وكانوا يتخذون من سهولها قصورًا عظيمة فى جنات وعيون . . . وقد ذكّرهم بذلك نبيهم صالح عليه السلام فيما حكى الله عنه فى سورة الأعراف إذ قال : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ من بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ من سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًافَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِوَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »[2] وفى سورة الشعراء إذ قال « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَٰهُنَا آمِنِينَ . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »[3] . لكنهم طغوا وبغوا وجحدوا آيات الله ورسالاته : « وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ[4] » .

٨٣- (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) :

وفى سورة هود : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[5] » .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ٧٣
(٢) الآية ٧٤ .
(٣) الآيات من ١٤٦ — ١٤٩
(٤) الأعراف من الآية : ٧٧ .
(٥) الآية : ٧٨ .

وفى سورة الأعراف : « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ »[1] .

والرجفة هى الزلزلة ، والصيحة من توابعها ، فإن الزلزلة تحدث تموجًا فى الهواء شديدًا يفضى إليها . وكانت صيحة هلاكهم فى صباح اليوم الرابع بعد تمتعهم ثلاثة أيام كما أوعدهم الله على لسان نبيهم صالح عليه السلام فى سورة هود : « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[2] »

والفاء فى قوله تعالى :

٨٤ـ (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

لترتيب عدم الإغناء والنفع ، على ما أصابهم حين نزل بهم قضاءُ الله الذى لا مرد له .

والمعْنى : فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة ، مع كثرة العدَد والعُدد ، بل خروا فى ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس .

هذا ، وقد روى الشيخان وغيرُهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم . ورويا عنه أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجْر أرض ثمود فى غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من مائها ولا يستقُوا منها ، فقالوا : قد عَجَنَّا منها واستقينا ! فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهريقُوا ذلك الماء . وفى رواية : فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يُهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يَعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة . قال العلماء : وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم موضع هذه البئر من طريق الوحى .

---

(١) من الآية : ٦٥ .

(٢) من الآية : ٦٥ .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت الذى يحق لنا أن نخلق السموات والأرض عليه طبقا لمقتضى الحكمة والمصلحة .

(السَّاعَةَ) : أى القيامة ، وسميت بالساعة ، لأنها تفجؤهم فى ساعة لا يعلمونها .

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : أى فأعرض عنهم الإعراض الجميل ، أو فاعف عنهم العفو الجميل الذى لا لوم فيه ولا تثريب . (الْمَثَانِى) : جمع مثنَّى من ثنى الشىء يثْنيه إذا أعاده ؛ أو جمع مُثنية من الثناء ، بحذف الزوائد ، لما فيها من الثناء على الله تعالى .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) : لاتطمح بنظرك طموح راغب . وسيأتى بيان ذلك .

(أَزْوَاجًا) : أى أصنافا ، جمع زوج أى صنف .

(واخْفِضْ جَنَاحَكَ) : ألِن جانبك وتواضع ، والجناحان من الإنسان جانباه .

التفسير

٨٥ـ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ . . . .) الآية . . .

لما قص الله تبارك وتعالى من أنباء المكذبين لرسلهم ما فيه عبرة وتذكرة ـ نبه بذكر هذه الآية الكريمة على حكمته البالغة فى إهلاكهم ؛ حيث بين أنه ما خلق السموات والأرض

وما بينهما ذلك الخلق البديع المحكم ، إلا بالحق وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا ؛ فلما جحدوا آياته ، وأشركوا به ، وكذبوا رسله ، وعثوا فى الأرض فسادا ــ قضت عدالته وحكمته بأن يهلكهم ويهلك أمثالهم ، دفعاً لفسادهم ، وتطهيراً للأرض من شرورهم ، وإرشاداً لمن بقى إلى الصلاح والإصلاح . حذراً من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

هذا جزاؤهم فى الدنيا ، وقد أشارت إليه الجملة الأولى من الآية الحكيمة ، وأما جزاؤهم فى الآخرة فموعدهم فيه الساعة ؛ وإليه تشير الجملة الثانية من الآية ، وهى قوله :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) : لا ريب فيها ؛ فينتقم الله لرسله ، جزاء ما كُذِّبوا وأوذوا .

هذا ، وفى تلك القصص وما ختمت به تسلية كريمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، إذا سمع من ربه أن الأمم السابقة كانوا يعاملون أنبياءهم هذه المعاملة القاسية ، هان عليه تحمل سفاهة قومه وأذاهم ، وسهل عليه أن يعفوَ عنهم عفواً كريما لا لوم فيه ولا تثريب ، وهذا هو الصفح الجميل الذى أمره الله به إذ قال :

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : كما روى عن على وابن عباس رضى الله عنهم فى تفسير الصفح الجميل ، وفى أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح الجميل إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعد الله وما قضاه فى شأنهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه مالا تطيق من الضيق بكفرهم ، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ثم قرر سبحانه هذا المعنى وزاده توكيداً فقال :

٨٦ ــ (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

أى إن الله الذى رباك بنعمه ، وتولاك بفضله وكرمه هو الخلاق لك ولهم ، العليم بأحوالك وأحوالهم ، وبما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأمور إليه ، فهو الحكم العدل الذى يجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم ، وقد علمت أن الصفح الجميل

أولى بك إلى أن يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين . ثم امتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالمنة العظمى ، وهى إنزال القرآن عليه فقال :

٨٧ـ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ :

أى ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب ، وهى سبع آيات تُثَنَّى وتكرر فى الصلوات الخمس وغيرها ويُثْنَى بها على الله عز وجل ؛ وهى القرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر واعتبارها القرآن الكريم ؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها ، ولا شتمالها على مقاصد القرآن كله .

وقد روى البخارى[١] عن أبى سعيد بن المعلَّى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له وهما فى المسجد : لأُعَلِّمنَّك سورة هى أعظم السور فى القرآن . . . الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أُوتيته .

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم » .

فكل من هذين الحديثين الصحيحين نص صريح فى أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى وأنها القرآن العظيم . والقرآن كما يطلق على الكتاب العزيز كله يطلق على بعضه .

وذكر المفسرون جملة أقوال أخرى فى المراد بالسبع المثانى ، أصحها وأقواها ما رُوى عن جمع من الصحابة والتابعين ، وفى مقدمتهم ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير رضى الله عنهم ، إذ قالوا ، إنها السبع الطُّول[٢] أطول سور القرآن الكريم كله : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال وبراءة ، فهما عندهم سورة واحدة ولذا لم يفصل بينهما بالبسملة .

---

(١) فى أول كتاب التفسير : باب ما جاء فى فاتحة الكتاب . . . ثم فى باب قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » من تفسير سورة الحجر .

(٢) جمع طولى مؤنث أطول .

وذكر ابن كثير أن النص الصحيح على أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى، لايمنع من وصف السبع الطُّول بما اتصفت به الفاتحة . بل لايمنع من وصف القرآن كله، بأنه مثانٍ ، وقد قال تعالى : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ » [١] .

ولما كان متاع الدنيا وإن عظم، شيئا ضئيلا حقيرا بالقياس إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن الكريم ــ نهاه أن يطمح ببصره طموح راغب فى هذا المتاع فقال :

٨٨ـ (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . .) الآية .

أى لاترغب فى متاع الدنيا وزخرفها مما متعنا به أصنافا من الكفرة المشركين وأهل الكتاب ؛ واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » [٢] .

وكان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن كل من بعثه الله إليهم، ويشق عليه ــ لمزيد شفقته ــ بقاء الكفرة على كفرهم فقال الله له رحمة به :

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) كقوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » [٣] أى لاتحزن ولاتتحسر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت ، فلا تبال بهم بعد ذلك .

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) : أى تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم واصبر نفسك معهم . فإنهم أولى بك من أولئك الجاحدين ، وإنك بالمؤمنين رءوف رحيم .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٢) سورة طه الآية : ١٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨

(وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(النَّذِيرُ الْمُبِينُ) : المنذر الموضح لما ينذر الناس به ويهديهم إليه .

(عِضِينَ) : أى أعضاء وأجزاء متفرقة كل فرقة عِضة ، يقال عضَّى الشَّىء تعضية إذا فرقه وجزَّأه .

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) : أى فاجهر بما تؤمر به وأظهره ، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرُق بين الحق والباطل ؛ من الصدع بمعنى الشق .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) : أى تولينا إهلاك المستهزئين يقال :كَفَيْتَ فلانًا المؤنة إذا توليتها ولم تحوجه إليها

التفسير

٨٩ـ (وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) :

امتنَّ الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى الآيتين السابقتين بأنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم وأوصاه بوصايا ثلاث :

« أولاها » : أن لاتطمح نفسه إلى مثل ما أوتيه أصناف من الكفار من المال والجاه فإن القرآن أعظم من هذا كله ، فهو عز الدنيا والآخرة « والوصية الثانية » أن لايحزن عليهم بسبب انصرافهم عن الهدى الذى جاءهم به « والوصية الثالثة »أن يتواضع للمؤمنين ويخفض جناحه لهم ليشتد حبهم له ، واستمساكهم بدعوته والتفافهم حوله ،فهم خير له من هؤلاء المترفين المستكبرين ، وقد مرَّ الكلام على هاتين الآيتين وجاءت هذه الآية مشتملة على وصية رابعة ، وهى أن يقول لجميع الناس إنه هو النذير الموضح لما أنزله الله عليه من أجلهم ، من السبع المثانى والقرآن العظيم ، وفى جملة ما يوضحه لهم ما أنذرهم فيه من العقاب على مخالفتهم أوامر ربهم ، حيث يبين دواعيه وبراهينه ، وإنما اقتصر على الإنذار مع أن الله أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا ، لأن المؤمنين كانوا يومئذ قلة والكافرين كثرة ، ولأن المقام مقام تحذير وتخويف ، وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العُريان ، فالنجاءَ النجاءَ ، فأطاعه طائفة من قومه فأدْلَجُوا وانطلقوا عَلَى مَهَلِهِمْ فنجوا ، وكذّبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثلُ من أطاعنى واتّبع ما جئت به ، ومثلُ من عصانى وكذّب ماجئت به من الحق » .

٩٠ــ٩٣ــ (كما أنزلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)) .

البيان

اختلف العلماء فى تفسير المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين على سبعة أقوال نختار منها قولين : (أحدهما) ما قاله مقاتل والفراء ، من أنهم ستة عشر رجلا ، أرسلهم الوليد ابن المغيرة أيام موسم الحج فاقتسموا طرق مكة ومداخلها وفجاجها ، يقولون لمن سلكوها : لاتغتروا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة فأماتهم الله شر ميتة ، وكانوا نصّبوا المغيرة بن شعبة حكماً على باب المسجد الحرام ، فإذا سألوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وافق على فرية هؤلاء المقتسمين ، وصدقهم فيما يفترونه — هكذا حكى القرطبى رأى مقاتل والفراء .

(والقول الثانى) لِقَتَادَة وخلاصته أنهم قوم من كفار مكة ، اقتسموا كتاب الله فزعموا بعضه شعرًا ، وبعضه سحرًا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين فهؤلاء هم المقتسمون جعلوا القرآن عضين ، أى جعلوه أجزاء مختلفة وفرقًا متباينة ، لكل جزء منه اسم من الأسماء التى مرّ بيانها .

وإنما اخترنا هذين القولين لأن السورة مكية ، وما جاء فيهما حدث من مشركى مكة .

أما ما قيل من أن المقتسمين هم أهل الكتاب ، اقتسموا القرآن فيما بينهم ، فآمنوا ببعضه وهو ما وافق التوراة والإنجيل . وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أو اقتسموه استهزاء . فقال بعضهم لبعض : هذه السورة لى وهذه السورة لك ، أو اقتسموا كتبهم ففرقوها وبدّدوها — أما هذه الأقوال الثلاثة فغير مقبولة لأن السورة مكية . ولم يحدث من النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة احتكاك بأهل الكتاب . ولا تبليغ القرآن لهم حتى يقولوا فيه ذلك ، كما أنه لم يسبق لأهل الكتاب فى السورة كلها ذكر مطلقًا حتى يتوهم رد المقتسمين إليهم وتفسيرهم بهم .

وأما ما قيل من أن المراد بهم قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال سبحانه فى سورة النمل حكاية عنهم : « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ - ٤٩ - » - أما هذا القول - فهو بعيد أيضًا لأنهم وإن ذكروا فى هذه السورة بعنوان أصحاب الحجر فى الآية رقم ٨٠ لكنهم لم يجعلوا القرآن عضين فإنهم لا علم لهم به لتقدمهم على نزوله فضلا عن أن المقام لا يسمح بإرادتهم . وكيف تتصل هذه الآية وما بعدها بقصتهم وبينهما تسع آيات ، وفى أفصح الكلام ، إن هذا لجد بعيد .

ماترتبط به هذه الآيات ومعناها

قد مرَّ بك أيها القارئ الكريم أننا اخترنا الرأيين الأولين فى تفسير معنى المقتسمين لاتفاقهما على أنهم من أهل مكة . وهذا يناسب كون السورة مكية وترتبط تلك الآيات الأربع بقوله تعالى قبلها مباشرة : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » والمعنى على هذا :

وقل أيها الرسول للناس : إنى أنا المنذر لمن خالف ربه وكفر به وعصاه ، المبين لهم ما أنذروه كالإنذار الذى نُنْزِلهُ بشأن المقتسمين من أهل مكة الذين جعلوا القرآن أجزاء وفرقوه أوصافًا . فتارة يسمونه سحرًا وأخرى يزعمونه شعرًا وحينا يدَّعون أنه كهانة. وأخرى يفترون أنه أساطير الأولين.وهذا الإنذار الذى ننزله بشأنهم ونبينه لهم هو قولنا لك تسلية . ولهم وعيدًا وتهديدًا : فوحق ربك الذى أحاطك بحمايته ورباك بنعمته وشرفك برسالته لنسألنهم أجمعين عما كانوا فى دنياهم يعملون من كفر وتكذيب وإعراض وافتراء « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »(1) فيحاسبهم أدق حساب ويعاقبهم أشد عقاب. فليس الأمر كما يزعمون إذ يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »(2) . وعبر بالماضى بقوله : « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » مع أنه تعالى لم ينزل فى الماضى بشأنهم قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإنما أنزله وقتما أمر النبى بقوله له : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » الآيات . - وعبر بالماضى فى قوله : « أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » - لأن المحقق إنزاله فى المستقبل فى حكم الذى نزل فعلا . ولأن نزوله سابق فى علم الله وقضائه .

---

(1) سورة إبراهيم الآية (٤٢) (2) سورة الأنعام الآية (٢٩)

ويجوز أن يراد مما أنزله الله على المقتسمين ما سبق نزوله من الإنذار للمعرضين عن القرآن المتقولين عليه كقوله تعالى فى حق الوليد بن المغيرة : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا » وقوله : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وقوله : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لاتُبقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(1) . وذلك عقاب له على قوله فى القرآن : « إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » . وكقوله فى سورة فصلت : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صاعِقةِ عَاد وَثَمُودَ »(2) . وعلى هذا يكون قوله سبحانه : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وعيدًا آخر غير ماسبق نزوله بشأنهم .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » عائدا على الناس جميعًا ، وليس خاصًا بهؤلاء المقتسمين ، أى وحق ربك يا محمد لنسألن الناس جميعًا — مؤمنهم وكافرهم عما كانوا يعملون فى دنياهم « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(3) .

وليس سؤاله سبحانه سؤال استفهام واستعلام وإنماهو سؤال تقريع وتوبيخ أو تقرير ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يسألهم الله تعالى : هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم وإنما يقول : لم عملتم كذا وكذا؟ وروى الترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى برزة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَاتَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسَأَلَ عَنْ أَرْبَع : عَنْ عُمُرِه فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِه منْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنفقَهُ ، وَعَن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » ؟

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى فى سورة الرحمن : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ »(4) .

وكذا فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَاينطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(5)

---

(1) سورة المدثر الآية من ١١ — ٣٠ (2) فصلت الآية ١٣
(3) سورة النجم من الآية ٣١ (4) الآية ٣٩
(5) الآيتين ٣٥ ، ٣٦

لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف فيسألون فى بعض المواقف ولا يسألون فى بعضها .

وفى التعرض لوصف الربوبية مضافًا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من تسليته واللطف به ، مالا يحتاج إلى بيان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى سرًّا حتى نزلت هذه الآية :

٩٤ ـ (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

أى اجهر بما يأمرك الله به ، وأعلِنْ رسالته التى أرسلك الله بها إلى الناس كافَّةً ، ولا تبال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك وعاصمك ، كما قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

ولما كان المستهزئون بالدعوة هم أكبر المعوِّقين لها والصادِّين عن سبيل الله ـ وعده الله سبحانه أن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال :

٩٥ ـ (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) :

الذين يستهزئون بك وبالقرآن !

والمستهزئون نفر من رؤساء كفار قريش ، اختُلف فى عدّتهم وفى أسمائهم ، والمشهور أنهم خمسة ، وكانوا يبالغون فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستهزاء به وبالقرآن ، وهم : الوليد بن المغيرة المخزومى وهو رأسهم ، والعاصى بن وائل السَّهمى ، والأَسود بن الطَّيب ، والأَسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، وقيل غير ذلك .

غير أن المعلوم فى شأنهم أنهم كانوا طائفة ذات قوة وشوكة ، لأن أمثالهم هم الذين يجترئون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو منصبه وعظيم قدره فى عشيرته . وقد وصف الله المستهزئين ، وأكد وعده لرسوله بأنه سيكفيه شرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٦٧

٩ ـ (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بك يامحمد بل اجترءوا على عظيمة العظائم وكبيرة الكبائر : ألا وهى الإشراك بالله عز وجل ، ولهذا كله « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ما يحل بهم فى الدنيا من الإهلاك والإبادة ، وفى الآخرة من العذاب العظيم .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(يَضِيقُ صَدْرُكَ) : أى ينقبض ويُحرج .

(مِنَ السَّاجِدِينَ) : أى من المصلين ، وإطلاق الساجدين عليهم ؛ لأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من أمارات الخضوع والاستسلام والذلة لله تعالى .

(الْيَقِينُ) : المراد به هنا الموت ؛ وعبر عنه باليقين لتحققه .

التفسير

بعد أن جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة امتثالا لأمر ربه ، اشتد إيذاء قريش له ولمن آمن به ، حتى ضاق صدره وعظم همه ، بما كانوا يقولون من كلمات الشرك والسخرية فأنزل الله عليه :

٩٧ ـ (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الآيات .

أى وإنا لنعلم ما يصيبك من انقباض صدرك ، وعظم همك وألمك ، بسبب ما يقول المشركون فيك وفى القرآن من كلمات الشرك والاستهزاء :

٩٨ ـ (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) :

أى فافزع إلى ربك فيما يصيبك من ضيق الصدر وانقباضه ، ونزّهه عما يقول المشركون،

حامدًا له سبحانه على أن هداك إلى الحق وشرح صدرك به . وكن من المصلين الخاشعين ، يكشفْ همك وغمك ، ويذهب الضيق الذى تجده فى صدرك .

ولأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من الخضوع ، وأفضل أجزائها من الخشوع ـ عبر الله به عنها ، وأمره به بصيغة تدل على الدوام والاهتمام بالصلاة وبالسجود معًا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة (1) . وقد روى عن مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

وفى ختام السورة الكريمة يقول تباركت أسماؤه :

٩٩ ـ ﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ :

أمر إلٰهى كريم للنبى صلى الله عليه وسلم بدوام العبادة لربه والدعوة إليه حتى يأتيه اليقين ، أى الأمر الموقن به وهو الموت .

أى دم على ما أنت عليه من الصلاة والعبادة لربك ما دمت حيا .

والآية دليل على وجوب العبادة ـ وعمادها الصلاة ـ على كل مكلف ما دام عقله ثابتًا . ولو كان مريضًا كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حُصين رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » .

والآية الكريمة دليل كذلك على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات ، إلى الممات . وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه . ولله الحمد والمنّة ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم .

---

(1) هذا حديث مشهور ذكره ابن جرير وغيره ، وقال ابن الأثير فى النهاية : كان إذا حزبه أمر صلى . أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . اهـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

المقدمة

السورة مكية إلّا الآيات الثلاث الأخيرة على أرجح الآراء ، وهى تتناول النعم العديدة المتوالية من الله سبحانه على خلقه ، ولهذا سميت أيضًا سورة « النِّعم » .

وإن كثيرًا من البشر يقابلون هذه النعم بالجحود والكفران كما قال تعالى : « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » النحل (٨٣) وأهم مشتملاتها :

١ ـ أنها أشارت إلى أن عذاب الله واقع ماله من دافع ، على من يستحقونه من الطغاة العُتاة ، وإن أمهلهم الله حتى حين فليس معنى ذلك إفلاتُهم من عقابه الأليم إذا هُمْ أصروا على الكفر والعصيان ، فإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلِته .

ومن لطفه سبحانه بعباده أنه ينذرهم قبل معالجتهم بالعذاب عن طريق تنزيل الملائكة بالوحى السماوى على من يصطفيهم من رسله ليبلغوه إلى أقوامهم : «لِئَلَّا يكُون لِلنَّاس علَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[(١)] .

٢ ـ أنها بينت أن الله سبحانه خلق السموات والأرض من العدم بالحق والحكمة ، وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ثم سوّاه إنسانًا سويًّا ، فإذا هو مجادل مكابر مُقْبِلٌ على الخطإ بعيدٌ عن الصواب ، ومع هذا فالله سبحانه يغمره بإحسانه وكرمه ، فقد خلق له الأنعام وسخَّرها له ينتفع بأصوافها وأوبارها وأشعارها ويأكل لحومها وما تدره من الألبان ، وهيَّأ له استخدام الدواب يمتطيها ويحمل عليها أثقاله إلى مكان بعيد ، ومع أن الله منَّ عليه بذلك هداه إلى السبيل السويّ المستقيم ليعبد الله حق عبادته ، فبعث إليه رسله ، وبين له آياته .

---

(١) سورة النساء ـ الآية : ١١٥

٣ـ وأن من رحمة الله بخلقه أنه أسقط لهم المطر يستغلونه فى الشُّرْب وإعداد الطعام وسقى المواشى وزراعة الأَرض لتخرج أنواع الثمار والفواكه والبقول وغيرها ، ومن نعم الله أيضًا على عباده أنه مهَّد لهم العيش على سطح الأَرض ، ونظم دورانها حول محورها بصورة تستتبع تعاقب الليل والنهار وهيأ لهم الانتفاع بضوء الشمس ونور القمر ، والاهتداء فى ظلمات الليل بالنجوم أثناء الحِلِّ والترحال ، كما سخر لهم الانتفاع بالبحار والمحيطات وما تضمه من خيرات ، وما تهيئه لهم من سهولة الانتقال بالسُّفن بين شتى البلاد والأَقطار ، وتظهر آثار حكمته سبحانه فى أنه ثبت الأَرض فى دورانها بالجبال الشامخة حتى لا تميد بما تحمله من العوالم العديدة .

٤ ـ وأن الله سبحانه هو الذى خلق الخلق بحكمته وقدرته وغمرهم بإحسانه وفضله فهو وحده الجدير بالعبادة فكيف يشركون به أحدًا من خلقه ، مع أن نعم الله عليهم لا تُحْصى ولا تعد ، وهو يعلم مايسرون ومايعلنون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب كما جازى الأُمم السابقة لهم فى الدنيا والآخرة ، فى حين أن ما يعبدونهم من دونه لا يستحقون شيئًا من العبادة لفقدانهم أهليتها ، فهم لايملكون لأَنفسهم ولا لسواهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

٥ ـ وأن الموت نهاية كل إنسان والناس إزاءه فريقان : فريقٌ تتوفاه ملائكة العذاب ومصيره إلى جهنم وبئس المصير ، وفريق مؤمن تتوفاه ملائكة الرحمة فتبشره بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة ؛ ولقد بعث الله الرسل وأنزل معهم الكتب فاستجاب لهم فريق وكفر بهم فريق ، وسينال كلٌّ جزاءه بقدر عمله ، والذين هاجروا فى سبيل الله سيشملهم الله برحمته ورضوانه فى الدنيا « وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٦ ـ وبينت السورة أنه تعالى لم يرسل قبل محمد ملائكة حتى يحتجوا بهذا ، وإنما أرسل رجالًا أوحى إليهم برسالاته ، فهل أمن الكفار أن يخسف الله بهم الأَرض جزاءَ كفرهم وعنادهم أو يصيبهم بعذاب مباغت وهم آمنون ، أفلا ينظرون إلى الكائنات المنقادة لمشيئته الخاضعة لإرادته سواءٌ فى الأَرض أم فى السماء ، فهو إله واحد لاشريك له ، تظهر آثار قدرته وحكمته وإحسانه على خلقه ، وإن كان بعضهم يقابل الإحسان بالإساءة والجحود ، ويزعم

أن الملائكة بناتُ الله ، ويضيق بإنجاب البنات ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيبقيهن مع احتمال الذل والهوان أم يدفنهن أحياء فى التراب ـ ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم لأزال كل ما يدب على سطح الأرض من الكائنات الحية ولكنه يؤخرهم إلى أجل محدود لا يتجاوزونه بأى حال .

٧ـ وبينت السورة أنه تعالى أرسل الرسل إلى الأمم السابقة فكذبوهم فأصابهم ما يستحقونه من العذاب ، وأنه تعالى أنزل على رسوله الكتاب إرشادًا وتوضيحًا وهدى ورحمة ، وكما أنزل الله الهداية الروحية لإحياء النفوس أنزل سبحانه الماء لإحياء الأرض بعد موتها ، وسخر سبحانه الأنعام لتمنحهم من بطونها اللبن السائغ العذب ، وأنبت لهم من الأرض ثمرات النخيل والأعناب يتخذون من ثمراتها شرابا حلوا وأكلا شهيًّا ، وسخر النحل وهداها لتتخذ من الجبال ومن الشجر والعرائش بيوتا لها ولتتناول من الثمار غذاء تحيله إلى عسل شهىٍّ فيه غذاء وشفاء .

٨ـ وبينت أن الله خلقنا ثم قدر علينا الموت ، وقد يمهل بعضنا حتى يبلغ أرذل العُمُر فلا يعلم شيئًا ؛ والله اختبرنا بتفضيل بعضنا على بعض فى الرزق ، وخلق لنا أزواجًا من جنسنا حتى نأنس بِهِنّ ونَسْكُن إليهن ، ومنحنا منهُنّ أبناء وحفدة ورزقنا من طيبات الحياة فكيف نقابل إحسانه بالكفر ، ونؤمن بالباطل والضلال ونعبد مِنْ دونه من لا يملك أن يرزقنا ولا يستطيع الرزق إن أراد .

٩ـ وأنه لايستوى العجزة والقادرون ولا الأغبياء والأذكياء ؛ وللجميع نهاية يوم القيامة الذى يباغت به الجميع مباغتة تقع كطرفة العين ؛ ومن آيات الله التى ينبغى مراعاتها وشكرها أنه سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا . ونحن لانعلم شيئًا ، ثم منحنا نعمة السمع والبصر والعقل المفكر لكى نعبده ونشكره حق شكره ، وأتاح لنا رؤية الطير المحلِّقة فى أجواز الهواء ضد الجاذبية الأرضية ، وما يحفظها فى تحليقها إلا الله الحكيم القدير العليم .

١٠ـ ومن نعم الله العديدة علينا أنه هدانا لاتخاذ البيوت المستقرة ، كما هدانا لأن نتخذ البيوت المتنقلة من الخيام المصنوعة من جلود الأنعام . وهيَّأ لنا أن نتخذ من أصوافها

وأوبارها وأشعارها أثاثاً لبيوتنا وملابس تقينا من لفح الحر ولذع البرد ، وهدانا إلى اتخاذ الدروع التي تحمينا فى ساحة القتال ؛ ولكن كثيرين منَّا يعرفون هذه النعم وهم لها جاحدون .

١١ ــ وأن الله سبحانه أمر عباده بمراعاة العدل والإحسان وصلة الأرحام ، ونهاهم عن ارتكاب الآثام ، كما أمرهم سبحانه بالوفاء بالعهود المُبْرمة والأيمان المؤكدة ، وألَّا ينقضوا ماأبرموه وألَّا يتخذوا أيمانهم وسيلة للخداع والتمويه وألَّا يستبدلوا ماعاهدوا عليه الله بعرض زائل ولا ثمن قليل ، فإنَّ ما عند الله خيرٌ وأبقى وسيجزى الله عبادهُ المتقين أجزل الثواب .

١٢ ــ وأن على المؤمنين حين يتلون كتاب الله أن يستعينوا به من وسوسة الشيطان حتى لايُفْسِد عليهم تلاوتهم أو يصرفهم عن تدبر آيات الله البينات ؛ فإنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين المتوكلين على الله ، وإنما سلطانه على الموالين له المنصرفين عن عبادة الله .

١٣ ــ وأنه إذا أنزل الله آية بدلا من آية كذَّب المشركون رسولهم ، وكان عليهم أن يعلموا أن الرسول لايفترى على الله الكذب ، وأنه تلقى وحى الله عن طريق الروح الأمين تثبيتاً لقلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين ؛ وأن المشركين يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن عن طريق غلام أعجمى بمكة ، وفاتهم أن هذا الغلام أعجمى لا يكاد يبين وأن القرآن الكريم عربى مبين ، وافتراءُ الكذب على الله من شيمة الكذابين الكافرين .

١٤ ــ وأن من كفر بالله بعد الإيمان فجزاؤه العذاب الأليم ، إلا من أُكْرِه إكراهاً شديداً على النطق بالكفر وقلْبُه ممتلئٌ بالإيمان .

١٥ ــ وأن النعم تزول بجحودها ،وقد ضرب لذلك مثلا بقرية سعدت بأنعم الله فعاشتْ آمنة مطمئنة فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والحاجة والهوان بسبب كفرها وإنكارها لأنعم الله .

١٦ ــ ثم وجه الله عباده إلى أن يطْعموا الحلال وأن يبتعدوا عن الحرام ، ونهاهم عن أن يبتدعوا من التحريم والتحليل مالم يأْذن به الله ، ونبههم إلى أن من وقع فى الآثام وبادر بالتوبة فإن الله من بعد ذلك لغفور رحيم .

١٧ ــ ثم أمر الله رسوله أن يلتزم فى دعوته بالرفق والأناة والموعظة الحسنة وأن يجادل الكُفَّار بالحسنى ، وإذا آذاه المشركون فإنَّ له أن يقابل إيذاءهم بمثله وله أن يصبر فإن الصبرَ خير عاقبةً وأجدى مآلاً فإن الله مع الصابرين المحسنين .

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ①)

التفسير

١ ـ (أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) : نزل قضاء الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة الكفار إذا أصروا على الكفر والعصيان ، والمقصود أنه سيأتي قضاء الله في المستقبل ، والتعبير عن المستقبل بالماضي لأن وقوعه حتمي مؤكد في الوقت الذي حدده الله لوقوعه فكأنه وقع فعلا ، وشبيه هذا قوله تعالى : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ »[1] . فإن المناداة لا تقع إلا يوم القيامة ، والمراد بأمر الله هنا ـ كما قال ابن جريج ـ ما وعد الله رسوله من النصر على الأعداء . والانتقام منهم بالقتل والسبي والاستيلاء على الديار اهـ . ومن ذلك قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[2] .

وإذا كان قضاء الله نافذا لا محالة في الوقت الذي قدره الله سبحانه فلا داعي لأن تستعجلوا وقوعه أيها المشركون ، وقد كانوا يتحدون الرسول صلى الله عليه وسلم ويستعجلون وقوع العذاب الذي أنذرهم به .

(١) الأعراف ـ ٤٤

(٢) الروم ـ ٤٧

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزيها لله سبحانه وتساميا عن أن يكون له شريك أو نظير يماثله في أمره كله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[1] » .

(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾)

المفردات :

(بِالرُّوحِ) : المقصود بالروح هنا القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا[2] » . أو القرآن والسنة معا لأنهما وحيٌ سماوي وإن افترقا بأن لفظ القرآن ومعناه أُنزلا من عند الله ، أما السنة فمعنا ها هو الذى أُنزل من عنده تعالى ، وأما لفظها فهو من تعبير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (مِنْ أَمْرِهِ) : أى أن هذا الروح - أى القرآن - ناشئ من أمره وصادر عنه ، ويصح أن تكون (من) سببية أي بسبب أمره . (أَنْذِرُوا) : خوِّفوا وحذِّروا .

التفسير

٢ - (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) :

أى أنه سبحانه اقتضت حكمته قبل أن يعاقب خلقه أن يُرْشِدهمُ إلى الصواب ويخوفهم العقاب فينزل ملائكته بالوحى السماوى حال كون هذا الوحى ناشئا ومبتدئا من أمره وحده - ينزله - على من يصطفيهم من خلقه ومهمتهم ما بينه الله فى قوله : « أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » أى خوِّفوا الناس من مخالفة أمرى . وبينوا لهم أنه لا إله إلا الله وأن عليهم أن يعبدوه وحده وأن يحذروا غضبه وعقابه الشديد الذى يحلُّ بهم إذا ظلُّوا كافرين عاصين

(١) سورة الاعراف الآية (٥٤)   (٢) سورة الشورى الآية (٥٢)

(خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(النُّطْفَةُ) : ماء الرجل ففيه الحيوانات المنوية ، وماء المرأة ففيه البويضة التى تلقح بحيوان من حيوانات منى الرجل ، فيحصل الحمل وفقا لمشيئة الله تعالى .

(خَصِيمٌ) : شديد المخاصمة والمجادلة . (مُبِينٌ) : واضح ظاهر .

التفسير

٣ - (خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ) : بعد أن قرر الله أنه لا إله إلا هو ساق الدليل على وحدانيته ببيان أنه ابتدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، ونسق بينهما أتمّ تنسيق ، ودفع كلا منهما فى فلكه المرسوم ، خلق هذا كله مقرونا بالحق ، مؤسسا بالحكمة السامية فى الخلق والتدبير كما قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ . مَا خَلَقْنَٰهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » [1] .

(تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزه الله وتقدس وتسامى عن أن يكون له شريك فى ملكه أو نظير فى خلقه وتدبيره ، فإن هؤلاء الشركاء عاجزون عن تدبير أنفسهم وجلب النفع لهم ، أودفع الضر عنهم ، فكيف يكونون شركاء لله الواحد القهار ، ثم تحدث عن خلق الإنسان ومخاصمته لربه فقال جل شأنه :

٤ - (خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) .

وكما خلق الله السموات والأرض بالحق خلق الإنسان فى أبدع تكوين من ماء مهين حيث زوده بالسمع والبصر وأيده بالعقل المفكر . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إليه الرسل ،

(١) سورة الدخان الآية : ٣٨ ، ٣٩

وأنزل عليه الكتب ، وكان مقتضى هذا أن يقرّ بوحدانية الله وقدرته ، وأن يبادر بعبادته ولكنه اتخذ هذه المواهب التى أيده الله بها ليجادل فى وحدانية الله ويخاصم الدعاة إليه إذ يقول : « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[1] مع أنه سبحانه قوىٌ قهَّارٌ منتقم من عصاه ، وصدق الله إذ يقول : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ »[2] .

ويصح أن يكون المعنى : خلق الإنسان من نطفة فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم بعد أن كان ماء حقيرًا لاقيمة له ولا وزن – وهذا المعنى أنسب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال على الله تعالى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨))

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل والبقر والضأن والمعز . (تُرِيحُونَ) : تعيدونها من المراعى إلى البيوت من الرواح وهى العودة إلى البيوت آخر النهار .

(تَسْرَحُونَ) : تطلقون سراحها من الحظائر صباحاً إلى المراعى الصالحة .

(بِشِقِّ الْأَنفُسِ) : مايشقّ عليها ويرهقها ويحملها مايثقلها من الأعباء .

(١) سورة يس من الآية:٧٨ (٢) سورة الرعد ، الآية:١٣

التفسير

٥ - (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : أى وكما خلق الله الإنسان خلق له الأنعام وهى الإبل والبقر والمعز والضأن، وجعل له فيها دفئًا ، حيث يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس وأغطية تمنحه الدفء فى الشتاء كما تمنحه الدفء الداخلى بالطعام حيث تمنحه طاقات حرارية حينما يأكل لحومها ودهونها وألبانها ، فإن لكل طعام نوعا حراريًا خاصًا به يمنحه الله لآكليه ، وللإنسان فيها منافع كثيرة كالحرث والرى وغير ذلك من النعم التى تستنبط منها .

٦ - (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) : وكما تمنحكم تلك المنافع العظيمة فهى تدخل البهجة والسرور على نفوسكم بجمالها حين تعيدونها من مراعيها مليئة البطون ، حافلة الضروع وحين تخرجونها من حظائرها إلى المراعى متدافقة متموجة تنساب إليها فى مرح وخفة وحيوية ونشاط متناسقة الأعضاء متسقة التكوين .

٧ - (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ) : أى ومن نعم الله سبحانه فى منافع الأنعام ولاسيما الإبل . أنها تحملكم وتحمل أمتعتكم الثقيلة من بلد إلى بلد لاتستطيعون الوصول إليه إلا بمشقة وعناء .

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :هذا تعليل لما سبق ذكره من نعم الله على عباده ، مؤكد بعدة توكيدات ،وفى إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إظهار لمزيد عنايته سبحانه بخلقه، وعظيم رأفته وواسع رحمته بهم ، والرأفة فرع من الرحمة تختص بدفع المكروه وتخفيف مايشق على عباده ، وأما الرحمة فتشمل هذا وغيره من أنواع التفضل والإنعام .

٨ - (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) : ومن نعم الله عليكم أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم لتركبوها وتنتفعوا بها فى السلم والحرب ، كما جعلها زينة لكم وجمالا تلفت الأنظار وتبهج النفوس .

(وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ) : وكما خلق لكم الأنعام والدواب يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة فى عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب، مثل

السيارات والقطارات والطائرات والسفن الضخمة التى تسير بالبخار وغيره إلى غير ذلك من الوسائل التى لم تعرف حتى الآن ، وفى هذا الإعجاز القرآنى مالا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ماشاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

(وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(قَصْدُ السَّبِيلِ) : مستقيم الطريق . (جَائِرٌ) : منحرف .

التفسير

٩ - (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) :أى وكما أنعم الله علينا بالنعم الحسية الوفيرة تفضل بهدايتنا إلى الطريق المستقيم الموصل إليه سبحانه بما أنزله من الكتب، ومن بعثهم من الرسل ، ولو وكلنا إلى أنفسنا لضللنا هذا الطريق الذى دعا إليه جميع الرسل ، وهو الذى وصانا به سبحانه فى القرآن ، وباقى الطرق معوج ينحرف عن الحق، وقد نهينا عن سلوكه كما قال، تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١)

(وَلَوْشَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) : أى ولو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعاً بطريق الجبر لهداهم ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ، ويتركهم لعقولهم واختيارهم ، بعد أن أرشدهم إلى آياته ودعاهم إلى الحق على ألسنة رسله « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »(٢)

---

(١) الأنعام - ١٥٣

(٢) الأنفال - ٤٢

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

المفردات :

(السَّمَاء) : كل ما ارتفع وعلا ، والمقصود هنا السحاب .

(فيه تُسِيمُونَ) : تبعثون أنعامكم إلى المراعى لتسوم فى الشجر أى تأكل منه .

التفسير

١٠ - (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) :

استأنفت الآيات تعداد نعم الله على خلقه فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار فيخرج منها بخار يتحول إلى سحاب ، ويسلط عليه الرياح ، فتحمله إلى حيث يشاء الله فينزل منه ماء عذباً يشرب منه الإنسان والحيوان وينبت به العشب والأشجار كما قال سبحانه :

١١ - (يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ والأَعْنَابَ وِمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء وعمود المعاش وبه قوت أكثر العالم ، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاء ، ودواء وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاء متكاملا وفوائد أخرى ، ولأنها ينتفع بها زمناً طويلا . والمراد بالأعناب ثمار العنب ، ومجيئها بلفظ الجمع لتعدد أنواعها ومنافعها ، ثم ختمت الآية الكريمة ما ذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ »

للإيذان بأن ماذكر من قبل إنما هو بعض النعم ، وأن خيرات الله وثمرات الشجر تفوت الحصر .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فيما سبق بيانه من نعم الله الجليلة لآية واضحة على عظيم قدرته وتفرده بالوحدانية لقوم يتفكرون فى آيات الله فيشكرونه على سوابغ نعمه .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(ذَرَأَ) : خلق . (يَذَّكَّرُون) : أصلها يتذكرون . أدغمت التاء فى الذال بعد قلبها ذالا أى:يتعظون .

التفسير

١٢ - (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) :ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أنه خلق الأرض وهيأها لتدور حول محورها دورانًا نشأ عنه تعاقب الليل والنهار مما أتاح للإنسان السكون والهدوء والراحة فى أثناء الليل ،ويسر له العمل والكد والكفاح فى أثناء النهار ؛ ومن نعمه سبحانه أن سخر الشمس لتمدنا نهارًا بالضوء والحرارة ، وسخر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلا ، وجعلهما مراصد للتوقيت الزمنى ، ولنعلم بهما مواقيت العبادات وعدد السنين والحساب .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) : أى وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر ، سَخَّرَ النجوم فهى مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله، والنجوم جمع نجم ، وقد أطلقه الفلكيون على كل كوكب تشع منه حرارة ذاتية وضوءٌ ذاتي وحوله مجموعة من الكواكب ترتبط به جاذبيةً واستنارةً وحرارةً كشأن الشمس بين كواكبها المرتبطة بها فكل نجم بين مجموعته هو شمس فيها ، وجميع النجوم وكواكبها منقادة لإرادة الله تعالى ، دائرة فى أفلاكها المرسومة وفقًا لحكمته وطبقًا لإرادته .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : إن فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، لآيات ودلالات بالغة على قدرة الله وحكمته وإبداعه ووحدانيته ، لمن استعملوا عقولهم فاهتدوا بها إلى فاطر الأرض والسموات وآمنوا به وأفردوه بالعبادة والتقديس .

١٣ - (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) : أى وما خلق لكم فى الأرض مُتَعَدِّدةً أصنافه مسخر بأمره أيضًا ، من حيوان ونبات وجماد ، فكل ذلك متنوع الأشكال مختلف الألوان والأصناف متعدد المنافع مسخر لنا لننتفع به كلما أردنا إن فى هذا كله لآية عظيمة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكل من تذكر وتدبر فاتعظ بما رآه بصرُه وأدركته حواسُّه وفقهه عقله .

(وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ) : ذَلَّلَهُ ويسّر الانتفاع به

(مَوَاخِرَ) : جمع ماخر من مخر الماء شقه . (تَمِيدَ) : تضطرب

التفسير

١٤ - (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) :

وهو الذى سخر لكم البحار بقدرته وحكمته ، لكى تستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك لتأكلوها طرية أى قبل أن يسرع إليها الفساد وسخرها أيضا لكى تتزينوا بحليتها ، وذلك باستخراج بعض الحلى منها ، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها فى الزينة .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) . أى وترى السفن تشق سطح الماء تستخدمونها فى صيد الأسماك واستخراج الحلى من البحر. (وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) : أى ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم ، كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر ، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى وأمدكم الله بهذه النعم كلها لكى تشكروه على إحسانه وفضله وتقدروه حق قدره .

١٥ - (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) : أى ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل فى الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها فى دورانها حتى لاتضطرب فى حركتها .

(وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها ، لتهيئ الرى للإنسان والحيوان والنبات ، وجعل سبحانه فى الأرض طُرُقًا كثيرة تنتقلون فيها من مكان إلى مكان للتجارة وجلب الرزق وتبادل المنافع ، لكى تهتدوا إلى غاياتكم إذا سلكتموها .

١٦ - (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض علامات لتوضيح الطرق من جبال وأنهار وغير ذلك ، كما جعل النجوم فى الليل علامات واضحة لتحديد الجهات فى البحر والبر والجو ، فقادة السفن والطائرات ورواد الفضاء يهتدون بالنجم القطبى أو سواه لتحديد مساراتهم واتجاهاتهم للوصول إلى أهدافهم .

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٧ ـ (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ . . .) الآية .

أى إذا كان الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن مما يُعلم ومالا يُعلم وهو الخلاق العظيم فكيف يعبد معه مالا قدرة له على النفع والضر لنفسه أو لغيره وهو مخلوق لله، وليس له فى الخلق أدنى نصيب ، أهما بعد هذا التباين متساويان فمن يخلق كل شىء كالذى لايخلق أقل شىء .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أى أتعرضون عن الحق الذى أيدته الآيات فلا تتعظون بما تسمعون من العظات وبما ترون من الآيات، وقد وهب الله لكم عقولا لاتميزون بها الخير من الشر والنفع من الضر فكيف غفلتم عن هذه الحقائق .

١٨ ـ (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) : أى وإن تحاولوا أن تعدوا نعم الله التى أنعم بها عليكم فلن تستطيعوا أن تضبطوا عددها ولا تصل إليه قدرتكم فضلا عن القيام بحق شكرها ، فكم له من نعم خافية ونعم ظاهرة تروتها فى أنفسكم ،وفيما سخره الله لكم من نبات وحيوان وجماد وأمطار وبحار وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك من نعم الله التى سخرها لمنفعة عباده وصدق الله حيث يقول : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » .

وقد ختم الله هذه الآية بنعمة كبرى تفوق كل نعمة حيث قال جل ثناؤه :

(إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) : فبشرهم بنعمة الغفران والرحمة ليبذلوا ما فى وسعهم لشكر نعمه ويحرصوا على طاعته قدر طاقتهم ، ولا ييئسوا من رحمته إذا ما قصروا فى طاعته ما داموا مؤمنين بربهم مصدقين برسالة نبيهم تائبين من ذنوبهم .

ثم عقب الله هذه الآية بما يفيد التحذير من الغلو فى العصيان طمعًا فى غفران الله ، وبما يطمئن أهل التقوى على طاعتهم سرها وجهرها فقال سبحانه :

١٩ - (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) : أى والله سبحانه يعلم حق العلم ما تخفيه السرائر وما تبديه الجوارح ، فيثيب المحسن ويعاقب المسىء ويغفر للمستغفر ، وصدق الله حيث يقول : « وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[1] .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١))

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) : المراد بهم الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله .

التفسير

٢٠ - (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ . . .) الآية .

أى وكل الذين يعبدهم المشركون من دون الله من إنسان وأصنام وغيرها عاجزة عن أن تخلق أى شىء وإن كان حقيرًا ، فإنها مخلوقة وليست بخالقة عاجزة وليست بقادرة ، فكيف يعبدونها من دون الخلاق العظيم .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٤

٢١ - (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى أن هذه المعبودات أموات فكيف عبدوها ، فهى إما صخورٌ صماءُ جامدة ليست فيها حياة وإما أحياء ، لكنهم فى حكم الأموات ، وهم لهذا لايشعرون متى يبعثون، والله سبحانه سيبعث هذه المعبودات الباطلة وعابديها ويخرجهم يوم القيامة للمحاجة فتتبرأ المعبودات من عابديها ثم يقذف بها وبعابديها فى النار كما قال سبحانه : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ »[1] . أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم شهداء على أقوامهم الذين عبدوهم بغير حق كما فعل أصحاب عيسى من بعده عليه السلام ، حيث عبدوه واتخذوه إلهًا .

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَا جَرَمَ) : لا بد ولا محالة — أو حقًا .

التفسير

٢٢ - (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : هذه الجملة تعتبر كالنتيجة للأدلة السابقة ، فكأنه قال : قد ثبت بما تقدم بطلان ألوهية غيره تعالى ، وتحققت الألوهية لله وحده ، فإلهكم إله واحد لاشريك له ، ولكن المشركين لاتقنعهم البراهين ، فهم على باطلهم مقيمون فلهذا قال سبحانه : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) : فالذين لايصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب خالد على الشرك ، قلوبهم منكرة وحدانية الله تعالى التى

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٨

قامت عليها البراهين ، لعدم خوفهم من العقاب على شركهم ، وهم لهذا مستكبرون عن قبول الحق والاستماع إلى رسوله الأمين ، والنظر فيما يقدمه لهم من الآيات والبراهين ، ولهذا كان لابد من وعيد الله لهم بقوله :

٢٣ - (لَاجَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) :

أى لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه فى أنفسهم من الشرك وسوء الطوية وجميع معاصيهم وأسرارهم ، كما يعلم ما يعلنونه من ذلك فلا تخفى عليه منهم خافية ، فلابد من عقابهم على شركهم ومعاصيهم ، فإن الله تعالى لايحب المستكبرين عن الحق ، المتعالين عن أدلته وبراهينه ولايدخلهم جنته ، أخرج مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لَا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها ؛ جمع أسطورة

(أَوْزَارَهُمْ) : أثقالهم والمراد منها ؛ آثامهم .

التفسير

٢٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : كان الوافدون على مكة للحج أو غيره يسألون كفار مكة عن هذا النبى الذى ظهر بينهم ، ورأيهم فيه وفيما أنزل

عليه ، فكان هؤلاء المشركون يسيئون فى إجابتهم لينفروهم منه ، ويبعدوهم عن الاستماع إليه ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

والمعنى: وإذا سئل هؤلاء المشركون المتكبرون عما أنزله الله من الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم زعموا أنه حكايات ملفقة سطرها القدماء ، وزعم محمد أنها أنزلت عليه من الله تعالى ، وكما حكى الله هذه الفرية عن المشركين هنا ، حكاها عنهم فى قوله فى سورة الفرقان : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

٢٥ - (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى أن هؤلاء المستكبرين قالوا لمن يسألهم عما أنزل من الحق على محمد : هذا أساطير الأولين وأباطيلهم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كلها ، ومنها هذا الذى اقترفوه فى التنفير عن الحق ، ويحملوا أيضا بعض آثام من أضلوهم وأبعدوهم عن الإسلام بما افتروه على القرآن الكريم ، وهو إثم الإضلال ، فهما شريكان فى الإثم ، هذا يضله ، وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر .

والمراد من قوله تعالى : (يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) : أنهم يضلونهم غير عالمين بأن مايدعونهم إليه هو طريق الضلال ، وفائدة التقييد بقوله : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) الإشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة ، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لايكون عذرا إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المُحِقِّ الجدير بالاتباع وبين المبطل ، أخرج مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَجْرِهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَان عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا ... » إلخ .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) : أى ألا بئس ما يحملونه من آثامهم وآثام من اتبعوهم فى الكفر والضلال .

(قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى كادُوا لِرُسُلِهِمْ يُرِيدُون الإيقاع بهم .

(فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ) : أى فأتى أَمْرُ الله بنيانهم من أُسسه .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ) : أى سقط عليهم سقف بنيانهم .

(يُخْزِيهِمْ) : يُذِلهم بعذاب الخزى . (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : هم الأَنبياءُ والمؤمنون.

التفسير

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) :

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش قولهم عن القرآن « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » وبين أنهم سوف يحملون يوم القيامة ذنوبهم وذنوب من يضلونهم، جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين أنهم قد سبقهم مَنْ قبْلَهُم بالكفر بالله وتكذيب رسلهم ، وكانت عاقبتهم فى الدنيا الهلاك وفى الآخرة الخزى والعذاب ، وأن عليهم أن يحذروا مثل مصيرهم .

والمعنى : قد تآمر الذين من قبل قريش على رسلهم ، فدبروا لهم المكايد ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلٰهى الذى جاءوا به أممهم ، فأحبط الله كيدهم ، وسقط عليهم بنيان المؤامرة التى دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كريهة .

شبهت حال الماكرين برسلهم فى تدبير مكايدهم التى أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفى إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكايد ، وجعلها أسباباً لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنياناً ، وعمدوه بالأساطين ، فأُتِىَ ذلك البنيانُ من قبل أساطينه، بأن تداعت فسقط عليهم السقف من فوقهم فهلكوا .

(وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى أتاهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذى أقاموه ضد الرسل، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتيهم من جهته ما يؤذيهم ، فخيب الله ظنهم وجعله سبب هلاكهم فى دنياهم .

وكذلك أنتم يا أهل مكة ، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم ، وقلتم فيه ما قلتم ومن جملته أنه أساطير الأولين ، فسيأتيكم العذاب فى الدنيا من حيث لا تحتسبون كما فعل الله بمن قبلكم ، إن ظللتم على كفركم .

٢٧ ـ (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) :

أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزى على رءوس الأشهاد ، ويقول لهم تفضيحا وتوبيخا : أين شركائى فى الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين فى مزاعمكم نحوهم ، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين بل لائمين مكذبين .

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

أى قال الذين أوتوا العلم من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ويقيمون لهم أدلته ـ قالوا لهم ـ شماتة بهم وتحقيقا لما توعدوهم به : إن الفضيحة والذل والهوان اليوم على الكافرين بالله ورسله وآياته .

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(أَلْقَوُا السَّلَمَ) : أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان .

(مَثْوَى) : مستقر ومكان إقامة .

التفسير

٢٨ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) :

تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصرين على الكفر ، وهو أن ملائكة العذاب حين تقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان ، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما في حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء ، فترد عليهم الملائكة قائلة :

(بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أي نعم قد عملتم السوء؛ إن الله سبحانه واسع العلم ، محيط بكل ما كنتم تعملونه قبل وفاتكم ، فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ومن « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » [1] .

(١) سورة غافر الآية : ١٩

٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) : أى فادخلوا جهنم من أبوابها السبعة التى أعدت للكفار والعصاة ، لتبقوا فيها خالدين لاتبرحونها أبداً .

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : أى فما أسوأ المقرَّ الذى أعده الله للمتكبرين فى جهنم . والمراد من المتكبرين هنا من ترفعوا عن عبادة الله والاستجابة للرسل ، وآثروا الكفر على الإيمان والعصيان على الانقياد والشرك على التوحيد .

(۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة من عدن بالمكان أقام به . (طَيِّبِينَ) : صالحين .
(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : وأمان لكم .

التفسير

٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا . . .) .

بينت الآيات السابقة حال الأشقياء الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله . وقالوا عن القرآن لما سئلوا عنه : «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» فكان جزاؤهم جهنم خالدين فيها ، ثم تلتها هذه الآيات لبيان حال السعداء الذين أحسنوا القول لسائليهم والعمل لربهم . فأجزل لهم ربهم

خيرى الدنيا والآخرة . وهؤلاء يقول فيهم سبحانه : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى وقال القادمون على مكة للسؤال عما أنزله الله على النبى الذى سمعوا بمبعثه - قالوا - للمتقين من المؤمنين : (ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟) : أى ما الذى أنزله ربكم على رسوله : (قَالُوا خَيْرًا) : أى قالوا لهم : أنزل خيْرًا كثيرًا وهو القرآن ففيه الخير كله ، فهو رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به ، وهم فى جوابهم هذا يخالفون الكفار . حيث أنكروا إنزاله بما أجابوا به بقولهم : « أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام. فقد نقل عن السُّدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدًا صلى الله عليه وسلم رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله . فانظروا أناسًا من أشرافكم . فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة . فمن جاء يريده ردوه عنه . فكان إذا أقبل الرجل وافدًا لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم - فينزل بهم . فيكفونه عنه ، ويأمرونه بالانصراف . قائلين له : إن لم تلقه كان خيرًا لك . لأنه رجل لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، أما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقوه ، فإذا كان الوافد ممن أراد الله لهم الرشاد . وقالوا له مثل ما قالوا لغيره أجابهم بقوله : أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه . فيلقى أصحاب محمد رضى الله عنهم فيسألهم فيخبرونه بحقيقة الحال : اهـ .

وعلى هذا فالسائلون هم الوافدون . والمجيبون هم المؤمنون : ويجوز أن يكون السائلون والمسئولون من المؤمنين ، حيث يسأل بعضهم بعضًا . ليقوى إيمانه . وليشعر بلذة الجواب الذى يعلمه . ويرغب فى سماعه . وقد يكون السائل من الكفرة المعاندين وغرضه التلاعب والتهكم .

ثم أخبر سبحانه عما أعدَّه الله لعباده المتقين من حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) : أى للذين أحسنوا القول والعمل فى الدنيا حسنة جزاء إحسانهم ينالونها فى الدنيا ،والمراد بها النصْر والفتْح والمدحُ والثناءُ وغير ذلك من المكرمات .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) : أى مثوبتها خير وأعظم مما أوتوه فى الدنيا من مثوبة لأنها إلى بقاء . وكل ما فى الدنيا إلى فناء ، ولأن نعيمها لايعدله نعيم آخر . ولهذا ختم الآية بمدحها بقوله :

(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) : أى دار الآخرة . واعلم أن قوله سبحانه : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة .. » الآية - إما أنه مستأنف للثناء على من أجابوا السائلين بأنه تعالى أنزل خيرًا ، حيث وصفهم بأنهم أحسنوا فى هذه الدنيا إحسانًا مطلقًا ، وعدَّ جوابهم عما سئلوا عنه من جملة إحسانهم ، ووعدهم عليه الجزاء الأوفى . وإمَّا أن يكون هذا القول الكريم تفسيرا منهم لقولهم : « خيرًا » أى قالوا أنزل خيرًا . ذلك الخير الذى قالوه هو للذين أحسنوا إلخ . قالوه ترغيبًا للسائل وإخبارًا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله .

٣١ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . .) : أى إن الدار التى وعد بها المتقون هى جنات إقامة واستقرار لايخرجون منها باختيارهم ولا يخرجهم منها أحد . وهذه الجنات تجرى من تحت أشجارها وبين قصورها الأنهار . إتمامًا لبهائها وجمالها وكمال الابتهاج بها .

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) : أى لأهل الجنة دون سواهم من أنواع المشتهيات التى تميل إليها نفوسهم وترغب فيها طباعُهم فتتمناها .

(كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللهُ الْمُتَّقِينَ) : أى مثل ذلك الجزاء العظيم يجزى الله كل من اتقاه وابتعد عن الشرك وتجنب المعاصى والآثام . فلا يختص به أحد دون آخر . وفى هذا الوعد الكريم إشارة إلى تحسير الكفار . وتحزينهم على ما كان منهم . حينماسئلوا عما أنزل ربهم إذ « قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » حيث حرموا هذا الثواب الجزيل الذى حصل عليه المتقون بحُسن إيمانهم وصادق جوابهم للسائلين .

٣٢ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ . . .) : هذا بيان لحال المتقين عند الاحتضار أى هم الذين تتوفاهم الملائكة طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى ، ومن كل سوء ، ووصفوا بذلك للإيذان بأن التقوى لاتتحقق إلا بالطهارة عما ذكر إلى وقت الوفاة ، حثًّا لهم على التمسك والاستمرار ، ولغيرهم على التحصيل والعمل ، وقيل : هو كلام مستأنف

معناه : الذين تتوفاهم الملائكة فرحين طيبى النفوس بما يسمعونه من بشارتهم لهم بالجنة . تلك البشارة التى يحكيها قوله سبحانه :

(يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ) : أى يقول الملائكة لهم مطمئنين : سلام عليكم وأمان لكم أو تحية لكم من الله .

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) : أى أبشروا بدخول الجنة التى أعدها الله لكم ووعدكم نعيمها بعد البعث ، فالمراد بالدخول هنا هو دخول أهل الجنة فيها حقيقة يوم القيامة ، والأمر به قبل وقته بشارة بتحقق وقوعه فى وقته بعد البعث .

(بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى ادخلوا الجنة بسبب ماوفقكم الله له من ثباتكم على التقوى وتمسككم بالطاعة والاستقامة على عمل الصالحات . ولا تعارض بين هذه الآية وحديث «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدُكُم بِعَمَلِه » لأن المراد فى الحديث أن العمل لايساوى دخول الجنة ، ولا يصلح بذاته أن يكون مقابلا للجنة ، فإن الله تعالى هو الذى أقدرنا على العمل الصالح ، فإن كافأنا عليه فذلك محض فضل من الله تعالى ، وأما الآية فقد أفادت أنه تعالى تفضل فجعل العمل سبباً شرعيًّا لدخول الجنة ، ولو لا ذلك لما استحق أحد بعمله هذا الثواب العظيم .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(أَمْرُ رَبِّكَ) :المراد به يوم القيامة أوالعذاب الدنيوى . (وَحَاقَ بِهِمْ) : وأحاط بهم ، وخصّ لاستعمال لفظ حاق بالإحاطة فى الشر ، بعد أن كان فى أصل معناه للإحاطة مطلقاً .
(يَسْتَهْزِءُونَ) : يسخرون .

التفسير

٣٣ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ....) :

أى ما ينتظر هؤلاء الكفار بعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك وعمل الشر ، أو ما ينتظرون إلا أن تنزل الملائكة عليهم للشهادة بصدق نبوتك .

(أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد بأمره تعالى العذاب الدنيوى المستأصل لهم جميعاً كالزلزلة . والخسف ، والريح الصرصر ونحوها ، وفى التعبير بربـ مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إظهار لكمال العناية به والرعاية له .

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى مثل ما فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب فعل الذين سبقوهم مع أنبيائهم . فعاقبهم الله على فعلهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما يشير إليه قوله سبحانه :

(وما ظَلَمَهُمُ اللهُ) : فيما أنزل بهم من العذاب . لأنه سبحانه أعذر إليهم ، و أقام عليهم حججه . بإرسال رسله ، وإنزال كتبه .

(وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث عرضوها للعذاب بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاءوا به ، أى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لمباشرتهم السيئات الموجبة لعقوبتهم . وذلك ظلم بين منهم لأنفسهم .

٣٤ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاعَمِلُوا) : معطوف على قوله سبحانه : « فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم » أى كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ماعملوا .

والمعنى أن الله جل شأنه أنزل بالأمم السابقة أجزية أعمالهم السيئة التى اقترفوها وتمسكوا بها ، وتسمية الأجزية سيئات للمشاكلة كما فى قوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا »[1] . أو لأنها مسببة عن أعمالهم السيئة ، فسميت باسم سببها إيذاناً بفظاعته ، وإشارة إلى بالغ قبحه ، ويجوز أن يكون المعنى : فأصابهم جزاءُ سيئات ماعملوا .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) : أى وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويسخرون منه كلما توعدتهم به رسلهم إن استمروا على كفرهم ، وعبر بالحيق الذى خصه الاستعمال اللغوى بإحاطة الشر ، للإيذان بأن العذاب لم يقتصر على مجرد إصابتهم ، بل شملهم وعمهم ، أو المعنى وأحاط بهم جزاءُ استهزائهم برسولهم أو به وبغيره .

---

(١) سورة الشورى من الآية - ٤٠ -

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

المفردات :

(مِن دونِه) : من غيره . (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ) : أى فما عليهم . (الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) : أى التبليغ الواضح أو الذى يبين الحق من الباطل .

التفسير

٣٥ـ (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لوشَاءَ اللهُ مَاعَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شىءٍ نحْنُ وَلَا آباؤُنا) : شروع فى بيان فن آخر من كفر أهل مكة ، وهو اقتناعهم بما هم فيه من شرك وضلال واحتجاجهم لصحته بأنه تعالى شاءه لهم ودفعهم إليه . ، يريدون من قولهم هذا تبرير عدم الاستجابة لما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إليه من الإيمان بما جاءهم به ،والتعبير عنهم بالذين أشركوا ، لتقريعهم على الشرك وبيان أنه سبب الداء ، وقمة البلاء .

والمعنى : وقال مشركو مكة للرسول محتجين لما هم عليه من الشرك : لو شاء الله عدم عبادتنا لشىء غيره لما وقع منا انحراف ومخالفة لمشيئته ، ولأخلصْنا العبادة له وحده . فلم نشرك نحن ولا آباؤنا الذين نهتدى بهم ، ونتمسك بالاقتداء بآثارهم فى كل أمورنا .

(وَلاَحَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِن شَىْءٍ) : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مِمَّا ابتدعوا تحريمه[1] واخترعوه من تلقاء أنفسهم وغرضهم من قولهم ذلك . تكذيب الرسول والطعن فى الرسالة رأساً بما حاصله أن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع ، فلو أنه سبحانه شاء أن نوحده ولانشرك به شيئاً ، ونحل ما أحله ، ولا نحرم شيئاً

(١) تقدم بيان هذه المحرمات التى حرموها على أنفسهم فى الآيتين ١٣٨ – ١٣٩ من سورة الأنعام .

مما حرمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى ، لكان الأمر وفق مشيئته من التوحيد ونفى الإشراك وتحليل ما أحله وعدم تحريم شيء مما حرمنا ، وحيث لم يتحقق هذا . ثبت أنه جل شأنه لم يشأ شيئاً مماذكر . بل شاء مانحن عليه ، وتحقق أن ماتقوله الرسل هو من تلقاء أنفسهم . فرد عليهم سبحانه بقوله :

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء الشنيع بالرسل وادعاء أن شركهم رضيه الله وشاءه لهم – مثل ذلك كله اقترفه الذين سبقوهم من الأمم السابقة . فأشركوا بالله ، وحرموا ما أحله ، وجادلوا رسلهم بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، وأعرضوا عما يدعونهم إليه استخفافاً بهم فأهلكوا .

وقد أنكر الله عليهم مجابهتهم للرسل ، وتماديهم فى عنادهم ، وبين أن المرسلين ليسوا مسئولين عن كفرهم بعد أن بلغوهم شريعة ربهم بوضوح وإخلاص فقال سبحانه :

(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى ليس من شأنهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً . لإظهار طريق الحق وإبانة أحكام الوحى : بما ينبىء أن مشيئته جل شأنه . إنما تتعلق بهداية من صرف قدرته واختياره إلى تحقيق الحق ، وفعل الطاعة لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[1] .

وهى تتعلق كذلك بإشراك الذين اتجهوا إلى اقتراف الشرك والعصيان ، وفق علمه تعالى بطبيعتهم ومباشرتهم الاختيارية لماعملوا . فالله سبحانه إنما شاء شركهم لأنه علم أزلا أنهم لايؤمنون باختيارهم وسوء تصرفهم ، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان . فليس ذلك من وظيفة الرسل التى بعثوا بها إلى أممهم ، ولا من الحكمة التى يدور عليها التكليف . لأن شأنهم تبليغ الأوامر والنواهى لاتحقيق مضمونها وإجراء موجبها على الناس قسرًا وإلجاء ، وإنما المسئولية على الكفار أنفسهم ، ولاتنفعهم معاذيرهم الواهنة ، ومنها قولهم إنما أشركوا بمشيئة ربهم ، فإنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .

(١) سورة العنكبوت من الآية رقم (٦٩) .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦))

المفردات :

(الطَّاغُوتَ) : كل ما عبد من دون الله ويستعمل فى الواحد والجمع .

التفسير

٣٦ ـ (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) :

فى الآية تأكيد للرد السابق على المشركين الذين أنكروا أنهم على باطل ، بدعوى أن ماهم عليه من الشرك وقع وفق مشيئة الله تبارك وتعالى ، حسب ماجاء فى النص الكريم حكاية عنهم : « لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ » .

والمعنى : ولقد بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا خاصًّا بهم يبلغهم معالم الهدى ، ويرشدهم إلى قواعد النظر ، ويمدهم بأدلة يدركها السمع والبصر . قائلا لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة سواه كالشيطان والأوثان والكهان وكل داع إلى الضلال ، ولما بلَّغوا مابعثهم الله به من الأمر بعبادته وحده . واجتناب ماعداه . تفرقت أممهم .

(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ) : أى أرشده إلى الحق الذى هو دينه ، وجنبه الطاغوت بعد أن اتجه العبد إلى ربه ، يبتغى منه التوفيق والهداية إلى انتهاج هذا الطريق القويم .

(وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) : أى لزمته بالقضاء عليه بالكفر إلى موته . لعناده وإصراره على مااختاره لنفسه من التمسك بالضلال مع وضوح الأدلة الداعية إلى الحق الأبلج . ولم يكن وقوع ذلك عن طريق من طرق القسر والإلجاء كما زعموا .

(فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : أى فسيروا فى أكناف الأرض وأنحائها . أيها المشركون المكذبون الذين قلتم : « لَوْشَاءَ اللهُ مَاعَبَدْنَا مِن دونِهِ مِن شَىْءٍ » . فانظروا معتبرين بما حدث للمكذبين قبلكم من عاد وثمود ومن سلك طريقهم ، فإنكم ستشاهدون فى ديارهم آثار الهلاك المبيد ، والعذاب المستأصل ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حلّ بهم ، وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلال عليهم ، من غير إخبار بحلول العذاب بهم ، لأن فى أمرهم بالرؤية والمشاهدة لآثار العذاب لمن قبلهم من المكذبين ما يغنى عن ذكر حلوله بهم .

(إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ) : تجتهد فى طلب هداهم .

التفسير

٣٧ - (إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ) : هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لإخباره بأن من سبقت له الضلالة بسوء اختياره ، وإفساده استعداده . لا يهديه الله مهما بذلت من جهد فى تقويمه ، وقدمت من نصح لإرشاده بعد أن أضله وفق علمه بسوء اختياره . والمعنى : إن تحرص أيها الرسول على هدى قومك فاعلم أنه تعالى لايخلق الهداية جبرًا وقسرًا فيمن وجبت له الضلالة بسوء اختياره .

(وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ) : يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ودع أمرهم لربك ، فهو أعلم بحالهم وما ينبغى لهم .

(وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(الجَهْدَ) : الوسع والطاقة وهو بفتح الجيم وضمها : من جهد نفسه فى الأمر . بذل أقصى جهدها وطاقتها فيه ، وبابه نفع . وجهد الأَيْمان : المبالغة فيها أو فى تقويتها .

التفسير

٣٨ - (وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ) : شروع فى بيان فن آخر من أباطيل أهل مكة والتعجيب من صفتهم ، فقد ذكر الله تعالى أنهم أقسموا بالله . وبالغوا فى تأكيد أيمانهم وتغليظها . بأنه سبحانه لايبعث مَن يموت ، وهذا منهم اضطراب وسوء إدراك فإنهم معترفون بأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ، فكيف ينكرون أن يبعث من فى القبور تحقيقاً للعدالة بين عباده ، بأن يجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ولهذا رد عليهم سبحانه ردًّا بليغاً بقوله تعالى :

(بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا) : أى بلى يبعثهم ، وقد وعد الله بذلك وعدًا ثابتاً ، لابد من إنجازه ، لأنه أخذ على نفسه العهد بوقوعه ، ولن يخلف الله وعده .

(ولَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون لجهلهم بشئون الله من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، ولعدم وقوفهم على سر التكوين ، وعلى أن البعث حق لتحقيق العدل حين الجزاء ، فلجهلهم بكل هذا وإعراضهم عن الإدراك والانتفاع بالتوجيه والنصح أنكروه وبالغوا فى إنكاره وكذبوا الرسل فى إخبارهم به . ويجوز أن يكون قوله : « لَايَعْلَمُون » للإيذان بأن ماعند أكثرهم بمعزل عن العلم المعتد به ، وإنما هو توهم صرف ، وجهل محض ، وعلى هذا يكون لفظ « يعلمون » منزلا منزلة الفعل اللازم لم يراع فيه تعلقه بمفعول أصلا .

٣٨ـ (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ....) : أى يبعث الله الأموات مؤمنهم وكافرهم يوم القيامة ، ليبين لهم بذلك حقيقة الحال ، بما يحصل لهم من مشاهدة حقائق الأمور كما هى ، ومعاينتها بصورها الحقيقية . فيصل بذلك علم المؤمنين إلى عين اليقين ، ويتضح للمكذبين الجاحدين الحق الشامل لجميع ماخالفوه وأعرضوا عنه . مما جاء به الرسل الذين بُعثُوا إليهم ويدخل فيه البعث دخولا أوّليًّا .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : بالبعث وأقسموا على إنكاره وكفروا بالله سبحانه بالإشراك وتكذيب وعده الحق .

(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) : فى كل أقوالهم عن الله ورسله من أكاذيب ، ومن جملة ذلك قولهم : « لا يبعث الله من يموت » . وجعلت غاية البعث هنا ماذكر من بيان ما اختلفوا فيه وعلمهم أنهم كانوا كاذبين فى إنكاره ، لأن النص الكريم فى معرض الرد على المنكرين له ، وإلا فالمقصود الأصلى من البعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء ، وقد تكرر ذكره فى مواضع أخر ....

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾)

التفسير

٤٠ - (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْنَـٰهُ . . .) الآية .

استئناف لبيان أن بعث العباد يوم القيامة ، ليس بعسير على الله تعالى حتى يستبعده الكفار وذلك لسهولة التكوين عليه بدءًا ، والإعادة عليه غاية :

والمعنى : ماقولنا لشيء إذا تعلقت بإيجاده إرادتنا إلا (أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون) : أى أن نقول تبليغاً له : «كُن» فإذا قلناله ذلك فهو يكون . وهو تمثيل لسهولة تأتّى المقدورات لله تعالى حسبما تتعلق بها مشيئته ، وتصوير لسرعة إيجادها والمقصود أنه تعالى عند تعلق مشيئته بإيجاد شيء أوجده بقدرته فى أسرع مايكون ، فلايمتنع عليه إيجاده عند إرادته له . كما لا يمتنع المأمور الممتثل عند أمر الآمر المطاع ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون . فإنه تعالى ليس بحاجة إلى ذلك ، كما أن المعدوم الذى يريد الله إيجاده لايعقل خطابه ، لأن الخطاب يكون للموجود دون المعدوم وإذا كان كل مقدور لله تعالى يتحقق بهذه السهولة والسرعة . فكيف يمتنع عليه البعث كما يدعى المنكرون الضالون مع أنه بعض مقدوراته سبحانه . .

(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(الهِجْرةُ) : بكسر الهاء وضمها : الخروج من أرض إلى أخرى ، والهجرة إذا أطلقت انصرفت إلى هجرة المسلمين إلى المدينة قبل الفتح مالم تدل قرينة على خلافه كماسيأتى فى بيان سبب النزول (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) : لننزلنهم ، يقال بوّأه منزلا وفيه أنزله . كأباءه .

التفسير

٤١ـ (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ . . . .) : هذه الآية قيل إنها نزلت فى المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين اشتد بهم أذى المشركين بمكة حتى اضطروهم إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينهم ، وقد نقل عن ابن عباس أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وأبى جندل وغيرهم . أخذهم المشركون بعد هجرة النبى إلى المدينة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيب فقال أنا رجل كبير . إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم . فافتدى منهم بماله . وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال: ربح البيع ياصهيب ،وهذا يفيد أنها نزلت بالمدينة ، والصحيح فى سبب النزول هو الأول لأن السورة مكية عدا ثلاث آيات فى آخرها ، ومعنى الآية على هذا : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة من وطنهم مكة وتركوا أموالهم ، وأهليهم وكل عزيز عليهم فى سبيل الله ، لنصرة دينه والحفاظ عليه ابتغاء وجهه والتماس رضاه ، وكانت هجرتهم بعد أن حل بهم من الظلم أقساه ، ومن التعذيب والتنكيل مايتجاوز الاحتمال . هؤلاء المهاجرون المظلومون .

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) : أى لنبوئنهم مباءة حسنة. والمراد بها المدينة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة بما استولوا عليه من فتوح صارت لهم فيها ولايات .

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) : أى ولأجر دار الآخرة أكبر مما وعدوه من أجر الدنيا ، وكان عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له : خذ بارك الله تعالى لك فيه . هذا بعض ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا الآية .

والضمير فى قوله تعالى: (لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ) : إن كان لكفار مكة فالمعنى ، لو علموا ما ادخره الله لهؤلاء المهاجرين من خيرى الدنيا والآخرة لبادروا إلى الإيمان ولو افقوهم فى الدين ، وإن كان للمهاجرين فالمعنى ؛ لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد والصبر على الابتلاء .

٤٢ ـ (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : أى أصحاب هذى البشرى هم الذين صبروا على ايذاء المشركين لهم ، وفراق أهليهم وأموالهم ووطنهم وبيوتهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويعتمدون ولهذا حقق لهم من فضله ما بشرهم به .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج والبراهين الواضحات ، والمراد بها : المعجزات . (والزُّبُر) : جمع زبور وهو الكتاب ، تقول العرب . زبرْتُ الكتاب ؛ أى كتبْتُه . والمراد بالزبُر ، الكتبُ السابقةُ .

٤٣ ـ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ...) : نزل النص الكريم للرد على مشركى مكة ـ حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا . فهلاَّ بعث إلينا ملكا فقال سبحانه إبطالا لقولهم :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ) : أى جرت السنة الإلٰهية حسبما اقتضته الحكمة بألا يبعث الله للدعوة إلى دينه ، إلا رجالاً يوحى إليهم بوساطة الملك الذى يحمل إليهم أوامر الله ونواهيه لتبليغها إلى أممهم ، وتلك الأمم حسب طبيعتها الآدمية لاتستطيع معاينة الملك على صورته الأصلية ، فإنهم يهلكون إن جاءهم بها ، فلابد من أن يكون بصورة رجل لكى يحتملوا لقاءه ، ولكنه فى هذه الحالة يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشراً كما قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً[1] » . ولمَّا كان المقصود من خطاب الله لرسوله هو تنبيه الكفار إلى مضمونه . صرف الخطاب إليهم حيث قال سبحانه :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) : أى فاسألوا أهل الكتاب الذين أسلموا كما قال سفيان ، أو المراد أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم . لأن من لم يؤمن منهم معترف بأن الرسل كانوا بشراً . أو المراد علماء وأحبار الأمم السابقة الذين يجيدون ذكرها وحفظها .

(إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ) : أن جميع الأنبياء كانوا رجالا فاسألوهم ليعلموكم ذلك .

٤٤ ـ (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) :

البينات : الحجج ، والزبر : الكتب ؛ جمع زبور وهو الكتاب أى أرسلنا الأنبياء بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة المؤيدة لهم ، الدالة على صدقهم ، وأرسلناهم بالكتب المنزلة عليهم بيانا للشرائع والتكاليف.

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) :أى القرآن وهو مأخوذ من التذكير أى الوعظ والإيقاظ من الغفلة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) : من ربهم فى هذا الكتاب من العقائد والأحكام والأخلاق بقولك وفعلك . لعلمك بمعنى ما أنزل إليك ، وحرصك عليه. واتباعك له . فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين ما أشكل بيانًا شافيًا ، وبنحو هذا المعنى قال مجاهد ، فقد نقل عنه أن المراد بهذا التبيين شرح ما أشكل ، وتفسير ما أجمل إذ هما المحتاجان للتبيين ، وأما النص فى معناه والظاهر فلا يحتاجان إليه : اهـ نقلا عن الألوسى

وبالجملة فالمعنى أنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما خفى عليهم من أسراره وعلومه التى لا تكاد تحصى .

---

(١) سورة الأنعام الآية:٩

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) : أى رغبة فى أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق . ليكون ذلك داعيًا لهم إلى الاحتراز عما أصاب السابقين من العذاب ، ودافعا إلى الاهتداء ليفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة .

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) : أى عملوا السيئات بمكر وخبث .

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يشق بهم الأرض فيهلكوا فى جوفها ، يقال : خسف المكانُ أى ذهب فى الأرض ، وخسفه الله أى شقه وخسفه بفلان أى شق المكان وغيب الشخص بداخله ، ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . وبالجملة فهو لازم ومتعد (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ) : أى يهلكهم فى حركتهم إقبالا وإدبارًا ، مقيمين أومسافرين . (عَلَىٰ تَخَوُّفٍ) : على مخافة وحذر من الهلاك ، أو على تنقص فى أنفسهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . (وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين) : أى وما هم بممتنعين علينا بقوتهم ـ أو بالهرب فرارًا من بأسنا .

التفسير

٤٥ ـ (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ . . . .) :هذا وعيد للمشركين من أهل مكة الذين احتالوا بالسيئات فى إبطال الإسلام ، فمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دبروا فى خفاء كل أسباب الإيذاء له ولأصحابه الذين آمنوا معه واتبعوه، وهو وعيد عام لكل ماكر ، والاستفهام للإنكار ، ومعناه : يجب ألا يأمن هؤلاء الماكرون العقوبات السيئة التى تحل بهم

كما حلت بالمكذبين قبلهم : وكيف يحق لهم أن يأمنوا إنزال أشد العقوبات بهم مع قدرته جل شأنه على :

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يهلكهم بالخسف وهو تغييبهم فى الأرض بتغويرها بهم - قال ابن عباس : كما خسف بقارون - يشير بذلك إلى قوله سبحانه « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[1] .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) : أى يأتيهم عذاب الله وهم فى غفلتهم ولهوهم ، أو من مأمنهم حيث يبتغون الأمن والسلام ، أو من الجهة التى يرجون منها الخير والبركة . كما فُعل بقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة .

ولقد حدث لهم ذلك يوم بدر . فقد أُهلكوا مع كثرتهم عددًا وعتادًا وهم يأملون النصر والغنيمة .

٤٦ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) : أى ينزل بهم العذاب فى تنقلهم للتجارة بعيدين عن مساكنهم . قاله قتادة ، وقال الزجاج : المراد ما يعم سائر حركاتهم فى أمورهم ليلا ونهارًا .

(فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى فلا يستطيعون الإفلات والفرار من عذابه تعالى لأنه لايعجزه شىء يريده ، فهو القوى العزيز .

٤٧ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) : أى يأخذهم على مخافة وحذر من العذاب والهلاك . بأن يأخذ طائفة . ويدع أخرى ، فتخاف أن ينزل بها من العذاب مثل ما نزل بصاحبتها . أو أن تحدث حالات يخاف فيها عادة كالأعاصير والزلازل والصواعق فيتخوفوا منها فيأخذهم العذاب فى حال تخوفهم . أو يأخذهم على تنقص فى أنفسهم وفى صحتهم وأموالهم وأولادهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . فهم فى كل لحظة بسبب ما حل بهم فى خوف من العذاب لأنهم يترقبون وقوعه .

ويلاحظ أن التنقص من معانى التخوف لغة كما سبق بيانه فى المفردات . ولما كان المتقلبون فى البلاد ليلا ونهارًا للتجارة وغيرها . بعيدًا عن المسكن والملجأ . مظنة الفرار من العقاب عند ظهور أول بوادره وكذلك المتخوفون من حلول العقاب بهم ، فلهذا عبر سبحانه

(١) سورة القصص الآية ٨١

عن إصابة العذاب لهم بالأخذ الدال على القهر والشدة نظرًا لحالهما ، وسدًّا لِمَنافِذِ النجاة على كليهما ، وعبَّر عن إصابة العذاب لهم حال الغفلة بالإتيان لأنه ليس مظنة الفرار وسلوك أى مسلك للنجاة عادة . فلذلك اختلف التعبير فى الإنذار بالعذاب . وليس المراد حصر الإهلاك فى هذه الأحوال الثلاثة . وإنما المراد بيان قدرة الله على إهلاكهم بأى وجه كان .

ثم ختمت الآية بما يفيد اقتضاء رحمة الله الواسعة ،ورأفته الشاملة ألا يعاجلهم بالعقوبة فى الدنيا ليتسنى لهم التفكر فى شأنهم والتدبر فى أمرهم . حيث قال سبحانه :

(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : حيث أمهلكم مع استحقاقكم للعقوبة لما اقترفتم من بغى وعدوان .

(أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩)

المفردات :

(يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ) : تفيُّؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . من فاء يفىء . إذا رجع .

(دَاخِرُونَ) : أذلاء منقادون ، من الدُّخُور وهو الصغار والذل ، وفعله . كمنع وخرج .

التفسير

٤٨ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ....) : استفهام إنكارى قصد به تقريع الذين مكروا السيئات ، والمعنى أعمىَ الذين مكروا السيئات ولم ينظروا إلى ما خلق الله من كل جسم قائم له ظل مما تدركه الأبصار ، ليعلموا عظمة الله وكبرياءه ، وأنه سبحانه دانت

له الأشياء والمخلوقات جميعا جمادها ونباتها وحيواناتها . وأناسيها . كما دانت له ظلالها . فكل ذى ظل منها . (يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ) : أى ينتقل ويرجع من جانب إلى آخر بارتفاع للشمس وانحدارها . أو باختلاف مشارقها ومغاربها . فإن لها مشارق ومغارب حسب مداراتها اليومية التى تتحرك فيها كل يوم من أيام السنة وفق تقدير العزيز العليم

(عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) : المراد بهما جانبا الشىء ، استعارة عن يمين الإنسان وشماله ، والمعنى أن ظلال الأشياء متفيئة عن جانبى كل واحد منها . ترجع من جانب إلى جانب . فتكون أول النهار على حال ، وآخره على حال أخرى وذلك أنها تميل إلى جهة المغرب من وقت الشروق إلى الزوال . وتميل بعده إلى وقت الغروب راجعة إلى جهة الشرق .

(سُجَّدًا لِلَّهِ) : أى حال كون هذه الظلال منقادة لإرادته تعالى فى الامتداد والتقلص . والرجوع من حال إلى حال خاضعة لأحكام تدبيره . غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سخرها له ، وذلك هو المراد بسجودها .

(وَهُمْ دَاخِرُونَ) : أى أن أصحاب هذه الظلال التى انقادت ظلالها لما قدر لها من التفيؤ . أذلاء منقادون لحكمه تعالى . يستوى فى ذلك الأجرام الثابتة ، كالجبال والأشجار والأحجار ونحوها ، والأجسام المتحركة من كل ما يدب على الأرض إنسانًا وغيره ، وعبر بضمير العقلاء وصفتهم مع شمول الحكم لسواهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم .

٤٩ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ....) : شروع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة بعد بيان سجود الظلال وأصحابها بصفة عامة تأكيدًا لبيان قدرة الله جل شأنه ، وأنه سبحانه يخضع لسلطانه وحده كل شىء ، وينقاد له جميع ما فى السموات من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والكواكب والرياح والسحاب ، وما فى الأرض من كل شىء يدب ويتحرك عليها ، وقوله من دابة بيان لما فى الأرض ، وقيل بيان لما فى السموات وما فى الأرض جميعا بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية فى أرض أو فى سماء ، وربما كان ذلك إشارة إلى وجود أجسام عاقلة على بعض الكواكب ، وقد عزى هذا الرأى إلى ابن عباس وغيره .

(وَالْمَلَائِكَةُ) : أى وملائكة الأرض والسماء يسجدون لله تعالى ، وإنما أفردوا بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة ، وسجود المكلفين المؤمنين لله يعم سجود الطاعة والعبادة ، وسجود الخضوع لمراد الله تعالى ، أما سجود غيرهم فهو سجود الخضوع والانقياد لما يريده الله بهم من الأمور الاختيارية والقهرية ، فهم فى كل ذلك ساجدون أى خاضعون لسلطان الله .

(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) : أى أن الملائكة مع علو شأنهم لايستكبرون عن عبادته والسجود له . وهم مخلوقات نورانية عاقلة مطيعة لله تعالى .

٥٠ ـ (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ . . . .) : أى يرهبون مالك أمرهم ، ويخافونه خوف هيبة وإجلال . وهو فوقهم بالقهر والحكمة والعلم . كما فى قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »[1] .

أو المعنى : يخافون عذاب ربهم على حذف مضاف لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء .

وجملة : « يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ » بيان وتقرير لنفى الاستكبار لأن من خاف الله لايستكبر عن عبادته .

(وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) : أى يؤدون كل ما يوجهون إليه فى سلوكهم . فشأنهم المثابرة على العبادة وتنفيذ مايكلفون به من التدبيرات فى كون الله تعالى ، وإنما قال سبحانه : « وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » حيث لم يذكر من يُصْدِرُ لهم الأمْر ، لأنه لايخفى على أحد ، فهو الله تعالى .

(١) سورة الأنعام الآية ١٨



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثامن والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٢

(* وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(فَارْهَبُونِ) : أى فخافون واخشوا عقابى إن خالفتم أمرى .

(وَلَهُ الدِّينُ) : وله الطاعة والانقياد أو الجزاءُ ، مِن دِنْتُهُ أىجازيْتُهُ .

(وَاصِبًا) : واجبًا لازمًا ، وفسّره الربيعُ بن أنس بقوله : « واصِبًا » خالصًا .

التفسير

٥١ - (وَقَالَ اللهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ) :

حذر الله فى الآيات السابقة أهل مكة من عاقبة كفرهم بما أنزله على رسوله ، من أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم ، من الخسف أو إتيان العذاب من حيث لا يشعرون ، أو أن يأْخذهم فى تقلبهم ونشاطهم بغير مقدمات ، أو يأْخذهم على تخوف من الهلاك بأَن يرهبهم قبله بمقدمات مخيفة ، وأتبع ذلك توبيخهم على أنهم لم يتفكروا فيما خلقه من الأَشياء التى تنتقل ظلالها عن اليمين وعن الشمائل ، من الجبال والأَشجار وغيرها ، منقادة لله تعالى فى أَمرها كله ، وبيَّن أنه - سبحانه - يسجد له ما فى السموات والأَرض من دابة ، وكذلك الملائكة مع رفعة شأْنهم ، فإِنهم يطيعون ربهم فلا يعصونه ، بل يفعلون مايؤْمرون .

وجاءت هذه الآية لتأْمر أهل مكة وغيرهم بتوحيده بالعبادة والخوف من التقصير فيما كلفهم به ، فإِن منْ هذا شأْنه لا يعبد سواه ، ولا يخاف غيره . وقد كان مشركو قريش وغيرهم يعترفون بأُلوهية الله ، ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء لتُقرِّبهُمْ إليه ، وهم مع ذلك يعتقدون أن الله يملكها ، فهذه قبيلة نزار مثلًا كانت تقول فى تلبيتها فى الحج : «لبيك اللهم

لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكٌ هُو لك . تملكه وما ملك» فهم يوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم، ويجعلون ملكها بيده . وفى مثل ذلك يقول الله تعالى :

«وَمَا يُؤمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُون » . وكانت لهم أصنام مشتركة ، وأخرى لطائفة دون أُخرى . أو لبيت دون آخر . ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا فجعل يطعنها بِسِيةِ[1] قوسه فى عيونها ووجوهها وهو يقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ثم أمر بها فكُبَّتْ على وجوهها . ثم أُخرجت من المسجد ودُمِّرت .

ومعنى الآية :

وقال الله الذى عرفتم سلطانه فى هذا الكون : لاتتخذوا يا عبادى لكم إلٰهين اثنين فضلًا عما فوقهما إنما الإلٰه إلٰه واحد لا شريك له . إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ».

ثم التفت النص الكريم من الغيْبةِ إلى التكلم . لِتربْيةِ المهابة والرهبة فقال :

(فَإِيَّاىَ فَارْهَبُون) : أى إن كنتم ترهبون شيئًا وتخافون منه . فإياى ارهبوا وخافوا دون سواى . فليس غيرى أحقَّ بالرهبة ، فارهبونى فإننى أنا الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والأَرض ويخضع لسلطانه .

ثم بين الله سبب وجوب توحيده بالعبادة والرهبة بقوله :

٥٢ ـ (وَلَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) :

أى ولله وحده كل ما فى السموات والأَرض ، من أجزائهما وما استقرَّ فيهمَا . له كل ذلك خلقًا وملْكًا وتصرفًا . وله الطاعة والانقياد واجبًا ثابتًا لايستحقه سواه . لِما تقرَّر من أنه الإلٰه الواحد الحقيقُ بـأَن يُرهب .

وعلى تفسير الدين بالجزاء يكون المعنى : وله الجزاءُ دائمًا ، فلا ينقطع ثوابه عمّن آمن وعمل صالحًا ، ولا عقابه عمن كفر وصدَّ عن سبيله .

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

ثم استنكر الله أن لا يتقى المشركون مَن هذه آيات عظمته فقال سبحانه :

(أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ) :

أى أبعد ما تقدم بيانه من أن كل ما فى السموات والأرض يسجد ويخضع لله ، وأن الطاعة واجبة له ، والجزاء حق من حقوقه ، أبعد ما ذكر تخُصُّون غير الله بالتقوى ؟ مع أنه ـ تعالى ـ هو المستحق لها دون سواه ، ثم أنكر عليهم شركهم مع توالى نعمه عليهم فقال سبحانه :

(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(تجْأَرُون) : تتضرعون ليكشف عنكم الضر . والجُؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة[١] .

(فَتَمَتَّعُوا) : أمر تهديد لهم وليس أمر إباحة .

التفسير

٥٣ ـ (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تجْأَرُونَ) :

المعنى : وما يصاحبكم من نعمة فى أنفسكم وأموالكم وأولادكم فهى صادرة من الله تعالى ، مدبرها وخالقها ورازقها ، ثم إذا أصابكم الضرر إصابة يسيرة فإليه وحده تتضرعون مستغيثين

---

(١) قال الأعشى :

يُراوحُ من صلواتِ المليـ ـكِ طورًا سُجُودًا وطورًا جُؤارًا

ابتغاء كشفه عنكم ، فكيف تشركون معه شركاءكم فى العبادة ، وليس لها فى نفعكم ودفع الضر عنكم من سبيل ؟ ثم نعى الله عليهم عودتهم إلى الشرك بعد أن كشف الضرَّ عنهم فقال سبحانه :

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُم إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) :

أى ثم إذا كشف الله الضر عنكم بعد تضرعكم واستغاثتكم ، إذا جماعة منكم يشركون بربهم أصنامهم فى العبادة ، مع أنها لا دخل لها فى نفعهم ودفع الضر عنهم .

والخطاب فى قوله : « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ » وقوله : « إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ » الآيتين ، إن كان للمشركين كما هو الظاهر فلفظ « مِن » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ » لبيان أنَّ الفريق الكافر هو كلهم ، فكأنه قيل : إذا فريقٌ كافرٌ هُمْ أنتم ، وأجاز بعض المفسرين أن يكون مِنْهُمْ من اعتبر وازدجر ، فتكون « مِنْ » على هذا الرأى للتبعيض ، كما فى قوله تعالى : « فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

أما إن جُعل الخطاب فى الآيتين للناس كافة . فالكافرون بنعمه وفضله بعضهم لا كلهم فتكون « مِنْ » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » للتبعيض لا للبيان . ثم بين الله عاقبة إشراكهم فقال :

٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى أن فريقًا منهم يشركون بالله فى العبادة مع توالى نِعَمِهِ عليهم ودفع نِقمِهِ عنهم ، لتكون عاقبةُ شركهم وأثرُه أن يكفروا بما آتاهم من النعم ، وَيُنكِرُوا كونها منه دون غيره ، ثم أنذرهم الله وهدَّدَهُم بسوءِ المصير فقال :

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى فاستمتعوا بما أنتم فيه من نعم كفرتم بها ولم تشكروها ، فسوف تعلمون عاجلًا أو آجلًا عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب جزاءَ شرككم وكفرانكم .

ثم عقب هذا الوعيد بتعداد جناياتهم المستوجبة له فقال سبحانه :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ) : لآلهتهم التى لا يعلمون حقيقتها وخِسَّة قدرها .

(تَاللهِ) : قسم ؛ أى والله .

(تَفْتَرُونَ) : أى تختلقونه من الأكاذيب .

(مُسْوَدًّا) : المراد من اسوداده ؛ كآبته واغتمامه على سبيل الكناية .

(كَظِيمٌ) : ممتلئ غيظًا .

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ) : أيبقيه على هوان وذل .

(أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَاب) : أم يخفيه ويدفنه فيه . (مَثَلُ السَّوْءِ) : صفة القبح .

التفسير

٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ) :

أى أن المشركين حين يكشف الله الضرَّ عنهم بعد تضرعهم إليه واستغاثتهم به ، يعودون فجأة إلى الشرك ، ويجعلون لأصنامهم التى لا يعلمون حقيقتها وقدرها الخسيس

ـيجعلون لهاـ نصيبًا مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق تقربًا إليها . وما لها عليهم من فضل ، ولا لها عليهم من سبيل ، ولا هى مدركة ما يُتَقَرَّبُ به إليها . ثم ختم الله الآية بوعيدهم فقال :

(تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) :

أى وحقّ الله المنزه عن الشريك والمثيل ليسألنكم الله سؤال توبيخ وحساب يوم القيامة ، عن الذى كنتم تختلقونه فى الدنيا من شركة أوثانكم لله . واستحقاقها للعبادة معه ؛ ثم يجزيكم على افترائكم .

٥٧ ـ (وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) :

كانت خزاعة وكنانة يزعمان أن الملائكة بنات الله . وقد انطوى هذا الزعم على فريتين : إحداهما :أن الملائكة إناث ، وثانيتهما : أنهم بنات الله ، فأما الزعم الأول فقد ردَّه الله بقوله : «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ » [١] . وأما الزعم الثانى فقد ردَّه الله بهذه الآية .

والمعنى : ويجعل المشركون البنات لله حيث يزعمون أن الملائكة بنات الله ـ سبحانه وتنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد ـ والحال أنهم يجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين . فهم بذلك يختارون لأنفسهم فى التبنّى ، أفضل مما يختارون لربهم . تعالى الله عن التبنى بجانبيه علوًّا كبيرًا .

ثم يُوبِّخهم الله على هذه النسبة أكثر مما مضى وأصرح فيقول :

٥٨ ـ (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) : أى وإذا أُخبر أحد هؤلاء بولادة أُنثى له ، صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد غيظاً من شدَّة الغَمِّ والحياء من الناس كأنما ارتكب ما يخجله . (وَهُوَ كَظِيمٌ) : أى وهو ممتلىء غيظًا وغضبًا ؛ ثم يبلغ به الخجل من البشارة بالأُنثى إلى ما حكى الله بقوله :

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

٥٩ - (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) :

أى يستخفى من قومه حتى لايروه بسبب ما بُشِّرَ به من السوء حينما أخبروه بولادة أُنثى له وجعل يحدث نفسه فى شأْنه (أَيُمْسِكُهُ) فلا يقْتله . ويظل يمسكه (عَلَى هُونٍ) : على ذلٍّ وهوانٍ (أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ) :بأن يحْفر له فيه حُفْرةً فيدفنه فيها حيًّا . ويهيل التراب عليه كما كانوا يقولون : وأْد البنات من المكرمات . وإذا كان هذا حالهم فى كراهة نسبة البنات إلى أنفسهم فكيف ينسبونها إلى الله . إذ يحكمون بأن الملائكة بناته . ولهذا قبّح الله حكمهم هذا فقال :

(أَلَا سَاءَ مَايَحْكُمُونَ) : أى ألا قبُح حكمهم حيث يجعلون ما هذا شأْنه من الحقارة والهوان لديهم - يجعلونه وينسبونه - لله المنزه عن الصاحبة والولد ذكراً كان أو أُنثى فى حين أنهم يتحاشون الإناث . ويختارون لأَنفسهم البنين .

فمدار الخطإ نسبتهم البنات لله وهم يأْبون ذلك لأَنفسهم فى حين أنه منزه عن الولد مطلقًا ذكرًا كان أو أُنثى ، ولذا قال - سبحانه - عقب ما تقدم :

٦٠ - (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى لهؤُلاءِ الذين لا يؤْمنون بالآخرة والحساب فيها على ما افتروه - لهم - صفة القبح ، من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم ويرثهم عند موتهم ، وحب البنين دون البنات للاستظهار بهم والانتفاع بكدهم ، ووأْد البنات خوفًا من العار وحذرًا من الفقر ، ولله - تعالى - المثل الأَعلى والصفة العظيمة الشأْن من الاستغناء المطلق عن الولد ذكرًا كان أو أُنثى . فهو الغَنِىُّ المطلق الْغِنَى فى أمره كلِّه ، المنزه عن الحاجة إلى الصاحبة والولد ذكراً كان أو أُنثى ، المستوجب لكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وهو العزيز الغالب القادر على مؤاخذتهم . الحكيم فى كل شئونه . فلهذا لم يعاجلهم بالانتقام منهم . لعلهم يثوبون إلى رشدهم . ولهذا قال الله تعالى عقب ذلك :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١))

المفردات :

(مِن دَابَّةٍ) : الدابة ما يدب على الأرض ، وقيل المراد بها هنا : الكافر ، وسنفصل الكلام في ذلك في التفسير . (وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : ولكن يُؤَخِّر موتهم إلى وقت سماه الله لذلك فلا يموتون قبله ، ويجوز أن يكون المراد . ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل مسمى ، وهو إما موتهم حيث يعذبون في قبورهم أو يوم القيامة ، فهو الأجل الذى سماه الله في لسان الشرع لجزاء الناس كما في قوله تعالى :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

(لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل زمن ، ولا يتقدمون ، والتعبير عنه بالساعة ، لأنها في لغة العرب مَثَلٌ في القلَّة . وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا في عصرنا والمقدرة بستين دقيقة ، لأن ذلك اصطلاح مستحدث .

التفسير

٦١ـ (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ) :

بيَّن الله تعالى فيما تقدم ما كان عليه المشركون من الضلال مثل زعمهم أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات ويستاءون من البشارة بهنَّ ويدُسُّونهن أحياء في التراب ، وأتبع ذلك تنزيهه تعالى عن ذلك وعن نسبة الولد إليه سواءٌ أكان ذكرا أم أنثى ، وبيَّن سوء حكمهم

هذا ، وأن له تعالى الصفة العلية الشأن التي هي مثل في العلوّ والرفعة ، وأن ما وصفوه به لايليق به جل وعلا : فهو غير محتاج إلى الولد مطلقًا ، لا ليَرِثهُ ولا ليُعِينه فهو الحي الذى لا يموت العزيز الحكيم، فليس بحاجة إلى ولد يعتز به ، أو يدبر معه ملكوته ، وأن أولئك المُتجنِّين على ربِّهم لهم صفة القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم فهم أهل الفناء، أما الله تعالى فله صفة الحسن وهى كمال الاستغناء .

وجاءت هذه الآية لتبين رحمة الله بالناس حيث لايعاجلهم بالعقوبة الشاملة بسبب تماديهم فى ظلمهم بل يؤخرهم إلى أجل مسمى لعلهم يثوبون إلى رشدهم . قبل أن يحين أجلهم.

والآية تحتمل معنيين . أحدهما : ولو يؤاخذ الله الكفار بكفرهم ومعاصيهم التى تحدثت الآيات السابقة عن بعضها ، ما ترك على هذه الأرض من دابةٍ كافرة . حيث يهلكهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم . ولكنه لم يفعل رحمة بهم لعلهم يرجعون إلى رشدهم . ويكفون عن كفرهم ومعاصيهم .

وإطلاق الدابة على الإنسان لغوى . مأخوذ من دبَّ على الأرض أى مشى عليها فى هينة وتمهلٍ . فالإنسان نفسٌ دابةٌ على الأرض . قال الشاعر العربى :

زعمتنى شيخًا ولستُ بشيْخ إنمــا الشَّــيخُ من يدُبُّ دبيبًا

والمعنى الثانى : يتجه بالإهلاك إلى عموم مايدب على الأرض ، أى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبه أهل الذنوب منهم ماترك على الأرض من إنسان طالح أو صالح ولا ترك عليها غيره من دواب الأرض . بسبب شؤْم أهل الذنوب . قال ابن مسعود فى تفسيرها : ولو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب الجُعْلَان[1] فى جحرها . ولأمسك الأمطار من السماء ، والنبات من الأرض فماتت الدواب ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل : كما قال : « وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ » .

(١) جمع جعل بوزن صرد ؛ دابة سوداء من دواب الأرض .

ولعل مما يساعد على إرادة العموم ما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إِذَا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ عذابًا أصاب العذابُ من كان فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ » وقولُه تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً » .

وبعد أن بيَّن الله شؤم المعصية وما تجره على أهل الأرض من الآثار عقب ذلك ببيان رحمته بعباده فقال :

(وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى ولكن يؤخر إهلاكهم إلى أجل عيّنهُ لذلك لعلهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ؛ فإنه تعالى خلقهم ليعبدوه وهداهم بالآيات والرسل إلى طريق معرفته وطاعته ، فلا عذر لهم فى عصيانه .

ثم بين أن أجلهم آتٍ لا ريب فيه ولا تغيير له بتقديم أو تأْخير ، لعلهم يسارعون فى التوبة فقال : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى فإذا جاء الوقت المحدد لموتهم لايتأخرون عنه أقل وقتٍ ولا يتقدمون .

فإن قيل : إن وقت إهلاكهم إذا جاء لايتصور تقدمهم عنه ، فلماذا قيل : «وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» فالجواب أن ذكره للمبالغة فى بيان عدم تأخره بنظمه فى سلك ما يمتنع تنبيهاً على أنه مثله فى الامتناع . كما فى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فإن من مات كافرًا معلوم بالضرورة أنه لاتقبل توبتُه بعد موته ، وليس بحاجة إلى التصريح به ، ولكنه ذكر مع من لاتقبل توبته عند الغرغرة ومشارفة الموت للإيذان بأَنهما سواء فى عدم قبول التوبة ؛ لأَنها حدثت منه بعد يأْسه من الحياة ، فكان مِثْل من مات كافرًا فى أنه لاتوبة له .

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤))

المفـردات :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) : أى ينسبون إليه البنات التى يكرهونها لأنفسهم – (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) : أى تحكى الكذب بادعائها أن لهم العاقبة الحسنى فى الآخرة . (لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ) : لا بُدَّ ولا محالة[1] . (مُفْرَطُونَ) : متروكون منسيون فى النار . كما قاله ابن الأعرابى وأبو عبيدة وغيرهما .[2] وقال الحسن وقتادة : مُعجَّلون إلى النار مقدمون إليها ، وأصله من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء . والفرط الذى يتقدم إلى الماء . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » أى متقدمكم إليه .

(تَاللَّهِ) :أى وحقِّ الله . (وَلِيُّهُمَ) : أى متولى إغوائهم أو ناصرهم .

---

(١) نقل القرطبى فى ج ٩ ص ٢٠ دار الكتب فى تفسير قوله تعالى فى سورة هود: « لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » الآية ٢٢ أن (لا جرم) عند الخليل وسيبويه كلمة واحدة بمعنى (حق) وأنها فى موضع الرفع على أنها خبر مقدم وأن وما دخلت عليه فى تأويل المصدر مبتدأ مؤخر ، وأن الفراء قال بذلك كما حكاه النحاس ، وحكى المهدى عن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة ، وحكاه الثعلبى عن الفراء أيضا وقد اخترنا هذا المعنى فى تفسيرها هنا ، وفى معناها آراء أخرى وحسب القارئ ما ذكرنا ومن شاء المزيد فليرجع إلى ج ٩ ص ٢٠ من القرطبى فى تفسير مثلها فى سورة هود – كما تقدم – .

(٢) من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته .

التفسير

٦٢ ـ (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) :

أنكر الله عليهم فى الآيات السابقة زعمهم أن الملائكة بنات الله ، وبيَّن أنه منزه عن الولد مطلقًا وأنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من السيئات لعاقبهم بعقوبات تعُمُّهُمْ وغيرهم بشؤم ظلمهم ، ولكنه ـ تعالى ـ عظيم الحلم شامل الرحمة ، فيؤخرهم إلى وقتٍ سمَّاه لموتهم لايتقدمون عنه ولا يتأخرون ، لعلهم يعودون إلى الرشد ، ويدركهم الهدى .

وجاءت هذه الآية لتوبيخهم مرة أُخرى على ما زعموه فى حقه ـتعالىـ وما ادعوه لأنفسهم من العاقبة الحسنى ، ولإنذارهم بسوء المصير على مزاعمهم وعقائدهم .

والمعنى : وينسبون لله البنات التى يكرهونها لأنفسهم ، ومع هذه الجريمة الشنعاء فى حق الله تقول ألسنتهم الكذب وتصفه وتصوره حين تزعم أن لهم العاقبة الحسنى ـ ثم عقب الله زعمهم هذا بالوعيد عليه فقال :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ) : أى لا بد ولا محالة من أن لهم النار مكان ما زعموه لأنفسهم من أن لهم العاقبة الحسنى . ولا بد أنهم منسيون فيها متروكون فى سعيرها لايخرجون منها ولا يبرحونها .

ثم عقب الله هذه الآية بتسلية النبى صلى الله عليه وسلم على مايلاقيه من قومه من ألوان الكفر والضلال . بأن مايحدث له منهم حدث مثله للرسل قبله من أُممهم، وذلك بقوله تعالى :

٦٣ ـ (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والله لقد بعثنا رسلنا إلى أُمم من قبلك أيها الرسول ، فحدث منهم لرسلهم مثل ما حدث من قومك لك ، حيث زين لهم الشيطان ما هم عليه من أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصى ،

فظلُّوا مصرِّين عليها ، فهو متولى إغوائهم اليوم أى فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، ولا يجدون فيها من ينقذهم أو يخفف عنهم ، ويجوز أن يكون المقصود باليوم يوم القيامة ، والولاية بمعنى النصرة على سبيل التهكم .

والمعنى : فالشيطان الذى أغواهم وزيّن لهم أعمالهم ناصرهم يوم القيامة ، ومن كان الشيطان ناصره يومئذ فهو خالد فى العذاب مثله ، لأنه مذنب ومعاقب وفاقد لأسباب النصرة ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وأعاد بعض المفسرين الضمير إلى مشركى قريش ؛ والمعنى : ولقد أرسلنا رسلنا إلى أمم من قبلك فزين الشيطان لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل فهو ولى مشركى قريش اليوم كما كان ولى مَنْ قبلهم فى أيامهم ، فإنهم مثلهم فى ضلالهم ولهم فى الآخرة عذاب أليم كما كان لمن قبلهم ، ثم بيّن أثر القرآن فى تبيين الحق من الباطل فقال :

٦٤ - (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون) :

أى وما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول لسبب من الأسباب إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من التوحيد واليوم العظيم الذى هم فيه مختلفون . كما تبين لهم النافع والضار من الأخلاق ، والحلال والحرام من الأعمال ، وأنزلناه أيضا للهدى والرحمة لقوم يؤمنون ، فإنهم المنتفعون بعلومه . المهتدون بهداه ، ويصح أن يراد منهم المستعدون للإيمان المهيَّئون له بما آتاهم الله من حسن النظر فى آياته ، فكأنه قال : وهدى ورحمة لقوم شأنهم أنهم يصدقون الحقَّ ويؤمنون به ، بما جُبِلُوا عليه من البحث عن الحق والاهتداء إليه بآياته ، والبعد عن الجدال بالباطل ، ثم شرع الله فى ذكر طائفة من آياته العظيمة الشأن فقال :

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات :

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : أى من السحاب ، وكل ما علاك يطلق عليه سماء .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها . (الأنعام) :الإبل خاصة ، وقيل : إذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضًا ، وقال أحمد بن يحيى : هى كل ما أحله الله من الحيوان [1] لقوله تعالى فى سورة المائدة : « أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ » .

(نُسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ) : أى مما فى بطون جنس الأنعام [2] من اللبن ، والمراد من البطون هنا الضروع . (فَرْثٍ): هو ما فى الكرش من بقايا العلف بعد هضمه .

---

(١) انظر القرطبى جـ ٧ ص ١١١ طبعة دار الكتب – فى تفسير قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا » من الآية ١٤٢ من سورة الأنعام .

(٢) قيل : إنها جمع نعم ، وأفرد ضميرها ، لأن «أل» الجنسية تبطل الجمعية ، أما من يجعلها من المفردات التى جاءت على هذا الوزن كأكياش وأخلاق أو اسم جمع فيكون إفراد الضمير إما لكونه مفردا أو لمراعاة لفظ اسم الجمع : انظر أبا السعود وغيره هنا : والأكياش من الثياب ما أعيد غزله مثل الخز والصوف ، أو هو الردىء ، والأخلاق من الثياب ما عمه البلى : يقال ثوب أخلاق أى عمه البلى . وثوب أكياش أى أعيد غزله أو ردىء .

(سَائِغًا) : هنيئًا لا يُغَصّ به شاربُه .

(سَكَرًا) : ما يُسْكِرُ وهو الخمر ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر - وسيأتى لذلك بيان أوسع وتأويل أفضل - إن شاء الله تعالى - .

التفسير

٦٤ - (وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

تضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ شواهد عظيمة الدلالة على أنه -تعالى- هو الجدير بالألوهية والعبادة له دون سواه ، فقد أرشدت أصحاب الفكر الرشيد إلى أن هذه السماء التى نشاهدها خالية من الماء ، صافية الأديم يسوق الله برحمته السحاب تحتها ويزجيه بعد أن كوّنه من أبخرة المياه ، وجعله ركامًا ، ثم يبسطه فى جو السماء كيف يشاءُ ، ويصيب به من يشاءُ من عباده ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويبسط فيها الزرع النضير ، وينبت فيها الأشجار ذات الأزهار والثمار ، إن فى ذلك لعبرة لأُولى الأسماع والأبصار .

ومعنى الآية إجمالًا : والله أنزل من السماء ماءً بقدر معلوم ، على الأرض اليابسة التى تشبه الموتى فى عدم جدواها ، وتوقف الانتفاع بها . فلما أنزل الله الماء عليها دبَّت فيها الحياة ، حيث اخضرَّت وَرَبَتْ وأنبتت من كل صنف بهيج ، إن فى ذلك لعلامة واضحة الدلالة على ألوهيته ووحدانيته ، يبيِّنها لقوم يسمعون التذكير به سماع تدبرٍ وتفكرٍ ، ثم أتبعها آية أُخرى باعثة على توحيده فقال :

٦٥ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ) :

أى وإن لكم أيها العقلاءُ الذين تحسنون الاستماع وتفكرون فى الشواهد والآيات التى تُذكَّرُون بها - إن لكم - فى الإبل والبقر والغنم والمعز لعظة عظيمة الشأن حيث تشاهدون أننا نسقيكم مما فى أجوافها لبنًا أبيض خالصا مما يُؤَثِّر فى بياضه أو ريحه أو طيب طعمه سائغًا

للشاربين ، مع أننا أخرجناه من بين فرث وهو مافى الكرش من روث كريه الرائحة ، ودم أحمر لا يستسيغه الطبع الإنسانى .

فأنت ترى أن الأنعام تتناول أعلافها جافةً ورطبة ، فتمضغها وتزدردها ، فيحولها القادر الحكيم بما تفرزه كبودها وأجهزتها الهاضمة من العصارات - يحولها - إلى دم أحمر يدفعه القلب بنظام رتيب إلى أجسادها لتغذيتها ، وروث تدفعه كروشها إلى أمعائها الغلاظ ، لتتخلص منه آناً بعد آن .

وهذا الدم القانى يتجه بتدبير الله وحكمته إلى ضروع الإناث منها ، تلك الضروع التى هيأها الله بقدرته وأعدها لتحويله إلى لبن خالص من كل شائبة من تلك الشوائب التى مرت بها عملية الهضم والتحويل ، فلا ترى فى بياضه حمرة الدم ، ولا فى طعمه أثراً لطعوم الأعلاف والدماء والفرث ، ولا تحس برائحةٍ كريهة من هذه الروائح التى احتبست فى أجوافها ، بل تجده لبناً أبيض ناصعا خالصاً سائغاً للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين .

٦٦ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) :

قال القرطبى : السكر ما يُسْكِرُ فى مشهور اللغة ، ونقل عن بعض السلف أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وأن المراد بالسَّكَرِ الخمر ، وبالرزق الحَسَنِ ما يُؤْكل ويُشرب حلالا من هاتين الشجرتين ، وذلك لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر فيها وإنما حرمت فى المدينة ، ولست أدرى كيف دُسّ هذا الرأى على أولئك الأعلام من السلف . وكيف أُقحم فى كتب التفسير ليقرأه القارئون تفسيراً لآية من كتاب الله منقولا عنهم . فإما أن يسلموا به تقديراً لجلال من نسب إليهم وإما أن يقولوا ما لا يحل فى كتاب الله ، حيث يقولون إن هذه الآية نزلت يمتن فيها الله على عباده بما أنعم به عليهم فى النخيل والأعناب من السكر والرزق الحسن ، فكيف عدل عن استحسان الخمر والامتنان بها فى مكة إلى استرذالها وتحريمها فى المدينة وهى هى بعينها لم يزد عليها ولم ينقص منها شىء ، فإما أن تكون فى

ذاتها قبيحة ضارة فتكون حرامًا دائمًا وإما أن تكون حسنة نافعة فتكون حلالا دائمًا ، فلا يتغير حكمها بتغير المكان .

والصواب : ما قاله الطبرى فى معنى الآية وهو أن السَّكر مايُطْعَمُ من طعام النخيل والأعناب ويحل شربه من ثمارها ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ » فالبثُّ والحزن بمعنى واحد ، وبهذا قال أبو عبيدة ، حيث قال : السَّكر الطُّعم . يقال : هذا سَكَرٌ لك : أى طُعْمٌ .

وقال آخر – كما نقله القرطبى – السكر العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا[1] إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حُرِّم – قلت وقد جمع صاحب القاموس بعض ما تستعمل فيه كلمة السَّكر من هذه المعانى وغيرها فقال . والسَّكرُ – محركة – الخمر ونبيذ يتخذ من التمر ونحوه ، وكل ما يسكر وما حرم من ثمرةٍ ، والخل والطعام والامتلاء والغضب والغيظ : اهـ بتصرف .

وبما أن الآية للامتنان فالأنسب بمعنى السَّكر فيها ما يحل من طعام النخل والعنب وشرابهما وإليك فيما يلى المعنى الإجمالى للآية الكريمة :

ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه عصيرًا حُلوا حلالا، ورزقًا حسنًا منحكم الله إياه منهما ، من رطب وتَمْر وعنب وزبيب ، وغير ذلك من الأطعمة والأشربة ، كالبسر والدبس[2] ، والخل وأصناف الحلوى .. التى تصنع منهما إن فى ذلك لعلامة باهرة على قدرة الله ووحدانيته وكرمه وفضله ، وهذه الآية والعلامة على ما ذكر موجهة لقوم يستعملون عقولهم فيدركون أنه لا إلـه سواه ، ولا يستحق العبادة غيره ..

---

(١) هكذا قيل ، ولكننا نقول : لماذا لا تكون تسميته سكراً أخذاً من السكر (بتشديد السين المضمومة وتشديد الكاف المفتوحة) فإن أخذه منه يناسب كونه بمعنى العصير الحلو الحلال ، أما تعليل التسمية بأنه قد يصير مسكراً ، فإنه لا يناسب المقام .

(٢) الدبس (بكسر الدال المشددة) : عسل التمر – من القاموس .

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) : ألهمها وعلمها .

(وَمِمَّا يَعْرِشُون) : أى وما يهيئه الناس من العرائش والسقف والبيوت والخلايا .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) : فادخلى طرق ربك لطلب الرزق .

(ذُلُلاً) : جمع ذلول أى مسخرة منقادة .

التفسير

٦٧ - (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

النحل : من الحشرات النافعة للبشرية ، بما تفرزه من العسل الذى جعل الله فيه شفاءً للناس وسميت بهذا الاسم ، لأن الله سبحانه نحلها هذا العسل ، كما قال الزجاج والجوهرى : أى منحها إياه وقد أخبر الله فى هذه الآية والتى تليها عن المنهج الذى تسلكه حتى تخرج لنا العسل من بطونها ليتغذى به الناس ويستشفوا من كثير من الأمراض ، وبين - سبحانه وتعالى - أن سلوكها هذا المنهج بوحى منه جل وعلا .

وللوحى فى اللغة معان مختلفة ، والمراد منه هنا الإلهام ، وهو ما يخلقه الله فى القلب ابتداءً من غير سبب ظاهر .

ولا يقتصر هذا الوحى على النحل ، بل تفضَّل الله به على كل حيوانٍ فقد ألهمه الله - تعالى - ما فيه منافعه فيسعى إليه ، وما فيه مضاره فيجتنبه ، وما فيه معاشه فيدبره ، حتى لتراه يختزن قوته فى الشتاء إذا كان لايستطيع الظهور فيه والتعرض لبرده ، فلهذا يملأُ مخازنه بالطعام

ويعقمه بما يجعله صالحًا ولا يتعرض للفساد . ولم يقتصر هذا الإلهام على الحيوان بل تعداه إلى النبات والجماد ، فإن البذور والنوى ، يلهمها الله أن تتجه بجذورها إلى أسافل جوف الأرض لتستمسك بها ولتتغذى منها . وتتجه ببراعمها وسيقانها وأوراقها وفروعها إلى أعلى دون أن يطرأ على منهجها هذا أى اختلاف .

وألهم الأرض أن تغذى جذور النبات . وتيسر لها سبيل التعمق داخلها ولو كانت الأرض صخرية ، فكم من غابات وأشجار وأعشاب تنبت فى الأرض الجبلية . هذا إلى جانب ما يتم داخلها من التحولات الخطيرة التى تنشأ عنها المعادن والغازات والعناصر المختلفة وكل ذلك يتم بإلهام الله وتدبيره . ولقد أحسن إبراهيم الحربى فى قوله : لله عز وجل فى الموات قدرة لم يَدْرِ ماهى ، لم يأتها بها رسول من عند الله ، ولكن الله تعالى عرفها ذلك [1] .

ولاغرابة فى ذلك ، فقد جاء القرآن الكريم بذلك صراحة عن الأرض فى سورة الزلزلة فقد قال تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا » : أى ألهمها وأعطاها من الأسباب ما نشأت عنه تلك المسببات

ولم يحرمنا القرآن العظيم ولا السنة المطهرة من الإشارة إلى تلك العجائب التى لم يستطع الإنسان أن يكشف الكثير من أخبارها وأسرارها : فالله تعالى يقول إنه أمر الجبال والطير أن تؤوب فى التسبيح وترجّعه مع داود . وذلك فى قوله فى سورة سبإٍ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ » [2] . وفى سورة ص « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ » [3] .

والرسول يقول فى جبل أحد : (أُحُدٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ) فوصف الجبل الأصم بأنه يحب الرسول . ورجف أُحُدٌ والنبى فوقه وأبو بكر وعمر وعثمان فخاطبه النبى قائلًا: « اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا فَوْقَكَ نَبِىٌّ وَصِدِّيقٌ وشهيدان » . أخرجه البخارى وغيره .

ومن عجائب إلهام الله للحيوان ما وقع يوم وصول النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، حيث تجاذب الصحابة ناقته القصواء وهو عليها ، ليكون الرسول ضيفًا كريمًا على من يفوز بها

(١) نقله القرطبى عنه فى تفسير هذه الآية . (٢) من الآية : ١٠ (٣) الآيتان : ١٨ ، ١٩

منهم ، فقال لهم : « خلُّوا سَبِيلها فإنها مأمُورةٌ » فتركوها وأرخى النبي زمامها دون أن يوجهها ، فجعلت تنظر يمينا وشمالا أثناء سيرها حتى برَكَتْ بفناء بنى عدى بن النجار أمام مِرْبد سهل وسُهَيْل ولدى رافع بن عمرو ، ثم ثارت الناقة والرسول عليها حتى بركت أمام باب أبى أيوب الأنصارى ، ثم ثارت وبَرَكَتْ فى مبركها الأول وَأَرْزَمَت (أى صَوَّتَتْ دون أن تفتح فمها) ونزل النبي صلى الله عليه وسلم عنها وقال : « هَذَا الْمَنْزِلُ إنْ شاءَ اللهُ » ، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته ، وقال أبو أيوب المرءُ مع رحله ، فنزل النبي عنده ، وأخذ سعد ابن زرارة ناقته عنده .

وقصة (الهدهد) العجيبة مع سليمان ، وكذا قصة (النملة) فى توعيتها للنمل من أن يحطِمهُ سليمان وجنوده ، وتعليم الله سليمان منطق الطير كل ذلك واضح فى أن لها إدراكات ونطقا وعبارات لا يعلمها إلا من علمه الله ، فلا غرابة فى أن يُعبر الله عن إلهامه للنحل فى معاشها بالوحى ، لأن لها إدراكات تعى بها هذا الإلهام ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

المعنى الاجمالى للآية

وألهم ربُّك النحلَ ، قائلا فى إلهامه إياها : اتخذى بيوتا لك تأْوين إليها فى الجبال داخل كهوفها ومغاراتها وكُواها ، وفى الشجر داخل أجوافها وبين أغصانها وفيما يعرشه ويُهيئهُ لك بنو آدم من العرايش والخلايا ونحوها .

وعرش ، معناها هنا : هيَّأ ، قال القرطبي : وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها. ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اهـ ويقول ابن العربي فى هندسة النحل لبيوتها : ومن عجيب ماخلق الله فى (النحل) أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس ، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة : ا هـ من القرطبي

٦٩ ــ (ثُمَّ[١] كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى وكلى أيتها النحلُ بعضا من كل الثمرات ، وهو رحيق الأزهار التى هى أساس

(١) لفظ (ثم) هنا بمعنى واو العطف وليست للترتيب والتراخى ، إذ لا ترتيب بين الأكل من الثمرات وبين اتخاذها البيوت ولا تراخى لأكلها عنه ، فإنهما قد يكونان متصاحبين ، بل ربما سبق الأكل من الثمرات بناء البيوت ، فإن البطون الجائعة تضعف قواها عن البناء .

لثمرات أو من الثمرات نفسها، ويقولون إنها قد تأكل من الأزهار المُرَّة، ويعود كل ذلك عسلا حلوا شهيا، وفى ذلك يقول المعرى :

والنحل يجنى المُرَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبى فيعود شَهْدًا فى طريق رُضَابِهِ[1]

والأمر فى قوله تعالى للنحل : «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمراتِ» ليس على حقيقته، بل المقصود منه أنه - تعالى - يسَّر لها ما تشتهيه من الثمرات لتأكل منه، فتجد نفسها مجبولة على أن تتناول منها ما تريد كأنها مأمورة بذلك، لتحيى وتؤدى وظيفتها فى الحياة، من إفراز العسل لغذاء الناس وشفائهم، ثم بيَّن الله أن سبلها إلى ذلك مذللة فقال سبحانه :

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) : أى فاذهبى طائرة فى طرق ربك التى توصلك إلى الحدائق والبساتين فهى مفتوحة لك فى جنبات السماء شرقًا وغربًا، شمالا وجنوبا، مسخرة لك، لا يمنعك عنها مانع فأنت نافعة للزراعة، وجالبة للأرزاق، وكما ذلَّلها الله لك فى الغداة وأنت ذاهبة إلى أرزاقك، ذللها لك فى الأصيل وأنت عائدة إلى بيوتك لا تضلين سبلها، فسبحان الله « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

وقيل فى معنى الآية : فاسلكى ما أكلت من الأزهار والرحيق فى مسالكه التى يتحول فيها بقدرة الله عسلا .

ثم اتجه الكلام من مخاطبة النحل إلى الكلام مع الناس فى عجائب صنع الله على سبيل الاستئناف، وذلك فى قوله تعالى :

(يخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) :

يقُصُّ الله علينا فى هذه الآية أن النحل بعد أن تتناول غذاءها من كل الثمرات، يخرج من أجوافها عسل ألوانه مختلفة تبعًا للون ما تناولته من الأزهار والثمرات، فقد يكون أبيض، وقد يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة أو نحوهما، كما قد يتأثر برائحتها طيبة أو كريهة، وقد يكون للجو[2] أوْ لِسِنِّ النحل أثر فى ألوان العسل، كما يقوله القدامى والله تعالى أعلم، وقد عبر عنه بشراب لأنه مما يشرب .

---

(١) الرضاب - بضم الراء مشددة - يطلق على الريق فى الفم، والشهد - بضم الشين المشددة وفتحها - هو العسل .

(٢) فان الجو الحار يجعل لون العسل يميل إلى الصفرة والكدمة، وقوامه، إلى الكثافة .

والجمهور على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، ومن ذلك قول الحسن : لُبَابُ البُرِّ بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم : ا ﻫ ونحن نقول : إنما قال الله سبحانه : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا) : لأنها هي التي تحيل الثمرات التي تأكلها النحل إلى عسل ، ثم تدفعه وتخرجه من هذه البطون عن طريق أفواهها ، وقال الآلوسي : وفي الكشف أن في قوله تعالى : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) إشارة إلى أن لمعدة النحل في ذلك تأثيراً ، وهو المختار عند المحققين من الحكماء : ا ﻫ يريد بذلك أن يردّ على من يزعم أن المراد من بطونها أفواهها ، وأن الأفواه هي التي تصنع العسل دون دخل للمعدات في تحويل الغذاء إلى عسل .

وقد بين الله تعالى أن هذا العسل فيه شفاءٌ للناس ، إما مجرداً وإما مخلوطا بغيره من المعاجين المختلفة ، كما كان قدامى الأطباء يعالجون ، وقد اعترف الطب الحديث بفوائده في كثير من الأمراض والقروح وليس بلازم أن يكون فيه شفاءٌ لكل الأمراض أو لكل الناس فقد يشفى به مرض في إنسان ولكنه لا يشفى به في إنسان آخر ، وقد يشفى به مرض ، ويزيد العلة في مرض آخر ، ولهذا لم يعمم الله تعالى في لفظ الشفاء ، إذ لم يقل : فيه الشفاءُ للناس ، بل قال : (فِيهِ شِفَاءٌ) بتنكير شفاء للتبعيض ، ليكون المعنى : فيه بعض الشفاء للناس لا كل الشفاء دائمًا (١) .

وقد ذكر قدامى الأطباء أنه ينقى الجروح ويُدمِّلها ويأكل اللحم الزائد ، ويشفى من دموع العين وحكتها وجربها كحلا وبخاصة مع ماء البصل ، وإن أذيب في الماء سكن المغص وقطع العطش ، إلى غير ذلك مما كتبته كتب الطب القديم فارجع إليها إن شئت فقد كَتَبَتْ عنه كثيراً من الفوائد والأضرار ، وهذه الآية دليل على جواز التداوى خلافا لمن كره ذلك ، بل هو مطلوب لقوله تعالى: « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل داءٍ دواءٌ فإذا أُصِيب دواءُ الداء برأ بإذن الله » وأخرج أبوداود والترمذى عن أسامة بن شريك قال : قالت الأعراب ألانتداوى يارسول الله قال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً إلا واحداً » قالوا يارسول الله وما هو ؟ قال الهرم » لفظ الترمذى وقال : حديث حسن صحيح إلى غير ذلك من الأحاديث .

---

(١) و «أل» في الناس للجنس لا للاستغراق ، فيصدق الخبر بحصول الشفاء في بعضهم .

ثم ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : فإن أهل الفكر حين يرون هندستها البارعة فى بناء بيوتها ، وتحول طعامها من الثمرات ولو كان مرًّا إلى عسل شهى مختلف الألوان ، نافع للأبدان ، يستدلون بذلك على أن لها ربًّا حكيما ألهمها وأعطاها من العجب ما يحير الأفكار ، وما لا يستطيعه الإنسان ، ولا يترددون فى أن يقولوا : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(أَرْذَلِ الْعُمُرِ) : أى أخسه وأحقره . (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) : أى متساوون .

(وَحَفَدَةً) : جمع حفيد وهو ولد الولد كما قال الأزهرى : ويطلق على الخَتَن وهو الصهر كأبى الزوجة وأخيها وسائر أقاربها ، رواه زرٌّ عن عبد الله ، وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوانُ ، فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد – قال – ومنه قولهم : « إليك نسعى ونحفد » وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم .

(الطَّيِّبَاتِ) : النِّعم التى طابت وطاب أكلها وطعمها ، أو ما أحله الله من الأرزاق .

التفسير

٧٠ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) :

يحكى الله فى هذه الآية بعض عجائب قدرته وسلطانه فى الإنسان ، بعد أن بيّن عجائب إبداعه وحكمته فى إنزال الماء من السماء ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وعظيم العبرة فى الأنعام حيث أخرج لنا من بين فرثها ودمها لبنا خالصا سائغا للشاربين ، وبليغ حكمته ونعمته فى (النحل) حيث ألهمها تدبير رزقها ومساكنها العجيبة وأخرج لنا من بطونها شرابا مختلف الألوان كثير المنافع للأبدان ، والحكمة فى بيان هذه الآيات توجيه العقول إلى الإيمان بمبدعها ، وأنه قادر على إحياء من فى القبور .

والمعنى : والله - تعالى - خلقكم فأحسن خلقكم ، ورباكم فأحسن تربيتكم ، ولم يجعل حياتكم فى دنياكم إلى بقاء بل أعدها إلى فناء ، ففى أول نشأتكم على وجه الأرض تنمون ثم تَشِبون ، ثم يتوقف نموكم عندما يكتمل شبابكم ، ولكنه يحفظ عليكم فتوّتكم وقوتكم إلى أن تصلوا إلى سن الكهولة[1] فتضعف قُوَاكُم آنا بعد آن ، ويتدرج ضعفكم حينا بعد حين ، حتى إذا أطلت الشيخوخةُ بأعبائها ، حل على أجسادكم الانحطاط الكبير ، وعلى عقولكم الوهن الخطير ، فتصبحون فى أرذل العمر ، وأخسّ مراتب الحياة ، فلا تعلمون من بعد علم شيئا ، إذ تنسون ما كنتم تذكرون ولا تحفظون ما تتعلمون ، وفى أثناء هذه الحياة منكم من يتوفاه الله فى طفولته ، ومنكم من يميته فى شبابه ، وبعضكم يأخذه فى كهولة ، وآخر يرحلُ إليه فى شيخوخته ، ولا يرتبط ذلك كله إلا بإرادة العليم الخبير ، فلا يستطيع حكيم أن يتحكم فى أجله « وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[2] .

(١) الكهل : من أصابه الشيب ، وعرفه بعض اللغويين بأنه من جاوز الثلاثين إلى الخمسين والهرم بوزن الكرم أقصى الكبر ، ومن يوصف به فهو هرم ، وفعله هرم كفرح ، والشيخوخة تبدأ من الحادية والخمسين ، وتنتهى آخر العمر ، والهرم داخل فيها ، راجع تلك المواد فى القاموس وغيره . (٢) بعض الآية الأخيرة من سورة لقمان .

وليس لمراتب العمر سن معينة ، فقد تأتى الكهولة أو الشيخوخة فى سن الشباب ، فكم من شباب شابوا وانحطت قواهم وضعفت ذاكراتهم ، ومفتاح هذا كله وعلمه عند الله رب العالمين ، ولهذا ختم الله الآية بقوله جل ثناؤه .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) : أى إنه تعالى واسع العلم بمقادير أعماركم ، عظيم القدرة على إحيائكم وإماتتكم ، وهو صاحب المشيئة المطلقة فإن شاء أمات الشاب النشيط وأبقى الشيخ الفانى ، وإن شاء أجرى الأمور على ضوابط مطردة ، فالحكم لله العلى الكبير .

واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عدة أمور منها الهرم حيث يحل أرذل العمر ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ فيقول : « اللهم إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ ، وَأعوذُ بِكَ مِنَ الهرمِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ » .

٧١ - (وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا ملَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :

بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة دلائله ونعمه فى خلقنا وتفاوتنا فى آجالنا وعلومنا ، وجاءت هذه الآية لبيان فضله فى رزقنا ، وأننا لا نرضى أن نسوى بيننا وبين مماليكنا فيه ، فكيف يرضى المشركون أن يسووا بينه - سبحانه - وبين خلقه فى الألوهية ، فيشركوهم معه فيها ، ويعبدوهم أكثر مما يعبدونه .

والمعنى : والله جعلكم متفاوتين فى الرزق والنعمة ، إذ جعل بعضكم غنيا والآخر فقيراً ، وبعضكم سيداً والآخر مملوكا ، وبعضكم مخدوما والآخر خادما ، وقد جرت عادتكم أن لا يُعْطِى من فضَّلهُ الله فى النعمة مملوكه أو خادمه ما يجعله مساويا له فيها ، بل يعطيه شيئا يسيراً ، فإذا كانوا لا يحبون أن يجعلوا مماليكهم أو خدمهم مثلهم فى الرزق ، مع أنهم مساوون لهم فى البشرية والمخلوقية لله والاستحقاق فى رزقه ، فكيف يرضون أن يجعلوا شريكا مع الله مَلَكًا أو بشراً أو كوكبا أو صنما ، ويسووه به - تعالى - فى الألوهية والمعبودية ، فى حين أنها مخلوقة له وليس لها من أمر نفسها أو غيرها شىء ، فإن الأمر كله لله - تعالى - وختم الله الآية بتوبيخهم على إنكارهم لنعمه بهذا الإشراك فقال :

(أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) : أيشركون بالله - تعالى - فيجحدون بهذا الإشراك ما أعطاهم من نعمة حيث اقتضت عبادتهم لآلهتهم أن هذه النعم منهم ، أو أنهم شركاء فيها ، مع أنها من فضل الله دون سواه ، ثم بين فضله عليهم فى الأزواج والأولاد والأتباع ورزق الطيبات ، وعدم قيامهم بموجب إنعامه فقال :

٧٢ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) :

والله تعالى جعل لكم يا بنى آدم زوجات من جنسكم لتأنسوا بهن ، ويكون أولادكم أمثالكم ، فتتناسلوا وتنجبوا نوعا واحداً بلا تباين ولا اختلاف ، وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم ، والأول أظهر .

(وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) :

الحفدة : جمع حافد ، وهو من يسرع فى الخدمة والطاعة ، وقد اختلف العلماء فى بيان المراد منه هنا ، وقد مرَّ فى المفردات بيان بعض ما قالوه فى ذلك وأظهره أنهم أولاد الأولاد ، قال القرطبى : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهرُ القرآن بل نصّه ، ألا ترى أنه قال : « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ، فجعل الحفدة والبنين منهن » ا هـ. وهو الذى استظهره ابن العربى .

والطيبات : لذائذ النعم ، أو حلالها .

والمعنى : والله جعل لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم إلى معاشرتهن ، وتسكن قلوبكم عند لقائهن ، وتزول همومكم بأحاديثهن ، ولم يجعلهنَّ من جنس آخر تنفر منه الطباع ، ويختلف بسببه الجنس البشرى ، ورزقكم لذائذ النعم وما أحله منها ، وكان عليكم أن تشكروه ولا تكفروه ، وتوحدوه ولا تعبدوا معه غيره ، ولكنكم أخللتم بمقتضى نعمته ، ولهذا نعى على الكافرين ذلك فقال :

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) :

أفبالباطل من ألوهية شركائهم وحرمة البحائر والسوائب ونحوها يصدقون ، وبنعمة الله التى لا حصر لها يكفرون ، حيث يضيفونها لآلهتهم ، وينسون الله الذى أنعم بها عليهم .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) : ولا يقدرون على أى شىء .

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) : أى فلا تجعلوا لله الأشباه والنظائر ، باتخاذكم له شركاء .

التفسير

٧٣ ــ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ...) الآية .

أى ويعبد المشركون سوى الله مالا يملك أن يرزقهم شيئا من السماء كالضوء والمطر ومن الأرض كالنبات والثمر ، ولا يستطيع أولئك الشركاء أىَّ قَدْرٍ من الاستطاعة فى النفع فضلا عن الضر .

٧٤ ــ (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

أى فلا تجعلوا لله تعالى الأشباه والنظائر بعبادتكم سواه معه ، ولا ينفعكم ما تزعمون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، فلا يقربكم إليه سوى توحيده وعبادته وتنزيهه عن الشريك والنظير . إن الله تعالى يعلم الحق فيأمركم به ، ويعلم الباطل فينهاكم عنه ، وأنتم تجهلون ولا تعلمون ، فاجتنبوا نهيه وأطيعوا أمره .

(* ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) : أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .

(هَلْ يَسْتَوُونَ) : المراد أنهم لا يستوون . (أَبْكَمُ) : لايقدر على الكلام ولايسمع.

(كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) : عالة وعبء ثقيل على سيده الذى يتولى أمره.

(يُوَجِّهْهُ) : يبعثه فى مهم من الأمر . (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يدعو إلى الخير والبر .

(السَّاعَةِ) : المراد بها يوم القيامة .

(كَلَمْحِ الْبَصَرِ) :رجع الطرف من أعلى إلى أسفل أو هو النظر بسرعة ، يقال لمحه لمحا إذا نظره بسرعة .

التفسير

٧٥ - (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لَّايقدِرُ عَلَى شَيْء وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا) :

بعد أن نهى الله سبحانه عن الإشراك به، وقرع المشركين ووبخهم على اتخاذ الأنداد له تعالى ضرب مثلين يوضح بهما عدم التساوى بينه وبين أحد أو شىء من خلقه ليدرك العاقل أنه إذا انتفت المماثلة فيهما وجب التوحيد وامتنع الشرك بالبداهة .

والمعنى : صور الله حالكم فى إشراككم أوثانكم العاجزة ؛ بالله القدير الكريم الكثير الخير والبر ، صور لكم ذلك ومثله بحال من يُسوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف شديد الحاجة إلى غيره وبين حرٍّ رزقه الله رزقا واسعا فهو ينفق منه على غيره ويتفضل به على سواه فى السر والعلانية حسب مقتضيات الإنفاق ، ويتصرف فيه بحكمة فكيف يستوى هذا الحر الكامل التصرف مع هذا العبد الشديد العجز عن التَّصرُّف ، فضلا عن أنه لا يملك أمر نفسه ، ولهذا سأل الله العقلاء بأسلوب الاستفهام الإنكارى فقال : (هَلْ يَسْتَوُونَ) : أى هل يعقل أن هذا العبد الضعيف العاجز عن التصرف يتساوى مع الحر المتصرف على أحسن الوجوه وإذا كانا لا يستويان بداهة ، فكيف يسوى هؤلاء المشركون أوثانهم العاجزة بالله الخالق الرازق المدبر المحسن فى السر والعلن ، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :لبيان أن وضوح هذه الحجة يقتضى الثناء الكامل والحمد التام لله وحده لأنه المستحق له دون سواه ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون أن هذا هو الحق وذلك لجهالتهم وغفلتهم ، ولمَّا كان فريق آخر منهم يعلم ذلك ويعرفه ولكنه لايعمل بموجبه عنادا واستكبارا فلهذا قيل : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُون) ولم يقل :بل هم لايعلمون .

وقيل : المراد أنهم جميعا لايعلمون فعَبَّر بأكثرهم عن جميعهم .

٧٦ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

وهذا مثل آخر مؤكد للمثل الأول فى الدلالة على مادل عليه بأوضح وجه وأظهر بيان . أى وذكر الله مثلا آخر يوضح فساد مساواتهم آلهتهم بالله ، وهو يتجلى فى رجلين أحدهما : أخرس أصم لا يُفهِم ولا يَفْهَم وهو مع ذلك لايقدر على شىء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضر لجهله وسوء تقديره ، وهو لذلك عبءٌ على غيره حيثما يرسله مولاه فى أمر فإنه لاينال

نجحا ولايصيب خيرا ، أما ثانيهما : فرجل عاقل له رأى ، سليم الحواس ينفع نفسه وغيره يأمر الناس بالإنصاف والعدل ، وهو على منهج قويم وسيرة صالحة هل يستويان ؟ وإذا كانا لايستويان ولايتشابهان فكيف يسوى المشركون الصنم الأصم الأبكم العاجز عن كل شيء بالله القادر الذى يفيض على عباده الكثير من آثار رحمته ونعمته ، ويأمرهم بالعدل فى توحيده وطاعته وفى أمرهم كله ، وهو فيما يدعوهم إليه على طريق مستقيم موصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

٧٧ ـ (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

بعدأن بين الله تعالى عن طريق ضرب المثل استحالة أن يستحق العبادة غير الواحد الأحد جاء بهذه الآية لتدل على كمال علمه وعظيم قدرته وبعيد حكمته .

والمعنى : ولله وحده ماغاب فى السموات والأرض وخفى فيهما على خلقه ، لهُ ذلك خلقا وملكا وعلما وتصرفا ، ولاسبيل لغيره فى شيء من ذلك .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : أى وما الشأن فى سرعة مجىء الساعة التى يقوم فيها الناس لرب العالمين إلا كرجع الطرف بإطباق الجفن ، فإنه تعالى لايعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء . ونحوه قوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى أن قيام الساعة وبعث الخلق للحساب والجزاء فى السرعة كطرف العين ، وقوله : (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : ليس للشك بل لتخيير الْمُمَثِّلِ فى التمثيل به أو بالذى قبله ، وكلاهما كناية عن بالغ السرعة وقيل : إن المعنى بل هو أقرب عند الله فى الحقيقة . وإنما خص الساعة بالذكر من بين علوم الغيب التى لا تحصى لكثرة المماراة والمجادلة فيها وتكذيب الأمم رسلها فى إخبارهم بها ، ولذا ختم ـ سبحانه ـ الكلام عنها بما يثبت قدرته وأنه تعالى ـ لايمتنع عليه شيء أراده فقال :

(إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فلا يعجزه أمر الساعة ، وبعث الأجساد بعد موتها ، كما لايعجزه شيء سواه .

(وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : لكى تشكروا . (مُسَخَّرَاتٍ) : مُيَسَّرَات مُهيآت للطيران .

(سَكَنًا) : موضعا تسْكُنُون فِيهِ أو تسكنون وتطمئنون إليه .

(الأَنْعَامِ) : هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

(تَسْتَخِفُّونَهَا) : تجدونها خفيفة سهلة المأخذ . (ظَعْنِكُمْ) : سفركم وارتحالكم .

(أَثَاثًا) : الأثاث متاع البيت كالبساط والفراش والغطاء والكساء .

(مَتَاعًا) : مايتمتع وينتفع به . (إِلَى حِينٍ) : إلى وقت انقضاء حاجتكم وتمتعكم به .

(مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً) : ما يستظل ويتقى به حر الشمس وضوءها من سقف وشجر وغمام وغير ذلك .

(أَكْنَانًا) : جمع كِنٍّ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف .

(سَرَابِيلَ) : هى الثياب مطلقا ، جمع سربال أو سربالة .

(تَقِيكُمُ الْحَرَّ) : تحفظكم منه ، كما تحفظكم من البرد أيضا ، ففيه اكتفاء بأحد الضدين عن الآخر .

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ): هى لباس الحرب كدروع الحديد وأغطية الرأس منه .

التفسير

٧٨ - (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) :

بعد أن ضرب الله المثل للناس على فساد الشرك ، واتخاذ الأوثان شركاء لله فى العبادة ، شرع فى ذكر عدد من دلائل قدرته وبديع حكمته وجليل نعمته على عباده التى يستحق بموجبها أن يُعْبد دون سواه ، وأن يشكر ولا يكفر به ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخرجكم من بطون أمهاتكم وليست لديكم القدرة على تحصيل العلم ، فقد كانت ملكاتكم فى طفولتكم عاجزة عن أداء وظيفتها فمنَّ الله عليكم بنمو أجسادكم وحواسكم وملكاتكم ، لكى تُحصِّلوا بها العلم والمعرفة ، فبالسمع تسمعون ، وتُدركون المسموعات ، وبالبصر تدركون المرئيّات ، وبالعقول والأفئدة تميِّزُون بين الخير والشر والنافع والضار ، وتحصّلون العلم ، وقد فعلنا ذلك لكم وأنعمنا به عليكم .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا الله وتعرفوا له فضله فلا تعدلوا به أحداً سواه .

٧٩ - (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) :

هذه آية أخرى حثنا الله فيها على النظر فى عجائب صنعه .

والمعنى : ألم ينظر المشركون إلى الطير مسخرات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة والأسباب المساعدة عليه ، فإن من تأمل الطيورالسابحة فى الجو ، لا شىء يجذبها إلى أعلى ، ولا سبب يحفظها من السقوط فى أسفل ، أدرك أن الله هو الذى سخرها للطيران وسخر لها الجو وأمسكها فيه ، ولم يمسكها سواه ، وذلك بما أمدها به من أسباب تحفظها وتمسكها أن تسقط إلى الأرض ، وتجعلها تجوب الفضاء وتعلو وتهبط وتسرع وتبطىء ، وتميل يميناً وتنحرف شمالاً ، إنه الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الذى ذكر من تسخير الطير فى الجو وإمساكها من السقوط لدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، يسوقها لقوم لهم علم وعقل وإيمان فما بال المشركين يعرضون عن هذه الآيات الجليلة المستوجبة لطرح الشركاء ، والتوحيد الخالص لرب العالمين .

وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر ، وإن كانت الحجة قائمة على كل عاقل .

٨٠ ـ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) :

وتلك آية أخرى ساقها الله ، مبيّناً بعض نعمه المستوجبة لشكره والإيمان به .

والمعنى : أنه هداكم إلى اتخاذ البيوت لكى تستريحوا وتسكنوا فيها بين أهليكم وأولادكم ولم يترككم تأوون إلى الغابات أو تعيشون فى الكهوف وقت إقامتكم الدائمة ، أما فى الترحل والانتقال فقد ألهمكم ما يعينكم على تلك الحياة وهو ما ذكره تعالى بقوله :

(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا) : أى أرشدكم إلى صنع الخيام وضرب القباب فى أسفاركم ، وهداكم إلى اتخاذها من جلود الأنعام حيث :

(تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) : تجدونها خفيفة الحمل قليلة الكلفة ، فيسهل عليكم نقضها وحملها ونقلها إذا ارتحلتم ، فإذا ما أقمتم سهل عليكم ضربها للإقامة ،فيها ما أقمتم .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ) : أى وهداكم كذلك إلى أن تتخذوا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاث المنازل من البسط والفرش والكساء والغطاء والخيام، وماقد تحتاجون إليه فى إقامتكم وأسفاركم تتنعمون به أنتم ، أو تتجرون به فتتسع أرزاقكم وتنمو بذلك أموالكم وتزداد ثرواتكم وتتمتعون به على أى وجه مما ذكر إلى حين انقضاء آجالكم وانتهاء أعماركم أو حاجاتكم .

٨١ - (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا . .) الآية .

أى أنه تعالى جعل للضاربين فى الأرض مما خلق من الأشجار والجبال والتلال ونحوها ظلالا يستظلون بها من الحر ، كما جعل لهم من الجبال ما يسكنون فيه أو يأوون إليه عند الحاجة ، من المغارات والكهوف .

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) : ومن نعمه سبحانه أن ألهمكم اتخاذ ملابس للسلم تقيكم الحر مثل الجلابيب والأردية والقمص والقلانس ونحوها مما يستر أجسادكم ويقيكم حر الشمس وبرد الشتاء. وقد استغنى بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغنى فى لغتها كثيرًا بذكر أحد المتقابلين عن الآخر اكتفاء بأحدهما ، لأنه يشعر بالمحذوف ويدل عليه ، وكما أرشدكم إلى صنع لباس السلم ، ألهمكم أن تصنعوا من الحديد مايدفع عنكم الضربات ويرد الطعنات فى بأس الحرب وشدتها .

(كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) : أى هكذا تتوالى نعم الله عليكم فى حياتكم حتى تتكامل وتتم ، لعلكم أنتم وكل من يصلح للخطاب والتذكير تتأملون وتتدبرون فتدركوا نعم الله عليكم ، وتعرفوا لِواهِبِها قَدْرَهُ فتنقادوا له ، ولا تتخذوا معه الأنداد ولا تعبدوا ربًّا سواه ، فأنت ترى من سرد هذه النعم أنه تعالى شمل بنعمته أهل الحضر وأهل المدر ، فالكل بنعمته ينعمون ، وبفضله يتمتعون .

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَوَلَّوْا) : أعرضوا وأبوا . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ البيّنُ الواضح .

(يُنكِرُونَهَا) : يجحدونها ولا يعرفون فضل المنعم بها . (أُمَّةٍ) : جماعة من الناس .

(شَهِيدًا) : أى نبيا يشهد بكفرهم أو بإيمانهم .

(لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يسمح لهم بالاعتذار إذ لا عذر لهم .

(وَلَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولا يطلب منهم العُتْبى أى إرضاء الله يوم القيامة ؛ والعُتْبى تطلق على الرضا – انظر القاموس .

(يُنْظَرُونَ) : يمهلون ويؤجل عذابهم . (نَدْعُوا) نعْبُد .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون ويكذبون .

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) : أى وأظهروا الاستسلام إلى الله يوم القيامة .

التفسير

٨٢ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى فإن أعرض المشركون يا محمد بعد بيان الآيات الكونية والتنزيلية ولم يؤمنوا بما جئت به من الحق ، فلا تحزن عليهم ولا تأسف على ما يصنعون فلست مسئولًا عن كفرهم .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى فما عليك إلا أن تبلغهم ما أُرسِلْت به إليهم تبيينًا يوضح معالم الدين ويبين الصراط المستقيم وقد فعلت على أتم وجه وأكمله ، وهم مسئولون ومحاسبون على عدم استجابتهم ، أمَّا خلق الإيمان فى قلوبهم فلست بقادر عليه . قال تعالى : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ » [1] .

٨٣ - (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) :

أى يعرف المشركون أن هذه النعم المذكورة وغيرها من عند الله فإذا سألتهم من الذى خلقها ؟ قالوا : خلقها الله ، وكان مقتضى هذه المعرفة أن لا يشركوا بالمنعم بها ، وأن لا يعبدوا سواه ، ولكنهم ينكرون نسبتها إلى الله بأفعالهم ، وذلك بعبادة غير واهبها ، وشكر غير مُسْدِيها من صنم أو غيره وعطف بثم التى تفيد التراخى والبعد ، للدلالة على أن إنكارهم أمْرٌ ينبغى أن يكون مستبعدًا ، وذلك بعد أن عرفوا نعم الله وسعدوا بها ؛ إذ أن من الواجب على من عرف النعمة وعاش فيها أن يعترف بها لمنعمها لا أن يجحدها وينكرها .

(وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) : أى وأكثر أهل مكة هم الكافرون بها ، حيث عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق ،أما القليل منهم فقد آمن بالمنعم بها واستجاب لدعوة نبيهم إلى توحيده .

ويجوز أن يراد من نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يعرفونها بعقولهم ثم ينكرونها بألسنتهم عنادًا ، وأكثرهم الجاحدون به ، أمَّا القليلون منهم فقد هداهم الله ، فآمنوا به صلى الله عليه وسلم ، وثبتوا على إيمانهم مع ما قاسوه من التعذيب والإيذاء .

٨٤ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) :

لما بين سبحانه حال الكافرين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ؛ جاء بهذه الآية وعيدًا للمنكرين .

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٤٠

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم القيامة ، ونبئهم بما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث من كل أمة شهيدًا من المرسلين ، يشهد لمن آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر ، حسبما علمه عن أمته فى حياته .

(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) :أى لا يؤذن لهم فى الاعتذار إذ لا عذر لهم ولا حجة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)[1] :أى ولا يطلب منهم أحد فى هذا اليوم العتبى -أى أن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح- فقد فات أوان ذلك حيث كانوا فى دنيا التكليف ، وقد أعطوا الفرصة فيها فلم يفعلوا ، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك ، فإن الآخرة دار جزاء . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[2] .

٨٥ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) :

وتلك صورة أخرى لما يكون عليه الكافرون من أهل النار، أى وإذا رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر - إذا رأوا العذاب على كفرهم ومعاصيهم وعاينوه وشاهدوه ، (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : إذ لا مجال للتخفيف بتوبة أو اعتذار ، « لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[3] .

٨٦ - (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ...) الآية .

وهذه صورة من الصور التى تكون بين الكافرين وبين من أشركوهم مع الله فى العبادة ، أو عبدوهم من دون الله ، فإذا رأوهم نادوا ربهم أذلاء صاغرين .

(هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ) : أضلونا وحملونا على عبادتهم . كأنما يقولون : هم الذين يستحقون العذاب دوننا . وكل شىء يومئذ ينطق بإذن الله فلهذا تكذبهم معبوداتهم من كل نوع كما حكى الله بقوله :

---

(١) أصل الاستعتاب طلب إزالة العتب والغضب ويكنى به عن سلب الرضا وبهذا فسر قوله تعالى : « ولا هم يستعتبون » بمعنى ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٦ (٣) سورة التحريم ، الآية : ٧

(فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) : أى إنكم كذبتم فيما زعمتم أننا شركاء لله ، كما كذبتم فى دعائكم أننا أضللناكم ورضينا بكفركم، أو فيما تقولتم فى دنياكم من استحقاقنا للعبادة ، وما أضللناكم ولكنكم أضللتم أنفسكم وعطلتم عقولكم ، وما كان لنا عليكم من سلطان.

٨٧ـ (وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وهذه خاتمة أحوال الكافرين يوم الدين : إنها خزيهم واستسلامهم.

والمعنى أن المشركين استسلموا صاغرين بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم فى آلهتهم وضل سعيهم ، وحقت عليهم الكلمة وباءوا بغضب من الله .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : وغاب عنهم كل ما افتروه من شرك آلهتهم لله ، وشفاعتها لهم عند ربهم ، غاب عنهم كل هذا ولقوا ربهم بفضيحة كفرهم وخزى معاصيهم .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) : منعوا الناس عن الإيمان بدين الله .

(شَهِيدًا) : شهيد كل أمة نبيها ، فهو شاهدها .

(هَٰؤُلَاءِ) : المشار إليهم الأمم أو الأنبياء ، أو الكفار من أمة سيدنا محمد .

(الْكِتَابَ) : القرآن . (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : توضيحًا لأحكام كل شىء .

التفسير

٨٨ـ (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى اسْتسلام الكافرين واعترافهم بكفرهم بين يدى أحكم الحاكمين أوضح جزاءهم فى تلك الآية الشريفة .

والمعنى : أن الذين كفروا بالله فلم يعترفوا بوحدانيته ، وصرفوا الناس عن دينه الذى هو سبيله الأقوم ،

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) : ضاعفنا عذابهم ضعفين ، عذابًا بكفرهم وغيهم وضلالهم ، وعذابًا بصدهم الناس عن الإيمان وحملهم إياهم على الكفر والفسوق والعصيان فاستحقوا أن يزادوا عذابًا .

(بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) : بسبب استمرارهم على الإفساد وإصرارهم على الضلال ، وفى الآية دليل على تفاوت العذاب فى دركاته كما يتفاوت النعيم فى درجاته .

٨٩ـ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ) :

واذكر أيها الرسول للناس يوم القيامة حيث نبعث فى كل أمةٍ شَهيدًا عليهم من أنفسهم ،أى من بينهم وجنسهم وبلغتهم قطعًا لمعذرتهم .

وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لها أو عليها بما كان منها من الاستجابة له ، أو الإعراض عنه والصدّ عن سبيله كما تقدم بيانه .

(وجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) : وأحضرناك يامحمد يومئذ شهيدًا على أمتك هؤلاء ، تشهد عليهم كما يشهد كل نبى على أمته ، ويجوز أن يكون المراد من (هَؤُلَاءِ) : الأنبياءُ ، فهم يشهدون على أممهم ، وأنت يا محمد تشهد لهم بأنهم بلغوا ما أمروا بتبليغه كما أخبرك به العليم الخبير فى كتابه العزيز ، أو جئنا بك يا محمد شهيدًا على الأمم بما لاقوْا به رسلهم من إيمان وتصديق أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك .

وقد ورد فى تفسير تلك الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: إنه قرأ سُورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : حسْبُنا .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : أى وآتيناك القرآن مبينًا لأحكام كل شىء من شئون معاش الناس ومعادهم ، والبيان الذى جاء به القرآن للأحكام إما بإيراد نص فيها ، أو بالإحالة على السنة كقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[1] . أو بالإحالة على الإجماع حيث أوجب الأخذ به وتوعد على مخالفته فى قوله تعالى : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »[2] . أو بالإحالة على القياس وذلك فى قوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِى الْأَبْصار »[3] فالاعتبار التَّبصُّرُ والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه أربعة طرق لا يخرج عنها شىءٌ من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان بحق تبيانًا لكل شىء .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) : أى وكان منشأً الهداية والرشد ، كما أنه رحمة للمسلمين وبشرى لهم بحسن المصير وطيب المنقلب إلى ربهم ، لأنهم أسلموا وجوههم إلى الله ، وأحسنوا أقوالهم وأعمالهم ونياتهم لربهم . « وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى »[4] .

(﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يأمر بالإنصاف وعدم الظلم . (وَالْإِحْسَانِ) : هو إتقان العمل وإكماله .

(ذِى الْقُرْبَى) : المراد به صاحب القرابة مطلقًا .

(وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) : الفحشاء ماعظم قبحه قولًا أو فعلًا ، ويكثر إطلاقه على الزنى .

---

(١) سورة الحشر ، من الآية : ٧
(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٥
(٣) سورة الحشر ، من الآية : ٢
(٤) سورة لقمان من ، الآية : ٢٢

(وَالْمُنكَرِ) : كل ما أنكره الشرع من الذنوب والمعاصى .

(وَالْبَغْيِ) : وهو التطاول على الناس ظلمًا وعدوانًا .

التفسير

٩٠ـ (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . .) الآية .

هذه الآية كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غيرها لكفت فى كونه تبيانًا لكل شىء وهدى » . أخرجه البخارى فى الأدب والحاكم وصححه ابن جرير واللفظ له .

وقد قرأها الرسول صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة . فقال له : يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه . فقال له الوليد والله إن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وما هو بقول بشر ، ولما سمعها أكثم بن صيفى من وفد قومه إلى الرسول قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مذامها . فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا ،ذلك لأنها جمعت إجمالًا بين ما يجب عمله من الفضائل وما يتعين تركه من الرذائل ، والعدل الذى يأمر به سبحانه خُلقٌ جامع لكل الفضائل من القول والعمل . يغرس فى الإنسان حب الاستقامة والمساواة ، والرغبة فى طاعة الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وإنصاف الناس من نفسه ، وإنصاف بعضهم من بعض وهذا الخلق يجعله إذا ما تصرَّف فى أمر من الأمور أو تخلَّق بخلق يتوسَّط فيه بين الإفراط والتفريط ، وقال سفيان بن عيينة العدل استواءُ السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا وكما يأمر سبحانه بالعدل ويدعو إليه . فإنه يأمر بالإحسان ، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة أى الإتيان بها على الوجه المطلوب الذى يليق بها من حيث الإخلاص لله ، وكمال العبودية له ، ويشير إلى ذلك ما رواه البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » هذا بحسب الكيفية ، وأمَّا بحسب الكمية فبكثرة التطوع بالنوافل الجابرة لما قد يقع فى الواجبات من شائبة التهاون والنقص

أو بالاستزادة من كل ما يحقق للطاعة مراتب الكمال ، ويجوز أن يراد به الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم ، وأسمى درجاته على هذا المعنى ، الإحسان إلى المسيء مع التمكن منه والقدرة عليه ، وقد أمر بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن الحكم المنسوبة إلى عيسى عليه السلام قوله : « إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ . لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ » أخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي .

ثم يأمر سبحانه بصلة الأقارب حفاظًا على روابط الدم والنسب فيقول : (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) : أي أنه يأمر بصلة ذوي الأرحام على أي درجة كانت قرابتهم ، وذلك بإعطائهم ما يحتاجون إليه ، لا فرق بين الأقربين منهم والأبعدين ، ويشير إلى ذلك ما جاء في النص الكريم من طلب إعطاء ذي القرابة مطلقًا ، ولو طلبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يفد التعميم ، لأن هذه الصيغ تقيد الإحسان لأكثرهم قرابة ، فلذا جيء بهذا النص الكريم ليعم ذوي القرابة مطلقًا ، والتصريح بإيتاء ذي القربى مع أنه داخل في الإحسان الذي يأمر به الله سبحانه ، للاهتمام بشأن صلة القرابة وإعطائها حق قدرها ، وبعد أن ذكر سبحانه ثلاثة من المأمورات . أتبعها بذكر ثلاثة من المنهيات فقال تعالى :

(وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) : أي ينهاكم عن الفحشاء قولًا وعملًا ، والفحشاء : كل ما عظم قبحه من الذنوب ويكثر إطلاقها على الزنى ، وكما ينهاكم عن الفحشاء ينهاكم عن جميع ما أنكره الشرع من المعاصي والآثام ، وينهاكم أيضًا عن البغي على الناس ظلمًا وعدوانًا بانتهاك حرماتهم ، واغتصاب حقوقهم .

(يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : جملة مستأنفة لبيان الحكمة في تشريعات هذه الآية الكريمة التي تعتبر دستورًا لمكارم الأخلاق .

والمعنى : أنه تعالى ينبهكم بما جاء في هذه الآية الكريمة ، لكي تتعظوا فتسلكوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها .

(وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) : العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره بموافقته ، وعهد الله يعم كل تكليف من الله ، ويدخل فيه البيعة على الإسلام .

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ) : المراد من نقضها عدم الوفاء بها .

(كَفِيلًا) : شاهدًا أو رقيبًا . (نَقَضَتْ غَزْلَهَا) : حلَّته بعد فتله وإحكامه .

(أَنْكَاثًا) : جمع نِكْث على وزن حِمْلٍ وهو الصوف بعد حله .

(دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : أى خديعة ومفسدة . (أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) : أكثر منها مالا وأعز نفرًا .

التفسير

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) :

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة الأُمور التى يترتب عليها إصلاح الفرد واستقرار الجماعة على سبيل الإجمال . أتبع ذلك تفصيل بعض ما أُجمل ليوضح لعباده معالم الطريق إلى الأمْنِ

والسلامة فقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ) أى التزموا الوفاء بكل عهد وبيعة لله تعالى ، ويدخل فيها البيعة على الإسلام ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : (إِذا عَاهَدْتُمْ) بعد قوله : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) لتأكيد وجوب التزامهم بالوفاء ، وذلك بتذكيرهم بأن هذا العهد قطعوه على أنفسهم برغبة منهم واختيار .

(وَلَاتنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) : أى لاتحنثوا فى الأيمان التى تحلفون بها عند البيعة وغيرها ، ولا سيما الأيمان التى أكدتموها بتكرارها وتنويعها .

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) : أى رقيبا يتكفل بوفائكم ، حينما تعاقدتم ، فلا سبيل لكم إلى نقض العهد والحنث فى الأيمان لأن الكفيل مراع لحال المكفول مهيمن عليه ، فلا يستطيع الإفلات من قبضته ، فكيف إذا كان هذا الكفيل ، هو الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض يعاقب الغادرين ، ويثيب الأوفياء .

(إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) : من نقض المواثيق والعهود أو الوفاء بها ، وفى هذه الجملة تعليل للنهى عن نقض الأيمان ، مشعر بالوعد على الوفاء والوعيد على الغدر

٩٢ـ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا) :

أى ولا تكونوا فى نقضكم لما تعقدون من عهود كالمرأة الحمقاء التى كانت تغزل غزلها قويا متماسكا ثم تنقضه من بعد ما أحكمته ، تنقضه أنكاثا أى طاقات ، وذلك بفك أجزائه بعضها من بعض ونفشه لتعاود غزله وتلك حماقة لا تعدلها حماقة ، ويراد من هذا التشبيه تقبيح حال النقض للعهد ، بتمثيل الناقض له بحال هذه المرأة المعتوهة فى أخس أحوالها ، تنفيرا منه وتقبيحا له . حيث جعل فى عداد حمق النساء ، والكلام من باب ضرب المثل ، ولم يقصد به امرأة معينة ، كما قاله مجاهد وقتادة .

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ) : الدخل فى اللغة ما دخل فى الشىء وليس منه ، والمراد به هنا الغش والخديعة والمعنى : لا تكونوا فى نقضكم للعهود مشابهين للمرأة التى سبق بيان شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم التى حنثتم فيها خديعة ومفسدة حيث جعلتموها وسيلة للغدر وعدم الوفاء وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلا إلى أن تلتزموا بما عاهدتم الله عليه ، والجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكارى تقديرا . أى أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم بمعنى لا ينبغى أن يقع ذلك منكم .

(أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ) :أى لاتنقضوا العهود طمعًا فى التحالف مع جماعة هى أكثر مالا وأعز نفرًا ، بدل جماعة أخرى أقل منها وأهون ، كما كانت تفعل قريش ، فكانوا ينقضون العهود مع حلفائهم، ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون منْ هُو أكثر منهم وأعز نفرًا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك فنهوا عن ذلك ا هـ - وعلى هذا تكون الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يغترُّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيًّا كان السبب فالآية قاعدة عامة تحض على الوفاء بالعهود .

والمعنى الإجمالى للآية : ولاتتخذوا أيمانكم للخديعة والمكر ، بأن تحلفوا للناس على ما عاهدتموهم عليه ليطمئنوا إليكم ، ثم تغدروا بهم رغبة فى إرضاء أمة أقوى من الأمة التى عاهدتموها ، لتكون قوة لكم ومنعة بدلا منهم .

وإذا كان الله سبحانه قد نهى عن الغدر والحالة هذه . فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة الذاتية بطريق الأولى .

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ) : أى إنما يختبركم بكثرة أمة عن أمة، لينظر أتتمسكون بعهد رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أم تخدعكم كثرة قريش وقوة شكيمتهم وقلة المؤمنين وضعفهم حسبما يدل عليه ظاهر الحال . أو يختبركم أيها المؤمنون جميعا بهذا التشريع فى عهودكم ومواثيقكم ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء .

(وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) : فى الدنيا ، فيجازى كل عامل على عمله خيرًا كان أو شرًّا . وستجد كل نفس ما عملته محضرًا ، لاتخفى منه خافية ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى الإنذار والتحذير .

٩٣ـ (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) : أى ولوشاء الله إلجاءكُمْ على الإيمان لجمعكم عليه وجعلكم أمة واحدة .

(وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) : أى ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك حيث أضل فريقا وهدى آخر ، فأما الفريق الأول . فهو من استحب العمى على الهدى ، وأما الفريق الثانى فهو من آثر الحق على الباطل، فقد اقتضت عدالته أن يجعل لعباده اختيارًا ؛ فمن اختار شهوات الدنيا على طاعة ربه . تركه وما يريد تبعاً لاختياره وإصراره ، ومن

اختار رضا الله بالعمل الصالح سهَّل له ما أراد تحصيله بدافع مما عنده من رغبة واختيار ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى وتأكدوا بلا شك أنكم ستسألون جميعاً يوم القيامة سؤال محاسبة عن عملكم فى الدنيا ، لينال كل عامل جزاء عمله ثوابًا أو عقابًا .

(وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(الدَّخَلَ) : الغدر والمكر والخديعة ونحوها .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) : زلَلُ القدمِ حسب اللغة زلقُها فى طين ونحوه ، ويُكنى به عن الوقوع فى البلاء والمحنة بعد العافية والنعمة كما هنا (السُّوءُ) : المكروه .

(بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ) : بسبب إعراضكم عن أحكام دينه ، فهى سبيله إلى الوفاء بالعهود والأيمان وسائر الفضائل . (ثَمَناً قَلِيلًا) : عرضًا قليلا ، (يَنْفَدُ) : يذهب ويفنى .

التفسير

٩٤ - (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ) الآية .

تحذير صريح من الله لعباده من اتخاذ الأيمان دخلا أى خديعة ، بعد تحذيرهم فيما سبق تلميحًا واستنكارا فى قوله سبحانه : «وأَوفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَ عَاهَدتُّمْ» . . الآية قصدًا إلى المبالغة فى قبح الغدر المنهى عنه ، وللتمهيد لقوله سبحانه :

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) :

والمعنى : احذروا هذه الأيمان الكاذبة لئلا تحيد قدم عن سبيل الإسلام بعد رسوخها فيه ، وإفراد القدم وتنكيرها للإشعار بأن زلل أى قدم ذنب عظيم وإثم كبير ، فكيف بالأقدام الكثيرة . وهو مثل يضرب لكل من كان على الطريق المستقيم فجانبه .

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ) : أى ما يسوءكم من العذاب الدنيوى ومختلف المكاره .

(بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : بسبب إعراضكم عن دين الله وعدم الاهتمام بتعاليمه ، أو بما تسببتم فيه من صد غيركم عن هذا الدين ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهد ثم غدر أو حلف فحنث أو نقض عهد رسول الله وارتد . لم يبق له وثوق بدين الله ، وكان داعيا له إلى شدة الإعراض عن الإسلام .

(وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : أى ولكم فى الآخرة عذاب لايعلم مداه ولايحيط بقدره إلا الله جل شأنه . لقاء ما اقترفتم من كبائر وسيئات .

٩٥ - (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ . .) :

قيل المراد من عهد الله ؛ بيعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الإيمان أو هو الآيات الداعية إلى إيجاب المحافظة على العهود والأيمان .

والمعنى : لاتستبدلوا به ولا تعتاضوا عنه .(ثَمَنًا قَلِيلاً) : أى لا تأخذوا بمقابل عهده سبحانه عرض الدنيا وزينتها . فإن هذا العرض مهما كثر فى موازينكم فإنه يكون ضئيلا بالنسبة إلى عطاء الله . أو هو عرض يسير فى واقعه وحقيقته فلا يحل لأحد أن يتناوله ، ويتخلى عن عهد الله الذى يجب الوفاء به . ويستحق الوفيُّ به عند الله أجراً عظيماً أما عرض الحياة الدنيا فهو قليل وزائل كما قال تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ». ويشار بالثمن القليل إلى ما كانت تعد به قريش ضعفاء المسلمين للارتداد عن الإسلام ، وقال ابن عطية : هذا نهيٌ عن الرشا وأخذ الأموال على ترك مايجب على الآخذ فعله . أو فعل ما يجب عليه تركه ، وعلى ذلك فالمراد بعهد الله ما يعم ما سبق وغيره .

(إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ) : أى إن الذى عند الله من نصر وتوفيق وثواب أخروى دائم .

(هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) . من هذا الثمن القليل الذى يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود ، أو الذى يصل إليكم عن أى طريق ، فى مُقابل ترك عهد الله والتخلى عنه .

(إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى إن كنتم من أهل العلم والإدراك والفهم . فتدبروا التفاوت البين بين خيرى الدنيا والآخرة . وبين ما يمقته سبحانه وما يرضى عنه .

٩٦ - (مَاعِندَكُمْ يَنْفَدُ ..) :

أى مالديكم من خيرات الدنيا وطيباتها يذهب وينتهى مهما طال به الأمد ، وامتدَّ به الزمن . وكثر منه العدد .

(وَمَا عِنْدَ اللهَ باقٍ) : فهو يعطيكم من فيض رحمته . وخزائن نعمه التى لانفاد لها ولا فناء لنعيمها فى الدنيا والآخرة . أما حصول ذلك فى الآخرة فظاهر . وأما فى الدنيا فلأن نعيمها موصول بنعيم الآخرة ومستتبع له ، ولهذا الارتباط كان النعيمان من الباقيات الصالحات ، ومن هنا كان التعبير فى الآية بلفظ (باقٍ) أولى من التعبير بلفظ يبقى لإفادة الدوام والاستمرار .

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون) : أكَّد سبحانه النص على منح الصابرين أجرهم الخاص بهم بجملة القسم (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم) المعبر فيها بنون العظمة ، لحفزهم على قوة الاحتمال والثبات على إيذاء المشركين لهم ، والصبر على مشاق التكاليف التى تنتظم احتمال الأذى فى سبيل الوفاء بالعهود والبر بالأيمان .

والمعنى : ولنجزينَّ الذين صبروا على مشاق التكاليف الشرعية ومنها الوفاءُ بالعهد ، - لنجزينهم - بحسب أحسن أعمالهم . فيكون عطاؤنا لهم جزاءَ الأدنى من هذه الأعمال كعطائنا لهم جزاءَ الأعلى منها من الأجر الجزيل ، تفضلا منًّا وكرمًا ، وتلك عِدَةٌ كريمة بغفران ماقد يعترى صبرهم على مشاق التكاليف من تقصير أو قصور ، فإن أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون يقتضى هذا التجاوز والغفران .

(مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(حَيَاةً طَيِّبَةً) : يراد بها حياة هنيئة مرضية .

(قرأْتَ) : أردت القراءة . (الرَّجِيمِ) : المطرود من رحمة الله .

(سُلْطَانٌ) : تسلط وقهر . (يَتَوَلَّوْنَهُ) : يتخذونه وليًّا يتبعون أمره .

التفسير

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) :

شروع فى ترغيب المؤمنين جميعاً وحثهم على كل عمل صالح ، تدعو إليه شرائع الإسلام وتعاليمه ، إثر ترغيب جماعة منهم فى الثبات على العهد والاستمساك بما هم عليه من عمل صالح خالص مهما قدم لهم من المغريات على نكثه .

والمعنى : من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى من المكلفين وهو مصدق تمام التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أعمال الكفرة لا اعتداد بها . ولا وزن لها مهما كان فيها من البر ، وأوثرت الجملة الإسمية فى قوله (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لدلالتها على الدوام والاستمرار .

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) : أى فلنعطينَّه فى الدنيا ما تطيب به حياته من كل ما يتطلبه عيشه : من سعة فى المال . وبركة فى الصحة والعيال ، أو بما وهبناه من قناعة ورضا بما قسم له ، وتوقُّعٍ للأجر العظيم فى آخرته ، وقيل : هى حياة الآخرة التى تكون فى الجنة ، لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر . وصحة بلا سقم . وسعادة بلا شقاوة . أخرج ابن جرير .

وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال : ما تطيب الحياة لأحدٍ إلا فى الجنة ، وقيل هى حياة البرزخ ففيها يشعر الميت بأنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله تعالى من عذاب القبر .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاءً موافقا لأحسن أعمالهم حسبما نفعل بالصابرين الذين ذكر جزاؤهم فى الآية التى سبقت .

وقد ذكر الجزاء هناك خاصا بالصابرين ، وهنا عاما لبيان شموله لكل من يعمل عملا صالحا خالصا لوجه الله . وذلك لا يدع أى مجال لشائبة التكرار بين الآيتين حيث اختلف الغرض المقصود من كل منهما .

٩٨ـ (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

بعد أن ذكر سبحانه أن أساس الجزاء الموفور هو صلاح العمل واستقامته . جاءت هذه الآية لبيان مايصان به العمل الصالح ويخلص من شوائب النقص أو الفساد .

والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك ويحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله ، والأمر بالاستعاذة منه للندب عند جمهور العلماء ، وروى عن الثورى وعطاء أنه للوجوب ، نظراً لظاهر النظم الكريم ، وهو مخالف للمنقول عن جمهور العلماء ، والخطاب عام لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم ، وهذا هو الذى يقتضيه السياق ، وقيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوجيه الخطاب إليه، على هذا الرأى ، للتنبيه على أنها لغيره صلى الله عليه وسلم آكد ، فإنه صلى الله عليه وسلم مُحصَّن من الشيطان ، ومع هذا فقد أمر بالاستعاذة منه ، فماظنك بغيره ، وصيغة الاستعاذة المأثورة هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . لتضافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ كذلك . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : «يا ابن أم عبْدٍ : قُلْ أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيْطانِ الرَّجِيم .هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ »روى ذلك الثعالبى والواحدى .

٩٩ـ (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

أى أنه ليس للشيطان تسلط وتأثير على المؤمنين المتوكلين على الله ربهم ، حيث إن دعوته لهم إلى الشرك والمعاصى غير مستجابة ، ووسوسته لاتؤثر فيهم ، لاعتصامهم بالإيمان المتين ،

وإخلاصهم العبادة لله رب العالمين ، وتوكلهم عليه وحده فى كل مايعملون وما يتركون ، واستعانتهم به على تحمل مشاق التكاليف ونزغات الشيطان ، أو أنه كما قال الثورى : ليس له عليهم سلطان يوقعهم فى ذنب لايتوبون منه .

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) :

أى ما سلطانه وتأثيره وهيمنته وولايته ، إلا على أتباعه الذين يطيعونه ويستجيبون لإغرائه ووسوسته إلى درجة الشرك ، وهم بمعزل فى غوايتهم هذه عن القهر والإكراه ، فلو أصروا على عصيانه لنجوا من كيده ، حيث يقول جل شأنه حكاية عن إبليس : «وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى» وفى ذلك يقول الله تعالى لإبليس : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ»[1] .

(وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) : جعلناها بدلا منها لإحلال حكم محل آخر .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢

(مفترٍ) : مختلق وكاذب . (رُوحُ الْقُدُسِ) : جبريل عليه السلام ، والقدس الطهر .

(يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ) : يميلون إليه من الإلحاد وهو الميل عن القصد . ومنه اللَّحْدُ لميل الشق فيه إلى الجنب . (أَعْجَمِيٌّ) : أى أنه فى نطقه عجمة تتنافى مع الفصاحة القرآنية .

التفسير

١٠١ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) :

أى وإذا أنزلنا من القرآن الكريم آية تفيد حكما جديدا ، وجعلناها مكان آية فى شريعة سابقة تخالفها فى الحكم أو جعلنا معجزة بدل معجزة كانت لنبى سابق .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) : على أنبيائه من أحكام أو معجزات ويعلم وجه مناسبته لزمانه ، فلكل وقت من الأحكام والآيات مايناسبه ، فما يكون مصلحة فى زمن . قد يكون مفسدةً فى زمن غيره ، وما يكون معجزة لنبى مع قوم بعث إليهم قد لايتناسب مع آخرين ليحصل به التحدى والإفحام .

وجملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) ذكرت اعتراضا بين الشرط والجواب لتوبيخ المشركين والتنبيه على فَسادِ رَأْيهم ، لأنهم لو أنصفوا أنفسهم لتركوا أمر ذلك إلى علم الحكيم الخبير .

وحكى سبحانه جرمهم الذى اقترفوه عندما وقع التبديل ، فقال تعالى :

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ) : أى قال الكافرون مخاطبين الصادق الأمين : ما أنت إلا مُتقولٌ على الله مختلق نسبة الأحكام إليه لأنك تنسخ أحكاما جاءت فى الرسالات السابقة ، مع أنها من عند الله ، ولم يقولوا ذلك عن دراية (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : شيئًا أصلا فهم جهلاء أغبياء أولا يعلمون أن فى التبديل حِكماً بالغة .

وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، لأن بعضهم كان يعلم يقينا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما يصفه بالافتراء مكابرة وعنادا .

١٠٢ - (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصفونك بافتراء القرآن ، قل لهم ليس هذا القرآن مفترى بل نزله روح القدس جبريل عليك بالحق من ربك الذى يحيطك بآثار ربوبيته ، نزله عليك ليُثبت الذين آمنوا على الإيمان ويبعدهم عن ضلال العقيدة ، لما فيه من الحجج والبراهين المطمئنة للقلوب ، وليثبتهم على التصديق بأن النسخ فيه لمصلحة

البشر ، وليهديهم إلى سبيل الرشاد ، ويبشرهم بحسن الجزاء وكريم اللقاء ، وفيه دليل على أن أضداد الصفات المذكورة للمفترين من الكفار ، فلهم خزى الدنيا وعذاب النار .

وإطلاق روح القدس على جبريل عليه السلام ، لأنه ينزل بالقدس أى الطهر من الله ، والمراد به الوحى الذى يطهر النفوس من الجهل والإثم ، وقيل لطهره من الأدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، فكأنه قيل : نزله الروح المقدس . . أى المطهر - كما يقال : حاتم الجود . . أى حاتم ذو الجود .

١٠٣ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) :

رد من الله سبحانه لفرية خبيثة أثارها كفار مكة حول محمد صلى الله عليه وسلم . حيث قالوا : إنه لايعلمه هذا القرآن إلا بشر نعرفه ، يريدون به غلاماً أعجميا كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه بعد أن تحقق من صفات النبوة فيه ، ولقد كذبهم الله تعالى فى زعمهم هذا بقوله جل شأنه :

(لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) :أى كلام الرجل الذى ينسبون إليه تعليم الرسول ، ويميلون إليه فريتهم ماهو إلا كلام أعجمى لا يفهمه عربىّ .

(وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) : أى وهذا القرآن الذى تدعون أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلّمه من أعجمى ، إنما هو كلامٌ عربى بلغ القمة فى البيان والفصاحة والبلاغة ، حتى عجزت العرب عن محاكاته ، وهم على ماهم عليه بلاغة وفصاحة وقوة بيان ، وعذوبة لفظ ، وسلامة قول : بل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لاستبان عجزهم ، وظهر قصورهم ، ولو كان بعضهم لبعض نصيرًا ومعينًا ، فكيف تجعلونه من تعليم بشر أعجمى ، وهو لا يمكن أن يصدر إلا عن واهب القوى والقدر جل وعلا .

١٠٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

المراد بالآيات هنا القرآن الكريمُ ، كما دلت عليه الآيات السابقة .

والمعنى : إن الذين لايؤمنون بآيات القرآن ولايصدقون بأنها آيات الله وينسبونها تارة إلى الكذب والافتراء ، وأخرى إلى أنها مُعلَّمة من بشر (لايَهْدِيهِمُ اللهُ) :أى لايوفقهم إلى طريق النجاة ، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلا لذلك ، لسوء حالهم التابع لسوء اختيارهم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): فى الآخرة لكفرهم بآيات الله ، وإعراضهم عن هداه .

١٠٥ ـ (إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

ردٌّ لقولهم إنما يعلمه بشر ، ببيانٌ أن الذين ينسبون الافتراء والكذب إلى رسول الله ماهم إلا الذين اعتادوا الكفر بآيات الله وحججه الدالة على وحدانيته ،فلا غرابة فى تكذيبهم رسول الله المؤيد بآياته الواضحة فى القرآن العظيم الذى أعجز... الجن والإنس ، وظهر لهم عجزهم عن الإتيان بسورة مثله ، وثبت بذلك أنه منزل من عند الله ، فهم بإنكارهم هذه الحقيقة يفترون على الله الكذب ، حيث زعموا أن ماهو كلام الله مفترى عليه ، ولا يجرؤ على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلاالكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات الله وبراهينه أمثالهم . ويصح أن يكون المعنى : ما يفترى الكذب وينسبه إلى الله إلا الذين لايصدقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس منهم ، فهو أكمل الناس علما بربه ، وإيمانا بآياته الدالة عليه ، وقد عرفتموه بينكم ودعوتموه بالصادق الأمين ، فكيف يفترى الكذب على الله ، كما نسبتموه إليه زورا وبهتانا .

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) : أى أولئك الموصوفون بعدم الإيمان بآيات الله ، هم المتناهون فى الكذب ، إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات الله والطعن فيها ، مع وضوح أنها آياته وبراهينه سبحانه وتعالى .

(مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(أُكْرِه) : أُجْبر على التلفظ بكلمة الكفر .

(اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : آثروها على الآخرة فعملوا لها .

(طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها ،والمقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر.

(مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : من طابت به نفسه .

(لاَ جَرَمَ) : لا محالة ، (فُتِنُوا) : امتُحِنُوا وابتُلوا .

التفسير

١٠٦ - (مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ) :

هذا ابتداءُ كلام . لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه إثر بيان شأن من جحدها ولم يؤمن بها أصلا .

والمعنى : من جحد وجود الله أو أنكر دينه الحق من بعد إيمانه ، وسلوكه سبيل المؤمنين فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذابا عظيما [١] . ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر بقوله : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) : أى إلا من أرغم على الكفر بشىء يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه . فكفر . وحاله فى اطمئنان قلبه ، وسلامة عقيدته لم تتغير ، فلم يخالط يقينه أى شك أو تردد فلا يضره هذا الكفر . بل هو فى كنف الله ورعايته . (وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) :أى لم يكن مكرها على الكفر . بل آثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتح له قلبه . وانشرح به صدره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ) : أى فينزل عليهم ويحل بهم غضب عظيم من الله . لايدركون كنهه ، وقد أشعر إظهار اسمه الجليل فى معرض الوعيد بشدة العذاب لهؤلاء الكافرين المتعمدين للكفر .

وفى سبب نزول هذه الآية روى العوفى عن ابن عباس : أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية . هكذا قال الشعبى وأبو مالك وقتادة ، وفى رواية ابن جرير . فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كيف تجد قلبك» قال مطمئنا بالإيمان . قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن عادوا فعد» .

١٠٧ ــ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) :

الإشارة راجعة إلى وعيد من كفر بعد الإيمان . أى ذلك الوعيد السابق . بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها . وتعلقهم بمطامعها ومفاتنها وإعراضهم عن الآخرة . إيثارا للعاجل الفانى . على النعيم الباقى .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) : أى وذلك الوعيد أيضا بسبب أن الله تعالى لايهدى القوم الكافرين إلى الإيمان ، على سبيل القهر والإلجاء . لأنه ثبت فى علمه المحيط اختيارهم الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه . فلهذا لم يعصمهم من الزيغ . ولا مما يؤدى إليه من إنزال الغضب عليهم . والعذاب العظيم بهم ، فمن بعد عن الله بعد الله عنه وأدناه من عقابه . ومن تقرب إلى الله قرب الله منه وأدناه من رحمته .

---

(١) هذا الجواب الذى قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى فيما سيأتى : (ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) ، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

١٠٨ ـ (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . .) :

أى أولئك الموصوفون بما ذكرته الآيات السابقة من ألوان الكفر ، وقبائح الأعمال ، ختم الله على قلوبهم فصارت مغلقة لاتقبل الحق . وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماع فهم وتدبر كأنهم صُمّ ، وختم على أبصارهم فلا تحسن رؤية ما يحيط بهم من عجائب الكون التى تتحدث بقدرة الخالق ، ووحدانية المبدع جل شأنه . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) : أى وأولئك هم الغارقون فى الغفلة البالغون غايتها ومنتهاها دون سواهم ، إذ لاغفلة أقوى فى آثارها من الغفلة عن تدبر العواقب الوخيمة ، والتفكير فى المصالح العظيمة .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . أنه قال : غافلون عما يراد بهم فى الآخرة .

١٠٩ ـ (لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى لامحالة أنهم هم الخاسرون فى أخراهم ، حيث ضيَّعوا أعمارهم فيما لايفيد ، وصرفوها فى اقتراف المعاصى والآثام التى تفضى بهم إلى غضب الله عليهم ، والخلود فى العذاب الأليم ، وكان عليهم أن يتجهوا إلى ماخلقوا له من توحيد الله وعبادته ، وإلى كل عمل نافع لهم فى الدنيا والآخرة .

١١٠ ـ (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا) :

أى ثم إن ربك يامحمد نصير لمن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام من بعد ما فتنهم الكافرون وآذوهم بالعذاب لحملهم على الارتداد ، ثم جاهدوا أنفسهم وصبروا على أذى معذبيهم ، فلم يشكوا ولم يكفروا ، بل ظلوا على سلامة عقيدتهم التى يخفونها و يضمرون التمسك بها .

والآية نزلت فى عمار وخباب ونحوهما ممن أوذوا فى سبيل الله .

وقرأ ابن عامر : « مِن بَعْدِ مَافَتَنُوا » بالبناء للفاعل أى من بعد ما فتنوا غيرهم ، أى من بعد ما عذب المشركون المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبْرًا على الارتداد ثم أسلما وهاجرا .

وأصل الفتْن إدخال الذهب فى النار لتمييز الجيد من الردىء . ثم أُطلق على البلاء وتعذيب الإنسان مجازًا ، (إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :إن ربك يا محمد من بعد ما فعلوه من الهجرة والجهاد فى سبيل الله والصبر على المشاق لعظيم المغفرة . يغفر لهم ما أُكرهوا عليه من كلمة كفر قالوها ليتقوا بها العذاب . ويغفر لهم غيرها من السيئات ـ إن ربك من بعد

ذلك – لواسع المغفرة والرحمة فيتفضل بإثابتهم على ما صنعوا من هجرة وجهاد وصبر ، من بعد فتنتهم وإيقاع العذاب بهم ، وفى إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إشارة إلى إظهار كمال اللطف به ، والعناية بشأنه ، مع الإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة ببركته عليه الصلاة والسلام لكونهم أتباعًا له صلوات الله عليه وسلامه .

(* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١))

المفردات :

(تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها) : أى تدافع عن ذاتها بالاعتذار .

التفسير

١١١ – (يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها ...) الآية .

لما ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة طرفًا مجملا من طغيان المشركين ، وقسوتهم فى تعذيب الضعفاء من المؤمنين – عقب ذلك بذكر الحساب على الأعمال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » [1] ودفاع كل إنسان عن نفسه ، وأن كل مكلف ينال جزاء ما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

والمعنى : اذكر أيها المكلف من الناس – اذكر اليوم الذى تجىء فيه كل نفس تدافع عن ذاتها وتعتذر بشتى المعاذير جاهدة فى خلاصها ، لا يشغلها إلا شأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها ، كما قال الله جل شأنه : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » [2] .

ومن هول الكرب فى ذلك اليوم ، يقسم المشركون كاذبين ، يقولون : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » [3] ويتبرأ المتبوعون والتابعون بعضهم من بعض ، كما قال جل سلطانه : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ

(١) سورة المطففين : الآية : ٦ (٢) سورة عبس : الآيات : ٣٤ – ٣٧
(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٢٣

اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » [١] .

(وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ) :

أى ويعطى الله تعالى فى ذلك اليوم العظيم كل نفس جزاء الذى عملته . وافيًا غير منقوص « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » [٢] .

وضمير الجمع فى قوله عز من قائل : (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : عائد على كل نفس . أى وكل النفوس التى يجزيها الله يوم القيامة لايظلمون بزيادة فى العقاب . ولا ينقص فى الثواب ، ولا تعاقب نفس ما بغير ذنب ، ذلك لأن الذى يتولى الجزاء يومئذ . هو الحكم العدل اللطيف الخبير ، الذى يقول وقوله الحق : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » [٣] .

وبالجملة فقد ختمت الآية بقوله سبحانه : (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) لتأكيد عدالة الله مع المقصرين فى عبادته وغيرهم ، فكلٌّ يأخذ جزاءه عادلا ، ويضاعفُ أجر حسناته حسب كيفية أدائها ، ويجازى على سيئاته بمثلها .

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) : المثل فى هذه الآية ونظائرها ، الحال أو القصة التى لها شأنٌ وفيها غرابة . وضرب المثل ذكره للاعتبار به .

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٦ — ١٦٧ (٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٠

(قَرْيَةً) : المراد أهل قرية . (رَغَدًا) : واسعاً سهلا .

التفسير

١١٢ - (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ ...) :

أشار الفخر الرازى فى ربط هذه الآية بما قبلها بقوله : اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضًا ببعض آفات الدنيا ، وهى إصابتهم بالجوع والخوف كما ذكره فى هذه الآية : اهـ

ولما كان هذا المثل ينطبق على أهل مكة ، ذهب كثير من المفسرين إلى أن القرية فى الآية الكريمة هى مكة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال ابن كثير : هذا مثلٌ أُريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، وكان يجبى إليها من ثمرات كل شئ فكفرت بأنعم الله وأعظمها بعثة محمد إليهم ؛ فعوقبت بالجوع والخوف : ا هـ . بتصرف . ويشارك أهل مكة فى انطباق المثل عليهم كل من حذا حذوهم وسار سيرتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفى بالقرآن حجة بالغة . وعظة ناطقة .

والمعنى : وجعل الله تعالى مثلا قرية كانت ذات أمن وسلامة من كل مَخُوف ، لا يهيج أهْلَهَا أحدٌ بإغارة أو اعتداءٍ عليها ، وكانت (مُطْمَئِنَّةً) : ساكنة قارَّة ، لا يزعج أهلها مزعج ، ولا يرتحل عنها أحدٌ بسبب جوع أو خوف . يسوق الله إليها أقواتها واسعة سهلة من كل بلد ، وتحمل إليها من كل مكان برًّا وبحرًا[1] .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) :

أى جحد أهل هذه القرية نِعم الله عليهم فقابلوها بالكفر بدل الشكر ، وبالمعصية بدل الطاعة فعاقبهم الله بعقاب من الجوع والخوف تمكن منهم ، وأحاط بهم إحاطة اللباس بلابسه ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والمعاصى.

والتعبير عن سيئاتهم بقوله سبحانه :(بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). للإيذان بأن كفران النعم صار صناعة لهم وخلقًا راسخًا فيهم .

(١) والتعبير عن هذه الصيغة بالفعل المضارع (يأتيها رزقها) لإفادة أن أرزاقها متجددة وأما كونها آمنة مطمئنة ، فهو ثابت مستمر ، فلذا عبر عنه بالاسم المفيد للدوام والاستمرار .

ومن تتمة المثل قوله تعالى :

١١٣ – (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

فقد جيء به لبيان أن ما صنعه أهل تلك القرية من الكفر بأنعمه سبحانه ، لم يكن امتهاناً للعقل وتحقيراً له فقط ، بل كان كذلك معارضة لرسولهم . أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من أنفسهم ، هم أدرى الناس بأصله ونسبه وخُلُقه ، يخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وينذرهم سوء عاقبتهم إن لم يقلعوا عن الكفر والمعصية ، ففاجأوه بالتكذيب من غير تروٍّ ولا تدبر ، ثم استمروا فى كفرهم وعنادهم إلى أن حلَّ بهم عذاب الله بالجوع والخوف وهم متلبسون بالظلم واغلون فيه .

وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى ، وهى أنه لايعذب من كفر به حتى يبعث إليهم رسولا يحذرهم عاقبة كفرهم ، ويرشدهم إلى آيات ربهم وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] .

ولقد تم المثل بعذاب القرية الظالمة ، وظهر جَلِيًّا أن حال أهل مكة أشبه بحال تلك القرية . فى السوء واستحقاق العذاب ، فقد كانوا فى حرم آمن ، ويُتَخطَّف الناس من حولهم ولا يمر ببالهم طيف من الخوف والفزع ، وكانت تجبى إليهم فيه ثمرات كل شىء رزقًا من لدنه سبحانه ، استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »[2] .

ولقد جاءهم رسول من أنفسهم هو أعظم الناس خُلُقًا وأكرمهم معدنًا ونبلا ، نشأ بينهم زكيًّا نقيًّا حتى سموه الأمين ، قبل أن يرسله ربه رحمة للعالمين .

دعاهم رسول الله إلى الله ، وأنذرهم . وحذرهم : ولكنهم آذوْهُ وكذبوه ، واستمروا فى تكذيبهم عنادًا وكبرًا ، حتى أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

هنالك انتقم الله منهم واستجاب دعاء نبيه فيهم إذ قال : « اللَّهم أَعِنِّى عليهم بسبع كسبع يوسف » : فأصابتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع والجهد[3] .

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٥ (٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٦
(٣) اقتباس من حديث البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فى تفسير سورة الدخان .

(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾).

المفردات :

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) : أى وما ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، وسُمِّى الذكر على الذبيحة إهلالًا لأنهم كانوا يرفعون به أصواتهم .

(غَيْرَ بَاغٍ) : أى غير ظالم لغيره .

(وَلَا عَادٍ) : ولا متجاوز ما يسد رمقه ويدفع جوعه .

التفسير

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

الظاهر أن الخطاب فى هذه الآية لمن ضرب لهم المثل من كفار مكة وأمثالهم كما قدمنا ، لأنه هو الذى يقتضيه النظم الكريم ، فهو مفرَّع على التمثيل السابق ، وصادٌّ لهم عما يؤدى إلى مثل عاقبته .

والمعنى : وإذ تبين لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله ، وما حل بهم - بسبب ذلك من العذاب فانتهوا عما أنتم عليه من الكفر والتكذيب ، والتحليل والتحريم بأهوائكم ، وكلوا مما رزقكم الله فى أرضه من الأنعام والحرث حال كونه حلالًا لا حرمة فيه ولا إثم ، طيبًا لا تعافه النفوس الكريمة .

(وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ) : بطاعته وطاعة رسوله .

والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أُدخلت على الأمر بالأكل ، لأن الأكل وسيلة إلى الشكر فكأنه قيل : فاشكروا نعمة الله عقب أكلها ، واعرفوا لها حقها ، ولاتقابلوها بالمعصية والكفران .

(إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

أى إن كنتم تعبدون الله كما تزعمون ، فأطيعوه فيما أمركم به، واجتنبوا ما نهاكم عنه ، ولا تحرموا ما أحل الله لكم ، ولا تفتروا على الله الكذب بتحريم البحائر والسوائب ونحوها .

وقيل إن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وهو مروى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما ، وعليه اقتصر ابن كثير .

ومعنى الآية على أن الخطاب فيها للمؤمنين خاصة :

وإذْ تبين لكم أيها المؤمنون حال من ضُرب لهم المثل من الكفار وما انتهوا إليه . فاسلكوا أنتم سبيل الشكر ، وكلوا مما رزقكم الله وجعله لكم حلالًا طيبًا ، ولا تحرموه على أنفسكم ، واشكروا نعم الله عليكم بطاعته وطاعة رسوله ، إن كنتم تخصون الله ربكم بالعبادة ، كما هو مقتضى إيمانكم به وحده .

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية الكريمة للناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم ، فيشمل القولين السابقين ، وهو مناسب لقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » [1] .

ولعل هذا هو مراد شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى إذ قال : يقول تعالى ذكره : (فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم ـ كلوه ـ حلالًا طيبًا مُذكّى بريئًا من الإثم ، واشكروا الله على نعمه التى أنعم بها عليكم ، من ذلك ومنْ غيره من النعم : إن كنتم تعبدون الله وحده فأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه) اهـ بتصرف يسير .

ولما أمرهم الله تبارك وتعالى أن يأكلوا مما أحل لهم من رزقه، ناسب أن يبين لهم ما حرم عليهم ليعلموا أن ما عداه حلال طيب ، وأن التحليل والتحريم بأمره سبحانه لا بأهوائهم فقال :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨

١١٥ ـ (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ...) الآية .

أى ما حرم الله عليكم من المطعومات إلا هذه الأصناف الأربعة ، التى حرمها لمصلحتكم دينًا ودنيا :

أولها : (الْمَيْتَة) على أىّ نحوٍ كان موتها ، وهى كل ما لم يُذكَّ ذكاة شرعية .

ويستثنى من الميتة السمك والجراد فقد أُحلت ميتتهما ، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعًا : (أُحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطُّحال) .

وثانيها : (الدَّم) والمراد به الدم المسفوح ، كما جاء صريحًا فى قوله تعالى : « قُل لَّا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا[1] » .

وإنما حرم الدم المسفوح : لأنه يحتوى على جراثيم الأمراض ، ويسرع إليه الفساد ، بخلاف المعقود وهو الكبد والطّحال ، ولذا يحل أكله إذا كان من حيوان مذكًّى .

وثالثها : (لَحْمُ الْخِنْزِيرِ) فإنه قذر ، وأشهى الغذاء إليه القاذورات والنجاسات ، وهو ضار فى جميع الأقاليم ولا سيما الحارة منها . وأكل لحمه من أسباب الدّودة الشريطية الفتاكة : ومثل لحمه شحمُه وغضاريفه فإن جميع أجزائه قذر نجس ولو ذبح .

ورابع هذه المحرمات : (مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) أى ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه .

حرمت الثلاثة الأُولى لخبث ذاتها ، وحرم ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه لخبثه معنًى ، فقد ذكر عليه عند ذبحه اسم غير خالقه المنعم به .

والمراد بغير الله تعالى : ما يشمل الأصنام وغيرها من المعبودات .

وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم ، إلى أن المراد بما أُهل لغير الله به : ما ذبح للأصنام ، لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عُزَير ، لقوله تعالى فى سورة المائدة ـ وهى من آخر السور نزولًا ـ : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ » . فالمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم ، كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أمّا مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أىِّ كافر كان بالإجماع . قال الآلوسى فى تفسيرها :

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ . و الدم المسفوح هو المصبوب السائل من الحيوان .

واختلف العلماءُ فى حل ذبيحة اليهودى والنصرانى إذا ذكر عليها اسم عزير والمسيح ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لا تحل ، وهو قول ربيعة ؛ وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل ، وهو قول الشعبى وعطاء ، قالا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو أعلم بما يقولون ؛ وقال الحسن :إذا ذبح اليهودى والنصرانى فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل ، فإذا غاب عنك فكل ، فقد أحل الله تعالى لك . ا هـ .

وإلى هذا الرأى نذهب . فلا نرى أكل ما علمنا أن اسم غير الله ذكر عليه عند ذبحه ، ولو كان الذابح كتابيًّا . وهذه المحرمات الأربع المحصورة فى هذه الآية .هى نفسها المحصورة فى آية البقرة وفى آية الأنعام . وأما ما زاد على هذه الأربع فى قوله تعالى: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ . . . » الآية[1] فإنه مندرج فيها فالمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع– داخلة فى الميتة ، وما ذبح على النصب داخل فيما أُهل لغير الله به .

وبهذا تبين أنه تعالى حصر المحرمات – فى الأصناف الأربعة– فى هذه السور الأربع : فى العهد النبوى الكريم مكيّة ومدنية ؛ فإن سورتى الأنعام والنحل مكيتان ، وسورتى البقرة والمائدة مدنيتان . والمائدة من آخر ما نزل . وفى إعادة البيان قطع للأعذار ؛ وإزالة للشُّبه .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن دعته الضرورة الملجة إلى تناول شىءٍ من هذه المحرمات ، غير ظالم لمضطر آخر ، ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق[2] . فإن الله واسع الغفران ، شامل الرحمة ، فلهذا يرفع عنه الإثم لاضطراره ويرحمه ولا يعاقبه – وقد صرحت آية البقرة برفع الإثم فى مثل هذه الحالة . وذلك فى قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[3] .

هذا ، واستُدل بالآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة . على اعتبار أن الآية خطاب لجميع المكلفين : مسلمين وكافرين .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٣

(٢) أجاز مالك للمضطر إلى أكل الميتة أن يشبع منها ولا يقتصر على مايسد به رمقه .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٣

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بمحبوب ، ولا ينجون من مكروه .

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) : أى انتفاع قليل لا يدوم .

التفسير

١١٦ – (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ . . .) الآية .

لما حصر الله تبارك وتعالى المحرمات فى الأصناف الأربعة التى ذكرت فى الآيات السابقة جاء بهذه الآية لتأكيد ذلك الحصر بالنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء .

والمعنى : ولا تقولوا فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم – لا تقولوا الكذب فى شأن حل أكلها وحرمته ، كقولكم – فيما حكاه الله عنكم –: « مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ »[1] : وغير ذلك من أقاويلكم الباطلة التى لا دليل لكم عليها فى وحى الله وشرعه . ولكنها ناشئة عن الهوى والكذب على الله عز وجل .

أو المعنى : ولا تقولوا فى شأن البهائم هذا حلال وهذا حرام عند الله ، لكى تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول ، فإنه دعوى من غير حجة ولا بينة . فإذا حكته ألسنتكم فقد صورت الكذب بصورته وأوضحته على حقيقته .

وقوله تعالى : (لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) : معناه أن قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بدون حق . عاقبته أنكم تفترون على الله الكذب ، وتقولون عليه ما لم يقل . وتلك كبيرة الكبائر .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٣٩

وخلاصة المعنى : لا تقولوا فى شأن الذبائح والأطعمة برأيكم تحلون وتحرمون دون علم أو وحى ، فإن قولكم هذا هو الكذب ؛ إذ لا سند له ولا دليل عليه .

ثم توعد المفترين على الله الكذب عامة فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بخير فى الدنيا ولا فى الآخرة ، اللهم إلا بانتفاع قليل زائل فى هذه الدنيا الفانية ، كما قال تعالى :

١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى متاعهم فى هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها متاع ضئيل زائل لا يعتد به ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، كما قال سبحانه : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . متاعٌ فِى الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » [1] .

ويدخل فى هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرم الله ، أو حرم ما أحل الله ، بمجرد رأيه وهواه . ومن هنا كره كثير من السلف - ومنهم مالك - أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله تعالى عليه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ، أو نحو ذلك ، فهو أبعد من أن يكون فيه توهم الافتراء على الله عز وجل .

قال ابن كثير : ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى . ا هـ .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » رواه الشيخان ، وفى رواية لمسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » أى فإثمُهُ عليه . وعمله مردود عليه .

ثم يبين الله تعالى ما حرمه على اليهود دون غيرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة يونس : الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

(وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(هَادُوا) : أى اعتنقوا اليهودية ودانوا بها .

التفسير

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

والمعنى : وعلى أمة اليهود خاصة دون سائر الأمم . حرمنا ما قصصناه عليك أيها الرسول ، من قبل نزول هذه الآية ؛ وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَوِ الْحَوَايَا أَو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لَصَادِقُون »[1] . وقوله تعالى فى سورة النساء : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً »[2] .

دلت الآيتان فى سورتى الأنعام والنساء كما نبهت إليها هذه الآية من سورة النحل ، على أن هذا التحريم إنما كان بسبب ظلمهم وعصيانهم . وكانوا يقولون : لسنا أول من حُرِّمت عليهم هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومنْ بعْدهما حتى انتهى الأمر إلينا ، فكذَّبهم الله تعالى .

وقد نفى سبحانه ظلمه إياهم ؛ لأنه هو الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وصدق الله إذ يقول :

(ومَا ظَلَمْنَاهُمْ) : بذلك التحريم الذى كانوا هم السبب فيه .

(وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث جنوا عليها بالكفر والمعاصى ، فعوقبوا دون سواهم بالحرمان من الطيبات بسبب ظلمهم لأنفسهم .

وفى الآية تنبيه على أن التحريم كما يكون دفعًا للمضرة ، يكون للعقوبة .

---

(١) الآية : ١٤٦ (٢) الآية : ١٦٠

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(السُّوء) : لفظ جامع لكل قبيح ؛ من كفر ومعصية وإيذاء ويشمل الافتراء على الله عز وجل .

(بِجَهَالَةٍ) : أى بِسُوءِ معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو بطيش وغفلة وسفه .

التفسير

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا ...) .

لما هدد الله تعالى المشركين بالعقوبة على قبائحهم من ضروب الكفر والمعصية ، بين فى هذه الآية أن قبائحهم - وإن عظمت وطال أمدها - لاتحول دون قبول التوبة منهم والفوز بمغفرته ورحمته سبحانه إذا رجعوا إليه وأنابوا وأصلحوا .

والمعنى : ثم إن ربك يامحمد للذين عملوا القبائح بجهالة وسوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو غير متدبرين فى العواقب ، لغلبة الشهوة والغفلة عليهم ؛ ثم أقلعوا عن سوء ما عملوه تائبين نادمين ، وأصلحوا أعمالهم واستقاموا على التوبة .

(إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى إن ربك يامحمد من بعد التوبة عن عمل السوء مع الإقبال على الصلاح - إن ربك من بعد ذلك لعظيم المغفرة للتائبين المصلحين ، وواسع الرحمة بهم ، يثيبهم على الطاعة فعلا وتركًا ، فضلا منه وإحسانًا .

وتكرير قوله : « إِنَّ رَبَّكَ » لزيادة تأكيد الوعد ، وإظهار كمال العناية بإنجازه ، وللترغيب فى التوبة النصوح الصادقة ، فهى التى يتقبلها الله عن عباده ، وفى إضافة لفظ

(رب) إلى ضميره صلى الله عليه وسلم إشارة كريمة إلى كمال اللطف به صلى الله عليه وسلم ، ثم بالتائبين الصادقين . حيث تشير إلى أنه تعالى أكرمهم بسببه ، لأنهم من أتباعه

(إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(كَانَ أُمَّةً) : الأُمة : الجماعة الكثيرة ، والمراد أنه كان بمنزلة أُمَّة فى الإيمان بالله وعبادته حيث كان رائد التوحيد فى أُمة مشركة ولم تلن له قناة .

(قَانِتًا لِلَّهِ) : أَى مطيعًا خاضعًا لله سبحانه وتعالى ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع ،

(حَنِيفًا) : أَى مائلا عن الباطل إلى الحق ، من الحَنِف وهو الميل .

(اجْتَبَاهُ) : أَى اختاره واصطفاه .

التفسير

١٢٠ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

لما أَبطل الله تعالى فى هذه السورة مذاهب المشركين : من ادعائهم الأَنداد والشركاء له سبحانه وتعالى ، وطعنهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترائهم الكذب على الله فى

التحليل والتحريم . مع قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم ، جاءت هذه الآية للثناء على إبراهيم ووصفه بصفات تدل دلالة قاطعة على أنه عليه السلام ، برىءٌ من الشرك والمشركين و أنهم أعق الأبناء لأكرم الآباء .

والمعنى : إن إبراهيم كان أمة أى بمنزلة جماعة عظيمة فى الإيمان بالله وحده والإخلاص له فى العبادة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان عنده من الخير ماكان عند أُمة . ا هـ : وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل مالا يكاد يوجد إلا متفرقًا فى أمة عظيمة .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فهو إمام الموحدين . وقدوة أهل اليقين ، نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامه ، وخفض رايات الشرك وحطَّمْ أصنامه ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وقال مجاهد : سمِّى عليه السلام أمة ، لانفراده بالإيمان فى وقته مدةً ما . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : ياسارةُ ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك...

(قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى مطيعًا لله سبحانه ، مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق غير زائل عنه . (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى أمر من أمور دينهم ،صرح بذلك مع ظهوره للرد على كفار قريش فى قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ؛ وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه .

١٢١ - (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ..) :

أى كان إبراهيم عليه السلام شاكرًا لنعم ربه كلها عليه ، لم يخلَّ بشكر نعمة منها قولا أو عملا . وفى هذا تعريض بالمشركين ، وإيذان بأنهم فى شركهم بالله وإسنادهم النعم لشركائهم ليسوا على منهاج أبيهم إبراهيم عليه السلام .

(اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

أى اختاره ربه واصطفاه ، وهداه إلى الطريق الموصل إليه سبحانه وهو الإسلام : دين الله الذى أرسل به جميع رسله قال تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ »(١) . وقال سبحانه : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »(٢) .

وإجتباءُ الله للعبد : تخصيصه إياه بفيض إلٰهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى ولا اجتهاد ، ويكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصة ؛ وقيل يكون لهم ولمن على سنتهم من الصديقين .

وهداية الله لإبراهيم عليه السلام ، كان لها أثران عظيمان : أحدهما فى نفسه ، والثانى فى قومه ، حيث دعاهم إلى دين الله وأرشدهم إلى آيات ربه .

١٢٢ – (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً . .) الآية .

أى أعطيناه فى الدنيا نعمة حسنة إذ جعلناه قدوة لجميع أهل الأديان السماوية ، وأورثناه ثناءهم عليه وحب الانتساب إليه ، تحقيقًا لدعائه عليه السلام إذ قال : « وَاجْعَلْ لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »(٣) . وللعلماءِ أقوال فى تفسير الحسنة التى أعطاها الله خليله إبراهيم فى الدنيا فمن الحسن – أنها النبوة وقيل هى الأولاد الأبرار على الْكِبر ، والمال الكثير ينفقه فى وجوه الخير والبر ؛ والعمر الطويل فى السعة والطاعة ؛ وقد من الله عليه بكل ذلك فى الدنيا .

والانتقال إلى ضمير المتكلم فى قوله سبحانه : (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً) . لإظهار الاعتناء بشأنه ، وتفخيم مكانه عليه السلام . .

(وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى داخل فى عداد إخوانه المرسلين ، الكاملين فى الصلاح ، ذوى الدرجات العلا ، تحقيقًا لدعوته إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ »(٤) .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٩ (٢) الشورى ، من الآية : ١٣
(٣) الشعراء ، الآية : ٨٤ (٤) الشعراء ، الآية : ٨٣

ولما أثنى الله على خليله هذا الثناء العظيم ، قال لخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم :

١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

وملة إبراهيم عليه السلام ، هى الإسلام المعبر عنه آنفًا بالصراط المستقيم . والمقصود بها : العقائد وأصول شريعته . فمحمد صلى الله عليه وسلم مأمور باتباعها دون فروعها فإنها خاصة بأمة إبراهيم عليه السلام ، وكل رسالة تشترك مع غيرها فى العقائد والأصول العامة ، وتختص بفروع من الشريعة تناسب عصرها واستعدادها . وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تكرير لما سبق من قوله : « وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » لزيادة التوكيد والتقرير . ولتنزيهه عليه السلام عما كانوا عليه من عقائد الشرك والضلال المبين .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾)

المفردات :

(جُعِلَ السَّبْتُ) : المراد ؛ فرض تعظيم يوم السبت وتقديسه .

التفسير

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ . . .) الآية .

كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم السبت والتخلى للعبادة فيه من شعائر ملة إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان من المحافظين عليه - فكذبهم الله تعالى ، وبين أنه لم يشرع ذلك

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

التعظيم إلا لبنى إسرائيل فى رسالة موسى ، بعد إبراهيم عليهما السلام بمدة طويلة كما سيأتى بيانه .

والمعنى : ما فرض الله تعالى تقديس يوم السبت بالتخلى للعبادة فيه ، إلا على الذين اختلفوا فى تقديسه على نبيهم ، حيث أمرهم بتعظيم الجمعة فاختاروا السبت ، وهم اليهود ، أخرج الشافعى فى الأم ، والشيخان فى الصحيحين - واللفظ للبخارى - عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا[1] ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً والنصارى بعد غد » .

وقيل إن موسى عليه السلام لما جاءهم بتعظيم الجمعة اختلفوا فيما بينهم ، فأبى أكثرهم إلا السبت ، وقالوا إنه اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض ، ورضيت شرذمة منهم بالجمعة ، فأذن الله تعالى لهم بالسبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ؛ وهكذا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

وقد أطاع فريق منهم فكانوا لا يصيدون يوم السبت ، وعصى أكثرهم فكانوا يصيدون فيه ، فأبغضهم الله ولعنهم ، وجعلهم فى خِسة القردة ، قال تعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »[2] . وقال سبحانه : « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ »[3]

---

(١) فى إحدى روايات الشيخين زيادة (وأوتيناه من بعدهم) والحديث رواه النسائى أيضا .

(٢) البقرة ، الآية : ٦٥ .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٦ وقد قدمنا فى بيان المراد من قوله تعالى « كونوا قردة خاسئين » أنه إما على الحقيقة وأن الله تعالى حولهم قردة وإما أنه مجاز عن مسخ قلوبهم وصرفها عن الخير . راجع الوسيط فى تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ، ط ثانية .

ثم جاء عيسى عليه السلام بتعظيم الجمعة كذلك ، فاختلف عليه النصارى ، وأبوا إلا الأحد ، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبدأ الخلق عندهم .

ثم جاء بتعظيم يوم الجمعة خاتم النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم - لخير أمة أُخرجت للناس . فهداهم الله له . ففازوا بفضيلته . وحماهم الله تبارك وتعالى من الاختلاف فيه . ولله سبحانه الحمد والمنّة .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب ؛ أى وإن ربك سيقضى يوم الجزاء الحق بين المختلفين على نبيهم . أو المختلفين فيما بينهم ، فيجازى كُلاًّ بما يستحقه من الثواب والعقاب .

(ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾)

المفردات :

(سَبِيلِ رَبِّكَ) : أى طريق ربك الموصل إلى مرضاته ، وهو الإسلام .

(بِالْحِكْمَةِ) : أى بالمقالة الحكيمة وهى الحجة الموصلة لليقين .

(الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) : أى النصيحة الجميلة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل .

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) : أى وراجعهم بالطريقة التى هى أحسن فى إظهار الحق .

التفسير

١٢٥ - (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...) :

بعد أن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم حنيفًا - بين له فى هذه الآية طريق الدعوة إليها .

والمعنى : ادع أيها الرسول جميع المكلفين الذين بعثت إليهم . ادعهم إلى الإسلام . بالحجج المزيلة للشبهة ، الموصلة إلى اليقين ، وبالنصائح الجميلة المرغبة فى الحق والخير ، المنفِّرة من الباطل والشر ، ومن جادلك منهم فجادلهم بأحسن طرق المراجعة والمجادلة ، أى باللين والرفق ، كما راجع إبراهيم أباه وقومه ، وكما حاجّ الطاغية الذى آتاه الله الملك [1] .

وإنما لم يقل : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن لأن الجدال ليس طريقًا أصيلًا فى الدعوة إلى الله عز وجل ، وإنما يكون عند المراجعة والمحاورة بقصد إظهار الحق والرجوع إليه والطمأنينة به ، لا لقصد إفحام الخصم وغلبته ، كما يتبع ذلك بين أهل الجدل والخصومة .

ذلك بأن منهج القرآن الحكيم فى دعوته وهدايته ، قائم على الحجج القاطعة ، والنصائح الرشيدة الهادية ، فى كل مادعا إليه ، وماجاء به .. من وحدانيته تعالى وقدرته ، وبعثه الناس ليوم لاريب فيه « يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » [2] .

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١١١

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى ، بأن ليس على الرسول إلا البلاغ بالطريقة التى بيَّنها له ، فأما ماوراء ذلك من حصول الهدى والضلال ، والجزاء عليهما ، فإلى الله تعالى وحده . فإنه هو العليم بمن يبقى على الضلال ، وهو العليم بمن يهتدى إلى ربه ، فيجازى كلا بما يستحقه . طبقاً لما اختاره لنفسه .

وتقديم الضالين فى قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ) لأن الكلام فيهم . وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث . لأن الضلال تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها . وذلك أمر عارض ، بخلاف الاهتداء فإنه ثبات على الفطرة ، فلذا جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات : ولا يخفى مافى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم ، من اللطف والعناية .

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾)

التفسير

١٢٦ - (وإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ..) الآية .

سبب النزول :

عن أُبَىٍّ بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أُحد أُصيب من الأَنصار أَربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضى الله عنه ، فمثلوا بهم . فقالت

الأنصار : لئِنْ أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربْيَنَّ عليهم فى التمثيل ، فلما كان يوم الفتح نزل :(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ)الآية . فقال رجل .. لاقريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كفوا عن القوم إلا أربعة .. أخرجه الترمذى .

وفى رواية عن أبىّ أيضا .. « ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . نصبر ولا نعاقب » والآية – بناءً على هذا السبب نزلت .. فى فتح مكة . وتسمى مدنية على الأرجح وهو أن كل مانزل بعد الهجرة فهو مدنى وإن نزل بمكة وقال القرطبى : وتبعه الألوسى : أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية لما شق على المسلمين مارأوا من تمثيل المشركين بقتلاهم . فى غزوة أحد فتوعدوهم بأزيد مما فعلوا . إذا ظفروا بهم!! وقال النحاس : إنها مكية . والمعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسنا . ثم قال القرطبى : ولكن ما قاله الجمهور من أنها مدنية أثبت ، وساق حديثا رواه الدارقطنى عن ابن عباس مؤيدا لما ذهب إليه الجمهور من مدنيتها .

وسواء أكانت هذه الآية الكريمة مكية أم مدنية ، وسواء أصح نزولها فى شأن التمثيل بحمزة أم لم يصح . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . .

ووجه اتصال هذه الآية بقوله تعالى قبلها : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ » الآية . أن الدعوة إلى الله سبحانه لاتكاد تخلو من مخاصمة الأعداء . . ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء . لأنها تتضمن رفض عقائدهم الباطلة الموروثة . ونبذ عاداتهم السيئة الموروثة ، ولما كان هذا شديدا عليهم وباعثا لهم على الخصومة الشديدة ، فلهذا أمر الله تعالى نبيه وأصحابه أن يقابلوا إساءتهم بمثلها إن أرادوا عقابهم عليها – والمعنى : وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله . ويعتدى عليكم وأنتم تدعونه إلى سبيل الله ، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم . وما ناله منكم ، ولاتجاوزوا هذا المثل بحال ، كما قال سبحانه : «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »[1] وليس مافعله العدو أولاً

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠

عقابا ولكن العقاب هو الثانى، لأنه هو الذى يرد به المسلمون عدوان العدو ، عقابًا له ودفاعا عن دينهم وأنفسهم ، وإنما سمى اعتداء العدو عقابا من باب مماثلة الكلام ومشاكلته[1] . . كما سمى جزاء الاعتداء اعتداء فى قوله تعالى : «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَااعْتَدَى عَلَيْكُمْ»[2] وكما سمى جزاء السيئة سيئة فى قوله سبحانه : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُها[3] » .

ولم يقتصر العدل الإلهى على طلب المماثلة فى العقوبة ، وعدم التجاوز فيها . بل حث على العفو والصبر ؛ فقال سبحانه :

(وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِّلصَّابِرِينَ) :

أى ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى . لصبركم هذا هو خير لكم فى دنياكم وآخرتكم من الانتصار بالمعاقبة ، فإن الصبر والعفو وكظم الغيظ من أمهات الفضائل التى يسمو بها العبد ، ويرفعه الله بها درجات ، ويرد بها عدوّه الألد وليًّا حميما وصديقا مصافيا . . وإنما يحمل العفو عند القدرة ، وحيث تدعو إليه المصلحة فى عزة الإسلام وسماحته ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر أمرا صريحا بعد ما ندب إليه من قبل تعريضا فقال جل ثناؤه :

١٢٧ ـ (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ . . .) الآية .

لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور ، لمزيد علمه بشئون ربه ، ووثوقه به أى اصبر أيها الرسول على ما أصابك من قومك ، من إعراضهم عن دعوتك ، وإيذائهم لك . . وما صبرك إلا بمعونته تعالى وتأييده وتوفيقه وتثبيته .

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) : أى ولاتحزن على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك ، كما قال تعالى : «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»[4] .

---

(١) المشاكلة التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته وهى فن من فنون البديع .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤ (٣) سورة الشورى ، من الآية : ٤٠

(٤) سورة المائدة ، من الآية : ٦٨

(وَلَاتَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) : أى ولا تكن فى حرج وضيق صدر من مكر الكفار بك ، فإن الله كافيك وحافظك منهم ، ومظفرك بهم ، وفى هذا تأكيد لتسليته صلى الله عليه وسلم ، ولأمر الله له بالصبر ، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة الكريمة بتلك البشارة العظيمة ؛ بمعيته للمتقين المحسنين – والنبى إمامهم ، فقال عز من قائل :

١٢٨ – (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) :

والمعنى أن الله جلت آلاؤه ، مع الذين جمعوا بين فضيلتى التقوى والإحسان ، واستمروا عليهما . . والمقصود من معيته تعالى هنا أنه سبحانه يعينهم ويحفظهم من مكر الأعداء بهم ، وينصرهم عليهم ، فهى معية رعاية وحفظ . كالتى يشير إليها قوله تعالى لموسى وهارون وقد أرسلهما إلى فرعون : «لَاتَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىَ »[١] .والتى يشير إليها قول النبى صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار ، كما حكى الله : «لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[٢] . ولاريب أن هذه المعية الخاصة أعلى وأجل من المعية العامة التى فى مثل قوله تعالى : «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[٣] .فإنها معية العلم والرقابة والمحاسبة ،وتلك معية العناية والرعاية والمحبة . وشتان مابينهما – ذلك وقد اشتملت خواتيم هذه السورة على تعليم حسن الأدب فى الدعوة وترك التعدى ، والأمر بالصبر على المكروه . وعظيم البشارة للمتقين المحسنين . وقد روى ابن جرير . . وغيره أن هرم بن حبان[٤] . قيل له عند الاحتضار أوص . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لى : وأوصيكم بخواتيم سورة النحل .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٤٦

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٤٠

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٤) قائد فاتح من كبار الزهاد التابعين ولى بعض الحروب فى أيام عمر وعثمان رضى الله عنهما ومات فى إحدى غزواته .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٨٩٧١-١٩٨٠-٢٠٠٠ع



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب التاسع والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٢

سورة الإسراء

هذه السورة مكية بتمامها عند الجمهور ، واستثنى بعضهم أربع آيات فإنها مدنية وهى قوله تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ». وقوله : « وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ » ، وقوله : « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ». وقوله : « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ » وقيل غير ذلك ، وسيأتى تحقيقها فى مواضعها ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤها وسورة الزمر كل ليلة ، كما أخرجه الإمام أحمد والترمذى وحسنه والنسائى وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها ، وكما تسمى سورة الإسراء تسمى سورة بنى إسرائيل ، لكثرة ما ذكر فيها من الحديث عنهم .

صلتها بما قبلها

قال الجلال السيوطى : لما قال الله سبحانه فى آخر النحل : « إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » ذكر فى هذه شريعة أهل السبت التى شرعها لهم سبحانه فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جل شأنه بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون وأخبر سبحانه أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأهلك . . . الخ .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقاصد كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - إسراء الله بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليطلعه على بعض آياته العظيمة .

٢ - وإيتاء بنى إسرائيل التوراة ليعبدوا الله وحده ويهتدوا بهداه ، ولكنهم ضلوا وأفسدوا فى الأرض مرتين إفسادا شنيعاً ، فبعث الله من عباده الأقوياء أهل الشدة والغلبة

من عاقبوهم أشد العقاب ، فقد جاسوا خلال ديارهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وأسروا نساءهم وذراريهم ، وحطموا هيكلهم ، وقد أنذرهم الله إن عادوا إلى الإفساد فى الأرض أن يعود إلى عقابهم .

٣ ـ وبيان أن القرآن يهدى إلى الشريعة الأقوم ويبشر المؤمنين الصالحين وينذر الكافرين الظالمين .

٤ ـ وأنه تعالى جعل الليل والنهار آيتين ، وجعل من أثرهما أن نبتغى من فضله ، ونعلم عدد السنين والحساب وألزم كل مكلف بعمله ، وسجله فى كتاب ليقرأه يوم القيامة ويعرف منه مصيره .

٥ ـ وأنه تعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسوله ويدعو مترفيها إلى الحق ويأمرهم بترك الفساد ، ويستمروا على ماهم فيه فيحق عليهم قضاؤه ، ـ فيدمرها عليهم وعلى أتباعهم .

٦ ـ وأن من أراد العاجلة أعطاه الله ما قدره له منها ، وليس له فى جنة الآخرة من نصيب ، بل يعاقب على كفره بالنار يصلاها مذموما مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وعمل لها وهو مؤمن ، شكر الله سعيه ومتعه بالجنة دار السلام .

٧ ـ ووصيته تعالى لعباده أن لايشركوا به شيئاً ، وأن يحسنوا إلى والديهم وبخاصة فى حالة الشيخوخة ، ونهيه الآباء عن قتل الأولاد خشية الفقر فإنه يرزقهم وإياهم ، ونهيه الناس عن الزنى وقتل النفس بغير حق ، وإعطاء ولى القتيل سلطان المطالبة بقتل غريمه ، فلا يتعداه إلى سواه ، ونهيه الأولياء والأوصياء أن يقربوا مال اليتيم بغير حق ، وأمره الناس بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان المستقيم ، ونهيه عن أن يقول الإنسان مالايعلم وأن يمشى فى الأرض مرحاً وكبرا ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا ، فلا وجه لكبريائه على الناس مهما أوتى من النعم ، فإنها إلى زوال .

٨ ـ كما أنكرت على من يزعم أن الملائكة بنات الله ، ووصفت هذا الزعم بأنه عظيم الخطورة على قائله .

٩ ــ وبينت أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لطلبوا سبيلا إلى صاحب العرش لينازعوه فى ملكه كما يفعل الشركاء ، وبذلك تفسد السموات والأرض ، ولكنها لم تفسد فانتفى بذلك وجود شركاء له تعالى ، وثبت أنه هو الذى تسبح له السموات والأرض دون سواه .

١٠ ــ كما بينت أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على من يجحدون الآخرة لم يفقهوه ، وولوا على أدبارهم نفورا لكفرهم وإعراضهم ، ووصفوه بأنه رجل مسحور ، وأنكروا أن تبعث العظام والرفات ، مع أنهم لو تحولوا وصاروا حجارة أو حديدا أو غير ذلك ، فإنه تعالى يعيدهم كما فطرهم أول مرة .

١١ ــ وتضمنت أنه تعالى فضل بعض النبيين على بعض ، ومن أمارات هذا التفضيل أن يكون لهم كتب خاصة بهم ، كداود عليه السلام ، حيث آتاه الله زبورا .

١٢ ــ وبينت أن شركاء المشركين لايملكون كشف الضر عنهم إذا دعوهم ، وأن المعبودات العاقلة التى يعبدونها لا تغرهم على عبادتهم لها ، لأنها تتبارى فى طلب الوسائل أيها أقرب فى الوصول إلى رضا الله تعالى ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، كما هو الشأن فى الملائكة التى يعبدونها ومن على نهجهم من البشر .

١٣ ــ وتضمنت أنه تعالى لم يحقق لهم ما طلبوه من الآيات الكونية حتى لايهلكهم بالكفر بها ، كما أهلك أمثالهم ممن كذبوا رسله قبلهم .

١٤ ــ وأنه تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم ، وأن إبليس تكبر على أن يسجد له وقد خلق من طين ، وأن إبليس توعد ذريته بإغوائهم إلا قليلا منهم ، وهم المؤمنون الصالحون الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً » .

١٥ ــ وأنه تعالى كرم بنى آدم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، ولذا كلفهم بعبادته ، وأنه سيدعو كل أمة بإمامها يوم القيامة ، وإمام كل أمة كتابها ، فيقال يأهل القرآن يأهل التوراة ماذا فعلتم بكتابكم ؟ أو إمامهم نبيهم ، ويعطى كل واحد منهم كتابه فيعرف منه مصيره .

١٦ - كما اشتملت على تكليف النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بأن يقيموا الصلاة لدلوك الشمس أى زوالها عن وسط السماء إلى سواد الليل ، ووقت قراءة الفجر ، يشير بذلك إلى إجمال مواقيت الصلوات الخمس ، وتكليفه صلى الله عليه وسلم خاصة بقيام الليل والتهجد على سبيل الوجوب ، رجاء أن يبعثه الله المقام المحمود يوم القيامة ، وهو مقام الشفاعة العظمى .

١٧ - وبينت أن الروح من أمر الله ، وأن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا لا يؤهلهم لمعرفة حقيقتها ، وأن القرآن معجز للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

١٨ - وأنه لم يمنع الناس أن يؤمنوا حين جاءهم الهدى على لسان أنبيائهم إلا زعمهم أن الله لا يبعث من البشر رسولا ، وأن الله رد عليهم بأنه لو كان إرسال الملائكة للبشر يجعل الملائكة يمشون على الأرض مطمئنين ولا يطيرون ، بل يبقون بينهم كشأن البشر لنزل عليهم من السماء ملكاً رسولا ، ولكن الملائكة خلقت لتطير فى ملك الله ، ولو حولوا إلى مثل البشر لاشتبه أمرهم عليهم ، فزعموا أنهم بشر وليسوا ملائكة ولو بقوا على خلقتهم لصعق البشر من لقائهم .

١٩ - وتضمنت إيتاء موسى تسع آيات بينات ، وزعم فرعون أنه مسحور ، وكفره بما جاء به من البينات ، وإغراقه وجنوده جزاء كفرهم وعنادهم .

٢٠ - وختمت السورة بأمره صلى الله عليه وسلم وأمر أمته تبعاً له ، بالحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك ولا ولى من الذل ، وأن يكبره تكبيرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾)

المفردات :

(سُبْحَانَ) : هو علم للتسبيح عند الزمخشرى ، والتسبيح التنزيه ، ولا يجوز استعماله شرعاً إلا فى الله تعالى .[1]

(أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ) : الإسراء سير الليل كالسُّرى ، تقول : أسريتُ وسريتُ إذا سرتَ ليلا ، وأسريتُ به سرتُ به ليلاً ، والمراد بالعبد هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(المَسْجِدِ الْحَرَامِ) : هو مسجد مكة المشتمل على الكعبة .

(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) : مسجد بيت المقدس ، ووصف بالأقصى لأنه أقصى أى أبعد مسجد يعظم بالزيارة بالنسبة لأهل المسجد الحرام .

(بَارَكْنَا حَوْلَهُ) : البركة : الخير والنماء والسعادة ، ومباركة الله حول المسجد الأقصى حسية بجعل الأرض حوله دائمة الثمار والخيرات ، ومعنوية بدفن الأنبياء والصالحين فيها .

البيــان

١ ــ كانت رحلة الإسراء العظيمة فى أخريات العهد المكى بعد أن قاسى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ومن حولهم من العنت والإيذاء ، والإعراض والكبرياء ما يهدم الأجساد ، ويحطم القوى ، فلهذا أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم برحلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، وبرحلة المعراج من بيت المقدس إلى ما وراء سدرة المنتهى ، لينفس عنه

(١) قال صاحب الكشف انتصاراً للزمخشرى : لا تمنع علميته من إضافته كما فى حاتم طى ، وعنترة عبس ــ انظر الآلوسى .

ما أصابه ، ويسبغ عليه أسمى نعمه ورحمته ، ويكشف له عن بعض آياته ، ترفيها له ومكافأة على مناله من أذى قومه ، وشحذًا لهمته فى المرحلة المقبلة للدعوة ، فقد كان الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، حيث اشتد إيذاء قريش له بعد وفاتهما .

وحكى أبو حيان فى البحر أنه أسرى به صلى الله عليه وسلم فى سبع عشرة من ربيع الأول ، وعمره إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وثمانية وعشرون يوما ، وهذا التاريخ يقتضى أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام واحد ، وأنه كان فى أواخر السنة الثانية عشرة من النبوة تقريبا .

المعنى الإجمالى للآية

تنزيها شاملا لله الكبير المتعال الذى نقل عبده المختص به ، ونبيه الحقّ به ، نقله وأسرى به ليلا بكيفية عجيبة من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، الذى أحاطه بالبركة والخير الكثير ، من رياض وغياض وثمار وأنهار ، وزروع وأشجار ، ومن نفحات الأنبياء والصالحين ، وبركات رسل الله الراحلين ، وقد نقله وأسرى به لكى يطلعه على بعض آياته العظيمة ، إعظاما لمقام عبده ورسوله ، وتنفيساً عنه بعد ما أجهده قومه ، إنه تعالى هو السميع لأقوال عبده ورسوله فى تبليغ دعوة ربه ، العليم بأفعاله الخالصة عن شوائب الهوى ، المقرونة بالصدق والهمة ، الجديرة بالقرب والزلفى ، فتعالى الله الذى له هذه القدرة وهذا العلم ، تعالى عن جميع النقائص ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخصيص به إلا حكمة وصواباً .

المعنى التفصيلى

كيف كان الاسراء :

جاء حديث قصة الإسراء فى جميع كتب السنة ، وذكر النَّقَّاش ممن رواه عشرين صحابياً فهو لهذا من الأحاديث المتواترة ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك بن صعصعة قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَنَا فِى الحِجْرِ – وفِى رِوَايَةٍ فِى الحَطِيمِ – بَيْنَ النَّائِمِ واليَقْظَانِ ، إِذْ أَتَانِى آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هذهِ

إلى هذه ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَغَسَلَهُ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ ، يُقَالُ لَهُ الْبُرَاقُ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ ، قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ – قَالَ – فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ : قَالَ : ثُم عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ » إلى آخر قصة المعراج ، وسنعرض لها إن شاء الله تعالى فى تفسير سورة النجم عند قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ». وجاء فى رواية البخارى فى طريقة غسل قلبه الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : « فاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إيماناً فَغَسَلَ قَلْبِي ثُمَّ حَشَا ، ثُمَّ أُعِيدَ » . وكان الإسراء والمعراج والعودة فى بعض ليلة واحدة ، واختلف العلماء هل كانا بالجسد والروح ، أو بالروح فقط ، أو كانا مناما ، والجمهور على أنهما كانا بالجسد والروح يقظة ، ويشهد لذلك التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : (بِعَبْدِهِ) والعبد يشمل الجسد والروح معاً ، كما يشهد له إعداد البراق له وركوبه إياه ، ووصفه بأنه كان يضع حافره عند منتهى بصره ، ومن أقوى الأدلة على ذلك ما حدث له صلى الله عليه وسلم من شق صدره وغسله بالإيمان وحشوه ، فإنَّ هذا كناية عن أنه تعالى كلف الملك بإعداده جسديا وروحياً لتلك الرحلة الخطيرة ، وشحنه بالقوى الإلهية التى تجعله فى منعة من الأخطار الكونية أثناء هذه الرحلة ، وتجعله أيضاً مستعداً لاستقبال الأنوار الإلهية ، ومن العلماء من قال : إن ذلك كان مناما ، وبه قال الحسن ، وروى ذلك عن عائشة ومعاوية ، ورد ذلك بأن عائشة – رضى الله عنها – كانت حينذاك صغيرة ولم تكن معه صلى الله عليه وسلم ، وأن معاوية كان كافراً فلا يصح ما أسند إليهما ، أما الاستناد إلى قوله تعالى :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ » فهو دليل عليهم وليس دليلا لهم ، فإن الرؤيا هنا بمعنى الرؤية البصرية كما فى قول الراعى يصف صائداً :

وكبر للرؤيـــا وهش فؤاده ... وبشر قلبا كان جماً بلابله

ولو كانت رؤيا منامية لما كانت فتنة للناس حين علموا بها ، لأن النائم قد يرى نفسه فى السماء وأنه يطير بين المشارق والمغارب ولا يكذبه أحد ، ومثله يحدث عادة لكثير من الناس مناما .

وسيأتى بيان فتنة قريش حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، عند شرح قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ ... »(١)

والعبودية لله عند العارفين من أهل الحق أشرف الأوصاف ، ولقد كان المحبون للبشر يفخرون بها ، ومن ذلك قول قائل فى محبوبته :

لَا تَدْعِنِى إِلَّا بِيَا عَبْدَهَـــا فَإِنَّــهُ أَشْـرَفُ أَسْمَائِيَا

فكيف بالعبودية لمالك الملك والملكوت ، على أنَّ فى وصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية وقد وصل إلى ما هو عليه من الرفعة العلية ، سدًّا لِبَاب الغُلُوِّ فيه ، كما وقع للنصارى مع نبيهم عيسى عليه السلام .

قال القشيرى : لمـا رفعه الله إلى حضرته السنية ، ورقاهُ فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة .

والمسجد الحرام وقت الإسراء كان مليئاً بالأصنام التى كان العرب يعبدونها قبل إيمانهم ، وتسميته بالمسجد الحرام مع هذا ، لأن المسجد فى اللغة مكان السجود وهو الخضوع ، وكانوا فى عبادتهم لأصنامهم خاضعين لها أشد الخضوع ، وكان حرماً آمناً يحرم فيه القتل والأخذ بالثأر عندهم .

والمسجد الأقصى بيت المقدس ، فكان مسجد النبيين ومصلاهم (٢) ، بناه يعقوب بعد بناء إبراهيم الكعبة بأربعين سنة ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِين ».ثم شرع فى تجديده داود ، وأتمه سليمان ابنه عليهما السلام ،

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠

(٢) فلذا أطلق عليه لفظ المسجد ، ويصح أن يكون إطلاق المسجد على كليهما باعتبار ماآل إليه أمرهما فى الإسلام .

وهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال لأن ثواب الصلاة فيها يضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلى ثَلَاثَةِ مَسَاجِد ، مَسْجِدِي هذَا والمَسْجِدِ الْحَرَامِ والمَسْجِد الأَقْصَى » والصلاة فى المسجد الحرام أعظمها أجرًا ، ثم المسجد النبوى ثم المسجد الأقصى ، والغاية من الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أن يطلع الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على بعض آيات قدرته تعالى فى رحلة الإسراء والمعراج ، وما وقع فيها من الأعاجيب ، وكان ذلك من قبيل الإعداد للمرحلة التالية للهجرة ، ولاشك أن فى شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم وشحنه بالإيمان والعلوم والتقوى الإلهية ، أثرًا عظيماً فى تحمله لتلك الرحلة الكونية العظيمة ، التى رأى فيها بعض ملكوت السموات والأرض ، وفى تقوية روحه ومضاعفة همته وعزيمته، لكى يستقبل المرحلة التالية للهجرة وهو جمُّ النشاط عظيم الاحتمال .

(وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾)

المفـردات :

(بَنِى إِسْرَآئِيلَ) : أبناء يعقوب عليه السلام ، فقد كان يدعى إسرائيل .

(وَكِيلاً) : ربا تكلون إليه أموركم ،(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) : ذرية من آمنوا بنوح وحملناهم معه فى السفينة ، لننجيهم من الغرق بالطوفان .

التفسير

٢ ، ٣ – (وآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَآئِيلَ أَن لَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه بارك حول المسجد الأقصى ، جاء بهاتين الآيتين ليبين بعض البركات الروحية هناك ، حيث آتى موسى الكتاب لهداية بنى إسرائيل الذين أسكنهم الله الشام حول المسجد الأقصى ، بعد هجرتهم من مصر وخروجهم من التيه ، ثم إن هاتين الآيتين وما بعدهما تعتبر تمهيداً للحديث عن هداية القرآن للتى هى أقوم ، ليعرف بنو إسرائيل أنهم لم ينصفوا أنفسهم حين أعرضوا عن الطريق الأقوم ، والشريعة المثلى ، بعدم إيمانهم بالقرآن ومن أنزل عليه القرآن ، فى حين أنه منّ الله تعالى عليه بهذه المنزلة العلية ، حيث أسرى به فى بعض ليلة ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ما وراء سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى « مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى » .

معنى الآيتين

وأعطينا موسى الكتاب فى ألواح مشتملة على التوراة ، وجعلنا هذا الكتاب هادياً لبنى إسرائيل إلى الحق ، بعد أن دانوا فى مصر بعبادة العجل الذى كان يعبده الفراعنة ، وقد أمرنا موسى بهذا الكتاب ، لكيلا تتخذوا سواى رباً تكلون إليه أموركم ياذرية من حملناهم فى السفينة مع نوح ، وأنجيناهم من الغرق ، إن نوحاً كان عبداً شكوراً لنا ، فلم يتخذ رباً سوانا ، وكذا من حملناهم فى السفينة معه ، فلهذا حفظناهم من الطوفان وأغرقنا سواهم ، فكونوا يابنى إسرائيل على سنة من أنجيناهم من الغرق من أهل التوحيد ، لتكونوا بمنجاة من عقوبة أهل الشرك .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل ، بذرية من حملنا مع نوح ، تذكير بفائدة التوحيد وأثره فى الدنيا ، وتحذير من الشرك وعقوبته ، كما أن فيه إشارة إلى أن غيره تعالى من الوكلاء والأرباب المزعومة ، لا تستطيع أن تأتى بمثل هذه الآية الكبرى التى تتمثل فى الطوفان العالى لإغراق من لم يعبدها ، وفى السفينة لإنجاء من عبدها ، فهى أحقر من أن تهلك أو تنجى ذبابة ، فسبحان الكبير المتعال الذى ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ، بما لا يتصوره البشر ولا تطيق مثله جميع القوى والقدر .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » إلى موسى عليه السلام ، تعليلا لإيتائه الكتاب ، فكأنه قيل وآتينا موسى الكتاب هداية لقومه ، لأنه

كان عبدًا شكورًا ، وما اخترناه أظهر وأولى ، لما فيه من رجوع الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو نوح عليه السلام .

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾)

المفـردات :

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) : أى أوحينا إليهم[1] على سبيل الجزم والقطع .

(فِى الْكِتَابِ) : أى فى التوراة ، (فِى الْأَرْضِ) : أى فى جنس الأرض ، أو هى الشام وفيها بيت المقدس . (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) : العلو ، الارتفاع ، والمراد به هنا الاستكبار والتغلب على الناس بالظلم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) : سلطنا عليكم . (عِبَادًا لَّنَا) : أى ناسا مملوكين لنا كى يؤدبوكم ، ولا يقتضى وصفهم بالعبودية أن يكونوا مؤمنين فالكافر والمؤمن عباد مملوكون لله ، تجرى عليهم أحكامه .

(أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب قوة وبطش شديد فى الحروب . (فَجَاسُوا[2] خِلَالَ الدِّيَارِ) : أى ترددوا بينها لطلبكم وعقابكم . (وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) : أى وكان ما ذكر من إرسال العباد ليعاقبوكم ، وعدًا نافذًا لا مفر من وقوعه ، والوعد يستعمل فى الخير والشر ، ويفرق بينهما بحسب المقام ، وقد يفرق بينهما لفظاً ، فيقال فى الخير وَعَدَ ، وفى الشر أوعدَ ومنه قول الشاعر :

وإنى وإن أوعدته أو وَعَدتُه ... لمُخْلفُ إيعادى ومنجزُ موعدى

وقد يقال فى الخير وَعْدٌ وفى الشر وَعِيدٌ .

---

(١) تفسير القضاء بالإيحاء لتعديه بحرف (إلى) وفى إحدى الروايتين عن ابن عباس أن المعنى (وقضينا عليهم) فتكون إلى بمعنى على .

(٢) الجوس طلب الشئ باستقصاء .

التفسير

٤ - (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) الآية .

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه أعطى موسى التوراة ليستهدى بها بنو إسرائيل ، جاءت هذه الآية لتبين أنهم انحرفوا عنها وأفسدوا فى الأرض مرتين ، مخالفين ما أمرهم الله به فى التوراة من الصلاح والاستقامة

والمعنى : وأوحينا إلى بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة ، أوقضينا عليهم بسبب انحرافهم عن هداه ، لتفسدن فى الأرض التى تعيشون عليها فى الشام ، أو فى جنس الأرض - لتفسدن فيها - مرتين ، ولتستكبرن استكبارًا كبيرًا على الله تعالى ، فلا تلتزمون بهداه ، وعلى الناس فتغلبونهم وتظلمونهم وتسيئون إليهم ، وتحديد هاتين المرتين اللتين أفسدوا فيهما متعذر لأنهم قد أفسدوا مرات كثيرة منذ نزلت التوراة حتى الآن ، ومما جاء فى إفسادهم ، أنهم لما مات ملكهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا ،ولم يسمعوا النصح من نبيهم زكريا ، بل عَدَوْا عليه وقتلوه ، وقد رواه ابن إسحاق ،وفى الكشاف أن أولاهما قتل زكريا وحبس أرميا ، وثانيتهما قتل يحيى وإرادة قتل عيسى عليهم السلام ومنها أنهم فى سنة (٧١) إحدى وسبعين بعد الميلاد حاولوا أن يثيروا المتاعب للرومانيين فبطش بهم القائد الرومانى (صيطس-أوتيتوس) وقتل منهم خلقاً كثيرين ، وخرب هيكلهم المقدس الذى كانوا يفاخرون به الأمم ، ويباهون بضخامته وما فيه من آنية الذهب والفضة ، فتفرق كثير منهم فى الأرض ، وذهب بعضهم إلى الحجاز ، فتكون منهم يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع حول المدينة ، ويهود خيبر وغيرهم كما فر بعضهم إلى الشام ومصر وغيرهما.

ومن هاجر منهم إلى الحجاز اختاروها لأنهم قرءوا فى التوراة خبر نبى يبعث من بين إخوتهم ، وهم بنو إسماعيل ، وأن دينه سيذيع وينتشر من يثرب - أى المدينة - فلذا أقاموا حولها ليؤازروه ، حتى يعيد إليهم مجدهم وكانوا إذا تحاربوا مع الأوس والخزرج قبل البعثة وانتصروا عليهم ، قالوا لكليهما : سيبعث نبى من بنى إسماعيل وسنؤمن به ونقتلكم

معه قتل عاد وإرم ، وكانوا أحيانا يخرجون التوراة ويضعون أصابعهم على اسمه صلى الله عليه وسلم ، ويستفتحون به على أعدائهم ، فكانوا يقولون اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان ،أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون ،فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، قال تعالى : « وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُم وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1] .وفى سنة ١٣٥ ميلادية ثاروا مرة أخرى على الرومان ، فاحتلوا المنطقة اليهودية فى القدس ودمروها وقتلوا أهلها ، وهدموا هيكلها من جديد ، وحرثوا أرضه ، وبنوا مكان المنطقة اليهودية مدينة أخرى حرموها على اليهود[2] .إلى غير ذلك من حوادث الإفساد .

وترتيبها زمناً أو أثرا لتعرف المرتان المقصودتان من الآية الكريمة فيه صعوبة إن لم يكن متعذرًا ، ولهذا قال الجبائى : إن الله تعالى ذكر إفسادهم فى الأرض مرتين ، ولم يبين ذلك فلا يقطع بشىء مما ذكر .

٥ ـ (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعداً مَّفْعُولاً) :

أى فإذا جاء موعد عقابكم على أولى مرتَىْ إفسادكم فى الأرض ، سلطنا عليكم عبادًا لنا أصحاب قوة شديدة وبطش فى الحروب ، فترددوا بين دياركم وتخللوها طلباً لكم ، وكان العقاب الموعود على تلك الإفسادة وعدًا نافذًا لا خلف فيه ، قال القرطبى فى هؤلاء العباد : هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر[3] فى المرة الأولى حين كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولو بأس شديد : انتهى كلام القرطبى .

وقال الآلوسى : الجمهور على أن فى هذه البعثة خرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر فى بنى إسرائيل ، وحرقت التوراة : اهـ

ولاتغفل عما قلناه من أن تعيين المرة الأولى وعقابها اجتهادى لا قطعى .

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩

(٢) وكان ذلك بقيادة الحاكم الرومانى هارديان .

(٣) وهو المعروف عند المؤرخين باسم نبو خذ نصر .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) : جعلناكم تغلبونهم بعد أن غلبوكم ، وأصل الكرة الرجعة ، وإطلاقها على الغلبة هنا لما فيه من الرجوع إليهم بعد هزيمتهم منهم .

(أَكْثَرَ نفِيرًا) : النفير والنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته لمؤازرته والمراد من قوله « أَكْثَرَ نفِيرا » أكثر عددا مما كنتم أو من أعدائكم[١] . (وإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) : أى وإن أَسَأْتُمْ فعليها ، فاللام هنا بمعنى على . (وَعْدُ الآخِرَةِ) : وعد المرة الآخرة من مرتَىِ الإفساد .

(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) : ليظهروا المساءة عليها بسبب مانالكم من أذاهم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) : المراد بالمسجد هنا بيت المقدس . (وَلِيُتَبِّرُوا مَاعَلَوْا تَتْبِيرًا) : وليهلكوا ما غلبوه واستولوا عليه إهلاكا شديدا . (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) : وإن عدتم للإفساد عدنا للعقوبة .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) : وجعلناها لهم سجنا يحصرهم[٢] ويحبسهم ويمنعهم من الإفلات .

(١) قيل النفير مصدر ، وفعله نفر بمعنى خرج ، أى أكثر خروجا للغزو ، قال الشاعر :

فأكرم بقحطان من والد وبالحميريين أكرم نفيرا

(٢) من الحصر وهو الحبس وهو إما اسم جامد لا يلزم تأنيثه مع المؤنث ، وإما وصف بمعنى فاعل ، على أنه صيغة نسب سماعية ، أى ذات حصر ومنسوبة إليه ، كما فى لابن وتامر أى منسوب إلى اللبن والتمر .

التفسير

٦ - (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) :

أى ثم رددنا لكم الدولة والغلبة ورجعناها لكم على من غلبوكم وتسلطوا عليكم وذلك بعد أن صلحت أحوالكم واستقامت أموركم ، واتحدت كلمتكم ، وعملتم بنصائح أنبيائكم ، وأمددناكم بأموال كثيرة بعد مانهبت أموالكم ، وأمددناكم ببنين بعد ماسبيت أولادكم ، وجعلناكم أكثر رجالا ينفرون معكم للقتال ، بعد ماقل رجالكم الذائدون عنكم ، فاستطعتم بما أمددناكم به من هذه النعم ، أن تستردوا حريتكم وتعود إليكم دولتكم ، وينتهى استعباد أعدائكم لكم .

ويفسر أبو حيان فى البحر إعادة الكرة عليهم بقوله : إنَّ ملكا غزا أهل بابل ، وكان بختنصر قد قتل من بنى إسرائيل أربعين ألفا ، ممن يقرءون التوراة ، وأبقى عنده بقية فى بابل فلما غزاهم ذلك الملك وغلب عليهم تزوج امرأة من بنى إسرائيل فطلبت منه أن يرد بنى إسرائيل إلى ديارهم ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن مما كانوا ، انتهى .

ولعل أبا حيان يشير بما يقول إلى غزو الفرس لأهل بابل ، ففى سنة ٥٣٩ قبل الميلاد غزا الفرس فلسطين واحتلوها بعد أن احتلوا بابل ، وألحقوها بدولتهم قرنين من الزمان ، وفى عهدهم عادت قبيلة يهوذا من بقايا الأسر البابلى إلى القدس ، وأعادت بناء الهيكل من جديد .

وقيل رد الكرة : بأن سلط الله تعالى داود على جالوت فقتله ، وعادت الدولة إليهم بملك طالوت عليهم ، وتلاه داود عليه السلام ، ثم سليمان ثم انقسموا وتحاربوا ، فسلط الله عليهم عباده للمرة الثانية ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى .

٧ - (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) :

بعد أن بين الله تعالى أنه رد لهم الكرة على أعدائهم ونصرهم ، جاءت هذه الآية ، لتبين أن مانالهم من العقاب أولا والنصر ثانيا إنما يجرى على قاعدة الجزاء العادل فإن هم أحسنوا أثيبوا ، وإن هم أساءوا عوقبوا .

والمعنى : إن أحسنتم يا بنى إسرائيل بعودتكم إلى طاعة ربكم ، كانت منفعة هذا الإحسان لكم ، حيث يثيبكم عليه فى الدنيا النصر والثراء وكثرة الأولاد ، وإن أسأتم بالبغى والطغيان والاستعلاء ، كانت مضرة هذه الإساءة عائدة عليكم ، وقد عرفتم هذا الدستور الإلهى ، فيما تناوب عليكم من الضراء أولا بسبب إفسادكم الفظيع أول مرة ، والسراء ثانياً حينما تبتم إلى الله ، وعرفتم طريق الصلاح والاستقامة .

(فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً) :

فإذا جاء عقاب المرة الآخرة من الإفساد والاستعلاء الكبير على الناس ، بعثنا عليكم يا بنى إسرائيل عباداً لنا أقوياء أشداء لكى يعاقبوكم على المرة الثانية من الإفساد ، وليظهروا بهذا العقاب العنيف آثار المساءة الشديدة على وجوهكم من الحزن والخوف والرعب ، والصفرة والحيرة - فإن الأعراض النفسية تتجلى آثارها واضحة على الوجوه - وبعثناهم أيضاً ليدخلوا المسجد الأقصى - بيت المقدس - بالسيف والقهر والغلبة والإذلال كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ويهلكوا ما علوه وغلبوه واستولوا عليه تتبيرا وإهلاكا شديداً لا يوصف

واختلف فى المبعوث لعقاب بنى إسرائيل فى هذه المرة ، فقيل هو الإسكندر وجنوده ، وقيل هو ملك من ملوك الطوائف اسمه «بيردوس»[1] ، وهؤلاء الملوك ظهروا بعد أن استولى الإسكندر على الفرس وقتل « دارا » ملكهم ، فقامت من بعده دولة ملوك الطوائف ، وعددهم يربو على سبعين ملكا ، ومدة ملكهم خمسمائة واثنتا عشرة سنة وكانت هذه العقوبة على قتلهم نبيهم يحيى عليه السلام ، وكان بين عقوبة بختنصر لهم وهذه العقوبة نحو سبعمائة وخمسة وثلاثين عاما ، وبينها وبين قتل الإسكندر لدارا نحو ثلاثمائة سنة ، وقيل غير ذلك ، انظر الآلوسى .

وقال بعض العلماء الأجلاء : إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ بعثهم وتعيين سبب العقوبة مما لا يتعلق به كبير فائدة ، إذ المقصود أنه لما كثرت معاصى بنى إسرائيل ، سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى : اهـ

وهذا أسلم والله تعالى أعلم .

---

(١) وقد رجح هذا الرأى صاحب الكشاف .

٨ - (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) :

أى لعل الله تعالى يرحمكم بعد العقاب بالبعث الثانى ، إن تبتم عن المعاصى ، ولازمتم طاعته ، فيكف عنكم عقابه وانتقامه ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا ، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم فى الدنيا ، على نحو ما حدث فى عقاب المرتين السابقتين أو أشد أو أدنى حسب درجة آثامكم ، وجعلنا جهنم لجميع الكافرين منكم ومن غيركم سجنا حاصرا لهم ومحيطا بهم ، فلا مهرب لهم منه ، فاحذروا العودة إلى آثامكم ، لكى تنجوا من عقوبة الله فى الدنيا والآخرة ، ولقد عاد هؤلاء إلى الإفساد مرة بعد أخرى ، فسلط الله عليهم من دمرهم وشتتهم فى بقاع الأرض ، وتراهم دائما يتجمعون فى مكان واحد ، تتجمع فيه بيوتهم ، ويغلقون مسالكه حتى لا يعرف أحد أسرارهم ، وليأمنوا الاعتداء عليهم ممن يتآمرون ضدهم وقد تآمروا على النبى صلى الله عليه وسلم وقصدوا قتله ، فسلطه الله على بنى قريظة ، فقتل رجالهم ، وأجلى بنى النضير وقاتل أهل خيبر ، وضرب الجزية على من بقى منهم حول المدينة.

(إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا (١١))

المفردات :

(يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) : يرشد للطريقة التى هى أعدل [1].

---

(١) قيل إن التفضيل هنا غير مراد ، فالمقصود أنه يهدى إلى الطريق المستقيمة دون سواها إذ لا مشاركة بين طريق القرآن وسواها فى الاستقامة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان والرازى وخلاصته أن أفعل التفضيل هنا على غير بابه ، وفى ذلك يقول تعالى (وذلك دين القيمة) .

(أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) : أعددنا لهم عذاباً شديد الإيلام .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ) : أى يطلبه لنفسه ، وكُتِبَتْ (يَدْعُ) فى المصحف بدون واو مراعاة للنطق ، وأصلها يدعو بالواو بعد العين .

(دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ) : أى يدعو لنفسه بالشر مثل دعائه لها بالخير فلا يفرق بينهما لجهله .

التفسير

٩ – (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) :

بين الله فيما تقدم أنه تعالى أعطى موسى كتاب التوراة وجعله هدى لبنى إسرائيل ، وأنهم لم يعملوا به ، بل أفسدوا فى الأرض ، وجاءت هذه الآية والتى بعدها لبيان أن هذا القرآن أعطاه محمدا صلى الله عليه وسلم لكى يهدى الناس جميعا إلى ملة الإسلام ، فإنها أقوم الملل ، وأن على جميع الخلق أن يؤمنوا به ومنهم أهل الكتاب .

والمعنى : إن هذا القرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد يهدى إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها وهى ملة الإسلام إلى الله ، والتوحيد الخالص من كل شوائب الشرك ، والتنزيه له تعالى عن شوائب المماثلة للبشر ، وعن سمات النقص التى لم تتورع عنها الملل والنحل المختلفة وكما يهدى إلى الملة التى هى أقوم يبشر المؤمنين بأحكامه وعقيدته ، الذين يعملون الأعمال الصالحة التى دعاهم إليها – يبشرهم – بأن لهم فى مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم أجراً كبيراً فى ذاته وفى أوصافه الكريمة ، ينالونه فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

١٠ – (وأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

معطوف على ما بُشِّرَ به الذين آمنوا داخل فى حيز البشارة لهم ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين الصالحين بأجر كبير لهم ، ويبشرهم أيضاً بأن أعداءهم الذين لا يؤمنون بالآخرة الإيمان الصحيح ، أعددنا لهم فيها عذابا مؤلما ، فإن الانتقام من العدو سرور يستحق أن يبشر به عدوه ، وبخاصة إذا كانت العداوة من أجل الحق تبارك وتعالى [1].

(١) ومن أجل ذلك يسخر المؤمنون من الكافرين فى الآخرة، قال تعالى: «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون» الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ من سورة المطففين .

ويصح أن يراد من البشارة مطلق الإخبار الشامل للإخبار بما يَسُرُّ وبما ليس كذلك على سبيل المجاز ، ومن استعمال التبشير فى العذاب قوله تعالى فى سورة النساء: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٣٨) وفى سورة التوبة :«فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٣٤)

١١ - (وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً) :

بينت الآيتان السابقتان منزلة القرآن الكريم من الهداية للطريقة التى هى أقوم ، وبشارته للمؤمنين بحسن المثوبة ، وإنذاره للكافرين بشديد العقوبة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الإنسان لم يراع مصلحة نفسه حيث يطلب الشر ويتعجله بدل الخير ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقد أسند إليه حال بعض أفراده وهو الكافر والعاصى ، أو حاله بصفة عامة فى بعض أحيانه .

والمعنى على الأول مع ربطه بما سبق : أن هذا القرآن يهدى إلى الملة والشريعة التى هى أقوم ولكن الإنسان الكافر والعاصى يدعو لنفسه بالشر - أى يطلبه لها - بكفره وعصيانه - يدعو لنفسه بهذا الشر مثل دعائه بالخير وطلبه لها ، من غير تفرقة بين مايؤدى به إلى العقوبة وما ينتهى به إلى المثوبة جهلا منه وسوء تمييز ، وكان الإنسان بطبعه مبالغا فى العجلة حيث سارع إلى مايؤدى به إلى الضرر بغير تريث ولا مبالاة ، وتجاهل ماينتهى به إلى الخير والمنفعة عاجلها أو آجلها ،ولو تريث وفكر لاختار الإيمان والطاعة لحسن عاقبتها ، ولنبذ الكفر والمعصية لسوء منقلبها ، وقد منحه الله العقل ليقوم به غرائزه فلا عذر له فى إهداره وعدم الانتفاع بتقويمه .

والمعنى على الثانى : إن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو فى بعض أحيانه يترك الدعاء بالخير ويدعو الله لنفسه وماله وأهله وولده بالشر لمرض أصابه أو غضب حل به ، أو ضجر من بليّة ومحنة ، وكان الإنسان بحسب غريزته وجبلته شديد العجلة ، لايميل إلى التأنى حتى تزول المحنة أو العارض الذى استتبع دعاءه ، ولو تأنى وتذرع بالصبر الذى يدعو إليه العقل والشرع ، لآثر الدعاء بالخير بدل الدعاء بالشر .

وقد جاء النهى عن ذلك صريحا ، فقد أخرج أبو داود والبزار عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفسِكمْ لَا تَدْعُوا عَلَى أَولَادِكمْ لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكم ، لِئلَّا توَافِقوا مِن اللهِ تعَالى سَاعَةً فِيها إجَابَةٌ فيسْتجيب لكمْ » .

(وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(آيَتَيْنِ) :علامتين ودلالتين على وجود الله وسائر كمالاته .

(فَمَحَوْنَآ آيَةَ اللَّيْلِ) : أى أزلْنا ظلمته بضوء النهار .(مُبْصِرَةً) : أى مبصرا أهلها فى ضوئها ، وإنما أسند الإبصار لفظاً إلى آية النهار على سبيل المجاز ، لأنها سبب الإبصار .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) : لتطلبوا رزقا من خالقكم ومربيكم .

التفسير

١٢ـ (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَار آيَتَيْنِ) :

بين الله قبل هذه الآية أن هذا القرآن يَهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين ، وينذر الكافرين ، وجاء بهذه الآية ليهدينا بها إلى الطريق العقلى الهادى إلى معرفة الله ، وهو النظر فى آياته الكونية .

والمعنى : وجعلنا الليل والنهار فى تعاقبهما واختلافهما طولا وقصرا ، حسب اختلاف مطالعهما ومغاربهما ، وفى تباينهما ظلمة وضياء حسب ظهور الشمس ومغيبها ـ جعلنا الليل والنهار فى ذلك كله علامتين تهديان العقل إلى أن لهما صانعا حكيما ، ومدبرا عليما ، وقادرا عظيما ، ثم فصّل حال الليل والنهار وفائدتهما فقال سبحانه : (فَمَحَوْنـا آيَةَ اللَّيْلِ)[1] : أى فجعلنا الليل الذى هو آية وبرهان على خالقه ، جعلناه ممحوّ الضوء مطموسه مظلما لايستبين فيه شىءٌ كما قال سبحانه : «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا» ويجوز أن يكون المعنى : فأزلنا

(١) إضافة آية إلى الليل بيانية ، يعنى آية هى الليل ، وكذا يقال فى آية النهار .

ظلمة آية الليل بالضوء الباهر والنور الساطع المنبعث من الشمس المشرقة .

(وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . . . .) الآية .

أى وجعلنا النهار الذى هو آية على بارئه ومدبره ـ جعلناه مضيئا ، بحيث تتبين به المسالك والدروب وأسباب الأرزاق ، لكى تبتغوا وتطلبوا فى ضوئه رزقا من فضل ربكم لايتيسر لكم فى ظلام الليل ، ولتعلموا بتفاوت الليل والنهار وتعاقبهما وسائر أحوالهما ، عدد السنين التى مرت بكم ، وحساب الشهور والأيام والليالى ، وغير ذلك مما ترتبط به مصالحكم ومعايشكم وعباداتكم .

(وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) :

أى وكل شىء يرتبط بمعايشكم ومنافعكم الدنيوية والأُخروية ، بيَّنه الله سبحانه فى القرآن تبيينا تاما لاالتباس فيه ولاخفاء ، كما جاء فى قوله لرسوله : «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » وبهذا ظهر كون القرآن هاديا للتى هى أقوم ظهوراً بينا .

واعلم أن القرآن اشتمل على قواعد كلية للعقائد والشرائع ، وأما التفاصيل الجزئية فقد أحالها الله تعالى على نبيه لتبيينها ، وذلك فى قوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] .

فالصلاة فى القرآن أوجبها الله بنحو قوله : «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا » ولم يتعرض لكيفية أدائها وبيان أوقاتها ، وقد تكفل الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان ذلك بوحى من الله تعالى : «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »[2] .

(١) سورة النحل : الآية ٤٤

(٢) سورة النجم : الآيات ٣ ـ ٥

(وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(طَآئِرَهُ) : أى عمله من خير أو شر ، وقيل المراد رزقه وأجله وعمله وجميع ماقدره الله له. (فِى عُنُقِهِ) : تمثيل لشدة لزوم عمله له . (يَلْقَاهُ مَنشُوراً) : أى يجده مبسوطا غير مطوى .

(حَسِيباً) : أى حاسبا عملك لك أو عليك

(وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) : الوزر فى اللغة الحمل مطلقا ، والمراد به هنا الذنب ، أى ولا تتحمل نفس حاملة للوزر ذنب نفس أخرى .

التفسير

١٣ - (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ) :

فسر بعض العلماء الطائر هنا بالعمل - خيراً كان أو شرًّا - وفسره آخرون بجميع ماجرى به القدر وأحاط به العلم من الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسعادة وسائر أحوال الإنسان ، وإطلاق لفظ (الطائر)على هذا أو ذاك على سبيل المجاز ،فكأنما يطير إلى العبد من عُش الغيب الذى علمه الله أزلا فى شأن عبده . وتفسير الطائر بالعمل هو الذى نختاره فى تفسير الآية ، لأنه المناسب لقوله تعالى فى آخرها :«وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً » .

أى ونخرج للإنسان يوم قيام الناس من قبورهم وبعثهم لحساب ربهم - نخرج له كتابا يحوى تفاصيل أعماله خيرها وشرها ، يلقاه منشورا مبسوطا أمامه ليقرأه بنفسه ، ويتعرف على حسناته وسيئاته ، أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال : يَا ابْنَ آدَمَ بُسطَتْ لَكَ صَحيفةٌ وَوُكِّلَ بكَ مَلكانِ كريمَانِ ، أَحدُهُمَا عن يَمينك ، والآخر عن شمالك حتى إِذَا مِتَّ طُويتْ صَحيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنقِكَ فِي قَبْرِكَ ، حَتَّى تَجِيءَ يَومَ الْقيَامَةِ فَتُخْرَجُ لَكَ » : اهـ والمقصود من جعلها فى عنقه ارتباطها بصاحبها معنويا لاحسيًّا ، لأن الإنسان يَفْنَى فى قبره ، ولهذا قال الحسن فى آخر عبارته ، (حَتَّى تَجِيءَ يَومَ الْقِيَامَةِ فتخْرج لك) وبعد أن عرفنا أن أعمالنا تسجل علينا بهذه الآية الكريمة ، وبنحو قوله تعالى : «مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وأنها تنشر يوم القيامة ، فلهذا ينبغى للعاقل أن لا يملى على الملكين الكاتبين لصحيفته إلا الأعمال الصالحة التى يفرح ويسعد بنشرها وقراءتها يوم القيامة ، ويدعو غيره إلى قراءتها فرحاً بها وبحسن عاقبتها كما حكاه الله تعالى عن السعيد الذى أُوتى صحيفته بيمينه بقوله : « هَآؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »[1] . وهَذَا القول يصدر منه بعد أن يقرأ كتابه ، تنفيذا لأمر الله تعالى إياه بقوله لكل مكلف سعيداً كان أو شقيًّا :

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) : فإذا قرأه وعرف منه حسن عاقبته قال ذلك .

والمعنى : يقال لكل إنسان بعد أن يجد كتابه منشورا مسجلا فيه عمله : اقرأ كتابك كفى بنفسك حاسبا عليك سيئاتك ، وحاسبا لك حسناتك ، فكل ذلك واضح مسطور فى الكتاب ، كما قال تعالى : «وَوُضِعَ الْكِتابُ فترَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »[2] . وكما ترى المجرمين مشفقين مما فيه ترى الصالحين مستبشرين فرحين بما فيه كما تقدم بيانه .

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٩ - ٢٣

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩

والآية ظاهرة فى أن كل مكلف يستطيع قراءة كتابه وإن لم يكن فى دنياه قارئا ، ولهذا كلف الله كل إنسان بقراءة كتابه ، قال قتادة : يقرأ فى ذلك اليوم من لم يكن قارئا فى الدنيا ، ومن العلماء من فسر كتاب الإنسان بنفسه ، فإن مايصدر عنه من خير أو شر يطبع فى نفسه وينقش فى روحه ، وهى فى دنياها مشغولة بواردات الحواس المتجددة مشغولة عن هذه الآثار المنقوشة فيها والثابتة على صفحتها ، فإذا انقطعت علاقتها بتلك الحواس قامت قيامة الإنسان ، وأدرك كل ماصدر عنه من خير وشر منقوشا وثابتا فى نفسه وروحه ، بعد أن انكشف عنها الغطاء بالموت الجسدى ، وكما يظهر ذلك من نفسه عقب موته ، يظهر له منها فى ساحة القيامة يوم النشور ، فيقال له حينئذ : اقرأ كتاب نفسك واذكر أعمالك ، كفى بنفسك محاسِبة لك بما ثبت فيها من عملك ، ومعلوم أن العبد إذا مات قامت قيامته الصغرى وأحسّ من نفسه بمصيره الذى ينتظره ، فإذا بعث قامت قيامته الكبرى وكان الحساب والجزاء .

ويقرِّب هذا المعنى للذهن أن الإنسان بدواعى المعانى يتذكر فى دنياه أمورا مضى عليها عشرات السنين ، وذلك ناشىء من انطباع صور الحوادث فى نفسه .

١٥- (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) :

بين الله فيما سبق أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين المهتدين بالأجر الكبير ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، وأنه لاينبغى للإنسان أن يطلب لنفسه الشر طلبه للخير ، فإن عمله ملازم له إلى يوم القيامة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن المهتدى بهدى القرآن هو الذى ينتفع باهتدائه ، وأن من ضل عنه فهو الذى يُضَر بضلاله ، أما المولى سبحانه فإنه لاينتفع بطاعة عباده ، ولايضر بمعصيتهم ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : أن من تأثر بمواعظ القرآن ، وتفتحت بصيرته لمعارفه ، واهتدى بهداه فلا تعود منفعة ذلك إلا عليه وحده ، وأن من انحرف عن سبيله ، وضل عن طريقه فلا يعود وبال ضلاله إلا عليه وحده دون سواه ، وتعالى الله أن تنفعه طاعة المهتدى ، أو

تضره معصية المنحرف ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ـ جزاه الله عن دينه خير الجزاء .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) :

هذه الجملة مؤكدة لمضمون الجملة السابقة ، أى ولا تحمل نفس مثقلة بوزرها وحاملة لذنبها ـ لا تحمل ذنب نفس أُخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، فلو أمر شخص آخرَ بمعصية ، ووعده بأن يحمل عنه عقوبته ، فوعده كاذب وكلاهما مسئول ، فالآمر بالمعصية مسئول عن أمره بها ومعاقَب عليها ، ومنفِّذ المعصية مسئول عن تنفيذها ومعاقب عليها ، روى عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة لما قال : اكفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلىَّ حمل أوزاركم : ا هـ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] . فإن قيل إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الْمَيِّت يُعذبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْه » فإن فيه أخذ الإنسان بجرْم غيره وقد أُجيب عنه بأن الحديث محمول على ما إذا أوصى بذلك قبل أن يموت ، أو أنه يتألم لمعصية أهله ببكائهم عليه وشقّهم الجيوب من أجله ، وعدم رضاهم بقضاء ربه ، فهو لهذا يعذب نفسيا ، وأما قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » فكل من المضل والضال حمل ذنب نفسه لا ذنب غيره ، فالمضل حمل ذنب إضلاله لغيره ، وغيره تحمل وزر ضلاله بسببه ، فالجهة منفكة ، وكل ما جاء على هذا النمط يؤول هذا التأويل .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) :

بعد أن بين الله تعالى أن عاقبة الهدى والضلال لاتعود إلا على صاحبيهما ، جاءت هذه الجملة لتبين عظيم رحمة الله وعدالته وفضله .

والمعنى : وما صح ولا استقام فى حكمتنا وسنتنا أن نعذب أحدًا بنوع ما من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً ـ على فعل شىء أو ترك آخر ، حتى نبعث رسولا يهدى إلى

(١) العنكبوت : آية ١٢

الحق ، وينهى عن الباطل ، ويقيم الحجج ويبين الشرائع ، حتى تتم أسباب التكليف وتقوم به حجة الله على خلقه .

واستدل الأشاعرة وفقهاء الشافعية بالآية على أن أهل الفترة ناجون وقد أطلقوا القول فى ذلك .

وبما أنه قد صح تعذيب جماعة من أهل الفترة ، فقد أجيب عنهم بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة ـ كما دلت عليه الآية ـ وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضى ذلك ، علمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، نظير ما قيل فى الحكم بكفر الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام مع صباه .

وقيل إن تعذيب هؤلاء المذكورين فى الأحاديث مقصور على من غيَّرَ وبدّل من أهل الفترة بما لا يعذر به ، كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع ، كما فعل عمرو بن لحى الذى استحدث عبادة الأوثان ولا يخفى أن هذه الإجابات عن هؤلاء لاتتفق مع إطلاقهم القول بأنه لا وجوب إلا بالشرع ولا تكليف قبل البعثة ، قال الآلوسى[1] : ولو ثبت أن من جاءت الأحاديث بتعذيبهم فى الفترة بين الرسل كانوا من أتباع رسول سابق بقى شرعه حينذاك كعيسى عليه السلام لم يبق إشكال ـ انتهى بتصرف يسير .

ويقول المعتزلة : إن الإيمان بالله واجب بالعقل قبل البعثة وبعدها ، ويحتجون بأن معرفة الله لايمكن الوصول إليها إلا بالعقل حتى بعد البعثة ، ولهذا يقول الله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ». ويقول : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ». فالله تعالى يأمرنا بأن نعرفه بالنظر فى آياته الكونية ، ولا يمكن إثبات رسالة الرسول إلا بعد معرفة الله الذى أرسله ، فوجب أن تكون معرفة الله أولا بالعقل ، وثبت أن من كفر به قبل البعثة يستحق العذاب ، ويقولون أيضاً إن الأحكام تعرف بالعقل لأنه يدرك حسن الأفعال وقبحها قبل ورود الشرع[2] . وقد أثبت الإمام الرازى

(١) الآلوسى ج ١٥ ، ص ٣٨ منير .

(٢) فإذا لم يرد فى الشرع كنا مكلفين ومحاسبين على الأخطاء ، والله تعالى أرسل الرسل لتأييد العقل ومساعدته فى أحكامه كذا قالوا .

الوجوب العقلى ، وفسر قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » بوجهين (أحدهما) : حمل الرسول على العقل (والثانى) : تخصيص العموم بأن يقال : المراد وما كنا معذبين فى الأعمال التى لاسبيل إلى معرفتها بغير الشرع إلا بعد مجىء الشرع ، ثم قال والذى نرتضيه ونذهب إليه أنَّ مجرد العقل سبب فى أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، ويمتنع أن يحكم العقل على الله تعالى بوجوب فعل أو ترك فعل ، ا هـ[1] .

وحمل الآية أبو منصور الماتريدى وتابعوه على نفى تعذيب أهل الفترة بالاستئصال فى الدنيا ، وذهبوا إلى تعذيبهم فى الآخرة بترك الإيمان والتوحيد ، وأهل الفترة كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلا إليهم ، ولم يدركوا الثانى ، واعتمد القول بتعذيب أهل الفترة الإمام النووى فى شرح مسلم ، فقال : إن من مات فى الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فى النار ، وليس فى هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم السلام .

قال الآلوسى تعليقاً على رأى النووى : والظاهر أن النووى يكتفى فى وجوب الإيمان على كل أحد ، ببلوغه دعوة من قبله من الرسل وإن لم يكن مرسلا إليه .

وقال الحليمى[2] فى منهاجه : إن العاقل المميز إذا سمع أية دعوة كانت إلى الله تعالى ، فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فيكون كافرًا — ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم فإن الخبر يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ، ولو أمكن أنه لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبى ، ولا عرف أن فى العالم من يثبت إلهاً — ولا نرى أنَّ ذلك يكون فأمره على الاختلاف فى أن الإيمان هل يجب بمجرد العقل ، أو لابد من انضمام النقل ؟ ا هـ .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧

(٢) المصدر السابق آخر ص ٣٧ وأول ص ٣٨ .

وعلق عليه الآلوسى بقوله : وهذا صريح فى ثبوت تكليف كل أحد بالإيمان بعد وجود دعوة أحد من الرسل عليهم السلام وإن لم يكن رسولا إليه ، وبالغ بعضهم فى اعتماد ذلك حتى قال : فمن بلغته دعوة أحد من الرسل بوجه من الوجوه ، فقصر فى البحث عنها فهو كافر من أهل النار ، فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأن آباءهم الذين مضوا فى الجاهلية فى النار .

ثم قال الآلوسى[1] : والذى يميل إليه القلب أن العقل حجة قبل ورود الشرع فى معرفة الصانع تعالى ووحدته وتنزهه عن الولد للأدلة السابقة ، أما إرسال الرسل وإنزال الكتب فمن رحمته تعالى ، أو أنَّ ذلك لبيان مالا ينال بالعقول من أنواع العبادات والمعاملات والحدود ، فلا يرد أنه لو كان العقل حجة ما أرسل الله تعالى رسولا اكتفاء بالعقل ، وقيل فى جواب هذا الإشكال : لما كان أمر البعث والجزاء مما يَشُقُّ على العقل وحده إلا بعظيم تأمل فيه حرج يعذر الإنسان بمثله ولا إيمان بدونه فلهذا بعث الله الرسل عليهم السلام لبيان ما به تتمة الدين ، لا لنفس معرفة الخالق فإنها تنال ببداهة العقول ، فالبعْرةُ تدل على البعير ، والأثر على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير : اهـ . بتصرف .

رأى الامام الغزالى

ثم حكى الآلوسى رأى الإمام الغزالى فى ذلك إذ قال[2] : الناس بعد بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ، صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه السلام وسمعوا به بطريقة مشوهة لا تظهره على ما كان عليه من الكمال فى أمره كله ، فهؤلاء أرجو لهم الجنة إن لم يؤمنوا به : اهـ بتصرف .

وقد علق الآلوسى على هذا الرأى بقوله : ولعل القطع للأولين بالجنة ، ورجاءها للآخرين إذا كان هؤلاء وأولئك مؤمنين بالله تعالى ، أما إذا كانوا غير مؤمنين به فهم على الخلاف فى أمرهم : اهـ بتصرف يسير .

(١) انظره فى جـ ١٥ ص ٣٩ طبع منير . (٢) المصدر السابق فى آخر ص ٣٩ – ١٢

الرأى الذى نرتضيه

تبين من هذا البحث أن أحاديث صحيحة وردت بتعذيب بعض المشركين فى الفترة بين رسولين ، وبما أنه تعالى قال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » فإننا نرى أن ما ذهب إليه الماتريدية أسلم ، لما فيه من الجمع بين الكتاب والسنة ، فبالسنة يحكم على أهل الفترة بالكفر واستحقاق عذاب النار ، لإشراكهم بالله تعالى ،وهم غير معذورين فى هذا الشرك ، فقد كان البدوى منهم يعرف أن البعرة تدل على البعير ، وآثار السير على المسير ، وأن هذه الأرض ذات الفجاج ، وهذه السماء ذات الأبراج ، براهين على وجود الخالق الكبير العليم ، وأن الشركاء التى عبدوها معه ، ليس لها شىء من الخلق والرزق ، فهم لهذا لا يعذرون وإن لم يبعث فيهم رسول ، لأن معرفة الله لا تتم إلا بالعقل قبل إرسال الرسل ، وبعدهم ـ كما تقدم بيانه ـ ويحمل نَفْىُ العذاب فى قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » على نَفْىِ عذاب الاستئصال فى الدنيا ما لم يبعث إليهم رسول فيكفروا ويصروا ، فبهذا يستحقون الاستئصال ، ومعلوم أن الماتريدية من أهل السنة كالأشاعرة ـ والله تعالى أعلم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) : أمرنا الرؤساء والمنعَّمين فيها بالطاعة ، وقيل جعلناهم أمراء[1]

(فَفَسَقُوا فِيهَا) : أى فخرجوا عن الطاعة وتمردوا فيها .

---

(١) قال القرطبى فى تعليله : لأن العرب تقول : أمير غير مأمور أى غير مؤمر وبالمعنى الأول قال ابن عباس وعليه الأكثرون .

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) : أى فوجب عليها القول ، أى فوجب عليها الوعيد بالعذاب .
(فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) : التدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء .
(وَكَمْ أَهْلَكْنَا) : كم خبرية للتكثير أى وكثيرا أهلكنا .
(مِنَ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو من الزمان مائة سنة ، والمراد من القرون أهلها .

التفسير

١٦ ــ (وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) :

بينت الآية السابقة أن عاقبة الهدى لا تعود إلا على المهتدى ، وعاقبة الضلال لا تتعدى صاحب الضلال ، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى كما لا تثاب نفس فاسقة بطاعة نفس أخرى وأنه تعالى لا يعذب أمةً حتى يبعث إليها رسولا ينصحها ويرشدها فتستمر على ضلالها وجاءت هذه الآية لتؤكد سابقتها ، ببيان أن الله تعالى جرت سنته أن لا يهلك قرية بعد بعث الرسول إليها ، حتى يأمر رؤساءها بطاعته ليستقيم أمر العامة فيها ، فإذا لم تستجب دمرها تدميرا .

والمعنى : إذا شئنا إهلاك قرية أعرضت عن رسولها ، فإننا لا نكتفى بما علمناه أزلا من انطماس بصيرة أهلها وجحودهم ، ولا بمقابلة رسولهم بالتكذيب والكفر ، بل نخص المترفين فيها بتكرار أمرهم بطاعة ربهم ، لأنهم أئمة الضلال وسبب فساد العامة ، ولكى تسقط حجتهم يوم حساب ربهم ، فاستمر فسقهم فيها ومن ورائهم عامتهم ، فحق عليها وعيد ربهم بعذاب الاستئصال الدنيوى ، فدمرها الله تدميرا هائلا ، حيث أهلك أولئك الفاسقين المتمردين واستأصلهم بما شاءه الله من أسباب الاستئصال ، فصارت قريتهم بعدهم خراباً ، وانطمست معالمها .

رأى الزمخشرى

يرى الزمخشرى أن الآية فيها استعارة تمثيلية ، وخلاصة المعنى عليها : وإذا أردنا أن نهلك قرية كفر أهلها وعصوا وأصروا على ذلك ، أمددناهم بالنعم وأترفناهم فى الحياة

استدراجاً لهم ، فكان هذا الاستدراج بالنعمة كأنه أمر لهم بالفسق ، ففسقوا فيها فحق الوعيد بتعذيبهم فدمرناها تدميرا .

والمعنى الأول ، أوضح وأظهر ، وأساسه ما نقل عن ابن عباس ترجمان القرآن من أن المراد بأمر مترفيها أمرهم بالطاعة ، ولذا قال تعالى فى مقابله : « فَفَسَقُوا فِيهَا » أى قابلوا الأمر بالطاعة بالفسق .

١٧ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا) : والقرن زمان طويل ، وأشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، وقد جاء فى حديث أنه صلى الله عليه وسلم (دعا لرجل فقال : « عِشْ قَرْناً » فعاش مائة سنة) ويجمع القرن على قرون والمراد منها أهلها لاقترانهم فى زمان واحد .

والمعنى : وكثيرا ما أهلكنا من الأمم المقترنة ، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن جاءوا بعد قوم نوح واستأصلناهم كما استأصلنا قوم نوح ، وقد قصصنا عليك يامحمد أخبار بعضهم ، ولم نقصص أخبارغيرهم وكان إهلاكهم لكفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وكفى بربك بذنوب عباده الخفية والظاهرة خبيرًا بصيرًا ،أى عالمًابدقائقها محيطاً بتفاصيلها فيعاقبهم عليها ، فلا تبتئس يا محمد بما صنع قومك معك ، فسوف نعاقبهم كما عاقبنا مَن قبلهم إن أصروا على كفرهم ، وإنما قال من بعد نوح ولم يقل من بعد آدم ، لأن نوحاً أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم الله بعذاب الطوفان ، ولظهورحال قومه لم يذكروا ضمن الأمم المهلكة ، على أن ذكره رمز إليهم وإلى ماحدث لهم وقدم «خبيرًا» على « بصيرًا » لتقدم متعلقه من الاعتقاد والنيّات تقدماً وجودياً ورُتبياً ، فإنها مبادئ الأعمال الظاهرة قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّمَا الْأَعمَالُ بالنيات » الحديث .

(مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(العَاجِلةَ) : أى الدار العاجلة ، والمراد بها الدنيا. (يَصْلَاهَا) : يدخلها ويقاسى حرها. (مَدْحُورًا) : مطرودا مبعدا من رحمة الله. (كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) : كان عملهم للآخرة مقبولا من الله مجزياً منه بحسن الثواب ، وأصل معنى السعى : المشى السريع – وهو دون العَدْو – ويستعمل فى الجدّ فى الأمر خيرًا كان أو شرًّا ، وأكثر ما يستعمل فى الأفعال المحمودة – كما قال الراغب – (مَحْظُورًا) : ممنوعاً .

التفسير

١٨ – (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ) :

بين الله قبل هذه الآية أنه تعالى لايهلك أمة عاصية إلا بعد أن يبعث إليها رسولا يأمر مترفيها أن يتركوا ماهم عليه من الكفر والمعاصى حتى تستقيم عامتهم ، وأنهم إذا أصروا على فسقهم دمرهم واستأصلهم ، وأنه قد أجرى هذه السنة فى كثير من القرى والأمم من بعد نوح ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لتبين سنة أخرى لله تعالى فى جزاء الناس على أعمالهم ، فمن قصدبعمله دنياه وحدها ، أعطاه منها ما تعلقت به مشيئته ، ولكنه معاقب فى الآخرة ، ومن قصد بعمله أخراه وكان مؤمنا أثيب أحسن الثواب فى أخراه .

والمعنى : من كان يقصد بعمله منافع هذه الدار العاجلة ، من الاستمتاع بما فيها من المتع واللذائذ والذكر الحسن بين الناس دون أن تخطر الآخرة بباله ، أو يبتغى بعمله وجه ربه - كما هو شأن الكافر والمنافق - فإن الله تعالى يعجل له فى هذه الدار ما شاء تعجيله له من نعيمها ومنافعها ، لا كل مايريده العامل للدنيا .

وليس بضرورى أن يجيبه فيها إلى شىء من مآربه ، فإنه لايعطى إلا من أراد إعطاءه فإن أعطاه فعلى سبيل الاستدراج والكيد بسبب إصراره على الكفر ، وليس على سبيل الجدارة والاستحقاق - كما قال تعالى : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ». وقد بين الله عاقبة هذا الصنف من الناس بقوله :

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً) :

أى ثم جعلنا له جزاء على إهداره أخراه وإيثاره دنياه ، جعلنا له جهنم يدخلها ويقاسى حرها ، ولا يقتصر أمره على ذلك ، بل يضاف إليه الذم والإهانة والطرد من رحمة الله تعالى ، فلهذا قال : « يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً » فما أسوأه من مصير ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى فى سورة الشورى : « وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ » .

١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً) :

أى ومن قصد بعمله الدار الآخرة وحسن الجزاء فيها ، وجد فى عملها اللائق بها وهو مصدق بربه ونبيه تصديقاً واثقاً لاتشوبه شائبة موهنة ، فأولئك المصدقون المريدون الآخرة العاملون من أجلها كان سعيهم المتواصل مقبولا عند الله مثابا عليه أضعافاً مضاعفة ، كما قال تعالى فى سورة الشورى : [1] « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » .

٢٠ - (كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) :

أى كلا ممن يسعى للعاجلة ومن يسعى للآخرة نمده ونزيده مرة بعد أخرى ، بحيث يكون اللاحق مددا للسابق - نمد هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك ونعمته ، فصاحب العاجلة يمده الله حسب مشيئته تعالى بالنعم الدنيوية التى سعى إليها وآثرها على الآخرة ، ولم يعطها حقها من

(١) أول الآية (١٠) منها .

الشكران والطاعة والإيمان ، وصاحب الآخرة يمده ربه بما يعينه على طاعته وشكره ، ويستتبع حسن مثوبته ، وما كان عطاء ربك أيها المكلف ممنوعاً عمن يريده ، بل هو فائض على مايشاؤه الله بموجب حكمته ، ولا يمنع بره عن عباده كفر ولا عصيان ، وسيُجزى كلٌّ فى أخراه على ما قدمت يداه .

(ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(فَتَقْعُدَ) : القعود هنا بمعنى الإقامة أو المكث ، سواء أكان فى مكثه قاعدا أم قائما وقيل القعود بمعنى الصّيرورة ، من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى حتى صارت كأنها حربة ، وقيل غير ذلك . (مَّخْذُولاً) : أى عديم النصير .

التفسير

٢١ - (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) :

الخطاب فى هذه الآية لكل مكلف ،فالله تعالى يدعوه فيها إلى التأمل فى فضله وتمييزه بعض الناس على بعض فى الرزق والنعمة فى الحياة الدنيا - دون نظر إلى عمل ، ويبين أن التفاوت فى الآخرة بين عباده سيكون أعظم ، تبعاً لتفاوتهم فى الدنيا فى العمل .

والمعنى : انظر أيها المكلف وفكر فى تفضيل الله بعض الناس على بعض فى الرزق فى هذه الحياة الدنيا من غير نظر إلى إيمانهم وكفرهم ، فقد يكون الكافر أوسع نعمة وأعظم

جاها من المؤمن فى الدنيا ، وقد يكون العكس ، لأن العطاء فى الدنيا لا ينظر فيه إلى العمل غالباً ، بل هو كرم غير مشروط ، وتذكير وامتحان يستتبع الجزاء .

وهذا التفاوت الذى تراه فى الدنيا لا قيمة له بجانب التفاوت الذى سوف يكون فى الآخرة ، فإن التفاوت فيها سيكون أعظم ، ودرجات التفضيل ستكون أكبر ، تبعاً لتفاوتهم إيماناً وكفرا ، وطاعة وعصياناً ، فبعضهم فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ، وغيرهم من سائر الخلق متفاوتون فى الدرجات أو الدركات ، وقد جاء فى تفاضل أهل الجنة فى الدرجات عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أهلَ الجنة لَيَتَرَاءوْن أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدرى العابر من الأُفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يارسول الله : تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟ قال : بلى . والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلينَ » أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

وقد صح أنه تعالى أعد لعباده الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وروى ابن عبد البر فى (الاستيعاب) عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشى ، وكان أحد الأشراف فى الجاهلية ، وأبوسفيان بن حرب وأولئك المشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر — وكان يحبهم — فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل — وكان أعقلهم — : أيها القوم . . إنى والله قد أرى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتُم ، أمَا والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تنافسون عليه ... انتهى بتصرف يسير . . وفى الكشاف أنه قال : إنما أُتينَا من قِبَلِ أنفسنا ، إنهم دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر . . فكيف التفاوت فى الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم علىَ باب عمر ، لَمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

٢٢ - (لَاتَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخرَ فَتَقْعُدَ مذْمُومًا مَّخْذُولاً) :

أى لاتجعل أيها المكلف مع الله إلٰها آخر تشركه معه فى الألوهية - وتتجه إليه معه بالطاعة والعبودية ،فيترتب على هذا الإشراك أنك تمكث فى جهنم جامعا على نفسك الخذلان من الله حيث يدخلك جهنم ، ومن الآلهة الشركاء حيث لاقدرة لها على أن تخلصك من عقاب ربك . ويترتب عليه أيضاً الذم من الله والملائكة والمؤمنين من عباده لأنك اتخذت إلهاً فقيرًا مثل فقرك ، عاجزا مثل عجزك ، لايملك لنفسه نفعاً ولاضررًا ، كما لاتملك لنفسك ، ونسبت إليه ما لايصلح ، وجعلته شريكاً لمن لا شريك له ، وهو الذى خلقك ورباك ، وبرزقه كفاك ، نعوذ بالله من الشرك خفيه وظاهره ، ونسأله العافية وحسن الختام .

* (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ۚ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَى) : وأمر أمرا قاطعاً .. (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا) : أى إن وصلا أو أحدهما إلى الشيخوخة والكبر فى كنفك وكفالتك. (أُفٍّ) : اسم صوت يدل على الضجر. (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) : أى ولا تنههما عمالا يعجبك بغلظة. (قَوْلاً كَرِيمًا) : أى قولًا ليناً جميلا يقتضيه حسن الأدب. (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) : أى أَلِنْ جانبك شفقة عليهما

وتواضعاً وتذللا لهما ، كالطائر يخفض جناحه شفقة على أولاده .

(الأَوَّابِينَ) : الرَّجاعين التائبين .

التفسير

٢٣ - (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ) :

بعد أن نهى الله كل مكلف عن أن يجعل مع الله إلٰها آخر ، لأنه لا رب سواه أتبع ذلك بيان أن الله قضى أمرا قاطعاً ألا يعبدوا إلا الله ، وأن يُحسنُوا إلى والديهم . .

والمعنى : أمر ربك يا محمد أن يوحده عباده بالطاعة ولا يشركوا به أحداً فهو ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم ، وصاحب الآلاء والنعم التى ينعمون بها ، يدركون بعضها ويخفى على كثير منهم معظمها ، ويعييهم ويعجزهم عدها وحصرها ، ونواصيهم بيده. « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبادِهِ » فمن خطل الرأى - إذن - وسوء التقدير أن يشركوا معه إلٰها آخر ، لايضر ولا ينفع ، ولا يملك من أمر نفسه موتاً ولا حياةً ولا نشورًا .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : وكما حكم وألزم الأولاد أن يحسنوا إلى والديهم بالقول الطيب والرعاية التامة والقيام بشأنهما ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة ،ورضا الله فى رضاهما وسخطه فى سخطهما .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) : أى إذا تقدمت بهما أو بأحدهما السِّن وانتهيا إلى ضعف بعد قوة ، ومرض بعد صحة ولم يستطيعا القيام على أمرهما ، وتدبير شأنهما لما أصابهما فى الكبر من وهن الجسم وإلحاح العلَّة وضعف التفكير ، وتلك الحال مظِنَّة أن يصدر منهما ما يغضب أو يثقل على النفوس ، أو يعوق عن سعى فى الدنيا أو يكثر النفقة ويرهق الأُسرة ويشق عليها - إن حدث ذلك - فلا تقل لوالديك الكبيرين أو لأحدهما ما يدل على ضجرك ، أو يسىء إليهما ، من قول بعيد عن حسن الأَدب ، أو فعل لا يليق من الولد لأَبيه ، فقد غذاه مولودًا ، وعاله يافعًا ، وسهر ليله لسقم أصابه ، أو مرض أَلَمَّ به ، أيكون جزاءُ هذا الأَب الحانى غلظة القول وجفاءَ الخلق؟ أو يكون جزاءُ الأُم الرؤوم أن تقابل بما يكسر قلبها ، ويثير ألمها وينال من كرامتها ، وهى التى كان بطنها له وعاءً ، وثديها

سقاء ، وحِجْرها مهادًا ووطاء ، تؤثره على نفسها ، وتَفْدِيه بروحُها ، هذا فضلًا عن أن الجنة تحت أقدامها ، فَبِرُّها خير وبركة ، وغنى وسعادة ، وبالجملة فبر الوالدين ينبغى أن يكون فى أجمل وأبهى حلله فإنه بعض الوفاء لِفضلهما « هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » وإن من سوء الطالع أن يعق الولد أبويه ، فيقابل الحسنة بالسيئة ، والنعم والفضل بالجحود والكفران ، والعناية بالترك والإهمال ، إن فى هذا لَبَوَارًا وخسرانًا فى الدنيا ، وغضبًا من الله وحرمانًا من رضوانه فى الآخرة .

٢٤ - (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) :

أى إن حق الوالدين لا يقف عند إخفاء الضجر والبعد عن الانتهار والزجر ، ولا عند الإحسان بالقول الطيب واللفظ اللَّين كما جاءت به الآية السابقة ، بل إن وراء ذلك ما جاءت به هذه الآية من أن تبسط لهما من نفسك ، وتخفض جناح الذل منك كما يخفض ويبسط الطائر جناحه على فراخه رعاية وشفقة وحنانًا ، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلف ولا تصنع ولا رياء ؛ ولا تخالطه رائحة استعلاء أو يشم منه أثر كبر أو مَنٍّ ، بل يكون ذلك عن رحمة لمن أسدى إليك معروفًا وقدم إليك برًّا ورعاية ، وقد أتاح الله لك فرصة فاغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما ، والوفاء بما لديك من دَيْنهما ، فهما مفتقِران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برهما فى كبرهما ، وأنت أولى الناس بهما ، ثم لا يقف بك الأمر عند هذا بل توجه إلى الله بقلب ضارع تَقِيٍّ أن يرحمهما برحمته الواسعة فى الدنيا والآخرة ، فتكون بذلك نعم الولد الذى يدعو لوالديه فيصلهما بره حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما ، وهذا الدعاء جزاء تربيتهما لك ، ورحمتهما بك ، فقل : رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيرًا ، فتكون نعم المجازى والمكافئ . . وفى أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببرهما والإحسان إليهما ، ما يشير إلى أن الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يوفيهما حقهما ، وأنه لا يفى بذلك الحق سوى الله تعالى ، فلذلك يدعوه سبحانه ليجبر عنه النقص فى برهما . . هذا وإنَّ برَّ الوالدين لا يتوقف على كونهما مسلمين أو طائِعَيْن . . بل يشملهما ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنه لا يطيعهما فى كفر أو فسق ، قال تعالى : « وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وصَاحِبْهُما فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما ، طمعًا فى فضل الله ، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين ، لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِى قُرْبَى مِن بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

وعليه أن ينصح والديه الفاسقين أو الكافرين فى رفق ولين ، فإن وفقه الله تعالى فمن فضله عليه وعليهما ، وإلا فقد أعذر لربه كما أعذر له إبراهيم عليه السلام فى نصح أبيه آزر : « يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا » الآيات من سورة مريم .

هذا وإنَّ بر الوالدين لا ينقطع بموتهما ، بل جعله الله موصولًا بعد وفاتهما إكرامًا لحقهما وتوكيدًا لمكانتهما .

فعن أبى أُسَيْدٍ وهو مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : « بينَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم . إذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِى سَلِمَة فقال : يَا رَسُول الله هَلْ بقِى مِنْ بر أَبَوَىَّ شىءٌ أَبرهُمَا بِهِ بعْد مَوْتِهِمَا ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما ، والاسْتِغْفَارُ لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما »[1] .

٢٥ ـ (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) :

أى إن الله الذى خلقكم ورباكم بنعمه وفضله أعظم علمًا بما انطوت عليه صدوركم وما انعقدت عليه قلوبكم : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » فإن كنتم من الذين مَنَّ الله عليهم بالتقوى وجعلهم فى زمرة الصالحين ورجعتم إليه تائبين ،فإنهسبحانه يتفضل عليكم بالتجاوز عما وقع منكم ، من تقصير بَدَرَ منكم بمقتضى الجبلة البشرية التى هى مظنة الجهالة ، فإنه كان ولا يزال غفورًا للتوابين ، وفى هذه الآية وعد صريح وبشارة واضحة للمُطيع البار ، وإنذار ضمنى للعاصى المعاند ، فالله سبحانه يحاسب كلاً على عمله ونيته « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

---

(١) رواه أبو داود.

(وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) : وأعط صاحب القرابة حقه من البر والصدقة .

(وابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر فى غير معصية الذى لا مال معه .

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) : التبذير إتلاف المال فى المعاصى أو الترف .

(إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) : أى أصحابهم المطيعين لهم . (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ) : أى وإن أعرضت عن إعطاء أصحاب القرابة والمسكين وابن السبيل لعدم وجود ما تعطيهم إياه من البر. (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) : فقل لهم قولًا سهلًا ، بوعدهم بالعطاء عند اليسر أو الاعتذار لهم. (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) : أى ولا تبخل بخلًا شديدًا ، كأنَّ يدك مغلولة إلى عنقك. (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) : بالتبذير المنهى عنه. (مَحْسُورًا) : مغمومًا نادمًا على إسرافك. (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه .

(وَيَقْدِرُ) : يضيق الرزق حسب مشيئته تعالى وحكمته .

التفسير

٢٦ – ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ :

بعد أن أمرالله المسلم بأداء حقوق الوالدين أمر – سبحانه – برعاية الأقرباء وذوى الأرحام بالنفقة الواجبة والعطاء والصلة ، فإن ذلك يديم الود ويبقى على التراحم ، كما أمره أن يشمل بره وفضله إخوته فى الإسلام والإنسانية ، فيحنو على مسكينهم يخفف عنه شدة الحياة ولأوَاءَهَا ، يمنحه مما أفاءَ الله عليه ما يقيم به أوده ويسد خلته ، ويبقى على إنسانيته غير ذليلة ولا مهينة ، كما يمتد عطاؤه إلى ذلك الإنسان الذى انقطعت به سبيل الحياة ، ونأى عن أهله وماله ، وأصبح غير معروف لأحد بنسب أو قرابة سوى أنه ابن للطريق الذى يسير فيه ، يعطى هذا الْمُنْبتَّ ما يبلغه أهله ووطنه رحمة به وتوطيدًا للأخوة ، وبذلًا للمعروف واستجابة لداعى المروءة ، بهذا قد حدد الله لنا مجال البر وإطار الخير ،فلا خروج عنه إلا إلى مباح فى اعتدال ، إذ لو جنح صاحب المال عما أمر الله وأحل ، فإنه يكون مبذرًا ، ويصير من إخوان الشياطين ، كما قال الله تعالى :

٢٧ – ﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ :

يعنى أن المبذرين الذين يصرفون أموالهم فى المعاصى ، والترف الواسع ، يشبهون الشياطين ويماثلونهم ويتأسَّون بهم فى كفران النعمة لصرفها فيما حرم الله ، أو يتلفونها فى ترفهم وينسون المبرات ، فإذا ساروا على طريقتهم هذه ولم يرجعوا إلى ما شرعه الله ، حشروا فى النار مع قرنائهم وأمثالهم من الشياطين الذين يسيرون وفق إغوائهم ، ويسلكون سبيلهم ، والجزاء

... الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ : أى أن الشيطان دأب على كفران النعم ، حيث إنه ...درة التى منحها الله له إلى المعاصى والإفساد فى الأرض وإضلال الناس ، وكان حقها أن تصرف فيما خلقت له ، فى عبادة ربه وطاعة مولاه « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فاحذروا أن تتشبهوا بالشياطين فى الجحود والكفران ، حتى لا تكون عاقبتكم البوار والخسران كعاقبتهم .

٢٨ – ﴿ وَإِمَّا[1] تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ :

أى وإن أعرضت وملت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل فلم تحقق لهم

(١) إما مركبة من إن الشرطية وحرف ما . والغرض من وصل (ما) بإن الشرطية هو تقرير الشرط وتقويته .

مايطلبون أو لم تمنحهم ما يؤملون ، وذلك لعسر أصابك ،أوفقر نزل بك ، وأنت تتطلع وترجو من ربك أن ييسّر لك ويفرج كربك ، واثقًا بفضله طامعا فى رحمته - إن أعرضت عن هؤلاء لذلك - فاعتذر لهم بالقول الطيب والكلام اللين والدعاء ، مع الوعد الجميل ببرهم ، عندما يزول عذرك ، لتسر نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم ، وهذا تأديب وتوجيه يبقى المودة ويديم الألفة بين المؤمنين ولله در هذا الشاعر حيث يقول :

إلاّ تَكُنْ ورِقٌ[1] أجود بها للسائلين فإنى لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوالى وإما حسن مردودى

٢٩ - (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) :

أمرنا الله فيما تقدم بالإنفاق فى البر ، وجاءت هذه الآية ليعلمنا الله أدب إنفاق المال ، فنهانا - سبحانه - عن البخل والشح وعن الانطلاق فى البذل .

والمعنى : ولا تجعل يدك - كالمغلولة الممنوعة بالغُلّ عن الانبساط فى الإنفاق ، بل تعوّد بسط اليد والسخاء والجود حتى لا يلومك ويعتب عليك أهلك ، ويذمك من يعرفك من أصحابك وعشيرتك ، ويَمَلَّكَ أهلك وولدك ويتمنوا هَلَاكَكَ ، ولا تسرف فى الإنفاق وتتجاوز الحد ، فتكون كمن بسط يده ونشرها فضاع ما كان فيها من مال ، بل تدبر أمر مستقبلك أنت ومن تعول حتى لا تضيعهم فترجع ملوما من الله تعالى ومن الناس ومن نفسك إذا احتجت كما تصير بهذا الإسراف كليلا منقطعا ، كالذى بلغ الغاية فى التعب والإعياء ، فلم يستطع مواصلة سيره ، فعليك أن تكون وسطا بين الإفراط والتفريط ، متصفا بصفات عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : « الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » ويلاحظ أن الإسراف قد يؤدى إلى الإثم إن أضاع العيال ، قال صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ » .

٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) :

أى إنَّ بسط الرزق وتوسعته وقبضه ليس لك ولا هو من شأنك أيها المربوب الضعيف الذى لا تعلم أمر نفسك وما يصلحها ، ولا تقدر على تدبير شأنك من غير معونة ربك ، فهو الذى

(٢) الورق . . . بكسر الراء - الدراهم المضروبة .

يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه ، وأنت مأمور منه سبحانه أن تكون معتدلا فى الإنفاق فى حالتى الفقر والغنى ، وأن تسعى فى سبيل رزقك ، والله يعينك فى سعيك إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، يعطى عباده حيثما جرت به مشيئته وحكمته فمن حكمته تعالى - أن يغاير بين الناس فى الفقر والغنى ، ليستقيم أمر الحياة وينتظم شأنها ، فطائفة تيسر لعمل ،وثانية تسخر فى آخر ، وهكذا ييسر الله كلا لما خلق له فتسير الحياة ويستقيم أمر الخلق ، ولوجعل الله الناس على حال واحدة لاختل النظام وفسد وانتهى أمر الخلق إلى فوضى ، وتعطلت جوانب كثيرة من حياة الناس ، وصدق الله حيث يقول : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (١) .

(وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾)

المفردات :-

(خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) :خوف فقروفاقة . (خِطْئًا كَبِيرًا) : ذنبا عظيما وخطيئة كبيرة ، والخِطْء بكسر الخاء تعمد الذنب ، قال الأزهرى : خطِئ يخْطَأُ خِطْئًا - بوزن علم يعلم علما -

(١) سورة الزخرف : من الآية (٣٢)

إذا تعمد الخطأ ، مثل أَثِمَ يأْثَم إِثْما ، وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطاء وخَطَأ .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى) : ولا تدخلوا فى شىء من مقدمات الزنى ، فضلا عن مباشرته .

(فَاحِشَةً) : فعلة سيئة ظاهرة القبح. (لِوَلِيِّه) : لوارثه الذى له المطالبة بدمه فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه ، (سُلْطَاناً) : تسلطا واستعلاء على القاتل ومؤاخذته بالقصاص أو الدية.

(فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ) : بأن لايقتل غير القاتل ولايمثل بالمقتص منه. (يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) : يصل إلى حد الرجال ، ويبلغ وقت اشتداد قوته فى البدن والعقل وتدبير المال وصلاح الحال .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ) : اجعلوه وافيا كاملا مضبوطا بلا خديعة .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : بالميزان العادل .

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : وأحسن مآلا وعاقبة فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٣١ - (وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً) :

بعد أن بين الله - سبحانه - فى الآية السابقة أن أمر الرزق بيده توسيعا وتضييقا نهى عباده فى هذه الآية عن قتل الأولاد مشفقين من فقر ينالهم .

والمعنى : ولاتقتلوا أولادكم خوفا من فقر ينالكم بسبب قيامكم بالإنفاق عليهم ، لأن قتلهم كان فى شرع الله منذ القدم إثما عظيما ، لايقع إلا ممن لايؤمن بربه ولايتوكل عليه ، فنفسه خواء وقلبه فارغ ليس به أثر إيمان ولا بقية يقين ، إن هذا العمل الشائن الفاجر ذنب كبير ناشىء عن تزيين الشركاء من الجن أو سدنة الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ليوقعوا الآباء فى مهاوى الضلال والفساد والهلكة. قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِم شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ »[١] . فلو تركتم - أيها المشركون - عبادة غير الله وآمنتم بربكم حق الإيمان لعلمتم أنه - سبحانه - قد تكفل بأرزاق خلقه جميعا : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا »[٢] .

(١) سورة الأنعام : من الآية رقم ١٣٧ .

(٢) سورة هود : من الآية ٦ .

وليس عليكم إلا أن تتخذوا للرزق أسبابه التى يسرها الخالق - سبحانه ،واعلموا أن أولادكم الذين تتوهمون أنهم مُنْتَقِصون من أرزاقكم إنما يرزقهم الله معكم لا تبعًا لكم ، فمن الهمة القاصرة والعزيمة الخـائرة أن يستبد بكم هـذا الوهم ، فتقدموا على فعلتكم الشنعاء هذه .

وفى هذه الآية قدم ضمير الأولاد فى منح الرزق على ضمير المخاطبين إذ قال : «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » ليبين للآباء أن رزق الأولاد محل عناية واهتمام من الله تعالى فليس هناك داع - إذًا - للإشفاق والخوف من وقوع الفقر ،وقدم ضمير الآباء فىسورة الأنعام فى قوله تعالى : «نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» للمبادرة بطمأنة الآباء على أرزاقهم وأنها واصلة إليهم لامحالة فلا موجب لقتلهم أولادهم - وفى التعبير بلفظ كان فى قوله تعالى : «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » إيذان بأن هذا الفعل الأثيم كانت تأباه كل الفطر السليمة وترفضه الطبائع الكريمة وجميع شرائع الله تبارك وتعالى التى أنزلها على أنبيائه من قبل . فهى شريعة موروثة ، فكيف ساغ لهم الإقدام على قتلهم .

٣٢- (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا) :

وبعد أن نهى - سبحانه - فيما سبق عن قتل الآباء أولادهم ، وبين أن قتلهم هو جرم فاحش وذنب كبير ، حذر فى هذه الآية من الدنو من الزنى ، وبين أنه كان فى عرف الناس وشريعة الله فعلة ظاهرة الفحش ، وساء طريقا فى الحياة ، والتحذير من القرب من الزنى تحذير من مباشرة دواعيه وأسبابه ، ولهذا أمر كلا من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر فالنظرة الآثمة سهم من سهام إبليس وهى بداية كل شر ،كما نهى ومنع خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ، ويزين الشر ويأمر بالفحشاء ، وفى الأثر : «ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » كما نهى سبحانه أن تبدى المرأة زينتها لرجل لايحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور .

ومما يؤدى إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع فى كلامها ، فيطمع فيها من فى قلبه مرض الفحش وداءُ الرغبة الآثمة فى الفساد ،هذا هو تحذير الله عباده من أن يقربوا الزنى فما بالهم إذا قارفوه وفعلوه ووقعوا فيه ، إنه سبب فى اختلاط الأنساب وهتك الأعراض وتفكك المجتمع ، وشيوع الرذائل ، وذهاب الإنسانية الفاضلة والنزول بها إلى درك الحيوانية ، فضلا عن أن من يمارس ذلك يذهب بهاؤه وتهون منزلته ،ويفضح فى أهله ، فالزنى عمل بالغ الفحش ، سىء المغبة ، وخيم العاقبة ، وساء طريقا ، فهو يورد صاحبه موارد الهلاك ، وينزل به إلى منازل السفلة ، الذين ينأى عن صحبتهم كل طاهر كريم عفيف .

٣٣ـ (وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . الخ) الآية .

أى ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التى حرم الله قتلها وجعلها مصونة لايجوز الاعتداءُ عليها ، مالم ترتكب جرما يقتضى قتلها ، كما إذا ارتد مسلم أو قتل مؤمنا عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لايحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فإذا اعتدى إنسان على آخر بالقتل دون ذنب أو جريرة تُحِل ذلك القتل ،فقد جعل الله لقريب ذلك المقتول ووليه حق المطالبة بدمه ،فإن شاء هذا الولى القصاص فهو حقه وإن شاء أخــذ الدية فذلك له أيضا ، وإن شاء عفا ، والسلطان ولى من لا ولى له ، وبما أن الله ـ جل جلاله ـ قد أعطى الولى الوارث للقتيل هذا الحق فالواجب عليه ـ عند استيفاء القصاص ـ ألا يسرف فلا يقتل غير القاتل ولايندفع إلى الأخذ بالثأر على غير بينة .

أو إثبات ، وليس جعل الحقوق المذكورة لولى الدم مقتضيا أن يباشرها بنفسه ،بل عليه أن يرفع الأمر إلى القضاء ليصدر حكمه فيها بما تقتضيه القواعد الشرعية ،فإن قضى بالقصاص أمر من يباشره حتى لايندفع الناس إلى القتل جزافا وَلِأَوْهَى الأسباب ، وإنما حرم الله ذلك الإسراف لأن الله قد نصر ذلك الولى وأيده ، حين شرع القصاص وأعطاه حق المطالبة به فما وراء ذلك فهو عدوان وجور .

٣٤ ـ (وَلَاتَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) :

وكما نهاكم الله تعالى عن أن يقتل أحدكم غيره إلا بحق فقد نهاكم أيضا عما يشبه القتل وهو أكل مال اليتيم بغير حق ، فلا تقربوا ماله بسوء فتجمعوا عليه بين فقد الوالد وحنان المربى ، وبين ضياع المال الذى يقوم عليه أمره ويصلح به شأنه ، إن هذا الاعتداء لؤم وخسة وقسوة على إنسان ليس لديه قدرة على الدفاع عن نفسه ، إن الرحمة والمروءة تقتضيكم أن تقربوا ماله بما يحفظ أصله ، وينمى فرعه ، بهذا تكونون قد قمتم على أمر هذا المال بأحسن الطرق ، وأفضل الوسائل التى تعود على صاحبها بالنفع والخير ، وداوموا على إصلاح ذلك المال حتى يبلغ اليتيم أشده ، بوصوله إلى سن الرشد ، ونمو عوده وقوة جسمه ، وزيادة خبرته ومعرفته ، ونمو تجربته وقدرته على التصرف الحسن والسلوك القويم ، فإذا بلغ راشدا فعليكم أن تدفعوا إليه ماله غير منقوص ، ولا تمسوا ماله بسوء بعد ذلك .

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) : وكونوا أوفياء بكل ما عاهدتم الله على القيام به ، من تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وفى جملة ذلك رعاية اليتامى وما عاهدتم الناس عليه مما يصح فيه العهد شرعا ، فلا تخيبوا رجاءهم ، ولاتقطعوا آمالهم التى عقدوها عليكم فى إصلاح أمرهم ، إن العهد سيسألكم عنه ربكم يوم القيامة ، فأوفوا به ولا تضيعوه .

وأظهر العهد إذ قال : « إِنَّ الْعَهْدَ » ولم يقل إنه ـ لكمال العناية بشأنه والحث على الوفاء به ، وإنما عبر بقوله : « إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا » مع أن السؤال لصاحب العهد على سبيل المجاز ، والمراد أنه مسئول عنه يوم القيامة . فيقال لصاحبه : لِمَ نَكَثْتَ عهدك وضيعته ولم توف به ؟ فيجمع الله عليه التبكيت مع العقوبة على عدم الوفاء به .

٣٥ ـ (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ) :

واجعلوا الكيل وافيا عادلا ، لانقص فيه إذا كلتم لغيركم ، واكتفى بالأمر بإيفاء الكيل عند البيع عن الأمر بتعديله عند الشراء من الناس ، لأنه يُؤْذِنُ بحرص الشارع على وصول الحق إلى صاحبه ، فكما لايبخسه حقه عندما يبيع له ، كذلك لا يظلمه عندما يشترى منه ، وقد جاء النهى صريحا عن التطفيف فى الجانبين فى قوله تعالى : «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى وَزِنُوا بالميزان السوى الذى لا خداع فيه ، ولا غش ولا تدليس ، إذا وزنتم فإنه لايحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه .

(ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : أى ذلك المذكور من إيفاء الكيل عند البيع ، والوزن بالميزان السوى المستقيم ، خير لصاحبه ولمن يعامله ، وأحسن مآلا ومرجعا عند الله تبارك وتعالى ، أما الكسب الحرام فهو كالوقود الفاسد لايُسيِّر الآلة . . بل يتلفها ويفسدها وربما يؤدى إلى احتراقها وقد تهلك صاحبها ، ولكن الكسب الحلال الطيب يبارك الله فيه ، فينمو ويزيد ويكون خيرا وبركة على صاحبه وأهله وولده ، إذ يبعث على الطاعة ويقوى على الخير ، ويقرب من الله ويدنى من الناس ، ويكون لصاحبه لسان صدق بينهم .

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(وَلَا تَقْفُ) : . . ولا تتبع ، مأخوذ من قولهم قفوت فلانا إذا تتبعت أثره .

(مَرَحًا) : اختيالا . . . واستكبارا ، وفخرا ، والمرح شدة الفرح .

(الحِكْمَةِ) : الأمور المحكمة والأدب الجامع لكل خير .

(مَدْحُوراً) : مطرودا ومبعدا مقصيا فى النار .

التفسير

٣٦ – (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أي لا تتبع مالا تعلمه ، فلا تقل بغير علم ولا تتهم بغير بينة ، ولا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا تشهد بالزور ، ولا تتبع الظن والحدس فى حق الناس ، فإنك بذلك تكون قد قلت مالا تعلم ، واتبعت ما ليس لك به علم وأخطأت بذلك فى حق الله وحق عباده وحق نفسك.

وهناك أمور يعمل فيها بالظن ، كالحكم على شخص معين بالإيمان تبعاً للظاهر ، وكالإفتاء بالأحكام الشرعية عن الأدلة الظنية ، وكالعلاج بالعقاقير التى يظن فيها الشفاء .

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) : أى أن كل واحد من أعضاء السمع والبصر والقلب كان صاحبه مسئولا عنه ، فلا يحل له استعمالها فى غير ما أحل الله تعالى ، فلا تتسمع إلى غيرك محاولا كشف عوراته ، ولا تلق بأذنك إلى مالا يحل من فحش القول ، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك ، وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما البصر فا غضضه عما لا يحل لك ولا تمده إلى ما متع الله به غيرك تحسده عليه ، بل عليك أن تنظر بذلك البصر ما يقربك من ربك ، وما يوصلك إلى رزقك ، أما قلبك فاحفظه من شيطان موسوس أو حسد قاتل مدمر أو عُجْب أو نفاق أو رياء ، فإن هذه الصفات وما يشبهها من الموبقات المهلكات ، واطرد حظ الشيطان من نفسك حتى لا يكون له عليك سلطان ، فيصبح قلبك سليما ، وتلقى ربك راضيا مرضيا فتدخل رحمته وتفوز برضوانه .

٣٧ – (وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا) :

أى لا تسر فى الأرض مختالا مسرفا فى فرحك ومرحك ، بل تواضع لله الذى خلقك ورزقك ، وهو قاهر لك قادر عليك ، فإن غلبك البطر والغرور لجاهك ، فا علم أن الجاه نعمة من الله يمنحها ويسلبها ، وإن طغيت على غيرك لعافية وصحة بدن فتذكر أنها وديعة الله عندك يستردها متى شاء ، وإن دعتك نفسك الأمارة بالسوء إلى التكبر على عباده بمالك فاعلم أن الله يغار عليهم فهو ربهم وخالقهم ، وإن زهوت بالبنين فتذكر أنك ستقدم على ربك بعملك فحسب « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) : إنك مهما تخايلت بخطواتك واشتددت فى إيقاع أقدامك على الأرض ،فإنك لن تخرقها بخطوك ،ومهما تطاولت بهامتك كبرا وفخراً ورفعت رأسك تيها وعُجْبا ، فلن تساوى الجبال الشواهق بطولك أو تطاولك . فدع عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

٣٨ ـ (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) :

أى كل ذلك المذكور فى الأوامر والنواهى السابقة من الخصال كان السىء منه مكروها فى حكم الله وشرعه ، فدع ما نهاك عنه واستمسك بما أمرك به حتى لا تكون مبغضا من الله ، وبعيداً عن رضوانه ورحمته .

٣٩ ـ (ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) :

أى ذلك المذكور من الآداب . والأحكام التى جاءت فى الآيات المتقدمة ، هو ما أنزله إليك وحيا ، وجعله من الأمور المحكمة التى لا يتطرق إليها النسخ ، فهى موجودة فى جميع شرائع الله ، لأنها جامعة لكل أدب وخير ففيها محاسن الأخلاق ومحامدُ الشيم فلا تنسخ ولا تتغير باختلاف الشرائع .

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) : أى واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلهاً غيره « إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ » فإن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح فى نار جهنم فى مهانة وذلة ، وأنت ملوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك فتقول لك ولأ مثالك : «أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » فتجيبون بذلة ومهانة وتقولون :

« بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1] .

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٧١

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ) : أفضلكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد.

(عَظِيماً) : أى كبيرا ، والمراد به هنا الأمر البالغ النُّكْرِ والقبح .

(صَرَّفْنَا) : بَيَّنَّا المعانى بوجوه وصور مختلفة .

(نُفُوراً) : إعراضا . . . ، (لَا بْتَغَوْا) : لطلبوا مجتهدين فى الطلب .

التفسير

٤٠ ـ (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) :

بعد أن بين سبحانه ـ فساد طريقة من يجعل لله شريكا ونظيراً ، نبه فى هذه الآية على شدة جهل من أثبت لله الولد . . وخصه سبحانه بالإناث . .

والمعنى : أفضَّلكم ربكم على جنابه ـ سبحانه ـ فخصكم بأفضل الأولاد ، واختار لذاته أدناهم وأقلهم شأنا ، فإن دعواكم أن الله قد اختار الملائكة بنات له ـ سبحانه ـ تَسْتَلْزِمُ أنه اختار لكم البنين أفضل النوعين وأحبهما إليكم ،ورضى لنفسه البنات وهن أدناهما فى نظركم مع أنه هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا حد له فكيف تنسبون إليه ما تسوءالبشارة به وجوهكم ،ويملأ الغيظ بسببه قلوبكم ، أتجعلون لله ما تكرهون دون حياء . فتأتى قسمتكم جائرة ظالمة ، تدل على جهلكم بالله وسوء تقدير لعظمته ، إنكم بافترائكم على الله تعالى . . وقولكم إن الملائكة بنات الله تقولون قولا منكراً . . كبيراً فى الإثم تحاسبون عليه وتعذبون به أشد العذاب يوم القيامة ، فإنه تعالى واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يكن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

٤١ ـ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا . . وَمَا يَزِيدُهُم إِلَّا نُفُوراً) :

أى ولقد كررنا وأكدنا العبر والعظات والأحكام فى هذا القرآن المجيد بأساليب متنوعة ، ليتعظوا ويعتبروا فيهتدوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى بارئهم رجاء فى ثوابه وخوفا من عقابه ، ولكنَّ هؤلاء المجرمين الضالين المكذبين لا يريدون هداية ولا إرشاداً ، بل إنهم مع تكرار التذكير وتأكيد التوجيه إلى الخير ، لا يزدادون إلا تباعداً عن الحق وإصراراً على الباطل ، وإعراضا عن التدبر والاعتبار .

٤٢ ـ (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّا بْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً) :

قل يأيها الرسول لهؤلاء المشركين المفترين العابدين للأصنام ،وغيرها من دون الله ـ قل لهم : لو صح ما تزعمونه وتفترونه ـ وهو وجود آلهة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم واجتهادهم أن يسلكوا طريقا إلى الله ذى السلطان والقهر ليشاركوه الأمر ، أو ينازعوه السلطة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن ما تزعمونه من آلهة هى فى الحق عاجزة لا تقدر على خير ولا شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فضلا عن أن تملك أمر غيرها .

٤٣ - (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً) :

تنزه سبحانه ، وتعالى علوًّا شاملا عما يقوله هؤلاء من نسبة الشريك والولد لله تعالى.. فالله جل جلاله هو الواحد الأحد لا شريك له ولاولد .

٤٤ - (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وإن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) :

بعد أن بين الله لهؤلاء المشركين فساد زعمهم بنسبة الشريك والولد لله ، ونزه نفسه تنزيها كاملا عن ذلك ، جاء بهذه الآية ليبين لهم : أن الخلائق جميعها علويّها وسفليها ، عظيمها وحقيرها ، مايدركه الإنسان وما هو فوق إدراكه ، كل ذلك خاضع له معترف بقهره وسلطانه ونعمه وآلائه .

والمعنى : أن السموات السبع بأجرامها وكواكبها وأفلاكها وسكانها وجميع قواها وعناصرها. . . وكذلك الأرض بما اشتملت عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وغيرها ، كل أولئك يسبح وينزه حامدا الله تعالى بلسان الحال والدلالة كما تدل الصنعة على الصانع .

ولا نرى مانعا من أن يكون لهذه الكائنات تسبيح قولى غير مسموع منا وغير معروف الحقيقة والكيفية لنا ، كما يشير إليه قوله تعالى : «يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ »[1] . أى رجعى التسبيح مع داود ، وقوله سبحانه : « إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »[2] . أى سخرناها لتسبح مع داود فى وقتى العشى والإشراق ، ولولم يكن تسبيحا قوليا لَمَا قيد بهذين الوقتين كما يؤكد ذلك ظاهر قوله تعالى هنا : «وإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[3] لأن لغة الجمادات والحيوانات لايفقهها من البشر سوى من أوتى خاصية فهمها كداود وسليمان عليهما السلام ، وفيهما يقول الله تعالى؛ حكاية عنهما : « وَعُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْر » . ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم ولا تدركونه .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين الذين تقدم الحديث عنهم ، تقريعًا لهم ، والمعنى على هذا : وما من شيء إلا ينزه الله تعالى عن الشريك والولد ، ولكنكم أيها المشركون لاتعقلون

(١) سورة سبأ : من الآية ١٠ . (٢) سورة ص الآية ١٨ . (٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

تنزيههم هذا ، لأنكم لاتنظرون فى الكائنات نظر المتفكرين فى خلق الله ومع غفلتكم هذه وعنادكم فإن الله سبحانه أمهلكم فلم يعجل لكم العقوبة ، وذلك لحلمه عليكم، لعلكم تثوبون إلى رشدكم وترجعون إلى ربكم ، فإذا تبتم وأنبتم كان غفران الله لكم وعفوه عنكم . . فإنه كان ولايزال كثير الحلم واسع المغفرة ، قابل التوب .

(وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(حِجَابًا مَّسْتُورًا) :أى غير حسى فهو لهذا مستور لايرونه. (أَكِنَّةً) :جمع كنان والكنان هو الغطاء الذى يُكَنُّ فيه الشىءُ أى يحفظ ويستر. (أَن يَفْقَهُوهُ) :أن يفهموه فهم تدبر وتأثر واستجابة . (وَقْرًا) : صَمَمًا مانعا من سماعه ، والوقر الثقل فى الأُذن .

(وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهِمْ) : انصرفوا على أعقابهم هاربين معرضين . (نُفُورًا) : جمع نافر وهو منصوب على الحال ــ أى نافرين ، والنافر المتباعد المتجافى ، أو مصدر نفر منصوب على المفعولية المطلقة لوَلَّوا ، لأنه بمعناه .

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) : أى أصحاب نجوى يتناجون فيما بينهم بالافتراء والإثم ، والنجوى هى حديث السر بين من يَخْلُون بأنفسهم ليتناجوا فى خفية وإسرار. (رُفَاتًا) : والرفات الأجزاء المفتتة من كل شىء ينكسر ، وقيل الرفات والفتات ما تكسر وتفرق من التبن ونحوه ، والمراد هنا - والله أعلم - ما تصير إليه أجسادهم من التفرق بعد الموت .

التفسير

٤٥ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) :

أى فإذا قرأت يا محمد القرآن تدبرا وعبادة لله ، وإرشادا وتعليما لقومك ، جعلنا بينك وبين المشركين الكافرين بالآخرة حجابا ساترا ، يمنعهم أن يدركوا ما أنت عليه من النبوة والرسالة وجلال القدر وعظيم المكانة ، حتى اجترءوا عليك ونسبوا إليك نقائص وعيوبا أنت منها برىء ، ومن ذلك قولهم : « إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » .

٤٦ - (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

هذه الآية مفسرة للحجاب المستور الذى جاء فى الآية السابقة ، وكأنه قيل :
وذلك الحجاب المستور هو أنا جعلنا على قلوب هؤلاء المشركين أكنة وأغطية تمنعهم من فقه القرآن ، والوقوف على كنهه ، كما أصبنا آذانهم بالصمم والثقل العظيم ليحول بينهم وبين سماعهم لكتاب الله سماعا لائقاً به ، فإنهم كانوا يسمعونه سماع استهزاء وسخرية لا سماع تأمل وتدبر ، وهذا المنع كان جزاءً لهم على إعراضهم ، فلم ينعموا بنعمة الاهتداء إلى القرآن ، لإصرارهم على الجحود والإنكار .

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) : أى وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وتسبيحه ، أدبروا وفروا هروبا وانزعاجا من سماعه ، لأنه ينفرهم من أصنامهم ، وينهاهم عن عبادتها مع الله تعالى .

٤٧ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

هذه الآية الكريمة فيها تسلية لرسول الله ، ووعيد لهؤلاء المستهزئين ، فقد أخبر الله رسوله بأنه - سبحانه - يعلم بحالهم الذى يستمعون به القرآن وقت استماعهم إليه حين يتلوه ، من الاستخفاف وإثارة اللغو والتصفيق والصفير ، وكما يعلم ذلك يعلم - سبحانه - أمرهم حين يتناجون فيما بينهم ويتهامسون عنه فى خلواتهم ، ويفترون عليه الكذب .

ويقول هؤلاء المشركون الضالون عن صراط الحق يقولون للناس إنكم حين تتبعون محمدا لا تتبعون إلا رجلًا قد أصابه السحر فاختلط عليه الأمر ، ويعقب الله هذه التهم بقوله :

٤٨ - (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) :

انظر يا محمد - عليك الصلاة والسلام - متعجبًا من حمقهم وسفاهتهم ، كيف تطاولوا عليك فزعموا أنك ساحر ، كما زعموا من قبل أنك كاهن وشاعر ومجنون ، فضربوا لك الأمثال فضلوا وبعدوا عن الحق وتحيروا فى أمرهم معك ، فهم لا يهتدون إلى الحق ولا إلى طريق ينال منك أو يصرف الناس عنك .

٤٩ - (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) :

وقال هؤلاء المشركون - منكرين البعث مستبعدين له - : أئذا متنا وصرنا عظامًا وحطامًا مفتتًا ، نبعث من قبورنا ، ونخلق خلقًا جديدًا كما يقول لنا محمد ، وهذا القول منهم هو غاية الإنكار لأدلة الإمكان والوقوع ، أما الإمكان فلأن الله الذى خلق الناس ابتداء باعترافهم قادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم للحساب لأن الإعادة أيسر من الابتداء عادة ، وأما الوقوع فلأنه تعالى عادل فلا يعقل أن يترك المحسن دون إثابة ، والمسىء دون عقاب ، فلا بد من البعث لينال كلٌّ جزاء ما قدمت يداه .

* ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

المفـردات :

(فَطَرَكُمْ) : خلقكم على غير مثال سابق .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) : يحركونها تعجبًا وسخرية .

(فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) : تلبون دعوته حامدين إياه على بعثكم بعد الموت ، وعلى ما يتصف به من عظمة وقدرة وحكمة ظهرت آثارها فى البعث بعد الموت .

التفسير

٥٠ ، ٥١ ـ (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) :

الآية الكريمة إجابة عن سؤال الكفار السابق : « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » .

والأمر بالقول موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلّ داع بدعوته .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين ، وليقل كل داع إلى الحق لأمثالهم : لماذا تستبعدون وتنكرون بعثكم بعد أن صرتم عظاما ورفاتا ، كونوا ما شئتم بعد الموت ولو حجارة أو حديدا أو خلقا مما يعظم فى نفوسكم ويعلو عن أن تحله الحياة فإنكم عائدون إلى الحياة .

(فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنا) : فسيقولون فى دهشة واستنكار من الذى يستطيع أن يعيد إلينا الحياة بعد هذا التحول العجيب ، من الحياة الدافقة المتحركة إلى الموت ثم إلى العظام والرفات ، فضلا عن التحول إلى الحجارة أو الحديد أو أشباههما ، وقد أمر الله تعالى أن يجابوا عن هذا التساؤل الذى لا مبرر له بقوله :

(قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : أى قل لهم أيها الرسول : الله الذى خلقكم أول مرة من عناصر التربة الأرضية الجامدة الميتة على غير مثال سابق ، هو الذى يعيد إليكم الحياة وإن تحولت أجسامكم من عظام ورفات إلى حجارة أو حديد أو نحوهما ، والمعروف لنا أن الإعادة عند البشر أسهل ، ولكنها تحت قدرة الله لا توصف بالسهولة أو الصعوبة ، فكل الممكنات عنده سواء ، لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

« إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون »[1].

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) :

أى فحينما يستمعون هذا الجواب سيحركون رءوسهم منكرين ساخرين قائلين فى دهشة وإنكار : متى يتم هذا البعث ؟ فقل لهم : سيكون هذا البعث قريبا ، لأن كل آت وإن طال الزمان قريب .

٥٢ - (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) :

أى يتم بعثكم يوم يدعوكم إليه فتهبون من قبوركم ملبين دعوته ، كما قال تعالى : « ثُمَّ إِذَادَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَآ أَنتمْ تَخْرُجُونَ »[2]. والمقصود بالدعوة النفخة الثانية ، المعبر عنها بالصيحة فى قوله سبحانه : « يوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »[3].

وعند بعثكم تلهجون بحمده تعالى مدركين عظمته وقدرته ، وأنه أهل للحمد والثناء ويزول عنكم هذا الإنكار والعناد ، بعد أن شاهدتم الحقيقة التى كنتم سمعتموها من رسولكم فى دنياكم .

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ (٢) سورة الروم : الآية ٢٥

(٣) سورة ق : الآية ٤١ ، ٤٢

(وَتَظُنُّونَ إن لَّبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً) : أى تعتقدون عند البعث أنكم لم تلبثوا فى الدنيا أوفى الحياة البرزخية إلا زمنا يسيرا ، كما قال سبحانه : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[1].

(وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(يَنزَغُ) : يفسد ويغوى بالعداوة والبغضاء ويثير الضغائن والأحقاد .

التفسير

٥٣ ـ (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) :

بعد أن بين الله جحود الكفار للبعث ومعاداة الحق أمر رسوله فى هذه الآية أن يقول للمؤمنين : عليكم أن تلهجوا بالقول الحسن وأن تتمسكوا به وأن تطبقوه فى حياتكم . . والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين آمنوا بى وشرفوا بالنسبة إلى ، قل لهم يقولوا الكلمة التى هى أحسن الكلام ، وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يقابلوا الإساءة بالإحسان فإن هذه سنة عباد الرحمن ، كما قال سبحانه فى سورة الفرقان : « وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً »[2].

وقيل : المقصود بالعباد جميع الناس فإنهم جميعا عبيد الله والنصيحة عامة لهم . والمعنى على هذا : قل أيها الرسول لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يأمرون بما أمر الله به وينهون عما نهى الله عنه .

---

(١) سورة النازعات : الآية ٤٦

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٣

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) : إن الشيطان يفسد بين الناس ، ويثير بينهم العداوة والبغضاء ويبث فيهم الأحقاد والضغائن ، فيمزق شملهم ويفرق كلمتهم ، ويهدم وحدتهم ، أو يغريهم بالكفر والإلحاد وارتكاب الشرور والآثام ، فلهذا ينبغى أن يعالجوا بالكلمة التى هى أحسن .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) : أى إن الشيطان كان عدوا للإنسان واضح العداوة منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة ،فعليهم أن يتغلبوا على إغوائه بالتزام الكلمة الطيبة والقول الحسن ،ليردوه عن متابعة وسوسته وإغوائه ، فإنه يزين القبيح للإنسان ويجلوه أمامه فى صورة حسنة ، فيدفعه إليه دفعاً ، ويقبح له الحسن فينفره منه تنفيرا .

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَكِيلًا) : كفيلا .

(زَبُورًا) : الزبور هو الكتاب المنزل على نبى الله داود عليه السلام ، وهو كتاب ليس فيه تشريع ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .

التفسير

٥٤ - (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) :

بعد أن بين الله أحوال الكافرين ،ودعا المؤمنين إلى التزام القول الحسن وحذرهم من إغواء الشيطان ، خاطب المكلفين جميعا بأنه مطلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم ، فإن يشأ

شملهم برحمته لأنه يعلم أنهم أهل لرحمته ، وإن يشأ عذبهم لأنه يعلم أنهم قصروا فى جانبه ، ومشيئته مرتبطة بحكمته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) : أى وما أرسلناك أيها الرسول كفيلا لهم ومسئولا عن طاعتهم أو معصيتهم ، فكل امرىء منهم بما كسب رهين .

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه »[2]

٥٥ ـ (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى أنه سبحانه يحيط علمه بكل من فى السموات والأرض « لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » . فلهذا اختار من يعلم أنهم صفوة البشر أنبياء ، وفضل بعضهم على بعض ، كما قال سبحانه : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » . وكان تفضيلهم بالفضائل النفسانية والعلمية ، لا بكثرة الأموال والأتباع وغير ذلك من أمور الدنيا ، وأقربهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله ربه رحمة للعالمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) : خص الله سبحانه داود بالذكر مع دخوله فى الأنبياء قبله ، ليبين أنه عليه السلام ممن فضلهم الله على بعض الأنبياء وذلك بإنزال الزبور عليه ، وقد اشتمل على تسابيح الله وإشارات إلى جلاله وعظمته وقدرته وكان يرتله بصوت عذب شجى ، تردده معه الطيور والجبال كما قال تعالى فى سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ »[3] .

---

(١) الكهف : من الآية ٤٩
(٢) الزلزلة : الآية ٧ ، ٨
(٣) ص : الآية ١٨ ، ١٩

وهذه الجملة « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » تشير إلى أن الكتب المنزّلة على الأنبياء ، هى شهادة من الله بفضلهم ، وبمقدار مسئولياتهم فيها تتفاوت درجاتهم .

(قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾)

المفـردات :

(زَعَمْتُمْ) : ادعيتم كذبا .

(كَشْفَ الضُّرِّ) : إزالته .

(تَحْوِيلاً) : صرفًا وإبعادًا .

(الْوَسِيلَةَ) : الصلة أو السبب .

(مَحْذُورًا) : أى مخشيا مرهوبا .

التفسير

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ) :

بينت الآيات السابقة أن علمه تعالى محيط بخلقه ، وأنه يرحم من يشاءُ ويعذب من يشاءُ طبقا لعلمه وعدله وحكمته ، وجاءَت هذه الآية لتبين للمشركين عجز آلهتهم ، والمعنى : تضرعوا أيها المشركون إلى الآلهة الذين عبد تموهم من دون الله ، وانظروا هل تسمع إلى ضراعتكم ، أو تجيب دعاءَكم أو تدفع عنكم الضر أو تجلب إليكم النفع .

(فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً) : أى أن هذه الآلهة المزعومة لا تستطيع ولا تملك أنْ تزيل عنكم ما يعتريكم من الضر ، ولا تملك أن تحوله عنكم إلى غيركم ، بل إنهم عاجزون لا محالة ، لأنهم كما قال تعالى فى سورة الفرقان : « وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلا نُشُورًا »[1] . فكيف تعبدونهم من دون الله ؟

٥٧ ــ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) :

كان بعض العرب يعبدون الملائكة ، وبعضهم يعبدون الحق تبارك وتعالى ، كما كان بعض اليهود والنصارى يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، فنزلت هذه الآية فى شأن من يعبدون غير الله .

والمعنى : أن هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله هم خلق من خلق الله ، وعبيد من عباده ، خاضعون لمشيئته ، منقادون لأمره يرجون رحمته ويخشون عذابه ، يسبحون بحمده ويلهجون بذكره ، ويتنافسون فى التقرب إليه بكل وسائل الزلفى .

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) :

أى هم مع ما تقدم من عبادتهم لله وتقربهم إليه يرجون رحمته ويخافون عذابه ، لأن عذابه شديد أليم . فهم لا يعتمدون على طاعتهم ، بل يخشون عقابه حذرا من تقصيرهم .

ويجوز أن يكون المعنى : أولئك المشركون الذين يعبدون الأوثان يبتغون بعبادتها الوسيلة إلى الله ، ويرجون بذلك رحمة الله ويخشون عذابه ، فأيهم أقرب إلى الله؟ لا شك أنّ أولئك العابدين أقرب إلى الله تعالى من أوثانهم ، فهو سبحانه أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، فلا يصح أن يتقرب هؤلاء المشركون إلى الله بعبادة من هم أبعد منهم عن الله وأحط قدرا وأضعف قوة وشأنا ، إن عذاب ربك يا محمد كان أمرا محذورا ومخوفا ، فلماذا لا يحذره هؤلاء العابدون لأوثانهم ، وقد أشركوا به من هو مَثَلٌ فى الضعف والهوان .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٣

(وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾)

المفـردات :

(قَرْيَةٍ) : القرية اسم للموضع يجتمع فيه الناس ويتخذون منه سكنا لهم ، وتطلق أيضاً على سكانه . (الكِتَاب) : اللوح المحفوظ . (مَسْطُوراً) : مكتوبا مسجلا ، (الآياتِ) : المعجزات التى طلبها المشركون. (مُبصِرَةً) : داعية إلى إبصار الحق بدلالتها عليه وإرشادها الناس إليه .

التفسير

٥٨ ـ (وإن مِّن قَرْيَةٍ إلاَّ نَحْنُ مُهلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامةِ أومُعذِّبُوهَا عَذابًا شَدِيدًا) : حذر الله المشركين فى آخر الآية السابقة من عذابه بقوله : « إنَّ عَذابَ ربِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » ، وجاءت هذه الآية لتأكيد هذا التحذير.

والمعنى: إن من سنة الله تعالى مع الظالمين أنه ما من أهل قرية يقابلون أنعم الله بالجحود والكفران ويكذبون الرسل وينكرون المعجزات إلا أهلكهم الله سبحانه وفقاً لوعيده ،كما أهلك عادا وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ،وفيهم يقول الله تعالى فى سورة (ق) : « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

وربما يصيب الله أهل هذه القرية بعذاب شديد دون الإهلاك ليرجعوا إلى الله تائبين نادمين ، لأنه سبحانه يعلم أنهم سيفيئون إلى الإيمان قبل نهاية حياتهم ، مثل أهل مكة ،

أو لأنه تعالى يعلم أن من ذريتهم من يعبد الله ،أو لغير ذلك من الحكم ، وقيل إن المراد أن الله سبحانه سيهلك جميع القرى قبل قيام الساعة ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة المزمل : « يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً » ، وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث طويل عن الرجال ، رواه بسنده عن النواس بن سمعان عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » .

(كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا) : كان الإهلاك أو التعذيب قضاء محتوماً وقدراً نافذا سجله الله عنده فى اللوح المحفوظ لتنفيذه فى الأجل المحدود .

٥٩ ـ (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) :

روى النسائى وأحمد والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟ قالوا نعم ، قال : فدعا فأتاه جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : أن الله لم ينزل المعجزات التى طلبها المشركون لأنه سبحانه يعلم أن قريشا سوف تجحد هذه المعجزات كما جحدها السابقون .وحينئذ تستحق الهلاك تطبيقاً لسنته فى شأن المكذبين بعد تحقيق ماطلبوه ،والله تعالى يعلم أنها ستستجيب لدعوة الإسلام بعد حين ،فلم ينزل هذه المعجزات المطلوبة واكتفى بإعجاز القرآن الكريم ، كما قال سبحانه : « وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » [1] .

(١) سورة العنكبوت : الآيتان ٥٠ — ٥١

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ألا يعذب قومه مادام فيهم قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] .

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) :

أىَ أن الذى اقتضى عدم إرسال الآيات المقترحة أن قريشاً ستكذب بها ،كما كذب بها الأولون فتتعرض للهلاك مثلهم ، كما تعرضت ثمود لهذه التجربة حيث اقترحوا على نبيهم أن يأتيهم بناقة ترعى الكلأ وتشرب الماء كله يوما ،ثم تترك لثمود الكلأ والشراب يوماً آخر وتدر عليهم من ألبانها ما يكفيهم ، فعقروا هذه الناقة ، جاحدين منكرين « فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[2] .

ومعنى مبصرة : مدركة وعارفة نصيبها فى الكلإ والماء ، فلا تتعداهما إلى نصيب ثمود فيهما ، أو موضحة للناس الدلائل الباهرة على صدق نبى الله صالح عليه السلام[3] .

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) :وماننزل المعجزات المقترحة إلا إنذارا و إرهابًا للأمم الضالة ،لتعود إلى الإيمان . فإذا أصرت على الكفر والعصيان استحقت الهلاك والنكال والدمار.

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ج وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ج وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(أَحَاطَ بِالنَّاسِ) : شملهم بعلمه أو أحاطت بهم قدرته .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

(٢) سورة فصلت : من الآية ١٧

(٣) من أبصر المتعدى بمعنى أنها جعلت ثمود يبصرون الآية والمعجزة فى شئونها المختلفة ، فلم يبق لهم عذر فى التكذيب .

(الرُّؤْيَا) : ما يراه النائم فى منامه ، وقد تطلق على مايراه الإنسانفى يقظته ، كما قال الشاعر الراعى يصف صائدا :

وكبَّر للرؤْيا وهشَّ فؤاده ... وبشَّر قلباً كان جمًّا بلَابِلُه

وقال بعضهم : هى حقيقة رؤيا المنام ، ورؤيا اليقظة ليلا ، والمشهور الأَول .

(الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ) : شجرة الزقوم التى وصفها الله سبحانه بأَنها «شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ »(١)

(الْمَلْعُونَةَ) : الملعونَ آكِلُهاَ ، أَو البعيدة عن مواطن الرحمة لأَنها فى أَصل الجحيم

(طُغْيَاناً) : مجاوزة للحد فى العنف .

التفسير

٦٠ ـ (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) :

بعد أَن تناولت الآيات السابقة أَقوال المكذبين والمعاندين ، أَدخل الله السكينة والطمأْنينة على نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .

والمعنى : واذكر يامحمد وعدنا إياك أَن الله سبحانه أَحاط علمه وشملت قدرته الناس جميعاً ومنهم المشركون ، فلا يمكنهم من إيذائك أَو إيقاع الضرر بك ، كما قال سبحانه : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »(٢) . وقال : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »(٣) .وهو سبحانه سيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء . .

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) :أَى أَن ما أَطلعناك عليه عيانا من آياتنا الكبرى ليلة الإِسراء ، لم نجعله إلا اختبارا لإِيمان المؤمنين وامتحانا للمشركين ، ولما أَخبر الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بحديث الإِسراءِ سخر منه المشركون ، وارتد عن الإِسلام

---

(١) سورة الصافات : الآية ٦٤ ، ٦٥

(٢) سورة الحجر : الآية ٩٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

قِلَّةٌ من ضعفاء الإيمان ، وثبت على تصديقه والإيمان به الصادقون المخلصون ، وفى مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ، ومن يومها أطلق عليه لقب الصديق . راجع تفسير السورة .

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ) : أى وما جعلنا شجرة الزقوم المذمومة فى القرآن بأنها طعام الأثيم ، وما جعلناها إلا اختبارا للناس ، مؤمنهم وكافرهم . فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الشجرة بأنها « تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْها الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ »[1] . ويجوز أن يكون المراد من لعن الشجرة فى القرآن لعن آكلها أو أنها بعيدة ، من اللعن بمعنى البعد لأنها بعيدة من مواطن الرحمة لأنها « تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ » .

ولما نزلت هذه الآيات ، قال أبو جهل : إن محمدا يتوعدكم بنار وقودها الناس والحجارة ، ثم يقول : إنها ينبت فيها الشجر ، وما يُعْرَفُ الزقوم إلا التمر بالزبد ، ثم أمر جاريته فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه ساخرا : تَزَقَّمُوا ، والمعنى : وما جعلنا ما أريناك ببصرك من الآيات الكبرى فى السماء والأرض إلا فتنة وامتحانا للناس مؤمنهم وكافرهم ، وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة لهم أيضا ، فثبت الصادقون ، وارتد بعض الضعفاء من المؤمنين ، وأنكر المشركون ، لأن عقولهم القاصرة المحدودة لا تتصور أن تكون شجرة فى قاع جهنم جهلا منهم بقدرة الله التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيرًا) : أى وننذرهم بالآيات المنزلة ونذكرهم بما أصاب الأمم السابقة من هلاك ودمار ، فما يزيدهم الإنذار إلا إمعانا فى الضلال وغلوا فى العناد والكبرياء ، وإيغالا فى الجبروت والطغيان ، والفعل المضارع (نخوفهم) يدل على أنه تعالى يتعهدهم من آن لآخر بالإنذار والتخويف . ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا طغيانا كبيرا .

---

(١) سورة الصافات : الآيات ٦٤ – ٦٨

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(أَرَءيْتَكَ) : أخبرنى .

(لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) :لأستولين عليهم بالإغواء .يقال ،احتنك فلان فلانا ، إذا استولى عليه وتولى قيادته كما يحتنك الإنسان الدابة بأن يضع حول فمها حبلا يقودها به وهو الرسن.

التفسير

٦١ ـ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ) :

واذكر يا محمد للمشركين الذين استجابوا لإغواء إبليس فى الضلال والكفر ، قصة عداوته للبشرية . اذكر لهم حين قلنا للملائكة آمرين : اسجدوا لآدم الذى أبدعته قدرتنا من طين ـ اسجدوا ـ تحية له وتعظيما لقدرتنا ، فاستجابت الملائكة فسجدت سجود طاعة لربها وتعظيم لآدم الذى خلقه دون وسيط ، ولكن إبليس أعلن التمرد والعصيان فى تكبر واستعلاء .

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) :

أي قال : كيف أسجد وأنا مخلوق من النار لمخلوق خلقته من الطين المهين ... وهو بهذا يعلن عصيانه لأوامر الخلاق العظيم ويجحد حكمته التى اقتضت خلق الإنسان وجعلته خليفته فى أرضه ، وحامل أمانته بين خلقه ، وتعليمه الأسماء

كلها ، غفل إبليس عن هذا كله وأعلن تمرده وعصيانه وخروجه على طاعة خالقه ، وبهذا استحق الطرد من رحمة الله [١] .

٦٢ ـ (قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ) : أى قال إبليس لربه : أخبرنى عن هذا المخلوق الذى فضلته علىَّ مع أنه غير جدير بهذا التفضيل والتكريم .

(لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً) : أى والله لئن مددت فى عمرى إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ، لأقودهم إلى الدمار والخراب وإلى الفساد والعصيان كما يقود الراكب دابته ، إلا طائفة قليلة منهم لا أقدر عليهم لأنك عصمتهم يارب من الضلال والإضلال ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » [٢] . ويقول سبحانه حاكيا على لسان إبليس : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » [٣] .

(قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(اذْهَبْ) : امض فى طريق غوايتك وإغوائك مطروداً من رحمتى .

(١) راجع القصة بتمامها فى تفسير الربع الثانى من سورة البقرة ، والربع الأول من سورة الأعراف .

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(مَوْفُورًا) : كاملا غير منقوص . (اسْتَفْزِزْ) : استحف واحفز وخادع .

(بِصَوْتِكَ) :بدعوتك إلى المعصية . (أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) :صِحْ عليهم صياحا شديداً واستحثهم على الشّر وادفعهم إليه دفعا .

(بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى براكبي خيلك ، وجنودك الماشين على أرجلهم والمراد من يساعدك من أعوانك على اختلاف طاقاتهم وقدراتهم .

(غُرُورًا) : غشًا وخداعًا .

التفسير

٦٣ ـ (قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا) :

لما توعد الشيطان أبناء آدم بالإغراء والإغواء لصرفهم عن عبادة الله سبحانه زجره الله سبحانه بهذه الآية ـ والمعنى : امض أيها الشيطان فى طريق غوايتك وإغوائك ، مطرودا من رحمتى أنت ومن اتبعك من البشر ، فمصيرك وإياهم جهنم تجزون فيها جزاء موفورا تامًّا وبئس المصير .

٦٤ ـ (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ) :وادْفَعْ إلى الشر من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم. (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى وادفعهم دفعا إلى ارتكاب الشر والموبقات مستعينا عليهم بجنودك من شياطين الإنس والجن من فرسان مسرعين ومشاة مبطئين ، أى بمختلف أساليب الإغواء ، وذكر الخيل والراجلين من باب التمثيل .
(وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) : واشترك معهم فى مباشرة كسب الأموال الحرام بالباطل ، واشترك معهم فى دفعهم إلى تنشئة أولادهم على الكفر والعصيان والضلال .

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) :أى واخدعهم بالمواعيد الكاذبة مزيِّنًا لهم الشّر مقبحا لهم الخير ، وألق الشك فى قلوبهم بحقيقة البعث والنشور ، وما ينتظرهم من عذاب أليم ، وما مواعيد الشيطان إلا أباطيل زائفة وأوهام خادعة لأن طبيعته قائمة على التغرير والخداع والنفاق فليفعل ما يشاء ، فليس له على أحد سلطان إلا الغاوين .

٦٥ - (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) :

بينت الآيات السابقة أن الشيطان توعد ذرية آدم بأنه سيحتنكهم ويغويهم إلا قليلا وأن الله هدده وأنذره بالفشل فى وسوسته مهما ضللهم بوعوده الزائفة ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه تعالى يحفظ عباده الصالحين من نزغات الشيطان وينجيهم من إغوائه وأباطيله كما قال سبحانه فيه : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّونَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكون »[1]. وحسبك أيها النبى أنت والمؤمنون الصالحون حسبكُم حماية ربك لك ولهم وكفالته إياكم ، وتخليصكم من مكايد الشيطان وجنوده ، فتوكلوا عليه واعتصموا به - وقيل إن الخطاب فى قوله تعالى : « وكفى بربك وكيلا » - موجه إلى الشيطان ، كما فى الجملة السابقة أى وكفى بربك أيها الشيطان وكيلا للمؤمنين من عباده ، فليعوذوا بى من شرك فإنى أعيذهم منه .

(رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(يزجى) : يبعث ويرسل . (الْفُلْكَ) : السفن . (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ) : انصرف عنكم أو غاب عن نصرتكم ومعونتكم من تعبدون . (كَفُورًا) : جاحدا للنعمة .

---

(١) سورة النحل الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠

التفسير

٦٦ - (رَبُّكُم الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ . .) الآية .

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن فضل الله على عباده المخلصين بإنقاذهم من غواية الشيطان إذا لجأوا إليه واعتصموا به ، واستمسكوا بكتابه ، بعد ذلك تحدثت هذه الآية عن فضل الله على خلقه وموقفهم من هذا الفضل .

والمعنى: إن إلهكم صاحب النعمة الجزيلة عليكم هو الذى هيأ لكم صناعة السفن وتسخيرها فى حملكم من بلد إلى بلد ، وفى نقل حاصلات الشرق إلى الغرب وحاصلات الغرب إلى الشرق ، بأقل نفقة وبأيسر كلفة عبر المحيطات والبحار ، كما يسر لكم بها الانتفاع بخيرات البحار من لؤلؤ ومرجان وأصداف ولحوم وزيوت الأسماك ، كما سخرها ليمكنكم من منافع أخرى تبتغونها من فضله ، مثل استخراج البترول من قاع البحار .

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) : سخر الله لكم سبحانه هذا كله لأنه كان ولا يزال واسع الرحمة بكم ، ييسر لكم سبل الرزق من حيث تحتسبون أولا تحتسبون .

٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) :

وإذا تعرضتم لأخطار البحار ، من نحو زوابع وأعاصير وعواصف وأنواء وأسماك مفترسة متوحشة ، وتطلعتم إلى من يمد يده الرحيمة لإنقاذكم من الهلاك والدمار ، ذهب عن أذهانكم من تدعونه لتفريج كربتكم سوى الله القوى القدير اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه ، فإنكم تدعونه وحده ليكشف الضر عنكم وينجيكم مما أصابكم .

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) : فلما أنقذكم الله بفضله ورحمته ، وأوصلكم إلى الشاطىء سالمين قابلتم نعمته عليكم بالجحود ، وأعرضتم عنه منصرفين إلى آلهتكم . ومن المشاهد أن الإنسان بطبيعته وفطرته يلجأ إلى خالقه فى شدته ، فإذا جاءه الرخاء أعرض عن ربه إلا من عصم الله كما قال سبحانه : « فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ »[1] .

(١) سورة يونس : الآية ١٢

(أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) : يغيبكم فى جوفه وقد ظننتم الأمن فيه .

(حَاصِبًا) : ريحا ترميكم بالحصباء فتهلكوا .

(وكِيلاً) : حافظاً يرعاكم . (قَاصِفًا) : عاصفًا محطما مدمرا .

(تَبِيعًا) : ناصرا ومعينا .

التفسير

٦٨ - (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) :

إذا نجاكم الله من أهوال البحر وعدتم إلى البر قابلتم فضله بالجحود ، فهل أمنتم أن ينا لكم عذابه وأنتم فى البر ، بأن تتعرضوا لزلزال مدمر يقلب بكم الأرض ظهرا لبطن فيدفنكم فيها وأنتم أحياء، كما خسف بقارون وبداره الأرض ، أو أن يرسل عليكم ريحا تحمل الحصباء ، كما فعل بقوم لوط .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً) . ثم لا تجدوا حينئذ من تكلون إليه أمر الدفاع عنكم ، بأن يصرفه عنكم أو يحفظكم من ضرره ، فإنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

٦٩ - (أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ) :

بل أأمنتم أن يعيدكم إلى ركوب البحر مرة ثانية فيرسل عليكم ريحا عاصفا محطما مدمرا يطويكم فى جوف الأمواج فتغرقون بسبب كفركم ، وبالجملة ينبغى أن يعلم كل امرىء أنه فى قبضة إله قوى جبار فعال لما يريد ، فعليه أن يطيعه ويخشاه ، سواءٌ أكان فى بحر أم فى بر ، ولا ينبغى له أن يأمن مكر الله تعالى : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »(١) .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) : ثم لا تجدوا لكم حينئذ نصيرا أو منقذا يتابعكم ليدفع عنكم الأخطار ، أو متابعا لنا مطالبا الثأر لكم منا .

(* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾)

التفسير

٧٠ ـ (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) :

يخبر الله سبحانه بهذه الآية عن تكريمه بنى آدم ، وتفضيله إياهم حيث خلقهم جميعا ، برهم وفاجرهم، على أحسن الصور التى تتمثل فى اعتدال القامة وتناسق الخلق وجماله ونعمة العقل والإدراك ، وفى طعامهم وشرابهم ؛ وكُلُّ شأن من شئون حياتهم يتميزون به عن غيرهم من جميع مخلوقاته، وإتماما لتكريمه سبحانه إياهم وهبهم قدرة تمكنهم

(١) سورة الأعراف : ٩٧ ـ ٩٩ .

من التسلط على ماق الأرض ،من كنوز ومياه ومعادن وبترول ،وغير ذلك مما جعلهم يقيمون الصناعات ، ويستنبتون الزروع ويغرسون الأشجار، ويملكون سبل التقدم والعمران كما مكنهم من الانتفاع بما فى السماء ، من هوائها وسحابها . وسائر كواكبها وأجرامها التى أمدتهم وتمدهم بطاقات كثيرة لا غنى لكائن حيٍّ عنها ، فضلا عن الاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ، وقصارى القول أن الله تعالى سخر كل شىء لتكريم الإنسان. وكان هذا التسخير بقدرته تعالى ، وليس بقدرة البشر .

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :أى أنعمنا عليهم فحملناهم فى البر على الدواب من الإبل والخيل والبغال وعلى غيرها من وسائل الانتقال . كما حملناهم فى البحر على السفن المختلفة الأشكال والأحجام المختلفة الأغراض .

(وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) : التى تجمع فنون المطاعم والمشارب اللذيذة التى منحناهم إياها، مما لايتسنى لهم أن يحصلوا عليها بصنعهم ، وإن صنعوها فبتيسير الله وإقداره ، وإجرائها فى مواد مخلوقة له سبحانه ، أما غيرهم من الحيوانات فأرزاقها مما تعافه أنفسهم .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) : أى أن الله جل شأنه فضلهم تفضيلا عظيما على كثير ممن خلقهم سبحانه بأمور كثيرة ، إذ شرفهم بالعقل الذى هو عمدة التكليف وبه يعرف الله ، وتفهم تعاليمه ، ويحصل بهديه التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وذلك مما يوجب عليهم شكر المنعم المتفضل ، ويتحقق شكره بتوحيده وإخلاص العبادة له سبحانه ، ورفض الشرك الذى لايقبله من له أدنى تمييز. فكيف بمن فضل على ماسوى الملإ الأعلى ، من كل ما يدب على وجه الأرض أو يحلق فى أرجاء السماء ، وكما فضلهم بالعقل فضلهم بأمور خلقية ذاتية ، مثل النطق والصورة الحسنة، والقامة المديدة المعتدلة ، إلى غير ذلك مما امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان .

واعلم أن الرسل من البشر أفضل من الملائكة مطلقا ، ثم الرسل من الملائكة مفضلون على من سواهم من البشر والملائكة . ثم عموم الملائكة على عموم البشر . وهذا رأى الجمهرة من العلماء .

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(نَدْعُو) : ننادى . (بِإِمَامِهِمْ) : بنبيهم أو بكتاب أعمالهم . (فَتِيلاً) : الفتيل هو الخيط الدقيق الممتد فى شق النواة طولا . والمراد به المقدار البالغ الغاية فى القلة من العمل .

(أَعْمَىٰ) : يراد به أعمى البصيرة .

التفسير

٧١ـ (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) :

هذا شروع فى بيان تفاوت أحوال الناس فى الآخرة حسب تفاوت أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا .

والمعنى : اذكر لقومك أيها النبى يوم ننادى كل جماعة من بنى آدم بمن ائتموا به واتبعوه من نبى وكتاب تشريع ، أو كتاب الأعمال التى قدموها ، فيقال لهم يا أتباع محمد أو موسى أو عيسى عليهم السلام ، أو يا أتباع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو يا أصحاب كتاب الخير . أو يا أصحاب كتاب الشر .

والراجح أن يكون المراد هنا بالإمام كتاب الأعمال على ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » أى بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، لقوله تعالى : «وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ »[1] . ويجوز أن

(١) سورة يس : الآية ١٢ .

يكون المراد بإمامهم دينهم الذى دانوا به فى الدنيا صحيحا أو فاسداً، فينادى يا أصحاب دين كذا ليسلّموا كتبهم.

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) : أى فمن أعطى كتاب أعماله من أولئك المدعوين فأخذه بيمينه كان ذلك تبشيرا وتشريفا له .

(فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ) :أىفهولاء المختصون بتلك الكرامة يقرأ كل منهم كتابه ، وحين يسر بقراءته ينادى إخوانه مبتهجا تعالوا فاقرءوا كتابى ، لتروا ما أكرمنى الله به من الثواب العظيم ، كما قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »[1] .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) : أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم المكتوبة فى صحائفهم أى شىء ولو بلغ الغاية فى القلة . فكان قدر فتيل وهو الخيط الرفيع فى شق النواة ويضرب به المثل فى الصغر وفيما لاقدر ولا اعتداد به لدى المخلوقين .

٧٢ - (وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ) الآية .

أى ومن كان فى الحياة الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبيناته ،وعن كل ما أولاه الخالق جل شأنه من نعم ظاهرة وباطنة . فهو فى الآخرة أعمى لا يهتدى إلى ما ينجيه . ولا يجد ما يجديه ، لأن عماه فى الدنيا بإعراضه عن توحيد الله أوجب هذا التخبط فى الآخرة والحرمان فيها .

وعن ابن عباس :ومن كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى ، فهو فى الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل ومن كان فى هذهالدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين كما قال تعالى : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ » .

(وَأَضَلُّ سَبِيلًا) :عما كان عليه فى الدنيا ،حيث استحالت عليه جميع أسباب النجاة لفقده كل طريق يوصل إليها ، إذ لاتوبة فى تلك الدار ولا إمهال . ولا عودة لتدارك ما فات .

---

(١) سورة الحاقة : الآية ١٩ ، ٢٠

وهذا الفريق الذى عميت بصيرته فى الدنيا وكان أعمى فى الآخرة ،هو الفريق الذى أوتى كتابه بشماله ، بدلالة ذكره مقابلا للفريق الذى أوتى كتابه بيمينه ، ولم يذكر بعنوان أوتى كتابه بشماله صريحا كما ذكر الفريق الأول بعنوان إيتاء كتابه بيمينه ، اكتفاء بذكر السبب الموجب لذلك وهو كونه أعمى البصيرة فى الدنيا ، وأعمى وأضل سبيلا فى الآخرة .

(وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(وَإِن كَادُوا) : وإن قاربوا. (لَيَفْتِنُونَكَ) : ليصرفونك . (لِتَفْتَرِىَ) : لتختلق .

(خَلِيلًا) : صفيا وصاحبا من الخُلة ، بضم الخاء وهى الصحبة .

(تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) : تميل إليهم .

التفسير

٧٣ ــ (وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ....) الآية .

قال ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية ؛ إن وفد ثقيف أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ،وحرم وادينا كما حرمت مكة حتى يعرف العرب فضلنا عليهم ، فهمَّ رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعطيهم ذلك فنزلت.وقيل سبب نزولها هو قول أكابر قريش

للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى ، حتى نجلس معك ونسمع منك ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فيما يقولون فعصمه الله وأنزل الآية .

والمعنى : وإنه كاد هؤلاء المشركون بما اقترحوه عليك أن يوقعوك فى الفتنة بأن تستجيب إلى ما طلبوه منك من أمور تقربك منهم .

(لِتَفتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) : أى يأملون بذلك أن تختلق علينا غير الذى أنزلناه إليك ، وأمرناك باتباعه فتخالفه إلى تنفيذ ما اقترحته عليك ثقيف من تحريم واديهم كتحريم مكة أو طلبته قريش من إقصاء الفقراء عنهم ، فكادت نفسك تميل قليلا إلى موافقتهم رجاء إيمانهم رحمة بهم .

(وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) : أى لو استمعت إليهم لقربوك منهم ، صفيا وصاحبا وكنت وليًّا لهم .

٧٤ - (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً) :

أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتنا لك لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا لشدة احتيالهم عليك ، وخداعهم لك ومكرهم بك ، ولكنك أدركتك عنايتنا ، فحالت بينك وبين القرب من أدنى مراتب الركون ، وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم ما هم بإجابتهم مع قوة الداعى إليها ، قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأُمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

٧٥ - (إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) :

أى لو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذابا مضاعفًا فى الدنيا والآخرة ، حيث يكون هذا العذاب ضعف ما يعذب به غيرك فى الدارين إذا فعل مثل هذا الفعل ، لأنه كلما كانت الدرجة أعلى والمنزلة أسمى كانت المؤاخذة على الخطيئة أشد وأقوى .

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) : يمنع عنك العذاب ويحول بينك وبينه إذ لا سلطان فوق سلطاننا حتى تجد فيه ملجأً أو معينًا .

(وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾)

المفـردات :

(وَإِن كَادُوا) : أى وإن قاربوا. (لِيَسْتَفِزُّونَكَ) : ليزعجونك ، يقال استفزنى فلان أزعجنى . (خِلَافَكَ) : بعدك .

التفسير

٧٦ـ (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) :

قال مجاهد وقتادة : نزلت هذه الآيات فى همّ أهل مكة بإخراجه صلى الله عليه وسلم من أم القرى ولو أخرجوه منها لما أمهلوا ولكن الله أمره بالخروج فخرج .

والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعجوك بعداوتهم وشدة إيذائهم. ليخرجوك من الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأْذن الله لك بالهجرة .

(وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا) :

أى ولو حققوا ماهمّوا به ، بإكراهك على الخروج لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا زمنا قليلا يستأْصلون ويهلكون جميعا بعده .

والواقع أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من مكة بإكراه قريش له ، وإن كانوا قد هموا به بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له فى الهجرة ، حفاظا على الدعوة وتمكينا لها من المضى فى طريقها لأداء مهمتها السامية فى جو من الأمن والاستقرار . وليسلم منهم ومن أعقابهم من يشرف بالإسلام ، لذلك لم يقع لهم الاستئصال ، وعن مجاهد قال : أرادت قريش ذلك ولكنها لم تفعل لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم ، فأذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم .

وأسند الإخراج إليهم فى قوله تعالى : « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[1] . وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ » .وفىقول ورقة – ليتنى كنت جذعا إذ يخرجك قومك ، – أسند الإخراج إليهم – لِهَمِّهِمْ به ومزاولة مقدماته باستفزازهم له ولأصحابه .

٧٧– (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا) :

أي سننا سنة فى أمم المرسلين قبلك ، وهى أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وآذته وجعلته يخرج من بين أظهرها ، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلا حتى يَحِيقَ بها الدمار والنكال ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به فى الدنيا . ولهذا قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[2] . وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه لأنها سنت لأجلهم .

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) : أى لا خلف فى وعدها ولاتغيير فى وقتها ونوعها .

(أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾)

(١) سورة محمد الآية ١٣ (٢) سورة الأنفال الآية ٣٣

المفـردات :

(لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) : لميلها عن وسط السماء. يقال « دلكت الشمس »أى مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه غَرْبًا . (غَسَقِ الَّيلِ) :شدة ظلمته، يقال غسق الليل غسقا ويحرك وغسقانا وأغسق اشتدت ظلمته ، ويطلق الغسق على ظلمة أول الليل . (وقُرْءان الْفَجْرِ) :قراءته والمراد بها صلاته . (فَتَهَجَّدْ) : الهجود النوم ، والتهجد التيقظ منه للصلاة .

(نَافِلةً) : زائدة على الفريضة . (مُدْخل صِدْقٍ) : إدخال صدق ، فهو مصدر ميمى من الرباعى، وكذلك (مُخْرج صِدْقٍ) : أى إخراج صدق . (سُلْطَاناً) : حجة لها سلطة على العقل بقوتها .

التفسير

٧٨ـ (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) :

لما ذكر سبحانه فى الآيات السابقة محاولة المشركين صرفه صلى الله عليه وسلم عن الدعوة و إزعاجه بالفتن والأذى ، أتبعها هذه الآيات بأمره فيها بإقامة الصلاة لما فيها من التثبيت والصبر والقوة الروحية على مجابهة فتن المشركين .

والمعنى : أقم الصلاة أيها الرسول وسائر المؤمنين عند ميل الشمس عن وسط السماء إلى أن تشتد ظلمة الليل بعد غروبها ، وهذا الوقت يشتمل على أربع صلوات هى الظهر . والعصر والمغرب والعشاء .

والأمر بإقامتها بين دلوك الشمس وغسق الليل يراد به إقامة كل صلاة منها فى وقتها الذى عين لها بينهما ، ببيان جبريل عليه السلام. كما أن كيفية كل صلاة منها بينها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بتعليم جبريل عليه السلام ، وإنما فرضت فى الأوقات المعينة لها لأن شأن الإنسان فيها أن يكون متيقظاً وقد أفرد الله تعالى صلاة الفجر بأمر خاص تضمنه قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجر » اهتماماً بها لأنها تكون بعد نوم يفصلها عن الصلوات الأربع ، وعبر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنها يطلب فيها تطويل القراءة أكثر من غيرها ، ولهذا تشهدها الملائكة كما سيأتى ،وبذلك تكون الآية الكريمة قد أشارت إلى الصلوات الخمس .

وقيل المراد بالصلاة فى قوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلَاةَ » صلاة المغرب ، ويكون معنى دلوك الشمس غروبها وغسق الليل ظلمته ، باختفاء الشفق فيكون آخر وقت صلاتها أداءً .

(إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار حينما يتعاقبون ، والمراد بهم الكتبة ، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » حديث صحيح ، وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » وقيل تشهده كثرة من المصلين عادة أو من حقه ذلك ، أو تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة ، واليقظة بالنوم وهو أخو الموت ، وإظهار لفظ القرآن فى مقام الإضمار لمزيد الاهتمام به .

٧٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ[1] . . .) الآية .

التهجد التيقظ بعد النوم ، والمقصود بالتهجد هنا الصلاة ليلا بعد النوم ، والضمير فى قوله : « فتهجد به » يعود على القرآن ، أى فتهجد بالقرآن وصل مُتَلَبِّسًا بقراءته بعد الفاتحة ، وذلك بعد قيامك من النوم ليلا ، ويستدل بذلك على تطويل القراءة فى التهجد ويجوز عود الضمير على الليل . والباءُ بمعنى فى . أى : وببعض الليل فتهجد فيه .

(نَافِلَةً لَّكَ) : فريضة زائدة على المفروض على الأُمة . خاصة بك فالخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت فى الابتداء واجبة عليه وعلى الأُمة ثم نسخ الوجوب وصار الأَمر فيها للندب ، فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه ، كان ذلك زيادة له فى الدرجات . أما غيره من الأُمة فتطوعه لجبر نقص ولتدارك خلل يقع فى الفرض أو لتكفير ذنب يلم به أو لزيادة ثواب . قال معناه مجاهد وغيره .

(عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) : أى وببعض الليل فتهجد فيه لتكون على رجاءٍ أن يبلغك ربك إلى كمالك الذى أنت أهل له فى الدار الآخرة . فيقيمك فى مقام محمود عند نفسك وعند الناس أجمعين . وذلك هو مقام الشفاعة العظمى فى فصل

---

(١) الهجود : النوم ، والتهجد إزالة الهجود بالتيقظ من النوم .

القضاء، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس رضى الله عنهما: «مقاماً يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق، تَسْأَل فتعطى، وتشفع فتشفع، ليس أحد إلا تحت لوائك». وقيل المقام المحمود هو إعطاؤه عليه السلام مرتبة من العلم لم تعط لغيره من الخلق أصلا، وعلى الجملة فالمقام المحمود ينتظم كل مقام يتضمن كرامة له صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك التنكيرُ في قوله: «مقاماً» حيث يفيد التعميم والتفخيم.

٨٠ـ (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ)[1]:

لما وعد الله رسوله المقام المحمود، أمره أن يتجه إليه بدعائه لينجزله وعده أى قل منادياً ربك: أدخلنى فيما أمرت به من الطاعات إدخالا مرضياً، وأخرجنى عما نهيت عنه إخراجا نظيفاً من المعاصى، وهيء لى كل أسباب العزم والقوة لجهاد أعداء دينك، حتى أنتصر عليهم بسلطانك وتأييدك، حتى أكون أهلا لما وعدتنى من المقام المحمود، وقيل علّمه جل شأنه أن يدعوه بأن يخرجه من دار المشركين دار الإيذاء والغدر، وأن يُدخله موطناً للطمأنينة والأمن، فدعا ربه كما أمره فأخرجه من مكة وأدخله المدينة، وروى هذا المعنى الترمذى عن ابن عباس قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أُمر بالهجرة فنزلت. وقال الضحاك: هو خروجه من مكة مهاجراً، ودخوله مكة يوم الفتح آمِنًا ـ وتقديم الإدخال فى الآية على الإخراج مع أن إخراجه من مكة أسبق من إدخاله فيها بعد ذلك، لأن إدخاله فيها هو الهدف المقصود، وقيل المعنى: أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمتنى، قاله مجاهد.

(وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا):

أى حجة ثابتة وبرهانا بينا يكون به النصر على من يخالفنى، وكون السلطان مرادًا به ما ذكر، موافق لرأى الشعبى وعكرمة. وذهب الحسن إلى أن المراد به إظهار دينه على الدين كله، بالتسلط على الكافرين بالسيف، وعلى المنافقين بإقامة الحد، وبعصمته من كل أذى يوجه إليه وإلى دين الله، وقد استجاب الله لدعاء رسوله، فأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى الناس وكيدهم، يشير إلى ذلك قوله تعالى: «هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ

(١) مدخل صدق، أى إدخال صدق، ومخرج صدق أى إخراج صدق فهو مصدر ميمى فى كليهما.

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[١]. وقوله : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[٢]. وقد أشعر وصف « سلطانا » بقوله « نصيراً » وهى من صيغ المبالغة - أشعر بأنه صلى الله عليه وسلم يدعو بنصر حاسم .

٨١ - (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) :

أى وقل جاء الحق الذى لامرية فيه ولا قبل لهم برده ،وهو الإسلام المؤيَّد بمعجزة القرآن الكريم ، الداعى إلى الإيمان الصادق والعلم النافع ، وذهب الباطل واضمحل فهلك الكفر والشرك ، وما زينه الشيطان من شرور وآثام .

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) : وعد من الله جل شأنه بنصر الحق على الباطل أى أن الباطل شأنه عند الله أن يكون مضمحلا ولا بقاء له مهما طال به الأمد ، وامتد به الزمن ، وتعدد المستمسكون به ، وفى بيان ذلك يقول سبحانه : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[٣]. ويروى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصبا - فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة فى يده ، وربما قال : بعود ، ويقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ، هذا لفظ رواية الترمذى ، قال القشيرى : فما بقى منها صنم إلا خر لوجهه ، ثم أمر بها فكسرت .

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(خَسَارًا) : الخسار ؛ الهلاك والضلال .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧

(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١٨

التفسير

٨٢ – (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ . .) :

أى شفاء لما فى الصدور من شك ونفاق ، وزيغ وشرك ، وذلك بتخليصها من مرض الجهل ، وداء العناد ، وشهوة الإعراض حتى تستبين الأُمور الدالة على الله تعالى ، فالقرآن فى تقويم النفوس ، وتنقية القلوب كالدواء الشاف للمرضى ، وهو جميعه كذلك . ويرى بعض العلماء أنه يستشفى به من الأمراض الظاهرة ، استنادا إلى حديث صحيح فى ذلك ، قال القرطبى : روى الأئمة واللفظ للدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ثلاثين راكبا ، قال فنزلنا على قوم من العرب ، فسألناهم أن يضيفونا فأبوا – قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ إن الملك يموت . قال : قلت أنا – نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا ، فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، فبعث إلينا بالنُّزُل[1] ، وبعث إلينا بالشاء[2]) إلى آخر الحديث .

(وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) : هو رحمة لهم ، ففيه بواعث الإيمان والحكمة ، والرغبة فى كل فضيلة ومكرمة ، فَتعمهم بالعمل به الرحمة التى تشمل تفريج الكروب . وتكفير الذنوب ومضاعفة الأُجور .

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) : أى ضلالا وهلاكا لتكذيبهم المتتابع ، وكفرهم المتكرر بكل آية يوحى بها ، وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، باعتبار كونه سببها حيث تمادوا فى كفرهم به وتكذيبهم له كلما أُنزل ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة فصلت : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »[3] .

---

(١) النزل : بوزن القفل ؛ الطعام الذى يهيأ للضيف الذى ينزل بك .

(٢) الشاء : هى الغنم التى جعلوها لهم عطاء وأجرا على رقيا الملك الملدوغ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٤ .

(وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾)

المفردات :

نأى الشيء بعد ، ونأيته ونأيت عنه: بعدت .

(وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ) :تكبر وتباعد. (يَـُٔوسًا) :شديد اليأس. (عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ) :على طريقته ومذهبه.

التفسير

٨٣ـ (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِ) :

يخبر الله بهذه الآية عن نقص الإنسان من حيث طبيعته فى حالتى الرخاء والشدة ، فإذا أنعم عليه بمال وصحة ،وفتح ونصر ، ونال كل مآربه أو بعضها ، أعرض عن طاعة خالقه ، وبعد عن عبادته ، وإذا مسه شر ، أو نزلت به كارثة ، بالغ فى اليأس من رحمة الله ـ وتمادى فى الجزع ، فالآية نزلت تذكر منهجاً عاماً سلكه جنس الإنسان عند ممارسته لشئون الحياة ، وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة .

والمعنى : وإذا أنعم الله على الإنسان بالصحة وبسط له كل أسباب النعمة والقوة لم يذكر فضل الله عليه كأنه مستغن عنه ، وبدل أن يقوم بشكره ، ويذل لسلطانه ، تكبر وتباعد ، وطوى عن الطاعة عنقه وأعطاها عرض وجهه وبعد بجانبه وولاها ظهره ، وتلك الآية تبرز مبالغته فى الإعراض والبعد عن ربه غروراً واستكباراً ، مصورة بصورة الأمور المحسوسة تقبيحاله وتقريعاً على ما اقترف من إثم عظيم .

(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا) : أى إذا نزل به شر من مرض أو فقر أو كارثة من الكوارث التى تلم به ، كان شديد اليأس والقنوط من فرج الله الذى وعده عباده المؤمنين ، وذلك لأنه لم يقبل عليه فى الرخاء ، حتى يرجوه فى الشدة ، ولو أنه صبر لظفر ، فقد جاء فى حديث ابن عباس : « وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وأن مع العسر يسراً » .

٨٤ـ (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) :

تهديد للمشركين ووعيد لهم ، وطمأنة للمؤمنين وحفز لهم ، أى أن كل واحد منكم سواءٌ أكان مؤمنا أم كافرا ، مقبلا أم معرضاً ، راجياً أم قانطا. يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التى ألفها فى الهدى والضلال . وسيُجْزَى كلٌّ عمله لا تخفى منه خافية .

(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) : أى فربكم الذى خلقكم أعلم بمن هو أبين منهاجا ، وأرشد طريقاً وهو المؤمن المهتدى فيثيبه ويجزل عطاءه ، كما هو أعلم بمن يمشى مكبًّا على وجهه شديد العناد فى سلوكه ، فلا يمنحه توفيقه ، ولا يزيده إلا خساراً ونكالاً .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(الرُّوح) : يطلق على ما به حياة الأنفس يُذَكَّر ويؤنَّث ، ويطلق أيضا على القرآن وعلى الوحى وجبريل ، كما يطلق على غير ذلك ، وسيأتى بيان المراد منه فى الآية .

(مِنْ أَمْرِ رَبِّى) : من شأنه الذى اختَصَّ به سبحانه وتعالى .

التفسير

٨٥ـ (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) :

نزلت هذه الآية الكريمة حينما سألت قريش الرسول عن الروح بإيعاز من اليهود فقد أخرج أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فنزلت. وقيل بعثت النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت ، فليس بنبى ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى . فجاءوا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القصَّتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، لأنه مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع

عليه ملكاً ولا نبيًّا مرسلا فكان ذلك سبباً لنزولها ، وكان السؤال عن حقيقة الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وامتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شىءٌ لايعلمه إلا الله ، وذلك ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن فهم حقيقة نفسه ومصدر حياته مع علمه بوجودها . وفى هذا دلالة ناطقة على أنه وقد عجز عن إدراك حقيقة نفسه فهو عن إدراك كنه خالقه أعجز ، لأنه اللطيف الذى لايعلم ذاته سواه .

وقيل فى معنى الروح أقوال منها : أنها صورة كالبدن تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ،وقيل غير ذلك ،والصحيح أنها شىءٌ لايعلمه إلا الله لقوله تعالى آمرا نبيه بإجابتهم : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) :

وكان المقام للإضمار فيقال قل هو من أمر ربى ،ولكن الإظهار لكمال العناية بالمسئول عنه . أى قل إن الروح من الأسرار الخفية التى تعجز عن إدراكها عقول البشر وتكل عن معرفتها أفهامهم ،فهى من الأمور التى استأثر الله بعلمها ،والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى (ربى) للتشريف والتعظيم .

(وَمَآ أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) : اختلف فيمن خوطب بهذا ، فقيل :السائلون فقط ، وقيل :اليهود بجملتهم ،وقيل :العالم كله وهو الصحيح. فقد أخرج ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا يامحمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » أفعنيتنا أم قومك ؟ قال كُلاًّ عَنَيْتُ ــ قالوا فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها بيان كل شىء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم ، وأنزل الله :« وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

ولاشك أن القلة والكثرة من الأمور الإضافية ، فالشىءُ يكون قليلا بالنسبة إلى مافوقه وكثيرا بالنسبة إلى ماتحته ، فما فى التوراة قليل بالنسبة إلى مافى علم الله حيث إن علمه

(١) سورة لقمان : الآية ٢٧ .

سبحانه يتعلق بكل شىء فى ملكوته من الخلق والتكوين والحياة والموت والسموات والأرض ، والثواب والعقاب .

(وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) : أى لَنُزِيلنَّه ، يقال ذهب به أزاله كأذهبه .

التفسير

٨٦ - (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) :

أى ولو أردنا أن نذهب بالقرآن الذى أوحيناه إليك وثبتناك عليه حينما حاولوا فتنتك لو أردنا ذلك لذهبنا ، ثم لا تجدلك بالقرآن وكيلا يلتزم باسترداده منا ، كما يلزم الوكيل باسترداد ما ذهب منه ووُكِّل فيه ، ولكن الله تفضل بإبقائه فى صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ، وفى ذلك يقول الله :

٨٧ - (إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) :

أى ولكن رحمة من ربك تركه غير مذهوب به ، فيكون ذلك امتنانًا بإبقائه بعد الامتنان بإنزاله ، وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه ، لأنه أجل النعم وأعظمها (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) : إذ اصطفاك على سائر الخلق واختصك بالمقام المحمود . وجعلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليك كتابًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتكفل ببقائه وحفظه ، وينصرك على أعدائك بما أمدك به من رعاية وتوفيق .

(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(ظَهِيرًا) :معينا ونصيرا . (صَرَّفْنَا) :رددنا وكررنا .

(فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى ما قبل أكثرهم إلا الجحود والإعراض .

التفسير

٨٨ - (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

نزلت هذه الآية حين قال الكفار :ولو شئنا لقلنا مثل هذا. أى قل للذين لا يعرفون قدر القرآن العظيم . وشأنه الجليل فزعموا أنه من كلام البشر وأن فى مقدورهم الإتيان بكلام مماثل له ،قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ،وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم فى الإتيان بمثله فى سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله ، لا بِعِيٍّ فيهم فهم أهل لسن وبلاغة ،وإنما الإعجاز فيه فى لفظه ومعناه وتشريعه وتأثيره النفسى جعله فوق مستوى الجن والإنس .

(وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

أى لا يأتون بمثله على أى حال مفروضة ، بمعنى أنهم سيبوءون بالإخفاق على الانفراد ، أو على الاجتماع متعاونين ، وفى ذلك حسم وقطع لأطماعهم الضالة التى أملت عليهم ، وزينت لهم الإتيان بمثله ، وتأكيد لعجزهم عنه على أى حال من الأحوال .

٨٩ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) :

أى كررنا ورددنا للناس فى هذا التنزيل من كل معنى بديع غاية الحسن يستجلب النفوس ويستميلها كما تستميلها الأمثال السائرة ، أو ذكرنا فى القرآن طرقا متنوعة توجب زيادة وضوح فى البيان ندعمها بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة التى تبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان ، أو وجهنا للناس القول فيه من كل مَثَلٍ رائع فى الحكمة الإلهية والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وقصص الأولين والجنة والنار وشئون القيامة وغير ذلك من العبر .

(فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : والمراد بأكثر الناس من كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب . واستظهر فى البحر أنهم أهل مكة بدليل أن الضمائر الآتية لهم ، أى ما رضى أكثرهم إلا الكفر والجحود للحق ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء .

وأوثر إظهار لفظ الناس مع أن المقام للإضمار لزيادة التأكيد والتوضيح .

(وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَفْجُرَ) : تشق وتفتح . (يَنْبُوعاً) : الينبوع العين الكثيرة الماء . (فَتُفَجِّرَ) : بالتشديد للتكثير . (كِسَفًا) : أى قطعا جمع كسفة كقطعة . (قَبِيلًا) :مقابلة ومعاينة ، أو كفيلا بما تدعيه شاهدا بصحته . (منْ زُخْرُفٍ) : الزخرف الذهب والزينة .

(تَرْقَى فى السَّمَآءِ) : تصعد فى معارجها .

التفسير

٩٠ - (وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) :

بعد أن تبينت حجج القرآن لقريش وظهر عجزهم عن محاكاته ، وهم أهل اللغة والفصاحة ، اجتمع رؤساؤهم وذوو الشرف فيهم ، ودعوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الاجتماع بهم . فقالوا له : إن كنت تريد مالا جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان الذى يأتيك رَئِيًّا (أى تابعا من الجن) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعْذَر فيك ، فلم يجبهم إلى ما طلبوه ،وانصرف إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم ، ولما رأى من مباعدتهم إياه ، وكان ذلك سببا فى نزول الآيات التى تحكى تعنتهم بما اقترحوه من الأمور الستة التى طلبوها منه ، متعللين بما لا يمكن وقوعه عادة وما يستبعد عقلا .

وما قصدوا بما اقترحوا إلا العناد واللجاج ،وإلا فقد كانت تكفيهم معجزة القرآن التى تخر لها صُمّ الجبال .

والمعنى : أنهم قالوا لن نصدق بما جئت به حتى تشق لك بأرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها الكثير عن الجريان والاندفاع .

٩١ - (أَو تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ) :

أى بستان تستُرُ أشجارُه العالية وأغصانه المتشابكة ما تحتها من فضاء ، وإنما خصوا النخيل والعنب لأنهما النوعان المعروفان بأرض مكة .

(فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً) : فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانا قويًّا دائما للانتفاع بها فى رى تلك الجنة وغيرها .

٩٢ ـ (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) .

أو تسقط السماء علينا قطعا متناثرة كما أوعدتنا فى قولك « إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّماء »(١) فعجّل لنا ذلك وأسقطها .

(أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ والْمَلَآئِكَةِ قَبِيلا) :أو أن تأتى بالله مقابلا وبالملائكة كذلك بحيث نعاينهم ونراهم ، وعلى أن القبيل بمعنى الكفيل يكون المعنى :أو تأتى بالله كفيلا وبالملائكة كفلاء بما تدعيه ، يشهدون بصحة ما قلته ويضمنونك فيما يترتب عليه .

٩٣ ـ (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ) :

من ذهب لأننا لاننقاد لك ولا نؤمن بك مع فقرك الذى نراه .

(أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَآءِ) :أى تصعد فى معارجها . (وَلَن نُّؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُه) :أى لن يقع إيمان منا بك من أجل رقيك فى السماء فحسب ، أو لن نصدق أنك رقيتها حتى تصحب معك كتابا منزلا من الله بلغتنا وفيه تصديقك منه سبحانه ،ويكون موجها إلى كل رجل منا ،كما حكاه الله بقوله :« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً »(٢) .

وبلغ من عنادهم الحاقد وتعنتهم البالغ أن طلبوا منه شهوداً من الملائكة على صحة ما ينزل عليهم من السماء ،فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة ملائكة يشهدون أنك كما تقول .

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولًا) :أى قل لهم يامحمد متعجبا من فرط حماقتهم ، وتنزيها لله عز وجل ، سبحان ربى أن يتقدم أحد بين يدى جلاله فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بما لا يليق من مثل هذه الاقتراحات التى تضمنت أعظم الجرأة على الله رب

---

(١) سورة سبأ : الآية ٩

(٢) سورة المدثر : الآية ٥٢

العالمين ،فلا يحق لأحد أن يطلبها لأنه الفعال لما يشاء ، فإن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم إليه ، أو قل لهم : تنزيها لله ربى أن أطلب منه تحقيق ماطلبتموه فما أنا أيها القوم إلا رسول أتبع ما يوحى إلى ، وأبلغكم رسالات ربى ، ولم تكن الرسل من قبلى يأتون أممهم بما يريدونه من الآيات ، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم ، فسبيلى سبيلهم .

(وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(النَّاس) : أى الذين حكيت أباطيلهم . (مُطْمَئِنِّينَ) : مقيمين فيها كالبشر .

(خبِيراً) : يقال خبرت الشيء أخبره من باب نصر ، خُبراً بضم الخاء وسكون الباء . علمته فأنابه خبير ، والمراد منه وصفه تعالى بأنه محيط ببواطن الأمور ودقائقها .

(بصيرًا) : أى عليما : يقال بصُرت بالشيء بضم الصاد والكسر لغة بصراً بفتحتين علمت ، فأنا بصير به ، والمراد به أنه تعالى عليم بالأمور علم إحاطة وشمول .

التفسير

٩٤ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولًا) :

أى مامنع أكثر الناس الذين حكيت أباطيلهم فى الآيات السابقة ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك وقت مجيء الوحى إلا قولهم على سبيل الإنكار : أيحق أن يكون رسول الله من جنس البشر ؟ وقصدهم نفى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، والرسالة فى اعتقادهم إنما تكون للملَك لا للبشر ، وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله :

٩٥ ـ (قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا) :

أى قل لهم أيها النبى منبها إلى رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم : لو وجد فى الأرض ملائكة يسكنونها ويمشون فيها كما تمشى البشر ولا يعرجون فى السماء ليعلموا ما يجب عليهم علمه ، لبعث إليهم ملكا منهم وعلى شاكلتهم ، ليتفقهوا عنه ويعلموا منه مالا تستقل قدرتهم بعلمه ، حيث يتسنى لهم مخاطبته ومكالمته ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس ، أما سكان الأرض من البشر ، فهم بمعزل عن إمكان التلقى من الملائكة ، فبعْث الملَك إليهم مناف للحكمة المقتضية لوجوب التجانس بين الرسول ومن يرسل إليهم ، أما إرسال الملَك بوحى إلى الرسل من البشر كمحمد وعيسى وموسى عليهم السلام . فلأن الله أعطاهم من القوى الروحية العليا ما يجعلهم أهلا لتلقى الوحى عن الملك حيث جعل لهم جهتين ؛ جهة ملكية بها من الملك يستفيضون ، وجهة بشرية : بها على البشر يفيضون ، وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة .

وكان الملَك يظهر للرسول على وجه يسهل معه التلقى عنه ، كما ظهر جبريل عليه السلام للرسول فى صورة دحية الكلبى ، وقد صح أن أعرابيا جاء وعليه أثر السفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وغيرهما ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه به ثم انصرف ولم يعرفه أحد من الصحابة رضى الله

عنهم . فقال صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم ، والحديث فى البخارى والنسائى وغيرهما .

٩٦ – (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) :

يروى أن كفار قريش حين سمعوا قوله سبحانه : « هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا » قالوا : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . . .) الآية .

والمعنى قل كفى بالله شهيدا على أنى رسول أديت واجب الرسالة إليكم على أكمل وجه ، وعلى أنكم بالغتم فى التكذيب والعناد، فهو شاهد لى وعليكم ، عالم بما كان منى ومنكم .

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) : هذا تعليل لكفاية شهادة الله مع الإيذان بطمأنة الرسول ، وتهديد الكفار ، أى أنه سبحانه محيط بأحوال وأعمال عباده جميعا : الرسل والمرسل إليهم ، عليم بظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عليه منهم خافية ، يهدى من أقبل عليه ، ويتخلى عمن تولى عنه ، ولهذا قال سبحانه :

(وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(عُمْياً) : جمع أعمى وهو الذى لا يبصر.

(بُكْماً) : جمع أبكم وهو الذى لا ينطق.

(وَصُمًّا) : جمع أصم وهو الذى لا يسمع.

(كُلَّمَا خَبَتْ) : كلما سكن لهيبها وصار عليها غشاءٌ وطبقة من رماد .

(وَرُفَاتاً) : هو فى الأصل كما قال الراغب ما تفرق من التبن ويطلق على الحطام ، والمراد هنا بَالِينَ متناثرين .

التفسير

٩٧ ـ (ومَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ومن يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ) :

هذا كلام مبتدأ يفصل به سبحانه ما أشار إليه قوله « إِنَّهُ كَانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا » أى ومن يوفقه الله للهداية بحسن استعداده وقبوله للحق ، فهو المهتدى إلى الحق ، وإلى كل ما يؤدى إلى الثواب وحسن الجزاء ، أو المهتدى إلى كل مطلوب يستقيم به دينه ، ويتحقق به هداه، ومن يضلِلْه : أى يتخلى عنه فلا يوفقه للهداية لسوء اختياره ، وقبيح استعداده ، وفساد طبعه ، كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا من دون الله يهدونهم إلى طريق النجاة من عذاب استحقوه بإمعانهم فى الضلال والعناد ، أو يهدونهم إلى الحق والسعادة فى الدارين . وأوثر لفظ الإفراد فى قوله (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) ولفظ الجمع فى قوله (فَلَن تَجِدَلَهُمْ) رعاية للفظ (مَنْ) فى الأول ولمعناها فى الثانى . تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة أتباعه، وتعدد سبل الضلال ، وكثرة الضالين .

(ونَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا) : أى أنهم بعد الحساب يوم الحشر يساقون إلى جهنم على وجوههم ، مدفوعين إليها دفعا سريعا لايلوون على شىء أخذا من قول العرب ، قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا أو أنهم يسحبون إليها على وجوههم كما يفعل فى الدنيا مع من يبالغ فى امتهانه وتعذيبه أو أنهم يمشون على وجوههم ليدخلوها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال : « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » وحين يحشرون يكونون عميا لا يبصرون شيئا تقربه أعينهم ، وبكمًا لا ينطقون

ما يقبل منهم، وصُمًّا لا يسمعون ما تطمئن به أسماعهم. قال ابن عباس والحسن: عُمْيٌ عما يسرهم بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا فحواسهم باقية على ما هى عليه ويكون ذلك على المجاز، وقيل إنهم يحشرون عميا بكما صما على سبيل الحقيقة تحقيرا لهم وامتهانا، ثم تعاد إليهم تلك الحواس عندما يحشرون إلى النار ليبصروا لظاها ولهيبها القوى وأهوالها البالغة. كما قال تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً»[1]. وليتكلموا بما يزيدهم ألما وحسرة قال تعالى: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً»[2]. وليسمعوا ما يذيب نفوسهم فزعا وهلعا وقلوبهم خوفا ورهبة قال تعالى: «إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً»[3]. وقيل يحصل لهم العمى والبكم والصمم بعد دخول النار لشدة سوادها، وقسوة أهوالها.

(مأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا): أى أن جهنم مستقرهم ومقامهم، يصلون العذاب فيها الدائم، وحتى يبقى شديدا أليما فإنه كلما خبت زادها الله سعيراً وناراً تلظّى.

٩٨ - (ذَلِكَ جزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوآ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً):

أى ذلك العذاب الشديد جزاءُ كفرهم فى الدنيا بآياتنا القرآنية والكونية الدالة على البعث، دلالة بيِّنة لا لبس فيها ولا إبهام، أو الدالة على صحة ما أرسلناك به مطلقا، فيشمل ما ذكر من الدلالة على البعث الذى أنكروه أشد الإنكار، واستبعدوا وقوعه حيث قالوا: أبعد أن أصبحنا ترابا أو أجزاءً متفتتة تفرقت وتناثرت، أبعد ذلك نبعث خلقا جديدا أى بعثا جديداً، تتلاقى فيه منا الأجزاءُ وتستقيم القامات. أو المعنى أنبعث مخلوقين على سبيل الإيجاد والتكوين مرة أخرى؟ وقد رد الله على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بما يأتى من الآيات، فقال تعالى:

(١) سورة الكهف الآية ٥٣.
(٢) سورة الفرقان الآية ٥٣.
(٣) سورة الفرقان. الآية ١٢.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محاسب / صالح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨١

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٢١٧٣-١٩٨٠-٤٠٠٠ و ٢٥



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣م

(* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) : الرؤية هنا علمية ، والهمزة لنفى عدم علمهم وتحقيق أنهم يعلمون ، والواو عاطفة على فعل مقدر ، والتقدير : أغفلوا ولم يعلموا ؟ وحاصل معنى الجملة أنهم قد علموا . . .

(خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى) : المراد ، خزائن رزق ربى ونعمه التى يفيضها على الموجودات كافَّة .

(قَتُورًا) : أى مُبالغًا فى التقتير والبخل ، يقال : قتر يقْتِرُ وأقتر وقتَّر : إذا ضيّق النفقة وقللها .

التفسير

٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...) الآية .

دأب المشركون على إنكار البعث مع وضوح أدلته التى لايُمارِى فيها إلا عنيد مكابر ، ينكر الشمس وهى ساطعة ، فنبههم الله تبارك وتعالى فى هذه الآية ، على قدرته العظيمة التى غفلوا عنها ولم يتفكروا فى آثارها !

والمعنى ؛ قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض من عدم ، وعلى غير مثال سبق فهو قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم ، كما بدأهم أول مرة ، بل الإعادة أهون عليه كما قال جل وعلا : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحكِيمُ »[1] .

(وَجَعَلَ لَهُم أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيه) :

أى وجعل سبحانه لبعثهم وإعادتهم ، ميقاتًا محدودًا عنده لايعلمه إلا هو ، وهو ميقات محتَّم مَجيئُه ، لاينبغى لأَحد الشكُّ فيه ، فضلا عن إنكاره ، وهو يوم القيامة ، لكن المشركين الذين ظلموا أنفسهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وجحدوا قدرته وحكمته — لكن هؤُلاءِ المشركين الظالمين ، أصروا على إنكار البعث مع قيام الحجة عليهم ، جحودًا وعنادًا ، كما قال سبحانه :

(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) :

أى : فلم يرض هؤُلاءِ الكفرة الظالمون ، إلا مُضيًّا فى كفرهم وجحودهم ، بعد أن دمغتهم الحجة فأزهقت باطلهم .

ولما بينت هذه الآية أن المشركين أفرطوا فى العناد والكفر ، جاءت الآية التى تليها ، لتبين أن هؤُلاءِ المشركين ، أفرطوا فى الشح والبخل كذلك ، فقال عز من قائل :

١٠٠ — (قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ..)الآية .

أى قل يامحمد لهؤُلاءِ المشركين : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن رزق الله لأمسكتم عن الإنفاقِ منها ولَبَخِلْتُمْ بها فلم تُعطوا أَحدًا شيئًا مخافة نفادها ، مع أنها لا تنفَد ولاتفرغ أبدًا ؛ ولكن الإمساك والبخل مركوزان فى طباع الإنسان إلا من وفقه الله وعصمه ؛ قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلَّا الْمُصَلِّينَ »[2] .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٢) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ — ٢٢

ولما كان البخل والشح فى طبيعة الإنسان وجِبِلَّتِهِ ، قال سبحانه :

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) : أى شديد البخل والحرص .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التى لاتحدّ ولا تنفَد ، وانفرد بملكها دون مزاحم له — لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) : أى أدلةً واضحات ، والمراد بها : المعجزات التسع الآتية .

(مَسْحُورًا) : أى مختل العقل من أثر ما سُحِرْتَ .

(بَصَآئِر) : جمع بصيرة ، وهى الحجة التى تُبَصِّر بالحق وتهدى إليه .

(مَثْبُورًا) : مُهْلَكًا ، من ثَبَر الله الكافر إذا أهلكه ؛ أو مصروفًا عن الخير ، مطبوعًا على الشر ؛ من قولهم : ماثَبَرَكَ عن هذا ؟ أى ماصرفك عنه ومنعك ؟ .

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) : أى فأراد أن يزعجهم ليخرجهم من الأرض .

(لَفِيفًا) : أى جميعا . وأصل اللفيف: الجماعة من قبائل شتَّى .

التفسير

١٠١ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...) الآية .

لما حكى الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ما حكى ، من تعنت المشركين وعنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم – سلَّاه سبحانه فى هذه الآية وما بعدها ، بما جرى لكليمه موسى عليه السلام مع فرعون ، وما صنع سبحانه بفرعون وقومه .

والمعنى : ولقد أيَّدْنَا موسى بتسع آيات من المعجزات الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوته وصدقه فيما أخبر به عن ربه ، أرسلناه بهذه الآيات التسع إلى فرعون وقومه وهى – فى أرجح الأقوال وأولاها بالقبول – :

(١) عصاه التى كان يلقيها فإذا هى حَيَّةٌ تسعى .

(٢) ويده التى يدخلها فى جيبه ، ليخرجها بيضاء من غير سوء . والجَيْبُ : هو الفتحة التى فى أعلى الثوب ، تحت الذقن .

(٣) والسنون ، والمراد بها : سنوات القحط والجدب ، بسبب انقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل ، يقال مسَّتْهُمْ سَنَةٌ ، وأَسْنَتُوا : إذا قحطوا وأجدبوا .

(٤) ونقص الثمرات ، بسبب كثرة العاهات والآفات .

(٥) والطوفان ، بسبب المطر الغزير الذى غشَّى منازلهم ومزارعهم .

(٦) والجراد الذى قضى على الزروع والثمار .

(٧) والقُمَّل ، وهو نوع من القُرادِ ، كان يخالط طعامهم وملابسهم وأجسامهم وقيل هو القمل المعروف .

(٨) والضفادع التى ملأت بيوتهم وطعامهم .

(٩) والدم الذى حل محل الماء ؛ أو هو الرُّعاف الذى أصابهم .

وقد تقدمت هذه الآيات كلها فى سورة الأعراف مفصلة [١] فارجع إلى تفسيرها هناك .

قال الحافظ ابن كثير وغيره من أئمة التفسير : هذه الآيات التسع هى المرادة هُنَا ، وهى التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا كما قال تعالى : « فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [٢] .

وهى غير الآيات التى أرسل بها – عليه السلام – إلى بنى إسرائيل ؛ من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ؛ إلى غير ذلك مما أرسل به بعد مفارقتهم بلاد مصر ، مما لم يشاهده فرعون وقومه .

والخطاب فى قوله تعالى : (فَاسْأَلْ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ) : لمن يريد أن يتحقق من صدق ما جاء به القرآن عن الآيات التى أيد الله بها موسى حين أرسله إلى فرعون وقومه ، أى فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم بها ، فهم يعرفون مطابقتها لما جاء عنها فى القرآن فإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

وقيل فى معنى الآية : سلهم يامحمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، سؤال تقرير ليعرف اليهود صحةَ ما يقوله محمد اهـ . والظاهر الأول .

ويجوز أن يكون خطابًا لموسى عليه السلام على تقدير القول ، أى : آتينا موسى هذه الآيات التسع فقلنا له : اسأل بنى إسرآئيل ، أى اطلبهم ياموسى من فرعون ، كقوله : « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ » [٣] .

وهناك أوجه أخرى ذكرها الآلوسى فى تفسيره . ثم هنا كلام مطوىّ يشعر السياق به ، ويدل المقام عليه . أى فذهب موسى إلى فرعون وبلغه رسالة ربه ، مؤيدا بالمعجزات الدالة على صدقه .

---

(١) فى الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣

(٢) سورة النمل ، الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ) : فى سخرية وكبرياء (إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) : أى سُحِرْت فاختل عقلك ، ولذا اختل كلامك وادعيت ما ادعيت ، وهذا كقوله : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون »[1] .

وقيل : (مَسْحُورًا) هنا معناه : ساحرًا .. ويؤيده قوله : « إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ »[2] .

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنْزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ..) الآية .

هذا رد كليم الله على عدوّه وعدوّ الله ، بعد أن بلغ الجهد هو وأخوه فى دعوته ، واستنفدوا كل قول ليِّن فى سبيل تذكيره ، خوفًا من أن يفرط عليهم أو يطغى ، وصبرا عليهما السلام صبر أُولى العزم من الرسل ، فلم يزدد عدوّ الله إلا جحودًا وعنادًا ، مع أن هذه المعجزات لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض ، رب موسى وهارون .

هنالك قال موسى عليه السلام لفرعون - وقد يئس من إيمانه : لقد علمت يا فرعون أن هذه المعجزات من عند الله تعالى ، أوجدها حججا ساطعةً على صدق فيما دعوتك إليه من الإيمان بمالك الملك ربى وربك . . .

(وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) : المراد من الظن هنا العلم ، وقد عبر به موسى عنه تلطفًا مع فرعون ، أى وإنى لأعلم أنك يا فرعون هالك ، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك .

وقرىء : (لَقَدْ عَلِمْتُ) بضم التاء . . فعلى هذه القراءة يكون موسى قد ردّ بها عن نفسه دعوى أنه ساحرٌ أو مسحورٌ كما زعم فرعون عدو الله ، أى قال موسى لفرعون لقد علمت أنا حَقَّ العلم أن الذى أنزل هذه الآيات هو خالق السموات والأرض ومدبرهما ، وأننى لست بساحر ولا مسحور كما زعمت ، : وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآيات التسع : الأصول العامة التى أنزلها الله فى الكتب الإلٰهية للعقائد والشرائع السماوية كلها ، وجعلها مشتركة بين

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٧

(٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥

جميع الرسالات والنبوات ، وإليها يشير قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَام » . ويؤيد هذا مارواه جمهرة من أئمة الحديث ، عن صفوان بن عسّال رضي الله عنه أن يهوديَّيْن قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . فقال عليه الصلاة والسلام : لا تشركوا بالله شيئًا ؛ ولا تزنوا ؛ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ؛ ولاتسرقوا ؛ ولا تسحروا ؛ ولا تأكلوا الربا ؛ ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ليقتله ؛ ولا تقذفوا محصنة ؛ ولا تَفِرُّوا من الزحف — وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا في السبت — فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبي ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبي ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود[1] .

١٠٣ — (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا) :

أي استبد بعدو الله مكرُه ، فأراد أن يزعج موسى وقومه ليخرجهم من أرض مصر التي هم بها ؛ أو من الأرض جميعًا ؛ ليستأصلهم فلا يُبقى منهم أحدًا ؛ فعكسنا عليه مكره ، فأغرقناه ومن معه ، فلم نبق منهم أحدًا . ونجيناه ببدنه ليكون لمن خلفه آية[2] . وبهذا أخرجناه من أرضه أفظع إخراج « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[3] .

١٠٤ — (وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ . . .) الآية .

وقلنا من بعد إغراق فرعون — على لسان موسى — لبني إسرائيل ، الذين أراد فرعون استفزازهم — قلنا لهم : اسكنوا الأرض التي أراد فرعون أن يخرجكم منها .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) : فإذا جاء وعد الدار الآخرة بعد قيام الساعة :

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) :

جئنا بكم أنتم وهم مختلطين ؛ لنحكم بينكم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

---

(١) انظر تفسير : الطبرى ، والقرطبي ، والآلوسي .

(٢) اقتباس من الآية : ٩٢ من سورة يونس .

(٣) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

قال الحافظ ابن كثير : وفي هذا بشارة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا »[1] . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوةً - على أشهر القولين ؛ وقهر أهلها ثم أطلقهم حلمًا وكرما ؛ كما أورث الله القوم الذين كانوا يُستضعفون من بنى إسرائيل فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ »[2] .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ۩ ﴾

المفردات :

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ) : الحق ؛ الأمر الثابت الذى لا يتبدل ولا يزول ، ضد الباطل .

(فَرَقْنَاهُ) : أنزلناه مفرّقا منجما ، أو أنزلناه مبينا موضحا .

(عَلَىٰ مُكْثٍ) : أى على تُؤَدة وتأنٍّ . (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) : يقعون على أذقانهم .

(إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) : أى إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لا محالة .

---

(١) سورة الاسراء ، من الآية ٧٦

(٢) سورة الشعراء ، والآية : ٥٩

التفسير

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . . .) الآية .

قال الآلوسى : هذا عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » . وهكذا العرب ، تأخذ فى شىء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر . . ثم تعود إلى ما ذكرته أولًا ، والحديث شجون .

والمعنى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن المجيد من اللوح المحفوظ ؛ وبالحق نزل على عبدنا ورسولنا محمد ؛ فهو مؤيد بالحق محفوظ بحفظنا له وحراستنا إياه ، حال إنزاله على رسولنا محمد ، وما بعدها إلى أن تقوم الساعة ، لاتعتريه زيادة عليه ولا نقص منه ؛ وصدق منزله إذ يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون »[1] . ويقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[2] .

وقيل : المراد بالحق ؛ الحكمة الإلٰهية المقتضية لإنزاله ونزوله . والمعنيان متلازمان . وأيًّا كان المعنى المراد ، فلا ريب أن هذا الكتاب الحكيم مشتمل على دلائل التوحيد ، وصفات الجلال والإكرام ؛ وعلى تعظيم الملائكة ، وإقرار النبوات ، وإثبات المعاد ؛ وعلى أصول الإسلام والشرائع الثابتة التى لا تتبدل ولا تُنسخ بحال من الأحوال ، ولا فى زمن من الأزمان .

فلهذا استحق أن يصفه البارى سبحانه ، بأنه أنزله بالحق محروسًا بعنايته حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ »[3] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ — (٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٢

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١

ولما بين سبحانه حال القرآن الكريم فى إنزاله ونزوله ، بيّن حال من أُنْزِلَ القرآن عليه فقال مخاطبًا إياه صلى الله عليه وسلم :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) :

أى : وما أرسلناك – يا محمد – إلى الناس كافة إلا مبشِّرًا للمطيعين منهم بالثواب ، ومنذرًا للعاصين منهم بالعقاب ، فما عليك إلا البلاغ بالتبشير والإنذار ، وليس عليك إكراه أحد منهم فى الدين ، فقد تبين الرشد من الغىّ .

١٠٦ – (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . . .) الآية .

أى وأنزلنا عليك – يا محمد – قرآنًا عظيمًا أوحيناه إليك وأيدناك به – أنزلناه منجمًا مفرقًا ، على حسب الأحداث والمناسبات ؛ لتبلِّغه الناسَ على تؤدة وتأنٍّ ، ليكون أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وأبين لوجوه الإعجاز به ؛ فى هدايته وبشارته ونذارته ، ولذا أكد هذا المعنى فقال :

(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) : أى نزلناه بحسب الحوادث والمصالح ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، للحِكَم التى مر بيانها . وقد نزل القرآن الكريم مفرقا حسب الحوادث المقتضية لنزوله فى مدة الرسالة المحمدية ، وهى ثلاثة وعشرون عامًا تقريبًا .

وهذا التنزيل المفرق خاص بالقرآن الكريم ، دون سائر الكتب السابقة ، لأنه أُنزل على خاتم النبيِّين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فكان لهذا آخر كتاب أُنزل من عند الله ليبقى حتى تقوم الساعة ، وقد تكفَّل الله بحفظه ، وجعل من أسباب حفظه نزوله مفرّقًا حسب الوقائع ، حتى يكون أيسر لحفظه ؛ وأعون على فهمه ، وأدعى إلى الحرص على نصوصه ، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزل كل منها جملة واحدة ، ولم يتكفل الله تعالى بحفظها كما تكفل بحفظ الكتاب العزيز ، لأنها كانت موقوتة بأزمنتها ، ومن هنا وقع فيها التغيير والتبديل بعد أن وضح الحق ، وأسفر الصبح لذى عينين .

ولما أصر أهل مكة على الكفر بالقرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى تسلية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ، ووعيدًا للكافرين وتهديدًا لهم :

١٠٧ – (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . .) الآية .

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين بهذا القرآن العظيم : سِيَّان إيمانكم بهذا القرآن وعدم إيمانكم به ، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وعدم إيمانكم به لا يورثه نقصًا ، فهو حق فى نفسه ، أنزله الله تعالى ونوه بذكره فى سالف الأزمان ، فى كتبه المنزلة على رسله – ولذا قال :

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) :

المقصود بالذين أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قبل القرآن الكريم ، مؤمنو أهل الكتاب من علمائهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه .

والمعنى : إن العلماء الذين قرءُوا الكتب السماوية من قبل نزول القرآن وخروج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ورأَوْا فيها نعتك ونعت ما أُنزل إليك ، هولاء العلماءُ إذا يُتْلَى القرآن عليهم يقعون على وجوههم ساجدين لله تعالى ، تعظيمًا لأمره ، وشكرًا لله سبحانه على إنجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك ، ومن الحق الذى جئت به .

والتعبير عن سجودهم على وجوههم بخُرُورِهِمْ للأذقان ، للإيذان بكمال تذلُّلهم وخضوعهم وشكرهم لله على إنزال هذا الكتاب العظيم .

وقيل المراد المبالغة فى التحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض . قال الآلوسى : وهو وجه حسن جداً .

١٠٨ – (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) :

أى : ويقولون وهم يتضرعون إلى الله تعالى فى سجودهم ودعائهم : (سُبحَان رَبِّنا) أى تنزه ربنا تنزيها عن خلف وعده ، وعن كل مالا يليق به مما يفتريه الكفرة ، إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لامحالة .

ولا يخفى ما فى عنوان الربوبية ، وإضافتهم أنفسهم إليه – مكرراً – من اعتزازهم بالعبودية لله تعالى .

وفى الآية دليل على استحباب التسبيح فى السجود كما دلت السنة على ذلك ، ففى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) :

ويقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون ، ويزيدهم القرآن تواضعا لله وخضوعا ، كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى .

وإنما كرر الخرور للأذقان لاختلاف السبب ؛ فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى وشكره على إنجاز وعده ؛ والثانى لشدة تأثرهم باستماع القرآن ومواعظه . ودلت الآية على مدح البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه . من خشية الله تعالى ، ولو كان التالى للقرآن مصليًّا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكَى من خشية الله ، حتى يعود اللبن فى الضَّرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وعن عبد الله ابن الشِّخِّير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء [1] » .

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾)

---

(١) قال النووى فى رياض الصالحين : حديث صحيح ، رواه أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، بإسناد صحيح ، والأزيز : صوت البكاء ، والمرجل - كمنبر - : القدر .

المفردات :

(ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ) : أى سَمُّوا الإله باسم الله أو باسم الرحمن ، فهو مسمًّى بهما معًا ، أو نادُوه بأى الاسمين شئتم ، فالدعاء يطلق على التسمية وعلى النداء .

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) : المراد ولا تجهر بالقراءة فى صلاتك .

(وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) : أى ولا تُسِرَّ بها . والمخافتة ضد المجاهرة ، يقال : خفت الرجل بصوته : إذا لم يرفعه ، وخافت بقراءته : إذا لم يرفع صوته بها . وقيل الصلاة هنا : الدعاء .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) : أى واقصد أو اسلك بين الجهر بقراءتك والإسرار بها طريقا وسَطا .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ) : أى وليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه عزيز بنفسه .

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) : أى وعظمه تعظيما يليق به .

التفسير

١١٠ - (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ...) الآية .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فقال فى دعائه : يا أللّه يارحمن » فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء : ينهانا أن ندعو إلٰهين وهو يدعو إلٰهين : فنزلت » .

وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسماً هو فى التوراة كثيرٌ ؟ يعنون الرحمن : فنزلت .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو اليهود : إن هذين الاسمين الكريمين : الله والرحمن ، اسمان لمسمًّى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله ، فسمُّوه أو نادوه أو اذكروه بكل منهما أو بأيِّهما .

وليس الدعاءُ مقصورا على هذين الاسمين ، فقد قال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » [١]. وقال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : «إن لله تسعةً وتسعين اسماً — مائةً إلا واحدا — من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتْر يحب الوتر » .

ولم تذكر الأسماءُ التسعة والتسعون فى رواية الشيخين ، ولكنها ذكرت فى رواية الترمذى وابن حِبّان والحاكم وغيرهم . وهذا نصُّها فى جامع الترمذى [٢] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً غير واحدة [٣] من أحصاها دخل الجنة : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئُ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المُقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المُحْصِى المبدئُ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤَخر الأَول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤُوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المُقْسِط الجامع الغنى المغْنِى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور » .

وليس المقصود من الحديث حصر أسمائه الحسنى — تبارك وتعالى — فى هذه التسعة والتسعين ، بدليل حديث ابن مسعود الذى أخرجه أحمد وصححه ابن حِبان : « أسأَلك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأْثرت به فى علم الغيب عندك ... » الحديث [٤]. وإنما المقصود بشارة من حفظ هذه الأَسماء ، ودعا الله بها بأَنه من أهل الجنة ، والحكمة فى الاقتصار على هذه العدَّة : أنها

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٨٠

(٢) اختلفت الروايات اختلافا كثيرا فى سرد الأسماء ، ورواية الترمذى هذه هى أقرب الروايات إلى الصحة ، وعليها عول غالبا من شرح الأسماء الحسنى كما قال الحافظ فى كتاب الدعوات من فتح البارى .

(٣) أى غير تسمية واحدة .

(٤) تمامه : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى .

الأسماءُ الجوامع ، الدالة على ماعداها ، مما لا يحصيه إلا الله ـ تباركت أسماؤه وجلت آلاؤه ؛ وأنها جمعت من معانى الجلال والكمال مالم يجمعه غيرها .

والحكمة فى تخصيص هذين الاسمين بالذكر ، أن لفظ الجلالة عَلم على الذات الأقدس ، واسم الرحمن أنسب بالدعاء . فقد كتب على نفسه الرحمة .

هذا ، وقد اتفق الثقات من العلماء على أن أسماء الله تعالى توقيفِيَّةٌ ، فلا تجوز تسميته إلا بما سمى به نفسه : مما جاء فى كتابه عز وجل ، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختَفٍ بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسُبوا القرآن (وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا) :عن أصحابك فلا تسمعهم حتى يأخذوا عنك .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) : يقول بين الجهر والمخافتة . ا هـ .

والمراد بالصلاة القراءة التى هى أحد أركانها . والظاهر أن المراد بالقراءة ما يعم البسملة وغيرها . ويروى أن أبابكر رضى الله عنه كان إذا صلى بالليل خفض صوته جدا ويقول : أناجى ربى وقد علم حاجتى ؛ وكان عمر رضى الله عنه إذا صلى من الليل رفع صوته جدا ويقول : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما أنزل الله هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ارفع من صوتك شيئًا ؛ وقال لعمر اخفض من صوتك شيئاً فالقراءة بين المخافتة والجهر هى الوسط ؛ وخير الأمور أوسطها ، ومن الأحكام العامة لدى الخاصة والعامة : الجهرُ فى ركعتى الفجر والجمعة والعيدين ، وفى الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء . ولا ريب أن الجهر فى هذه الصلوات من الشعائر المتواترة فى الشريعة الإسلامية .

وقيل : الصلاة هنا بمعنى الدعاء : لما أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : «إنما نزلت هذه الآية : (وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا) فى الدعاء ». ومعروفٌ أن الصلاة فى أصل اللغة هى الدعاءُ .

ولما أثبت سبحانه الأسماء الحسنى لذاته الكريمة نزه ذاته عن النقائص ، فقال :

١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .) الآية .

وهى رد لمزاعم اليهود والنصارى وبنى مُليح من كفار العرب ؛ إذ قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله ؛ سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرا .

ونفىُ اتخاذ الولد ظاهر فى نفى التَّبَنِّى ، ويعلم منه نفى ولد الصلب عنه سبحانه من باب أولى . وقد نفى ذلك صريحا فى قوله سبحانه : « لَمْ يَلِدْ »[1] وقوله عز وجل « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ »؟[2]

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ) : فكيف يتخذ المشركون معه آلهة يعبدونها ، مع اعتقادهم أنه هو الذى خلق هذا الملك العظيم وحده ، ودبره بحكمته ، دون سواه ، كما حكى الله عنهم ،يقول سبحانه : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ »[3] .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ) :أى ليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه سبحانه عزيز بنفسه ؛ فليس بحاجة إلى أن يوالى أحدا أو يحالفه ، من أجل مَذلَّةٍ به، ليدفعها عنه .

وفى حمده تعالى على هذا التنزيه إيذان بأن المستحق للحمد العظيم ، مَن هذه صفاته دون غيره ، ولذا عطف على الأمر بحمده الأمر بتكبيره فقال :

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) :أى وعظمه تعظيما بليغا مؤكدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

والتكبير ، أبلغ كلمة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال .

---

(١) سورة الإخلاص ، من الآية : ٣

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠١

(٣) سورة الزمر ، من الآية : ٣٨

وفى الآية تنبيه على أن العبد ـ وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد ، واجتهد فى الطاعة والتحميد ـ ينبغى أن يعترف بالقصور فى حقه ، والتقصير فى حمده وشكره ، سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

هذا وَرَوى عَمْرُو بنُ شعيب عن أبيه عن جده قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطَّلب ، علمه هذه الآية : (وقل الحمد لله) إلى آخرها » وسماها عليه الصلاة والسلام آية العز ـ كما أخرج أحمد والطبرانى عن مُعاذ بن جبل رضى الله عنه .

سورة الكهف

تمهيد :

سورة الكهف - ويقال لها سورة أصحاب الكهف - مكية . وهى الثامنة عشرة فى ترتيب المصحف وآياتها عشر ومائة . وقد افتتح الله تعالى كتابه بالحمد فى سورة الفاتحة ثم افتتح بالحمد كذلك أربع سور مكيات ، اشتملت كل سورة منهن على أصول الإسلام الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وهى أهم مقاصد القرآن المجيد .

الأولى : الأنعام ، وهى آخر سورة فى الربع الأول من هذا الكتاب العزيز ، والثانية سورة الكهف وهى مشتركة بين آخر الربع الثانى ، وأول الربع الثالث ، والثالثة والرابعة سبأ وفاطر ، وهما آخر الربع الثالث . ومما يذكر فى مناسبتها لسورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وافتتاح هذه بالتحميد . والتسبيح والتحميد أخوان مُتَلَازمان فى ميزان الأعمال ، وفى كثير من الأحوال . ومن هذا التآخى سبحان الله والحمد لله ؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ »(1) . ومن المناسبات التشابه بين اختتام تلك وافتتاح هذه ؛ فإن فى كل منهما حمدًا ، وهناك مناسبات أُخرى يدركها القارئ .

ابتدأ الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بالثناء على ذاته المقدسة ؛ لإنزاله كتابه العزيز على عبده ورسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، يهدى به إلى صراط مستقيم ، نذيرا للكافرين وبشيرا للمؤمنين ، ولما حمَّل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه من الحزن على إعراض قومه - مالا يُطيق - قال له ربه : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » (٦) يعاتبه على إجهاد نفسه فوق طاقتها رحمةً به ، فما عليه إلا البلاغ ، وقد بلغ « فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَّمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر » (٢٩) . ثم قصَّ الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصصا من إنباء الغيب ، فى كل قصة منها عبرة وتذكرة ، وتقريرٌ لمقصد من مقاصد القرآن الكريم فى الدعوة إلى الهدى والحق :

(1) سورة النصر ، من الآية : ٣

(١)وأولى هذه القصص: قصة أصحاب الكهف الذين سميت باسمهم، واختصت بذكرهم فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها يتجلى الإيمان وآثاره إذا خالطت بشاشته القلوب ، ولم تخش إلّا علّام الغيوب . وإذًا فلا ترضى بغير الله بديلا، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف برهانا عمليا حقا على أن البعث حق فى يوم لا ريب فيه « وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا » (٢١).

(٢)وثانية القصص :قصة الرجلين صاحبي الجنتين :أحدهما غنى كافر يعتز بماله وبنيه ، ويتكبر على أخيه ؛ ويكفر بربه الذى خلقه من تراب ثم سواه رجلا ، ويظن أن جنته لن تبيد أبدا . وصاحبه فقير صابر ، راض بقضاء الله يرى أن رضا الله كنز لايفنى ، وعز لا يبلى ، فكانت العاقبة له، والندم والخسران لصاحبه ، الذى اغتر واستكبر « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (٤٤) .

(٣)والثالثة: قصة أبي البشر آدم عليه السلام مع عدو الله وعدوآدم ؛وفيها التحذير منه ومن ذريته وأنصاره وشيعته . ومنها أن إبليس كان من الجن ، ولكنه انضم إلى الملائكة فصار كأنه منهم فى عبادته لله وطاعته له ؛ فلما أمره الله تعالى بالسجود لآدم مع ملائكته ، غلب عليه غروره وكبرياؤه ، فأبى واستكبر، فحذّر الله عباده منه ومن فتنته ، وبيّن أنه عدو لأبيهم من قبل ، فمن المحال أن يكون صديقًا لأحد من ولده « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » (٥٠). ولا يخفى أن التنبيه على أن إبليس كان من الجن ، خاص بهذه السورة ، لم يذكر فى غيرها من السور التى ذكرت قصة سجوده لآدم عليه السلام ؛ وسيأتى تحقيق المراد من قوله تعالى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » .

(٤)والرابعة: قصة موسى كليم الله مع العبد الصالح ،وهى مما اختصت به هذه السورة أيضًا ، فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها : أن عالِمَ الغيب والشهادة سبحانه ، يُظهر مَنْ شاء من الصالحين من عباده ــ على لَمَحات من غيبه المكنون ، ويأذن لهم أن يبوحوا بها فى حدود إلّهية لا يتجاوزونها ، ولحكم ربّانية قد أحاط بها ؛ لئلا يَدَّعِىَ مُدَّعٍ أن الله أعلمهُ شيئًا من غيبه ، إلا إذا جاء بسلطان بيِّن من لدن عالم الغيب والشهادة ، وحسبنا برهانًا على

ذلك أن العبد الصالح لم يعرِفْ موسى عليه السلام إلا بعد أن عرَّفه موسى بنفسه حين التقيا بمجمع البحرين وقال له العبد الصالح : أنت موسى نبي بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، كما فى حديث الصحيحين — ولو كان يعلم من الغيب غير اللمحات التى أطلعه الله عليها لعرف موسى قبل أن يسأله مستفهمًا .

وفى قصة موسى والعبد الصالح : فضل الرحلة فى طلب العلم ، واحتمال مشاق الأسفار فى طلبه ؛ وفيها تواضع المتعلم للمعلم ، ولو كان المتعلم أفضل من معلمه ؛ وفيها صبر العالم ورفقه بمن يعلِّمه ، وتنبيهه إذا غَفَل ، وتحذيره أن يعود إلى مثل ما غفل عنه ؛ وفيها أن علم الله تعالى لا نهاية له ، وأن العالم إذا سئل : من أعلم الناس ؟ لا يقول : أنا ، بل يرد العلم إلى الله تعالى ، ولو كان نبيًّا ورسولًا من أولى العزم . . . وسيأتى بيان مأخذ ذلك فى هذه القصة .

(٥) والقصة الخامسة : قصة ذى القرنين ، وقد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببًا فساح فى الأرض ، واستعان بهذه الأسباب على بسط سلطانه بالعدل والإحسان ، حتى بلغ مغرب الشمس ثم مشرقها — فى رأى العين — ودعا إلى الله فى كل رحلة يرحلها . وكان غياثا للمظلومين وعونا لهم ، وكان مثلًا صالحا فى كل أقواله وأعماله وهدايته إلى الخير ، حتى فتح الله به مغاليق الأمور ، وأصلح كثيرا من الفساد فى الأرض . ثم كان من آيات الله على يديه أن أقام سد يأجوج ومأجوج بين جبلين مرتفعين ارتفاعا عظيما ، وهنالك وجد «قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» (٩٣) استغاثوا به من فساد يأجوج ومأجوج وإغاراتهم التى لا تنقطع : فبنى لهم هذا السد الحصين المنيع ، دون أن يأخذ منهم أجرًا ، قائلا : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا »(٩٥). وهذا مثال من المُثُل العليا فى التعاون على البر والتقوى ، ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولما أتم الله على يدى ذى القرنين بناء هذا السد الحصين المنيع ، الذى عجزت يأجوجُ ومأجوجُ أن يعلُوه ، لعظم ارتفاعه وملاسته ، أو ينقبوه ؛ لعظم تخانته وصلابته — لمَّا أتم الله ذلك على يديه — حمد الله وشكره قائلًا : « هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » (٩٨) .

وقد اشتملت هذه السورة أيضًا على مقاصد أخرى لاتنفرد بها ، بل يشاركها فيها غيرها من السور . ومن هذه المقاصد : التحذير من فتنة الحياة الدنيا وزينتها « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » (٥٤) « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (٤٦) .

ثم ختمت السورة الكريمة بالحث على إعداد العدة للقاء الله تبارك وتعالى بالعمل الصالح – ونعم اللقاءُ لقاؤه – « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » (١١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(وَلَم يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) : العوج – بكسر العين وفتحها – : الميل والانحراف عن القصد حسيا كان أو معنويا . وقيل يختص مكسور العين بالمعانى ، ومفتوحها بالأعيان : فتقول : فى رأيه أوْ قوله عِوج ، وفى عصاه عَوَج . والمراد نفى العيب والخلل عن القرآن الكريم لفظا ومعنى .

(قَيِّمًا) : أى مستقيما ؛ أو كفيلا ؛ أو مُهَيْمِنا .

(لِيُنْذِرَ) : الإنذار ؛ التحذير مع التخويف . ضد التبشير .

(بَأْسًا) : أى عذابا . وأصل البأس : الشدة فى الحرب .

(أَجْرًا حَسَنًا) : أى جزاء كريما ، والمراد الجنة ونعيمها الدائم .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . .) الآية .

أى الثناء الجميل مستحق لله الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم كتابه المعروف بالكمال من بين الكتب السماوية ، وَلَوْ لَمْ يُضَفْ إلى مُنزله جل وعلا .

وفى حمده تعالى ذاتَه المقدسةَ على إنزال هذا الكتاب العزيز - تنويه بشأن ذلك الكتاب وعلوّ مكانه . وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة - تشريف له صلى الله عليه وسلم أىّ تشريف ، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً لله الذى أرسله ، لا كما زعمت النصارى فى شأن عيسى عليه السلام .

(وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) :

أى ولم يجعل الله سبحانه فى كتابه شيئًا من العوج : بنوع اختلال فى نظمه ، أو تناقض أو اضطراب فى معناه ، أو انحراف عن دعوته إلى الهدى والحق ؛ بل جعله تعالى قَيِّمًا أى معتدلا مستقيما كما قال :

٢ - (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ . . .) الآية .

وفائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة - وربما كان فى أحدهما غنًى عن الآخر - فائدة الجمع بينهما التأكيدُ ؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولكنه لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والبحث . أو جعله تبارك وتعالى مهيْمِنا على سائر الكتب السماوية ، مبيّنا للحق فيها قبل تحريفها ، أو جعله - جلت آلاؤه - كفيلا بمصالح العباد الدينية والدنيوية وببيانها لهم ، كشأن القيم على الأمور الكفيل بها ؛ لاشتماله على ماينتظم به المعاش والمعاد بالقسطاس المستقيم ، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه حتى يحتاج إلى كتاب آخر يكمله ؛ فكان ذلك وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال .

وصدق منزله إذ يقول : « مَا فَرَّطْنَا فى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ »[1]. ولا عَجَب إذن أن يكون هذا الكتاب المبينُ خاتمَ الكتب ، كما أن من أنزله الله عليه هو خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ ولاشك أن سلامته من العوج برهان على أنه من عند الله ، وشاهد على نبوة من أُنزل عليه ، وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[2]. أنزل الله تعالى كتابه لينذر الكافرين به ويحذرهم عذابًا شديدًا صادرًا من عنده ، عاجلا أو آجلا جزاء كفرهم بكتابه وتكذيبهم له .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) :

أى ويبشر المؤمنين بهذا القرآن ، الذين صدقوا إيمانهم وأيدوه بالأعمال الصالحة المبينة فى تضاعيفه ، يبشرهم – بأن لهم أجرًا حسنا ، والمراد به الجنة وما فيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ، ويؤيد كونَ المراد بالأجر الحسن الجنةَ . قوله عز من قائل :

٣ – (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) :

أى مقيمينَ فى أجرهم وهو الجنة خالدين فيها أبدًا ، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ؛ إذ لاانتهاء لمكثهم وخلودهم ، فضلا من الله ونعمةً « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[3] .

وتقديم الإنذار على التبشير ؛ للعناية بزجر الكفار عما هم عليه من كفر وضلال مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية ، وذلك نوع من بديع الكلام ، بعد صدق المعنى وجزالته . ومصاحبة الأعمال الصالحة للإيمان الحق شرط لنيل الأجر الحسن؛ فإن الإيمان من غير العمل الصالح الذى شرعه الله تعالى ورضيه ، كالشجر الذى لا ظل له ولا ثمر كما أن العمل الصالح الذى لا يُبنى على الإيمان الحق ، وفق ما جاء به الكتاب المبين ، وبُعث به خاتم النبيين – لا وزن له عند الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٣) سوره الجمعة ، من الآية : ٤

(وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾)

المفردات :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالةً فى الشناعة والقبح مقالتهم هذه : والكلمة واحدة الكلم ، وكثيرا ما يراد بها الجملة من الكلام أو الجمل منه ، كما فى قولهم : ألقى فلان كلمة وربما كانت خطابا طويلا .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) : أى فلعلك قاتلها أو مهلكها . وحرف الترجى (لعل) هنا ، يراد به النهى عن الحزن على عدم إيمان قومه رحمة به .

(أَسَفًا) : أى حزنا شديدًا وغمًّا .

التفسير

٤ -(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) :

أى : ويحذر الله سبحانه من بين الكافرين الذين استحقوا عذابه الشديد السابق - هؤلاء الفرق الثلاث ، الذين نسبوا لله ولدا ، وهم :

(١) كفار العرب المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله !

(٢) واليهود الذين زعموا أن عزيرا ابن الله !

(٣) والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله !

وإنما خص الله تبارك وتعالى هؤلاء الفرق بهذا الإنذار مع دخولهم فى عموم الإنذار السابق ؛ لشدة إمعانهم فى الكفر ، وقبح اجترائهم على الله عز وجل . والمنذر والمبشر

فى الآيات الثلاث هو الله تبارك وتعالى ؛ أو الكتاب الكريم ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نزّه الله تبارك وتعالى ساحته ، وحمى حماه ، عن مفتريات هذه الفرق الضّالة المضلّة ، فقال عز من قائل ، مكذبا لهم تكذيبا قاطعاً :

٥ ـ (مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْم وَلَا لِآبَائِهِمْ . . .) الآية .

أى ليس لهؤلاء الكفرَة الفجرَة ، باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً ، شىءٌ من علم ألبتّة ؛ وليس لآبائِهم وأسلافهم الذين قلدوهم أثارةٌ من علم كذلك ، بهذا الاتخاذ المزعوم !

أو ليس لهم علم بما قالوه : أصواب هو أم خطأٌ ، بل إنما قالوه رميا عن جهالة من غير فكر ولا روية ، كما فى قوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[1] .

أو ليس لهم علم ،بفظاعة ما قالوا وقبح موقعه من الشناعة ، كما فى قوله سبحانه : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا »[2] .

وهذا هو الأنسب بقوله جل من قائل :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالتهم هذه مقالة فى الكفر والافتراء ؛ لما فيها من نسبته تبارك وتعالى إلى مالا يليق بجلال كبريائه .

وقوله جل من قائل :

(تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) : صفة لكلمة ، تفيد استعظام اجترائهم على التة

فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان ، وتحدث به النفس ، لا يمكن أن يُتفوّ

ويصرف عنه الفكر ، فكيف بهذا المنكر الذى لامستند له

ولهذا قال وقوله الحق :

(إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) :

أى ما يقولون إلا قو٧

---

(١)

٦ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) :

سبب النزول :

قال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا جهل بْنَ هشام والنضربن الحارث وأُميةَ بن خلف . . . فى نفر من قريش - اجتمعوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد كبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه ذلك حزنا شديداً ! فأنزل الله تبارك وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) الآية .

وقال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسير هذه الآية :

وهذه معاتبة من الله عزَّ ذكره على وَجْـده صلى الله عليه وسلم بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد ، وكان بهم رحيما . ا هـ

شُبهت حاله صلى الله عليه وسلم ، فى شدة حزنه على إعراض قومه وتوليهم عن الإيمان بالقرآن - شبهت حاله هذه - بحال من يُتوقع منه إهلاك نفسه على عدم تحقق أمر أهمه ، فقيل له رحمة به وإشفاقا عليه : لاتهلك نفسك حسرة عليهم ، بل هون عليك ، وبلِّغ "اة ربك ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

"آية فى تسلية الله له رحمة به ، قولُه سبحانه : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ

ـم ، من رب به رحيم .

فسك أسفا ، عقب انصرافهم

وحيه إلى عباده -

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(زِينَةً لَهَا) : أى بهجة لها وجمالًا .

(لِنَبْلُوَهُمْ) : أى لنعاملهم معاملة المختبر بتكليفهم بشرائعنا .

(لَجَاعِلُونَ) : لمُصَيِّرون .

(صَعِيدًا جُرُزًا) : ترابا ، لا نبات فيه ، يقال : جُرِزت الأَرض : إذا ذهب نباتها . بقحط أو جراد .

التفسير

٧ـ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا . . .) الآية .

لما تضمنت الآية السابقة نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، عن إجهاد نفسه فوق طاقتها ـ رحمة به ـ جاءت هذه الآية والتى تليها تسلية له صلوات الله وسلامه عليه وتسكينا لأَسفه الشديد وحزنه ، لما جاءَ فيها من أَنهم مجزيُّون على أعمالهم .

والمعنى : إنا أَنشأْنا جميع ما على الأَرض : حيوانا كان أَو نباتا أَو معدنا ـ أَنشأْناه زينة لها ولأَهلها ، ينتفعون به ويتمتعون إلى حين .

(لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) :

أَى لنعاملهم معاملة المختبر ، ثم نجزىَ كلاًّ منهم على حسب عمله وإخلاصه لله فيه ، فكل العباد نبتليهم بالتكاليف ونحاسبهم عليها . فمن خالف ربه وعصاه عوقب على عصيانه ومخالفته ، ومن أَحسن أُثيب على إحسانه « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[1] .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

وحسْنُ العمل فى هذه الدنيا صرفُها إلى ما ينبغى ، واتخاذُها وسيلة إلى معرفة خالقها ، والتمتعُ بالحلال الطيب منها ، وشكر الله - جلَّت آلاؤه - على نعمه فيها ، مع الحذر كلَّ الحذر من فتنتها والاغترار بها . واتخاذها وسيلة إلى الشهوات والمفاسد ، شأن أرباب الهوى ، ولا ريب أن مراتب الحسن والقبح متفاوتة .

ويجمع كل ما قدمناه - بل يزيد عليه - ما حكاه الله تعالى فى قصة قارون إذ قال له قومه وقد خرج عليهم فى زينته : «لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »[1] .

٨ - (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) :

أى وإننا لمصيرون - حتمًا - ما على الأرض من المخلوقات قاطبة - عند تناهى عمر الدنيا - ترابًا لا نبات فيه ولا بهجة ، من بعد ما كان يتعجب من بهجته النُّظار ، وترنو إليه الأبصار ؛ وفى هذه الآية الكريمة تكميل لسبب نهيه صلى الله عليه وسلم عن إجهاد نفسه الرحيمة فوق طاقتها ؛ كأن الله تعالى يقول له : لا تحزن أيها الرسول بما عانيت من تكذيب قومك لما أنزلنا عليك ؛ فإناقد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة لها ، اختبارًا لأهلها ؛ وسينتهى العُمران فيها إلى خراب ، والحياة فيها إلى موت ، ثم نجزى كل نفس بما أسلفت ، وسننتقم لك منهم .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٧٦ ، ٧٧

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَمْ) : معناها هنا : بل ، التى للانتقال من حديث إلى حديث ، مع همزة الاستفهام المتضمنة معنى النهى .

(حَسِبْتَ) : أى ظننت ؛ أو علمت ، من الحِسبان بمعنى الظن أو العلم ، وقد استعمل فى كلٍّ من المعنيين .

(الْكَهْفِ) : النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعًا فهو الغار .

(وَالرَّقِيمْ) : هو اللوح الذى رقمت فيه أسماءُ أصحاب الكهف ، أو قصتهم ؛ قيل كان من حجارة ، وقيل كان من رصاص .

(الْفِتْيَةُ) : جمع فَتِيّ بوزن صَبِىّ ؛ وهو الشاب الحَدَث القوىّ . من الفَتَاء ، وهو الشباب وزنًا ومَعْنًى ، أو من الفُتوّة ، وفيها معنى الشهامة والنجدة .

(وَهَيِّىءْ) : أى يسِّر وسهِّل .

(رَشَدًا) : أى إصابة لطريق السداد والرشاد واهتداءً إليه ، وهو خلاف الْغَىِّ .

(فَضَرَبْنَا عَلَىٓ آذَانِهِمْ) : المفعول ملاحظ ، تقديره حجابًا ، أى ألقيناه على آذانهم . والمراد أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

التفسير

٩ - (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) :

لما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه جعل ما على الأرض زينة لها؛ ليختبر عباده فى هذه الدنيا الفانية ، التى ستنتهى إلى تراب لا نبات فيه ؛ ثم يجزىَ كُلًّا منهم على حسب عمله وإخلاصه - قصّ عليهم قصة أهل الكهف والرقيم[1] برهانًا عمليًا واضحًا ، ينطق بأن يوم البعث والجزاء آتٍ لا ريب فيه ؛ وقد أجمل الله قصتهم فى الآيات الثلاث التى حكيناها من قبل ، والخطاب لكل من يصلح للخطاب من البشر المكلفين .

والمعنى : لا تظن - أيها المكلف - أن قصة أصحاب الكهف والرقيم - وإن كانت من خوارق العادات - لا تظن أنها عجيبة دون غيرها من آياتنا ؛ أو لا تظن أنها أعجب آياتنا وأعظمها ! فإن من آياتنا ما هو أعجب منها وأعظم ؛ كخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وإخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وجعل ما على الأرض زينة لها ؛ لحكمة الابتلاء فى الدنيا والجزاء فى الآخرة ؛ كل هذه الآيات العظيمة وما إليها من آياتنا الدالة على قدرتنا - أعجب وأعظم من قصة أصحاب الكهف والرقيم .

١٠ - (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً . . .) الآية .

أى اذكر حين التجأ هؤلاء الفتية المؤمنون بالله إلى الكهف ، فرارًا بإيمانهم من الشرك وأهله ، فقالوا ضارعين إلى ربهم مستغيثين به : يا ربنا هب لنا من عندك رحمة عظيمة ، من خزائن رحمتك الواسعة ، فيها الأمن والطمأنينة والمغفرة والسكينة .

---

(١) أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم عند الجمهور . وقيل إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وهم ثلاثة ممن كانوا قبلنا أصابهم مطر : فأووا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة منه وهم فيه ، فأنجاهم الله بعد أن توسلوا إليه بإخلاص أعمالهم . . انظر تفسير الآلوسى

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) :

أى ويسِّر لنا من أمرنا هذا الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار ، ـ يَسِّر لنا ـ هداية إليك وتثبيتًا على الإيمان بك والإخلاص لك ، حتى نكون من عبادك المهتدين الراشدين . وقال ابن كثير : أى وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشدًا ، أى اجعل عاقبتنا رشدًا ، وما قضيت لنا من قضاءٍ فاجعل عاقبته رشدًا ؛ وفى المسند من حديث بُسْر بن أرطاةَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . ا

١١ ـ (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) :

أى فاستجبنا دعاءهم عقب ندائهم ، وأنمناهم فى الكهف آمنين مطمئنين ، نومةً ثقيلة طويلة تشبه الموت ، بلغت سنين كثيرة تُعَدُّ عَدًّا .

وسيأتى التصريح بعدد هذه السنين فى قوله تعالى : « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ . . . » الآية مع حكمة التأخير ، والتفصيل بعد الإجمال .

وتخصيص الضرب على الآذان بالذكر ، مع مشاركة سائر الحواس والمشاعر لها فى الحجب عن الشعور والإدراك عند النوم ـ لأن الآذان هى الوسيلة إلى التيقظ غالبا ، ولا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق .

ولما كانت نومة أهل الكهف فى عمقها وطولها كأنها الموت ، عبر عن إيقاظهم منها بالبعث فقال سبحانه :

١٢ ـ (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) :

أى ثم أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ؛ لنظهر ما علمناه بشأن لبثهم ، بإيضاح الأحداث التى مرت بهم ، حتى يتبين للناس أىُّ الفريقين أدق إحصاءً لمدة لبثهم : ألبثوا يومًا أو بعض يوم ، أم لبثوا أحقابًا ودهورًا ؟ !

واعلم أن الله تبارك وتعالى يعلم أزلًا علمًا تفصيليًّا بكل ما يقع فى الكون ، طبقًا للأجل المسمى عنده ، ووفقًا لما قدره سبحانه وعلمه ؛ فإذا حدث ما قدّره ، علِمَه واقعًا ، بعد علمه أزلًا بأنه سيقع .

والمراد بالحزبين بعض الفتية : وهم المترددون القائلون : « لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » — والحزب الآخر أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، قال ابن عطية : إن هذا قول جمهور المفسرين :اهوسيأتى الحديث مستفيضًا عما قيل فى بيان مكان الكهف ، وزمان رقودهم ، وزمان بعثهم .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) : النبأ ؛ الخبر الخطير ذو الشأن .

(بِالْحَقِّ) : أى بالصدق الذى لا يحوم حوله شك .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) : المراد قوَّيْنَا قلوبهم وثبتناها على الحق والصبر على الإيمان وآثاره .

(لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) : أى لقد قلنا إذًا قولًا ذا شطط ، أى ذابُعْدٍ عن الحق والصواب . والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء .

(لَوْلَا) : حرف تحضيض فيه معنى اللوم على عدم الفعل .

(بِسُلطَانٍ بَيِّنٍ) : أى ببرهان ظاهر قوى .

(فَمنْ أَظْلَمُ) : استفهام إنكارى فيه معنى النفى .

(يَنشُرْ لَكُمْ) : يبسط لكم ويوسع عليكم .

(مِرْفَقًا) : المرفق – كمِنبَر ومَجِلس – : ما يُرتَفَق وينتفع به .

التفسير

١٣– (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أُجمل آنفا فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتيَةُ إِلَى الْكَهْفِ . . » .

أى نحن نخبرك الخبر اليقين الصادق عن هؤلاء الفتية وهو ما يلى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) :

أى إنهم جماعة من الشباب النقى الفطرة الصادق العزيمة ، هُدوا بفطرتهم إلى ربهم فاطر السموات والأرض ، فأيقنوا أن الذى أبدعهما على غير مثال سبق ، هو الحقيق بأن يعبد بحق ، وأن يكون وحده ربًّا لهذا الكون وإلَهًا ، هكذا اهتدوا إلى الله بآياته ، وهكذا آمنوا بربهم على هدى وبصيرة ، فزادهم ربهم بالعمل الصالح والعقل الرشيد يقينا إلى يقينهم ، وإيمانا مع إيمانهم ، ثم أعلن ثناءه عليهم ، فقال فى محكم كتابه :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) : ونحو هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » [1] . والشباب – كما قال الحافظ ابن كثير – : أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا .

ولعل فى قول الحق تبارك وتعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » إشارة إلى أن فى عهده صلى الله عليه وسلم من كان يقص نبأهم لكن بغير الحق ، وفى هذا دليل على

(١) سورة محمد ، الآية : ١٧

أن قصة أهل الكهف كانت من علوم العرب وإن لم يكونوا عالميها على وجهها . وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كثيرا من أخبارهم ، نقلا عن محمد بن إسحق وغيره من أصحاب السير [١] ، وحسبنا ما قص علينا العليم الحكيم من نبئهم « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » [٢].

ثم بين سبحانه لطفه بهم ، وجميل صنعه لهم ، حينما عزموا على التوجه إليه بعبادته وحده فقال :

١٤ ـ (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا . . .) الآية .

أى قوّينا قلوبهم وثبتنـاهم على الحق حين قاموا فى قومهم فقالوا كلمة الحق ، لا يخافون إلا الله ، ولا يرجون أحدا سواه : قالوا ربنا وخالقنا هو رب السموات والأرض وخالقها وحده ، فهو الحقيق بألا نعبد إلا إياه ، وألا نتخذ إلها ولا ربا سواه ، هذا اعتقادنا الذى نحيا ونموت عليه ، لن نتحول عنه أبدا ، وقولهم :

(لَقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطًا) : تأكيد لقولهم الحق الذى قالوه ، واعتقادهم الحق الذى اعتقدوه .

أى والله لو قلنا غير هذا القول ، وعبدنا مع ربنا الذى خلقنا إلها غيره ـ لكان قولنا هذا حينئذ بعيدا عن الحق والصواب غاية البعد ، وكنا بعبادة غير ربنا وخالقنا مُفرطين غاية الإفراط فى الضلال والظلم !

وفى هذا القول الذى قاله الفتية دلالة على أنهم دُعُوا إلى عبادة الأصنام وحملوا عليها وأُنذروا على تركها ، وكان ذلك بين يدى الملك الجبار العابد للأوثان . وسيأتى بيان أمره معهم .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم أنهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءها على غير ميعاد فقال رجل منهم هو أشجعهم : إنى لأجد فى نفسى شيئًا ما أظن أحدًا يجده ، قالوا ماتجد ؟ قال أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا جميعًا نحن كذلك ، فقاموا جميعًا فقالوا : « ربنا رب السموات والأرض » .

(١) انظر تفسير ابن جرير ، والآلوسى .

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم لهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ؛ فإنه قد ذكر غيرُ واحد من المفسرين من السلف والخلف : أنهم كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم – عَرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها ، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض ، فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينتحى ناحية ،حتى جمعهم الذى جمع قلوبهم على الإيمان به ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

ثم توافقوا كلهم على عبادة الله وحده . . فلما انتهى أمرهم إلى ملكهم استحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودَعَوه إلى الله عز وجل ، وقد أجمل الله ذلك بقوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

ويقال إنهم لما دَعوا الملك إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، ثُمَّ أَجَّلَ النظر فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم . قال الحافظ ابن كثير : وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النَّظِرَة توَصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة ! انتهى ما قاله ابن كثير ملخصاً .

ثم قال بعض الفتية لبعض ، إنكارا على أهل بلدهم ، وتمهيدا لاعتزالهم :

١٥ـ (هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . .) الآية .
أى أشرك أهل بلدنا هؤلاء بعبادة غير الله ، من الأصنام التى اتخذوها آلهة فعبدوها معه هلاَّ يأتون على عبادتهم لهذه الأصنام ببرهان ظاهر وحجة واضحة ! !

وهذا تبكيت صارخ ؛ لأن الإتيان بالبرهان على عبادة الأصنام محال . وفى هذا دليل على أن مجرد التقليد فى العقائد مردود . ومما لا شك فيه أنك لو سألت أحدا من عوامّ المؤمنين عن دليل وجود الله الذى يعبده ؛ فإنه لا يتردد فى أن يشير إلى سمواته وأرضه ، ويشير إلى نفسه ، فهو يعلم أنها أمارات شاهدات على الحى القيوم .

ثم بينوا أن قومهم أظلم الظالمين فقالوا :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على ربه كذبا بنسبة الشريك إليه ؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

١٦ - (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا) :

كان قوم الفتية يعبدون مع الله آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله تعالى ؛ فقال بعضهم لبعض : وإذ فارقتم القوم بقلوبكم وبدينكم ، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ، فالجئوا إلى الكهف لعبادة ربكم مخلصين له الدين ، يبسط عليكم رحمة من عنده يستركم بها فى الدارين ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به فى حياتكم ، قالوا ذلك ثقةً بفضل الله تعالى ، وقوةً فى رجائه ، لتوكلهم عليه سبحانه «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» [1]. ثم أتبعوا مقالتهم الحكيمة ، تنفيذ عزيمتهم الصادقة ، فأووا إلى كهفهم ، فى حراسة ربهم وكفالته ،لم يرهم أحد من قومهم ، وقد جدوا فى طلبهم!

قال الحافظ ابن كثير : وعمّى الله خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، حين لجآ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا إليه ، مع أنهم يمرون عليه ! وعنـدها قال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الطلاق ، من الآية : ٣

لما رأى جزع الصديق فى قوله يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟ ! وقد قال تعالى : « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1]. قال ابن كثير : فقصة هذا الغار (أى غار ثور) أشرف وأجل ، وأعظم وأعجب ، من قصة أصحاب الكهف ! !

ذلك ، وقد دلت الآية الكريمة على مشروعية الهجرة . ولا شك أنه إذا اشتدت الفتن فى دار الكفرة ، ولم يستطع من بها من المسلمين أن يأمنوا على أنفسهم ودينهم — فعليهم أن يهاجروا حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم . وقد هاجر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، بأمره فرارا بدينهم من الفتن ! ثم هاجر صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه ! واحتملوا فى هجرتهم أهوالاً ثقالاً ، كان عاقبتها نصرُ الله والفتح .

(* وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾)

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠

المفردات :

(تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ) :تتنحى وتميل عنه. (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) :تتركهم ناحيته ، من قرض بمعنى ترك. (فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ) : فى مُتَّسَع من الكهف. (أَيْقَاظًا) :جمع يَقِظ بمعنى منتبه غير نائم .(وَهُمْ رُقُودٌ) : راقدون – أى نائمون. (بِالْوَصِيدِ) : بالفِناء أمام الكهف، ويطلق الوصيد أيضًا على العَتبَة ، فلعله كان يجلس بباب الكهف ومدخله عند موضع العتبة لحراستهم. (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) : لو رأيتهم وشاهدتهم .

(لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ) :لأعرضت بوجهك عنهم .

التفسير

١٧ – (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ) :

أفادت الآية التى قبلها أن بعضهم أشار عليهم بعد اعتزالهم قومهم المشركين ، أن يأْووا إلى الكهف رجاءَ أن يبسط الله لهم من رحمته بعد فرارهم بدينهم ، وأن يسهل لهم من أمرهم مايرتفقون به ، وقد جاءت هذه الآية لتُبيِّن حالهم بعد أن أَوَوْا إلى الكهف استجابة لمشورة أحدهم ، وقد حدث بعد لجوئهم إلى الكهف أنهم ناموا ، ولم يدر بخلدهم ماذا يكون من أمرهم بعد نومهم من عجائب الأُمور ، فضرب الله على آذانهم حِجابًا كثيفًا يمنع سماعهم لما يجرى حولهم ، بأن جعل نومهم عميقًا يشبه رقود الموتى ولم يصرح بذلك هنا اكتفاءً بإجمال حالهم من قبل فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »[1]. والخطاب فى قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » إمَّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما لـكل أحد ، إيذانًا بغاية ظهوره والمعنى : .

وترى أيها الباحث عن حالهم فى كهفهم – ترى – الشمس إذا طلعت تتزاور[2] وتتنحى عن كهفهم جهة يمين الداخل إليه ، وتراها عند غروبها تعدل عنه ولا تدخله جهة الشمال ،

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الكهف .

(٢) من قولهم تزاور عنه . أى عدل وانحرف – انظر القاموس .

مع أنهم فى متسع من الكهف ، بحيث يمكن معه أن يصلهم شعاع الشمس ، ولكن الله تعالى حماهم من حرِّها فأبعد شعاعها عنهم حتى لا تؤذيهم بحرارتها طول النهار وكرامةً لهم ، فى حين أنه سبحانه جعل الهواء يدخل إليهم ، لتبقى حياتهم إلى حين بعثهم من رقادهم .

(ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ) : أى ذلك الذى حدث من تحول أشعة الشمس عنهم ، وعدم وصول ضوئها الحارِّ إليهم طَوَالَ النهار - كل يوم مدة رقودهم - مع اتساع مدخل الكهف وصلاحيته لتوصيل أشعة الشمس إليهم - ذلك كله - من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته وحكمته فى تدبيره ، حيث أبطل حكم العادة ، ليعلم الناس أن الحكم لله لا للأسباب العادية ، كما أنها من آيات الله على كرامة أهل الكهف ومنزلتهم لديه ، وأنه تعالى يحمى أولياءه ، ويكرم أصفياءه .

(مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) :

أى أن مَنْ يرشده الله سبحانه إرشادا يوصلُه إلى الحق ، فهو الواصل إليه لا محالة ، لأن نفسه مستسلمة إلى إرشاد الله ، ومستجيبة لآياته ودلائله ، ومن كان كذلك فله الجزاءُ الكريم فى الدنيا والآخرة ، أما من يصرفه الله ويبعده عن الهدى لأنه اتَّجَه بسوءِ اختياره إلى الضلال وأوغل فيه ، فلن تجد له معينا يرشده ويهديه إلى الحق ، ويأخذ بيده إلى سواء السبيل .

وقد أفادت هذه الجملة من الآية الثناء على أهل الكهف والشهادة لهم بإصابة الهدى والرشاد ، وأن ذلك كان بتوفيق الله وهدايته لهم ، لسلامة فطرتهم ، وصفاء قلوبهم وعقولهم وانصرافهم عن تقليد آبائهم ، إلى اتباع آيات الهدى والرشاد ، وأما غيرهم من عبدة الأوثان ، فقد اتبعوا هَوَاهم ، وأعرضوا عن هُداهم ، فتخلى الله عنهم ، لأن سنة الله أن من يقبل على الله يهده الله ، ومن ينصرف عن هداه ، فهو متورط فى الضلال ، وليس له سبيل إلى الهدى ، ولا معين له على الوصول إليه ، بعد أن تخلى الله عن إنقاذه ، لإصراره على الضلالة .

١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) : وتظنهم أيها الناظر إليهم أيقاظا وهم نيام - تظنهم كذلك - لانفتاح عيونهم ، وقال ابن عطية : تحسبهم أيقاظا لشدة الحفظ الذى كان من الله عليهم وقلة تغيرهم ، لأن الغالب على النيام استرخاءُ الأعضاء وَهَيْئَاتٌ معينة ، فإن لم توجد حَسِبَهُم الرائى أيقاظًا وإن كانت عيونهم مقفلة ، والرأى الأول هو الظاهر .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) :ونقلبهم - وهم رُقُودٌ - جهة أيمانهم وجهة شمائلهم حِفْظًا لأجسادهم من البلى والضرر ، على نحو ما جرت به العادة فى النائمين ، أو لكى يدرك من يراهم وقد طال نومهم أنهم أحياءٌ ، فلا يسد الكهف عليهم ويدفنهم فيه ، أو لغير ذلك من حكم يعلمها خالقهم ،

(وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) : أى أن كلب أصحاب الكهف مادٌّ ذراعيه وهو جالس على مُؤَخّرته[1] بفِناء الكهف أو بمدخله كأنما هو يحرسهم وهم نيام .

واختلف العلماءُ فى أمره - هل نام كما ناموا ، أم أنه لم يستغرق فى نومه كما استغرقوا ، ومثل هذا الخلاف لا يمكن حسمه إلا بدليل ولا دليل ، وقد أُضيف الكلب إليهم فقيل كلبهم ، واختلف العلماءُ فى صاحبه ، فمنهم من قال إنه كلب مَرُّوا به فتبعهم ، وأصر على أن يكون معهم ، ومنهم من قال إنه كلب راع مرُّوا به فتبع دينهم وذهب معهم وبصحبته كلبه ، ومنهم من قال إنه كلب صيد لأحدهم وهذا الخلاف ليس له أساس ، فالكلب كلبهم كما جاءَ به النص الكريم ، والله أعلم كيف وصل إليهم .

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) : أى لو عاينتهم وشاهدتهم لأعرضت بوجهك عنهم ، ولملئت منهم خوفًا بسبب ما ألقى الله عليهم من الهيبة والجلال وقيل : إن سبب الرعب فيمن يراهم ما كانوا عليه من طول الشعور والأظفار وصفرة الوجوه وتغير الثياب ، وهذا القول غير مقبول ، فإنهم لو كانوا كذلك لأنكروا أحوالهم بعد أن تيقظوا ، ولم يقولوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ، وَلَمَّا بعثوا أحدهم إلى المدينة ليشترى لهم منها طعامًا ، وأوصوه بأن يتلطف ولا يشعر أحدًا بهم ، لأن منظرهم يوحى إليهم بأنهم من

(١) وتسمى هذه الجلسة الإقعاء .

أهل القرون الماضية ، فلا مجال لأن يقولوا لصاحبهم فى شأن الطعام ما قالوا ، ولأنه لما ذهب إلى المدينة لم ينكر حال نفسه وإنما أنكر معالم المدينة وأهلها ، فالحق أن الله تعالى لم يغير حالهم بعد مئات السنين ، ليكون ذلك آية بينة لمن يراهم بعد يقظتهم كما سنشرحه إن شاء الله تعالى .

أين الكهف ومن أىِّ البلاد أصحابُه

يقول بعض المفسرين إنه فى بلاد الروم ، وإن أصحابه منها ، ويضيفون إلى ذلك أنهم باقون على الحالة التى توجب فِرَارَ مَنْ يطَّلع عليهم ورُعْبَهُ منهم ، ويستدلون لذلك بما أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس قال : « غزوْنَا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرَهم اللهُ تعالى فى القرآن ، فقال معاوية : لَوْ كُشِف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله تعالى ذلك مَنْ هَوُ خيرٌ منك فقال : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » فقال معاوية : لا أنتهى حتى أَعْلَمَ عِلْمَهُمْ ، فبعث رجالًا وقال اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحًا — فأخرجتهم » وأصحابُ هذا الرأى يقولون إن الخطاب فى قوله تعالى : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم » للرسول خاصة .

وقد روى عن ابن عباس عكس ما تقدم ، فقد أخرج عبد الرازق وابن أبى حاتم عن عكرمة أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة ، فهذا الأثر ينفى ما دَلَّ عليه الخبر السابق ، من بقاء أجسادهم سليمة .

ونحن نرى أن الخطاب فى قوله تعالى : « لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » لكل من يصلح أن يُخَاطَبَ ، وأن المراد من الآية الكريمة حكاية حالهم وقت رقودهم وقبل بعثهم ، وأما أمرهم بعد موتهم واتخاذ مسجد عليهم ، فهو من الغيبيات التى لم يكشف النقاب عنها على وجه تطمئن إليه القلوب .

ومن المفسرين من نقل أنهم بالشام ، قال أبو حيان : إن فى الشام كَهْفَ موتى ، ويزعم مُجَاوروه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناءٌ يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة : ا هـ

ولعل أبا حيان يشير بكونهم فى الشام إلى أنهم فى الأُردن ، فإن الأُردن من الشام ، فقد كان إقليم الشام يعم سوريا والأُردن وفلسطين ولبنان ، وقد صرح بوجودهم فى الأُردن الهروى ، إذ قال : إن البلقاء بلد به الكهف والرقيم ، عند مدينة يقال لها عَمَّان ، بها آثار قديمة ، ووافقه ياقوت ، وقال القدسى : الرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وقد روى عن ابن عباس أن الرقيم واد بين غَضْبيان وأَيْلَة دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف : ا هـ

وغَضْبَانُ بالضاد المعجمة واد بالشام ، وهذه الرواية تخالف ما روى عنه سابقًا من أنهم وكهفهم فى بلاد الروم ، ولعلها أقرب منها إلى الصواب . وقد دفَعَتْ هذه الرواية وغيرها مصلحة الآثار بالمملكة الأُردنية إلى التنقيب فى هذه المنطقة حتى كشفوا كهفًا وآثارًا ، وظنوا أن هذا هو الكهف الذى جاء ذكره فى سورة الكهف ، بل لقد أكد الأُستاذ رفيق الدجانى المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالأُردن أنه هو بعينه ، والله أعلم بصحة هذا أو مخالفته للحقيقة ، فقد علمت ما تقدم نقله من وجودهم ببلاد الروم ، ونقل الآلوسى أن بالأَندلس فى جهة غرناطة كهفَ موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد ذهب لحمه ، وبعضهم متماسك ، وهم بقرب قرية تسمى لوشة ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف . قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناءٌ رومى يسمى الرقيم ، كأنه قَصْر مخلق قد بقى بعض جدرانه ، وهم فى فلاة من الأَرض خربة ، وبأَعلى حصن غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا فى آثارها غرائب : ا هـ .

فمن تضارب الروايات فى مكان كهفهم ، فإننا لا نستطيع الجزم به ، كما لا نستطيع الجزم بالأُمة التى نشأُوا منها ، وكل ما نستطيع القطع به هو قصتهم وواقعيتها ، وأنهم من آيات الله تعالى ، فلندع العلم بما وراء ذلك إلى علام الغيوب .

(وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(بَعَثْنَاهُمْ) : أيقظناهم . (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) : ليسأل بعضهم بعضًا .

(كَمْ لَبِثْتُمْ) : كم زمنا أقمتم نائمين . (بِوَرِقِكُمْ) : الورق بكسر الراء الفضة المضروبة كالدراهم ، وقيل يطلق على الفِضَّة وإن لم تكن مضروبة . (أَزْكَىٰ طَعَامًا) : أطيب طعاما أو أطهره. (وَلْيَتَلَطَّفْ) : وليستعمل اللطف فى المعاملة حتى لا تقع خصومة تكشف أمرهم .

(إن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) : إنْ يطلعوا عليكم ويعرفوكم .

(يَرْجُمُوكُمْ) : يقتلوكم رجما بالحجارة ، أو يقذفوكم بألفاظ السباب .

التفسير

١٩ - (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) :

بينت الآيتان السابقتان حالهم فى الكهف الذى أَوَوْا إليه ، بعد أن فارقوا أهلهم المشركين ، وأن الله تولى حفظ أجسادهم فيه حتى لا يفنيهم تعاقب السنين عليهم ، فجعل الشمس لا تصيبهم طوال نهارهم مع أنهم فى فجوة من الكهف بحيث تتمكن الشمس من إصابتهم ، وجعل يقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال ، وجعل أجسادهم تعيش

مئات السنين بلا طعام ولا شراب ، وجعل منظرهم يبعث الرعب والفرار منهم ، ليكون ذلك أدعى إلى سلامتهم ، وأدفع للشر عنهم ، وأبعد للوحوش المفترسة عن إيذائهم ، وكل ذلك من آيات الله . وجاءت هذه الآية الكريمة لشرح حالهم بعد يقظتهم من هذا الرقاد الطويل الذى لم يغير شيئًا من ثيابهم ولا من شعورهم وأجسادهم ، فقد بينت أنهم استيقظوا فتساءلوا كم من الزمن لبثتم ؟ ، فأجاب المسئول منهم سائِلَهُ بأنهم لبثوا نائمين يوما أو بعض يوم ، ولو طالت لحاهم أو أظافرهم أو بليت ثيابهم أو ضرب بياض الشيب شعرهم لما كان جواب المسئول لبثنا يوما أو بعض يوم ، ولما بعثوا بعضهم ليشترى لهم طعامًا بدراهمهم التى مضى على ضَرْبها مئات السنين ، وقد حدثت هذه الآية على هذا النحو العجيب ، لِيُعْرفَ أمرهم ، ويتبين للناس من حالهم أن الله يبعث من فى القبور ، كما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والمعنى : أنمناهم على هذا النحو العجيب الدال على قدرتنا ، ثم أيقظناهم من نومهم على هيئة لا تغير فيها لشىء من أحوالهم ، لكى يسأل بعضهم بعضًا : كم من الوقت لبثنا نائمين بعد أن أوينا إلى هذا الكهف مرهقين من رحلة الهرب من أهلينا المشركين ، قال بعضهم جوابا للسائل : لبثنا يوم أو بعض يوم ، فاستراحت بذلك أجسادنا المكدودة .

والمشهور أن نومهم كان غدوة وانتباههم كان آخر النهار ، وحرف (أو) فى قول المجيب على السائل (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) يحتمل أن يكون للشك فى مدة لبثهم أهى يوم أو بعض يوم ، لأنهم فى جوف الغار ولوثةُ النوم لم تفارقهم بعد ، وقال أبو حيان إنها للتفصيل على معنى : قال بعضهم : لبثنا يوما ، وقال آخرون : لبثنا بعض يوم ، وقول كليْهما مبنى على غلبة الظن .

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُم هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) : قال بعض آخر التبس عليه الأمر : ربكم أعلم بالوقت الذى مكثتم فيه نائمين ، فلا سبيل إلى التحقق من أنه

يوم أو بعض يوم ، فدعوا الحديث عنه ، فابعثوا أحدكم بدراهمكم هذه التى أحملها ، ليذهب بها إلى المدينة التى خرجنا منها مهاجرين إلى الله ، فلينظر أى البائعين بالمدينة أطيب طعاما ، وأبعده عن الإثم ، فقد كان أهلها يذبحون للطواغيت ، فليأتكم برزق من أطيب الطعام ، وليتلطف فى معاملته مع بائع الطعام حتى لا تقع خصومة بينه وبينه وينكشف بها أمركم ، ولا يفعلن مايؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، لننجو من العواقب الوخيمة التى تترتب على معرفتهم بمخبئكم عن طريقه . وفى إقرارهم فى النص الشريف على حملهم للدراهم معهم دليل أن التأهب لأسباب المعاش لمن خرج من منزله ، بحمل النفقة ونحوها لا ينافى التوكل على الله ، فإن الحياة بنيت على اتخاذ الأسباب ثم يأتى التوكل على الله بعد ذلك ليساعد من استعان به على نجاح أسبابه ، قال تعالى فى سورة الملك : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ». وقال صلى الله عليه وسلم لمن أناخ ناقته ولم يعقلها ، قائلا إنى متوكل على الله – قال له الرسول – « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّل » .

٢٠ – (إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) :

إن قومكم الذين هجرتموهم وتركتم دينهم إن يطلعوا عليكم ويظفروا بكم يرجموكم بالحجارة فيقتلوكم لمخالفتكم إياهم فيما هم عليه من الدين ، واعتزالكم إياهم وما يعبدون ، وشق عصا الطاعة ومخالفة الجماعة فى أقدس أمورها يوجب القتل عندها إلا أن تعودوا إلى ملتهم وتستجيبوا إلى فتنتهم مكرهين ، ولن تفلحوا أبدا إن دخلتموها ولو مكرهين ، فإنهم سيستدرجونكم مع الشيطان إلى استحسانها والاستمرار عليها ، وسيحيطونكم بمختلف الفتن والمغريات حتى يطفئوا نور الإيمان فى قلوبكم .

ثم إن هؤلاء الفتية بعثوا أحدهم بدراهمهم ليأتيهم برزق طيب من المدينة بعد أن سمع من إخوانه نصيحتهم ، واشتهر أن اسمه يمليخا ، ولما ذهب إلى المدينة حدث ما أشار إليه بقوله :

(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) :أصل العثور السقوط لِجهة الوجه ، كما قال الراغب ، ثم تجوز به عن الحصول أو الاطلاع على أمر مصادفةً ، وأعثرنا عليهم معناها فى الآية أطلعنا عليهم أهل مدينتهم . (لَارَيْبَ فِيهَا) : لايصح أن يرتاب فيها أحد . (السَّاعَةَ) : القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأُ الناس فى ساعة يجهلونها ، ويختص الله بعلمها .

(يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) : يتخاصمون فى شأن بعثهم ، فمِنْهم مُقِر بدلالته على البعث الأُخروى ، ومنهم نافٍ له ، أو يتخاصمون فى نومهم ثانيا بعد يقظتهم أهو موت أم هورقود كما كانوا

التفسير

٢١ - (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) :

تحكى هذه الآية ما آل إليه أمرهم بعد يقظتهم من رقدة لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، حيث مكثوا نياما « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » ثم كان من قصتهم ماسنذكره إجمالا ثم نفصله ، والمعنى :

وكما أَنَمْنَاهُمْ هذه النومة الطويلة العجيبة ، وأيقظناهم بعدها بحالة عادية ظنوا معها أنهم لبثوا نائمين يومًا أو بعض يوم - كما فعلنا ذلك - أطلعنا الناس عليهم بعد تلك الأَجيال العديدة التى ظلوا فيها نائمين ، ليعلموا بما عرفوه من أحوالهم العجيبة ، أن وعد الله تعالى

بأن يبعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء حقٌّ ، وأن الساعة التى يقوم فيها الناس لرب العالمين لاينبغى أن يرتابوا فيها .

(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً) :

فى هذا الكلام تتمة الحديث عن قصتهم بعد الإعثار عليهم ، والمعنى الإجمالى للآية ما يلى :

وكذلك أعثرنا الناس على أصحاب الكهف بعد بعثهم وقيامهم من رقودهم ، حيث كشفت الدراهم التى كانت مع مبعوثهم أنها ضُربت منذ مئات السنين فى عهد ملك وثنى جبار كان أصحاب الكهف قد هربوا منه ومن قومهم الوثنيين فى عهده ، وظهر للفتى المبعوث أنهم فى عهد ملك آخر ،وجيل يختلف كل الاختلاف عن الجيل الذى عاشوا فيه ، وكان ذلك كله ليعلم الناس أن وعد الله بالحياة الآخرة حق ، وأن الساعة التى يقوم الناس فيها لرب العالمين آتية لاريب فيها ، فلما عاد الفتى إلى أصحابه فى الكهف ، وفى صحبته بعض من وقفوا على أمره من زعماء هذا العصر وأهله – لما عاد الفتى إلى أصحابه – توفاهم الله تعالى ، اذْكُر لأُمتك أيها الرسول ، حين يتنازع قومهم فى بعثهم ، أيشبه بعث الآخرة أو يخالفه ، أو يتنازعون فى أنهم ماتوا أو ناموا كما حدث أول مرة ، ثم فرغوا من التنازع فى ذلك ، واهتموا بإجلال قدرهم وتعظيم أمرهم ، بعد أن تبين لهم موتهم ، فقال بعضهم لبعض : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، لئلا يتطرق الناس إليهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن على بابهم مسجدا تكريما لهم ، وَحَثًّا للناس على عبادة ربهم ، وبهذا البيان أجملنا تفسير هذه الآية التى طَوَتْ تحت عباراتها القصيرة أحداثا عظيمة نفصل بعضها فيما يلى :

تفصيل بعض أحداث القصة

بعد أن ضَرب الله على آذان الفتية فى الكهف فلم يسمعوا ولم يدروا بما حولهم أكثر من ثلاثة قرون ، – بعد ذلك – لم يبق أحد من أُمتهم التى اعتزلوها ، فحِينَمَا بعثوا من رقودهم الطويل ، كان يوجد غيرهم يحكمهم ملك مؤمن ، فاختلف أهل مملكته فى أمر البعث ، أيكون أو لايكون؟ ، وإذا حدث البعث أيكون للأرواح وحدها أم يكون لها وللأجساد ،؟ فشق ذلك على الملك ، فلبس المُسُوح وجلس على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لأُمته آية

تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون ، فبعث أصحاب الكهف من رقودهم الطويل ، فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعامًا ، فدخل السوق فجعل يتنكر الوجوه التى يراها ، وقد اختلفت عليه معالم المدينة كثيرًا ، ورأى مظاهر الإيمان بادية على أهل المدينة ، ثم أقبل متلطفا على رجل ليشترى منه طعامًا ، فلما نظر الدراهم أنكرها ، لأنها مضروبة من عهد بعيد ، حيث كان يوجد ملك وثنىٌّ – قيل إنه يدعى دقيانوس – فاتهمه بكنز عثر عليه ، وطلب منه أن يدله عليه حتى لا يرفع أمره إلى الملك ، فقال الفتى هى من ضربه ، أليسْ ملككم فلانا ؟ فقال الرجل : لا . بل هو فلان – وكان اسمه كما قيل (بندوسيس) فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك – وهو خائف – فسأله عن شأنه ، فقص عليه القصة ، وكان الملك قد سمع أنِ فِتْيةً خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة أهل بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤُهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل ، وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى صدق ، ثم قال الملك : أيها الناس . هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى ، فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم ، ورآهم جلوسا مشرقة وجوههم ، لم تَبْلَ ثِيابُهم ، فأخبروه بما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى ثم كان من أمرهم ما قص الله تعالى .

تلك إحدى الروايات التى تحدثت عن قصتهم ، اكتفينا بها فى فهم ما أجمله القرآن من أمرهم ، انظر الآلوسى فى بيان هذه القصة .

حكم اتخاذ المساجد فوق القبور

استدل بعض الفقهاء بالآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصلحاء والصلاة فيها ، وهو استدلال باطل ، فإننا لو سلمنا أن هؤلاء بنوا عليهم مسجدًا للصلاة وفق شرعهم ، فإن شرع من قبلنا إنما يكون شرعا لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يَرُدُّه ، وقد جاء فى شرعنا ما يحرمه ويرده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن ابن عباس ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد » أخرجه الشيخان والنسائى عن عائشة ، ومُسْلِمٌ عن أبى هريرة ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

ويرى بعض علماء الحنابلة هدم المساجد التى تبنى على القبور ، والقباب التى تبنى عليها ، على أن الآية ليست نصا فى أنهم بنوها وفق شرعهم ، فليس فيها سوى حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح والحض على التأسى بهم ، فحيث لم يثبت أن فيهم معصوما لا يدل فعلهم فضلا عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ولك أن تقول أيضًا : إن اتخاذهم المسجد عليهم ، يراد منه اتخاذهم إياه عند قبرهم فى كهفهم ، وقريبًا منه ، وقد جاء التصريح بالعندية فى رواية السدى للقصة ، ومثل هذا الاتخاذ ليس محظورًا ، ويمكن أن يقال إن (على) فى قولهم « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا » يمكن أن تكون بمعنى لام التعليل ، أى لنتخذن لأجلهم مسجداً ، كما تقول لشخص أحسن فى صُنْعِه : لأعطينك عليه جائزة ، أى لأعطينك لأجله هذه الجائزة ، ومن كل ذلك نفهم أنه لايوجد فى الآية ما يستدل به على جواز بناء المساجد فوق الأضرحة .

(سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(رَجْمًا بِالْغَيْبِ) : رميا بالخبر الغائب الخفى عنهم . (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) : فلا تجادل فيهم ، والمماراة المحاجة والجدال ، قال الراغب : هى المحاجة فيما فيه مرية - أى تردُّد - مأخوذ من مَرَيْتُ الناقة إذا مسحت ضرعها للحَلْب . (إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) : إلَّا محاجة وجدالًا بما هو ظاهر ، وذلك بالاقتصار على ما نزل به الوحى من غير تجهيل لمن يحاورك فيهم ، فقد يكون مصيبا والقرآن لم يستوعب قصتهم ، بل جاء ببعضها .

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) : ولا تستفت فى شأن أهل الكهف أحدًا من الخائضين ولا ترجع إليهم فى قصتهم ، ففيما أخبرناك به كفاية وغُنْيةٌ عن سؤالهم ، فضلا عن أن ما يعرفون عنهم مشوبٌ بالخطأِ .

(لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) : أى لأقرب وأظهر من نبأِ أصحاب الكهف من براهين نبوتك.

التفسير

٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) :

أجمل الله فيما تقدم قصة أهل الكهف ، وآخرها العثور عليهم وموتهم عقب التعرف عليهم ، واعتزام من غلب على الأمر فى أُمّتِهِمْ فى ذلك الوقت أن يبنى عليهم مسجدًا ، وجاءت هذه الآية ، لتبين أن بعض معاصرى النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب سيخوضون فى قصتهم ، وأنه تعالى نهاه عن أن يخوض معهم فى أمرهم ، وأن لايزيد على ما أنزله الله إليه فى شأنهم ، وأن لايستفتيهم فى بيان أمرهم أكثر مما نزل به الوحى ، فليس بحاجة إلى ذلك ، وليسوا هم على مستوى الفتوى فى أمر لا يعلمه إلا الله وقليل من عباده .

والمعنى : سيقول الخائضون فى شأنهم من أهل الكتاب : أَهْلُ الكهف ثلاثةُ أشخاص من الرجال رابعهم كلبهم ، ويقول آخرون منهم : هم خمسة سادسهم كلبهم ، سيقول هؤلاءِ وأولئك ما قالوه فى عددهم ، رميًا بالخبر الغائب من غير سند لما قالوه ، ويقول جماعة

ثالثة منهم : أَهْلُ الكهف سبعة وثامنهم كلبهم ، يقولون ذلك عن ثقة وطمأنينة نفس[1] ، ولذلك لم يتبع الله عبارتهم بما أتبع به عبارة من سبقهم ، من أنهم يرجمون بالغيب ، بل أشار إلى علمهم بقوله تعالى :

(قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) : فهم من القليل الذين يعلمون عدتهم . قال ابن عباس : « حين وقعت الواو انقطعت العدة » أى لم يبق بعدها عدة لأحد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبت . وقد نص عطاء على أن هذا القليل من أهل الكتاب ، وقيل من البشر ، فقد صح عن ابن عباس أنه قال : « أنا من أولئك القليل » .

وقيل إن المختلفين فى عددهم هم نصارى نجران ، تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الملكانية : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقال النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وهذا القول فى حكاية المختلفين مَرْوِىٌّ عن ابن عباس رضى الله عنهما أما أسماؤهم ، فقد خاض بعضهم فى ذكرها ، وعزوها إلى ابن عباس تارة ، وإلى الإمام علىٍّ تارة أخرى وكل منهما يخالف الآخر .

ونحن نرى أن لا دليل على ما ذكر فى الروايتين من أسمائهم ، فإنها لم تصل إلى ابن عباس أو علىٍّ أو غيرهما عن طريق معصوم ، ولعل هذه الأسماء كانت تذكر على ألسنة أهل الكتاب ، فتسربت إلى المجتمع الإسلامى عنهم ، فالكف عن التقيد بها أولى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) :

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل من يريد أن يتحدث فى أمرهم من أهل العلم مع سواه ممن يخوض فى شأنهم .

والمعنى : إذا كنت قد عرفت أن من يخوض فى عددهم ، منهم المخطىء ومنهم المصيب ، فلا تجادلهم فى شأن هؤلاء الفتية إلا جدالا ظاهراً لا عمق فيه ، بأن تقتصر فى أمرهم على ما نزل به الروح الأمين ، من غير تجهيل للجاهل منهم ولا تفضيح لحاله ، فإن ذلك يخل بمكارم

(١) ولهذا أكدوا عبارتهم بالواو فى قولهم كما حكى الله عنهم « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » قال العلماء : هذه الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة النكرة ، كما تدخل على الجملة الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، و مررت بزيد وفى يده سيف ، ومن الأول قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف — انظر الآلوسى فى هذه الجملة .

الأخلاق التي جاء الإسلام ليتمها ، ولا تستفت فيما لم يتعرض الوحي لبيانه من أحوال أهل الكهف - لاتستفت - أحدا من الخائضين في شأنهم من أهل الكتاب ، فلست بحاجة بعد ما أوحي إليك إلى المزيد من التعريف بأحوالهم ، فإن فيه العبرة للمعتبر ، وليس مَنْ يُسْتَفْتَى في شأنهم من أهل الكتاب أهلا للفتوى لجهالتهم أو ضحالة ما عندهم من أمرهم .

٢٣ ، ٢٤ - (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ ... الخ) :

لا يزال الكلام متصلًا بشأن أهل الكهف ، فإن هذه الآية نزلت حين سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين ، فقال صلى الله عليه وسلم غدًا أُخْبِركم ، فأبطأ عليه الوحي ثم نزل الوحي بعد الموعد ، وقد نبَّه الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن لا يقول في أي شأن من الشئون سواء كان في أمر الشريعة أو سواها - أن لا يقول - إني فاعل ذلك غدًا إلا مرتبطًا بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غدًا فعله ، وإلا فقد وقع التخلف وفقًا لمشيئة الله الذي لا يقع في ملكه إلا ما شاءه سبحانه ، ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلهي لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

والمعنى : ولا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله : إني فاعل ذلك غدًا أو فيما يستقبل من الزمان إلا مُقْتَرِنًا بمشيئة الله ، وذلك بقولك إن شاء الله ، لتخرج من العهدة بالتخلف عن الفعل في الموعد المضروب ، لعدم تحقق مشيئة الله به فيه ، فإن حصل نسيان للمشيئة وقت الوعد بالفعل فليذكرها الإنسان عندما يتذكر ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

(وَاذْكُرْ رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) :

أي واذكر مشيئة ربك إذا تذكرت أنك نسيتها ، تداركًا لما فاتك من ذكرها ، سواء قصر الفصل أم طال ، وهذا ما جنح إليه ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ويقرأ الآية ، والمراد من الاستثناء التعليق بالمشيئة ، وهذا هو مذهب أهل البيت ونقل في رواية أنه رأى للإمام أحمد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جبير في رجل حلف ونسي الاستثناء - أي التعليق على المشيئة - فأفتى بأن له الاستثناء إلى شهر ، ومذهب عطاء أن له الاستثناء بعد اليمين إلى مقدار حلب ناقة ، أما طاووس فإنه يرى ذلك ما دام في المجلس وجمهور الفقهاء يشترطون

لصحة الاستثناء فى اليمين بالتعليق على مشيئة الله أن يكون متصلا بالمحلوف عليه ، قالوا : ولو صح جواز الفصل وعدم تأثيره فى الأحكام ، لما تقرر طلاق ولا عِتاقٌ ولا صح إقرار ، ولم يعلم صدق ولا كذب . وكان أبو حنيفة لا يوافق على رأى ابن عباس ، ويرى أن التعليق بالمشيئة يجب اتصاله بما ارتبط به ، فعلم بذلك أبو جعفر المنصور ، فبعث إلى أبى حنيفة ليلومه على مخالفته لرأى ابن عباس ، فقال أبو حنيفة : هذا يرجع إليك أنت ، إنك تأخذ البيعة على الناس بالأيمان ، أفَتَرْضَى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا قائلين : إن شاء الله ، فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه .

والحق فى هذه المسألة أن الآية ظاهرة فى أمر تفويض العبد فى أموره التى عزم عليها إلى مشيئة الله ، فإن نسيها ثم ذكرها فليقلها مهما كان الفاصل من الزمان ، أما الأحكام فى نحو الطلاق والعتاق والبيع والشراء ونحوها ، فالآية لا صلة لها بها ، ومن ثَمَّ فما قاله ابن عباس راجع إلى التفويض لا إلى الأحكام ، وعلى هذا فإن التعليق بالمشيئة فى الأحكام إنما يَرْفَعُها إذا اتصل بها ، فإن انفصل عنها فلا يرفعها ، فمثلا ، لو قال لزوجته : أنت طالق ، وعقبه بقوله : إن شاء الله لم تطلق ، فإن تأخر التعليق بالمشيئة على الطلاق وانفصل عنه ، وقع الطلاق — ولا نظن ابن عباس يخفى عليه شىءٌ من ذلك — والله أعلم .

ومعنى هذه الجملة بعد أن اتضح المقام ، واذكر ربك بالتعليق على مشيئته إنْ تَذَكَّرتَها بعد أن نسيتها فيما عَزَمْتَ عليه من المقاصد ، وقل أرجو أن يوفقنى الله لشىءٍ أقرب رشدًا وَخَيْرًا من هذا الذى نسيت التعليق على مشيئة الله تعالى بشأنه .

وعلى ارتباط هذا الجزء من الآية بسبب النزول يكون المعنى : وقل أيها الرسول عسى أن يوفقنى ربى لشىءٍ أقرب من نبإ أصحاب الكهف إرشادًا للناس ودلالة على نبوتى .

وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج ، وقد حقق الله لرسوله هذا فقد آتاه الله من الآيات ما هو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء فى الأعصار والدهور البعيدة ، والحوادث التى سوف تنزل فى المستقبل إلى يوم الساعة ، إلى غير ذلك مما يبدو نبأُ أهل الكهف بالنسبة إليه أمْرًا هينًا ضئيلًا — مع عظمة وَرِفْعَةِ شأْنه .

(وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : له سبحانه ما غاب فيهما خلقا وملكاوتصرفا وعلما .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) : ما أعظم سمعه وبصره. (مَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِّيٍ) : ليس لهم من غيره تعالى من يتولى أمورهم . (لَا مُبَدِّل لكَلِمَاتِهِ) : لاقدرة لأحد على تبديل كلماته سبحانه. (مُلْتَحَدًا) : ملجأً تَلْجأُ إليه عند الملمات .

التفسير

٢٥ ـ (وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) :

هذه الآية مبينة لما أجمل من مدة لبثهم فى قوله تعالى: « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » وأخر هذا البيان عنها ليتخلل بينهما إجمال قصتهم ، حتى تنتهى إلى أنهم تنازعوا واختلفوا فى مدة لبثهم ، واختلفوا فى عددهم ، فيأتى هذا البيان بعد الشوق إليه ، ليعظم عجب الناس من قدرة الله ، ويشتد إيمانهم بقدرته على البعث، والمعنى :

ولبث أصحاب الكهف مَضْرُوباً على آذانهم فيه ثلاثمائة سنة وتسع سنين ازدادوا بها فوقها ، ولم يقل ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر (من ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) لكى يشير بالثلاثمائة إلى مدة لبثهم بالسنين الشمسية التى عليها أهل الكتاب ، وبزيادة

التسع عليها إلى ما عليه العرب من الحساب القمرى الذى يفرق تسع سنين زائدة عليها تقريبا ، لأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما تقريبا ، والقمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما تقريبا ، وهذا الرأى منسوب إلى الإمام على .

وقيل : يجوز أن أهل الكتاب اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم ، فجاء قوله « ولبثوا فى كهفهم » الخ رافعا للخلاف مبيناً للحق ، ويكون « وازدادوا تِسعاً » تقريرا للعدد ، ودفعا للاحتمال ، فكأنه قيل : وازدادوا تسعا فوق الثلثمائة ، نظير الاستثناء فى قوله تعالى : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً » وقيل إنهم انتبهوا قليلا بعد الثلاثمائة ، ثم رُدُّوا إلى النوم فبقوا نائمين تسع سنين زائدة على الثلاثمائة والرأى الأول فى تفسير الآية أحرى بالقبول .

٢٦ - (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...) الآية. أى قل يا محمد للناس : الله أعلم بما لبثوا ، فلذا حكى لكم أنهم لبثوا ثلاثمائة وازدادوا عليها تسع سنين ، وفقاً لما علمه الله من أمرهم .

(لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ[1]) : أى لله تعالى علم جميع ما غاب فى السموات والأرض وخفى من أحوالها وأحوال من فيهما ، فضلا عن علمه بما ظهر فيهما ، ما أعظم بصره بالأشياء وسمعه لها وعلمه بها ، فهو إذ ينبئك بمدة لبثهم ، فما ينبئك إلا بالحق « وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

(مَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحدًا) : الضمير فى « لهم » يرجع إلى أهل الكهف .

والمعنى : قل للناس أيضاً ليس لأهل الكهف من غيره من ولى تولى أمر إنامتهم تلك المدة ، وحفظهم فيها حتى يجعلهم أمارة على البعث ، ولا يشرك فى قضائه بشأنهم أحدا .

ويصح أن يرجع الضمير لأهل السموات والأرض المدلول عليهم بذكرهما أى ما لأهل السموات والأرض من غير الله ولى يتولى أمورهم ، وفى جملتهم أهل الكهف .

٢٧ - (وَاتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) :

---

(١) هذه الجملة من ضمن ما أمر الرسول أن يقوله للناس بشأن أهل الكهف فهى متممة لما أمر به من قوله لهم : « الله أعلم بما لبثوا » .

(واتْلُ) :يجوز أنْ يكون أمرا من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التُّلُوّ بمعنى الاتباع ،

والمعنى على الأول : وَدَاوِمْ أيها الرسول على تلاوة ما أُوحى إليك من القرآن بشأن أصحاب الكهف وغيرهم ـ أَوْدُم على قراءته ـ لأَصحابك وغيرهم ، ليهتدى به الراشدون ، فقد اشتمل على بيان الغيب الذى لا سبيل لك إلى معرفته ، وتضمن من الآيات والمعجزات مالا سبيل للبشر إلى الإتيان بمثله ، واتضح من أسلوبه الإلهى نداءُ الحق الذى تستجيب له القلوب والأرواح ، لا يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله تعالى التى أنزلها عليك وتولى حفظها بنفسه ، ولم يستحفظها سواه ، ولن تجد من دونه ملجأً تلوذ به عند الملمات ، فاعتمد عليه فى تبليغ رسالة ربك ومعونته إياك بالنصر والتأْييد .

(وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بِالْغَدَاةِ والْعَشِىِّ) : الغداة أول النهار والعشى آخره ، وقد تطلق العشى على الوقت من غروب الشمس إلى العَتمةِ ، والعتمة وقت صلاة العشاء ، وتمتد لغةً إلى ثلث الليل كما قال الخليل ، والمراد من عبادتهم ربهم بالغداة والعشى أنهم يعبدونه دائماً .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : أى يقصدون بعبادتهم ذات الله مخلصين دون رياء .

(وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) : أى لا تجاوزهم عيناك إلى غيرهم ولا تقتحمهم ، يقال : عدا الأمر وعدا عنه ، إذا جاوزه وتركه . (فُرُطاً) : ضَيَاعاً .

(سُرَادِقُهَا) : السرادق معروف كالفسطاط وهو مايحيط بالشىء ، وهو هنا مستعمل فى لهب جهنم على سبيل المجاز بالاستعارة المصرحة .

(كَالْمُهْلِ) : المهل ماءٌ غليظ كدردى الزيت – أى عكره – .

(مُرْتَفَقًا) : متكأً ، والارتفاق فى الأصل الاتكاء على مرفق اليد ، يقال بات فلان مرتفقا ، أى متكئاً على مرفق يده .

التفسير

٢٨ – (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاوةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) :

فى الآية السابقة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن قرآن ربه ويتلوه على الناس مؤمنهم وكافرهم ، وجاءت هذه الآية آمرة له أن يهتم بفقراء المؤمنين ويحرص عليهم ، ويدع حرصه على إيمان وجهاء الكافرين ، ولا يسمع ما اقترحوه فى حق هؤلاء الفقراء ، فإنهم غير جادين فيما زعموه من الرغبة فى الإيمان . وسبب نزول هذه الآية : أن زعماء كفار قريش كأمية بن خلف وغيره من صناديدهم : قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء الفقراء عن نفسك لجالسناك ، فإن ريح جبابهم تؤذينا فنزلت هذه الآية ، وكانوا يقصدون إبعاد أهل الصفة من الفقراء المنقطعين للعبادة ، والتلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كعمار وصهيب وابن مسعود وبلال ، والآية على هذا مكية ، وهو الذى رجحه أبو حيان ، ويؤيده ما أخرجه ابن مردويه من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس ، كما تؤيده الآيات التى بعده وهو المناسب للسورة فهى مكية . وهذا يخالف ما أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فقالوا : (يارسول الله : لو جلست فى صدر المجلس ، وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم –يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك – أوحدثناك – وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : « وَاتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ » إلى قوله سبحانه : « أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا » يتهددهم بالنار) وعلى هذا تكون تلك الآيات مدنية فى وسط السورة المكية ، والظاهر الأول لما قدمناه

والمعنى : واصبر نفسك وثَبِّتْها مع أُولئك الفقراء المخلصين الذين يعبدون ربهم فى كل وقت تَتَيَسَّرُ لهم العبادة فيه ، يريدون بتلك العبادة ذاته ورضاه ، دون رياءٍ للناس ورغبة فى ثنائهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) :

أى ولا تجاوزهم عيناك يامحمد ولا تقتحمهم ، فتبعدهم عن مجلسك استهانة بهم – كما اقترح عليك رؤساءُ قريش ليجالسوك ويستمعوا إليك – لاتفعل ذلك – تريد بتركهم وإغفالهم زينة الحياة الدنيا ، بأَن يكون جلساؤُك من الأَشراف ، ولا تطع فى تنحيتهم عن مجلسك ، مَنْ جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ومعرفتنا ، بسبب انصرافه عن الحق وبعده عن الهدى ، واتباعه لهواه ، وكان أمره ضَياعاً وهلاكاً ، حيث ترك الإيمان ، وتعلل بأَسباب واهية ، فمثل هذا لاوزن له عندنا ، والوزن كل الوزن لأَهل الحق الثابتين عليه وإن كانوا فقراء ، فدع هؤُلاء ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ؛ « إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ » .

٢٩ – (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) :

وقل أيها الرسول لهؤُلاء المشركين الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا واتبعوا هواهم وكان أمرهم ضياعاً – قل لهم – هذا القرآن الذى أدعوكم إلى الإيمان به هو الحق من ربكم لا ريب فيه ، ولست عليكم بجبار ، فمن أراد الإيمان به عن اعتقاد راسخ ، دون اشتراط إبعاد الفقراء فليؤْمن ،وله ثوابه ،ومن أراد الكفر به عن هوى وحقد وعنادٍ فليكفر وعليه عقابه .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) :

هذه الجملة تعليل للأمر السابق ، أى قل لهم أيها الرسول : ما أمرناك به من دعوتهم إلى الإيمان بما أنت عليه من الحق وتخييرهم بين الإيمان والكفر به على سبيل الوعيد ، لأَنا هيأْنا لهؤلاء الظالمين المعاندين المستكبرين إن استمروا على كفرهم – هيأْنا وأعددنا لهم – نارًا هائلة أحاط بهم لهبها الذى يشبه السرادق فى إحاطته بهم .

(وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) :
وإن يستغيثوا من شدة العطش ولهيب الأجواف يغاثوا بماء كعكر الزيت ، شديد الحرارة بحيث إذا قرب من أفواههم يشوى وجوههم وينضجها ، فما ظنك بأجوافهم ؟ بئس الشراب هذا الماء الذى يشبه المهل ، وساءت النار منزلا ومقرا . أخرج الإمام أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم وصححه وآخرون عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى -كالمهل- (كعكر الزيت ، فإذا قربَ إليه سقطت فروة وجهه فيه) .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدنٍ) : جنات إقامة واستقرار ، من عَدَنَ بالمكان أقام به واستقر فيه .

(أساوِرَ) : جمع أسورة ، جمع سوار بكسر السين وضمها ، وهو مافى الذراع من الحلى .

(من سُنْدُسٍ) : السندس رقيق الديباج وهو مُعَرَّب بلاخلاف ، قيل أصله بالهندية سندون وغيرته الروم إلى سندوس ، ثم عرب بحذف الواو ، وقيل أصله فارسى .

(وإسْتبرق) : هو غليظ الديباج كما قال قتادة وعكرمة ، أو هو ديباج منسُوج بذهب كما قال ابن بحر .

(الأَرَآئِكِ) : السُّرُرُ فى الحجال ، فإن لم توجد فى الحجال فهى سُرُرٌ وليست أرائك ، أخرجه البيهقى عن ابن عباس .

التفسير

٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) :

بين الله فى الآية السابقة سوء مصير الكافرين ، وبين فى هذه الآية والتى تليها حسن مصير المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء .

والمعنى : إن الذين صدقوا بما أنزل الله عليك من الحق ، وعملوا بعد إيمانهم الأعمال الصالحات التى دعوتهم إليها حسبما أوحى إليك ربك ، إنا لانضيع أجر من أحسن منهم عملا من تلك الأعمال بل نحسن جزاءه عليه ، فكيف بالذى تَرَقَّى فى عمل الصالحات ، وشغل نفسه بالطاعات والخيرات ، إن أجره لا شك عظيم ، كما يصوره قوله سبحانه :

٣١ - (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان عظمة أجور المؤمنين الصالحين .

والمعنى : أولئك المؤمنون المواظبون على عمل الصالحات ، لهم ثواباً على إيمانهم وصلاحهم جناتُ إقامةٍ واستقرار ، لا يبرحونها بأنفسهم ولا يخرجهم منها غيرهم ، فهم فيها خالدون تجري من تحت غرفهم وقصورهم الأنهار وهم فيها آمنون ناعمون ، يحلون فيها بأذرعتهم من أساور من ذهب لتزداد رفاهتهم ومتاعهم ونعيمهم ، ولبس الأساور فى الآخرة للرجال لاعيب فيه ، لأنه بين قوم يعتادونه ، بخلافه فى الدنيا فإنه بين قوم لا يعتادونه ، فلهذا يعيبونه ، فالشيء يكون مستحسناً فى حال ، ومستهجناً فى حال آخر .

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) :

ويلبس أهل الجنة ثياباً خضرًا من رقيق الديباج وغليظه ، فوق تحليتهم بأساور من ذهب ، زيادة فى بهائهم ومتعتهم ، فإن الخضرة تمنح البهاء وتسر النفس أكثر من غيرها من الألوان ، ولهذا قال القائل : ثلاثة يذهبن الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) :

أى أنهم يتمتعون هذا المتاع فى الجنة ، فى حال كونهم متكئين فيها على السُّرُرِ داخل الحجال[1] نِعْمَ الثواب ذلك الذى وعدوا به ، لمن الجنة ونعيمها المقيم ، وحسنت الجنة دار إقامة ، بما اشتملت عليه من فنون الجمال ، وألوان النعيم .

(﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) : أى أحطناهما بنخل . يقال حَفَّ القومُ بفلان يحُفُّون حفًّا طافوا به والحِفاف الجانب . (بِنَخْلٍ) : النَّخْل يؤنث ويُذَكَّر اسم جمع ، واحدته نخلة وجمعه نخيل .

(أُكُلَهَا) : الأُكل بسكون الكاف وبضمها الثَّمْرُ والرزق والحظ من الدنيا .

(وكَانَ لَهُ ثَمرٌ) : الثَّمرُ محركة حمْل الشجرة ، وأنواع المال ، الواحدة ثَمرةٌ بفتحاتٍ وثَمرةٌ كَسَمُرةٍ ، والجمع ثِمار كرجالٍ ، وجمع الجمع ثُمُرٌ بضمتين .

---

(١) الحجال جمع حجلة . وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس — مختار الصحاح .

(وَهُو يُحاوِرُه) : يُراجعه ، يقال تحاوروا أى تراجعوا الكلام بينهم .
(وَأَعَزُّ نَفَرًا) : النفر محركة جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل إلى سبعة .
(أَنْ تَبِيدَ) : أن تهلك وتفنى . (خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : المنقلب العاقبة والمصير .

التفسير

٣٢ـ (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . .) الآية .

المعنى : واضرب أيها النبى مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى مع مكابدتهم ألم الحرمان والفقر ، وللكافرين الذين استنكفوا عن مجالسة الفقراء من المؤمنين . وجحدوا فضل مُعطِيهم مع تقلبهم فى نعيمه ، لتبين بهذا المثل للفريقين ولكل من يتعزز بالدنيا ويغترّ بها ـ لتبيّن ـ حالًا فيها عبرة للمعتبرين ، وتبصرة للمستبصرين .

قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى أخوين مخزوميين من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو مسلمة عبد الله بن عبد الأسود . والآخر كافر هو الأسود بن عبد الأسود . وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بنى إسرائيل ، أنفق أحدهما ماله فى سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله . ونظرا لهذا الخلاف نرى عدم التقيد برواية منهما ، فكما يحتمل أن القصة واقعية يعلم الله صاحبيها ، يحتمل أيضاً أن تكون مثلا ضربه الله لهذه الأمة لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجرا وإنذارا ـ ذكره الماوردى .

٣٢ـ (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمَا زَرْعاً) :
أى جعل الله لأحد الرجلين ـ وهو الكافر ـ بستانيْنِ من كروم طابت أصولها ، وتنوعت ثمارها مذاقاً ولونًا ، وكلام الراغب يشير إلى أن العنب مشترك بين الثَّمَر والكرم وهو شجرها وفى إطلاق اللغة ، وقد أفادت الآية الكريمة أن النخل محيط بالجنتين من جميع جهاتهما لتصون الأعناب وتحفظها ، وأن الزرع وسطها ، لتكونا جامعتين للفواكه والأقوات على هذه الصورة الرائعة والوضع الأنيق .

٣٣ـ (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) :

المعنى أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمرها تامًّا كاملاً طيباً ، ولم تنقص منه شيئاً ، فليست كسائر البساتين ، فإنها غالباً يكثر ثمرها فى عام ويقل فى آخر بسبب مايحدث لها

فيه من تقلبات جوية ، وآفات أرضية أو سماوية ، وربما لا تثمر أصلًا فى بعض الأعوام نتيجة لما ينزل بها من نوازل ، تعوقها عن التفتح وإخراج الزهر المفضى إلى الثمر ،

(وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) : وأجرينا بين الجنتين نهرًا غزيرَ الماء ، تيسيرًا لسقيهما ، وزيادة فى جمالهما وطيب هوائهما ، وتقديم إيتاء الأكل فى قوله تعالى : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا » على تفجير النهر فى قوله تعالى : « وَفَجَّرنا خِلَالَهُمَا نهَرًا » من باب تقديم الغاية على الوسيلة ، والمنفعة على سببها لأنها هى المقصودة من إنشاء البساتين ، وتفجير الأنهار .

٣٤ ـ (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) :

المعنى : وكان لصاحب الجنتين ثمر من أحمال أشجار أخرى ، وكذا من أنواع المال المثمر من ذهب وفضة وحيوان وغير ذلك كما فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وعلى هذا فالثمر لفظ عام ، يطلق على ثمار الأشجار ، وعلى جميع أنواع المال المثمر ،

وهذا الكافر بدل أن يشكر نعم الله عليه . دفعه غروره وتعلقه بمباهج الحياة الدنيا إلى أن يقول لصاحبه المؤمن :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) : قال له ذلك وهو يراجعه الكلام فى إنكاره البعث وفى تَعْييره له بالفقر ، وفخره عليه بالقوة والمنعة ، أى أنا أوفر منك مالًا تعددت مصادره ، وتنوعت موارده ، وأعزُّ حشما وأعوانا .

قال قتادة « تلك والله أمنيَّة الفاجر ـ كثرة المال وعزّة النَّفَر » .

٣٥ ـ (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) :

أى أنه تابع اعتزازه وغروره ، وتمادى فى إعراضه وكفره ، ودخل جنته وهو ضار لنفسه حيث عرضها للهلاك ، وعرض النعمة للزوال. لوضعه الشىء فى غير موضعه . فكان اللائق به أن يعرف للنعمة حقها من شكر المنعم بها ، والتواضع لمجريها جل شأنه . لا ماوقع منه من إنكار وكفر ، حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) : وهذا استئناف أُجيب به عن سؤال مقدر نشأ من ذكر دخول جنته وهو ظالم لنفسه ، كأنه قيل : فماذا قال حينئذ ، فقيل : « قال ما أظنُّ

أن تبيد هذه أبدا » : أى ما أعتقد أن تهلك هذه الجنة مدى الحياة ، فالمراد بالأبديّة طول المكث . لا معناها المتبادر ، وإنما قال ذلك لطول أمله فى الحياة ، وغفلته عن نعْمة الله .

والعدول عن التَّثْنية إلى الإفراد فى قوله سبحانه : « وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » لاتصال إحداهما بالأخرى كأنهما جنة واحدة . أولأن الدخول لايمكن أن يكون فى الجنتين معا فى وقت واحد وإنما يكون فى واحدة فواحدة .

٣٦ - (وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) :

أى أنه تمادى فى كفره بإنكاره البعث اعتقادًا منه ، وردا على صاحبه لما وعظه وخوّفه قيام الساعة ، حيث قال : « وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى لاأحسبها كائنة وقائمة فيما سيأتى .

(وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) : أى أنه إن رد إلى ربه مبعوثاً - على سبيل الفرض والتقدير - كما زعم صاحبه ليجدنَّ فى الآخرة خيرًا من جنته فى الدنيا مرجعاً ومصيرًا تمنياً على الله وادعاءً لكرامته عليه ، ومكانته عنده ، واعتقادًا بأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه . يقول هذا ولم يدر بخلده أنه إمهال واستدراج . حتى إذا أخذه لم يفلته [١] .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾)

(١) اقتباس من حديث الشيخين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

المفردات :

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى ثم جعلك سويًّا معتدلًا .

(لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى) : أصله لكن أنا هو الله ربى ، فحذفت همزة أنا ، وأدغمت نون (لكن) فى نون (أنا) بعد حذف همزتها - قاله الكسائى والفراء وغيرهما .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) : أى ينزل الله عليها عذابًا مقدرًا محسوبًا - ينزله - من السماء ، كالثلج والبرد ونحوهما . (صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا لانبات فيها ولا تثبت عليها قدم ، لما فيها من الوحل أو من الرمال التى تزل فيها الأقدام (مَآؤُهَا غَوْرًا) : أى غائرا فيها وذاهبا فى طبقاتها البعيدة . (فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أى لا تقدر أن ترد الماء الغائر بأية حيلة من الحيل .

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ . . .) الآية .

استئناف كما سبق فى قوله سبحانه : « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ . . » كأن سائلًا سأل عما راجعه به صاحبه المؤمن واعظًا له ، وزاجرًا إياه عما هو فيه من الكفر بالله عُجْبًا وغرورًا فأجيب السائل بالآية .

والمعنى : أن صاحبه المؤمن - حال محاورته له توجه إليه منكرًا عليه ماوقع فيه من جحود وكفر ، فقال له : (أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ) : أى كيف تكفر بالذى خلقك من تراب فى ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ، لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلق أصله ، فيكون ذلك الكافر مخلوقًا من تراب لأنه مادة أصله الذى تناسل منه ، وقيل « خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ » لأنه أصل مادتك التى نشأت منها إذ أنها ناشئة عن أغذية نبتت من التراب (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ) : وهى مادة خلقك القريبة بعد خلق أصلك . وقد بدأ سبحانه خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى جعلك رجلًا فى أحسن تقويم حيث أنشأك معتدل القامة سوىّ الخَلْق . منذ طفولتك حتى أصبحت رجلًا ، تلى أمورك وتصرف شئونك .

٣٨ - (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا) :

المعنى : أنا لا أقول بمقالتك الدالة على الكفر من إنكار البعث وغيره . لكن أنا أقول هو الله ربى . فأنا مؤمن مُوحِّد ، أعترف له سبحانه بالربوبية والوحدانية .

وبقوله هذا أثبت لصاحبه الشرك تعريضًا . للإيذان بأن كفره كان بطريق الشرك . لأنه لمَّا أنكر البعث فقد عجَّز البارى ومن عجَّزه فقد سوَّاه بخلقه فى العجز وهو شِرك . أو المراد من الشرك مطلق الكفر ، وقد أُطلق الشرك عليه كثيرا وجعلوا منه قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ » فأُريد من الشرك الكفر الشامل لما عليه اليهود والنصارى وما عليه غيرهم ، ويقوِّى هذا الإطلاق قوله تعالى فيما سبق حكاية عن الصاحب الكافر : « وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّى » فهو مُقِرٌّ بعدم الشرك والله سبحانه هو ربه لا سواه . ومع ذلك أُطْلق عليه الشرك هنا تعريضا نظرا لأنه يراد منه مطلق الكفر .

٣٩ - (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . . .) الآية .

فى هذه الآية حث وتحضيض من المؤمن للكافر على ما تضمَّنته من النصيحة ، وتوبيخ له على تركها . أى هلا قلت حين دخلت جنتك ونظرت إلى كمال تنسيقها ومختلف ثمارها . « مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » فحمدت الله على ما أنعم به عليك ، حيث أعطاك من المال والولد والرجال ما لم يعط غيرك ، اعترافا منك بقوته ، وإقرارا بعجزك ، وإيمانا بأنه لو شاء لسلبك هذا العطاء الذى جعلته موضع فخرك واعتزازك ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال بعض السلف : من أعجبه شئ من ماله وولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله) .

(إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا) :

٤٠ - (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ) :

أى إن ترنى أمامك أقل منك مالا وأولادا وأعوانا ، فأملى فى فضل الله يجعلنى أتوقع أن يبدل ما بى وبك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك التى كانت سببا فى طغيانك وكفرك بربك .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ) : ويبعث على جنَّتك من السماء قَدَرا محسوبا يكون سببا فى هلاكها .

(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا بلقاء لا نبات فيها ملساء لا تثبت عليها قدم حيث تزلق وتزول عن مكانها . بمعنى أنها تصبح مسلوبة المنافع حتى منفعة المشى عليها . فتكون بذلك أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض .

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أو يُصبح ماؤُها غائرًا أوذاهبًا فيها بحيث لا يمكنه استخراجه من جوفها ، ولا تقدر على تفجيره بمختلف الوسائل والحيل ، والتعبير بغَوْرًا . . بدل غائرًا . . للمبالغة فى ذهاب مائها . . كرجل عدْل بدل عادل ، للمبالغة فى عدله - وإلى هنا انتهت مناظرة المؤمن لصاحبه الكافر وإنذاره . ويحكى الله عاقبة كفره وغروره فيقول سبحانه :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) : أهلك ماله كله . مأخوذ من الإحاطة والاستدارة حول الشىء من جميع جهاته ، تمكنًا منه وغلبة عليه ، ثم استعمل فى كل إهلاك . (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) : يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأُخرى . ثم يعكس الأَمر مرارًا ندمًا على ما حدث ويجوز فى معناها غير ذلك . وسنعرض له فى الشرح . (خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : ساقطة على أعمدتها التى هوت قبلها . (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ) : أى جماعة وليس للفئة واحد من لفظها .

(وَما كَانَ مُنتَصِرًا) : أى ممتنعًا عما ينزله الله به . (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ) : الولاية بفتح الواو وكسرها : النصرة والغلبة .

التفسير

٤٢ - (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا . . .) الآية .

الآية عطف على مقدر. أى وقع بهذا الكافر ما خوَّفَهُ منه صاحبه المؤمن «وأُحِيطَ بِثَمرِهِ » بإهلاك جنتهوما فيها من نخيل وأعناب وزروع . والظاهر أن ذلك كان ليلًا لقوله سبحانه :

« فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا[1] » أى فأصبح يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأُخرى ، ثم يعكس صنيعه ويكرره مرارًا ندمًا وحسرة على ما أنفق فى عمارتها من مال وما بذل فى تنسيقها من جهد ، وما علق على بقائها الدائم من أمل حيث كان يقول : « مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا » ويفسر أبو حيان تقليبه كفَّيه بأنه يبدى باطن كلتيهما ، ثم يعكس ليبْدو ظاهرهما ، ويكرر ذلك من شدة الندم .

فَعَلَ ذلك حين رآها (وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) : أى حين رأى أشجارالكروم ساقطة على أعمدتها التى تصنع لحملها حفاظًا عليها وذلك لسقوط تلك الأعمدة لما أصاب الجنة من عذاب السماء الذى جعلها صعيدًا زلقا .

وذِكْرُ هلاك الكروم مُغْن عن ذكر هلاك النخيل والزروع لأنها حيث هلكت وهى على عروش تسندها وتقويها . فهلاك غيرها بالطريق الأولى .

(وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) : أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ وعرفت أنها كانت بقدرته فلم أشرك به ، وكأنه تذكر موعظة أخيه له. لمَّا أبصر ما نزل بجْنته ، وعلم أن هلاكهما من قبل الشرك وبسببه ، لذلك تمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه . وقيل هذا القول منه توبةٌ عن الشركِ . وندمٌ على ماوقع منه . فيكون استحداثا للإيمان . لأن ندمه على الشرك فيا مضى . يشعر بأنه آمن فى الحال . فكأنه قال آمنت الآن وليت ذلك كان أولًا .

٤٣ - (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .) الآية .

المعنى : ولم يكن لهذا الكافر ولد ولا عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ، يقدرون على

---

(١) هذا إذا لم تكن أصبح بمعنى صار ، فإن كانت كذلك فلا تشير الآية إلى زمن الهلاك حينئذ .

نصرته بدفع الإهلاك عن جنته أو ردِّ ما هلك ، أو الإتيان بمثله من دون الله . لأنه سبحانه هو الفعال لذلك كله . فهو القادر وحده وبيده مقاليد السموات والأرض .

(وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) :أى وما كان ممتنعا عن انتقام الله بما زعم لنفسه من قوة وجاه .

٤٤ ـ (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ . . .)[1] الآية .

هذه الجملة تأكيد وتقرير للآية السابقة والمعنى فى هذا الموطن وتلك الحال التى حلَّت بجنته . لن يجد مُنْقِذا له يدفع عنه ما نزل به . لأن النصرة والغلبة لله الحق. فلا يقدر عليها أحد غيره .

واستظهر أبو حيان كون هنالك إشارة إلى الدار الآخرة . ويكون الكلام تمَّ عند قوله : « مُنتَصِرًا » أى تقع الموالاة لله الحق يوم القيامة من كل أحد ـ مؤمن أو كافر ـ حين يقع العذاب لقوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين »[2] . (هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) : أى الله خير جزاء فى الدنيا والآخرة لمن آمن به واتبع سبيله ، وخير عاقبة لأوليائه ، بمعنى أن الأعمال التى تكون له سبحانه . ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة .

وليس ثَمَّ غير الله يُرْجى منه نفع حتى يكون رجاءُ الله خيرًا ، من رجائه ولكنه ورد حسبما يقع فى ظن الجهال لا بحسب الواقع تقريعا لهم وتوبيخا ، وقد يقال إن التفضيل هنا على غير بابه ، فلا ثواب ولا خير يومئذ إلا لله ظاهرًا وباطنًا .

(وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾)

(١) قرأ الأعمش وحمزة والكسائى الولاية بكسر الواو والباقون بفتحها وهما بمعنى واحد بمعنى النصرة والغلبة وقيل الولاية بالفتح من الموالاة كقوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا)من الآية ٢٥٦ البقرة،وبالكسر بمعنى السلطان والقوة، وقال أبو عبيدة إنها بفتح الواو للخالق وبكسرها للمخلوق .

(٢) سورة غافر : آية ٨٤ .

المفردات :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) :يابسا متفتتا من الهشْم وهو كسر الشيء اليابس .

(تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ): تفرقه وتنسِفه. يقال ذَرَتْه الريح تذْروه ذرْوًا : إذا طارت به وفرَّقته ، ومثله أذرته تُذْرِيه إذراءً .

التفسير

٤٥ - (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا . . .) الآية : أى اذكر للناس - ولا سيما هؤلاء المتكبرون الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين - اذكر لهم - مثل الحياة الدنيا ، ببيان ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها . وعدم استقرارها . وسرعة زوالها حتى لايطمئنوا إليها ولا يعكفُوا على التعلق بها ، ولا يعرضوا عن الآخرة دار الجزاء والبقاء .

أَوْ بيِّنْ لهم صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها ، هذه الحياة :

(كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) : أى أنها تشبه حال النبات الذى أنبته الله بماءٍ كثير أنزله من السماء، فاختلط بهذا الماء نَباتُ الأَرض بعد أن روى منه وامتلأت به عروقه ، فنما وكثر أو اختلط بسبب المـــاء نباتُ الأرض . فالتف بعضه ببعض بعد أن كثر واستوى على سوقه . هذا النبات الجميل الناضر لم يلبث حتى أسرع إليه الفناءُ بدون إبطاء .

ويشير إلى ذلك الإتيان بالفاء فى قوله سبحانه :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) : أى فأصبح متكسرا متفتتا من اليُبْسِ ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به وتجىءُ ، فالمشبه فى الآية : الحياة الدنيا فى جمالها وزينتها ثم فنائها،والمشبه به : الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات يكون أخضر مهتزا ثم يصير هشيا تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن .

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) :أى أنه سبحانه على كل شىء من الأشياء - ومن جملتها الإيجاد والإفناء - كامل القدرة يفعل ما يشاء جل شأنه .

(ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)

التفسير

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا . . .) الآية .

فى هذه الآية بيان لما كانوا يفتخرون به من زينة الحياة الدنيا متمثلة فى المال والبنين لأَنَّ فى المال جمالا ونفعا يصلون به إلى مآربهم وكل ما تقتضيه حياتهم ، وفى الأَولاد قوةً ودفعا يبلغون بهما إلى ما ينشدونه من عزة ومنعة . كما وقع فى محاورة الصاحب الكافر لصاحبه المؤمن حيث قال له على سبيل التعالى والفخر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا » .

والمعنى : إن ما تفتخرون به من المال والبنين شيءٌ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد عرفتم شأْنها فى سرعة زوالها . وقرب اضمحلالها ، فكيف زينتها التى هى صبغة من صفاتها ،إنها تزول وتفنى قبل زوالها ــ فلا تجعلوها كل همكم ، وتعرضوا عن الآخرة دار الكرامة والجزاء بل اعملوا لخيرى الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى : « وابتَغِ فِيمآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولَاتنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنْيَا (1) » .

والآية ردٌّ على عيينة بن حصن وأَمثاله ،الذين افتخروا بالغنى والشرف على الفقراء والمستضعفين من المؤمنين . إذ بينت لهم أَن ما كان من زينة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، وإنما يبقى ما كان زاداً فى القبر ، وعدة فى الآخرة ، حيث قال سبحانه :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) :

قال ابن عباس وابن جبير وأَبو ميسرة : الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس وقال ابن عباس فى رواية أُخرى : هى كل عمل صالح من قول أَو فعل يبقى للآخرة : ا هـ

(1) سورة القصص ، من الآية ٧٧

فيدخل فيه كل عمل جادٍّ لخدمة الإسلام والذود عنه بالنفس والمال والمقال، وكل عمل ينصر حقا أو يدفع باطلا . أو يعاون محتاجا أو ينشر علما – وقال الجمهور هى الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل وما هى يارسول الله قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وهناك أقوال أخرى فى معنى الباقيات الصالحات ، وحسبنا ما ذكرناه .

ويدخل فى عموم معنى الباقيات الصالحات . أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى دخولا أوليًّا ، فإن لهم من كل نوع من أنواع الخيرات الحظ الأوفر ، وتلك الأعمال باقية دائمة لبقاء عوائدها عند فناء ما تطمح إليه النفس من حُظوظ الدنيا ، وحسبها أنها عند ربك وفى كنفه . وتتحقق خيريتها فى ثواب جزيل يعود على صاحبها ، وأمل عظيم ينال به فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا ، كما يشير إلى ذلك قوله جل شأنه : « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » ، أما زينة الدنيا من المال والبنين فليس لها ذلك إذ هى مضمحلة زائلة حيث نسبت إلى الحياة الدنيا وهى بما فيها ومن فيها إلى فناء ، فمن اهتم بزينتها وقصَّر فى عمل الآخرة . باءَ بالخيبة والخسران .

وتقديم المال فى الآية علىَ البنين لأن الزينة به أظهر ، وهو ميسور لكل أحد ، فى أى وقت وحين غالباً .

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) : ننقلها ونزيلها من أماكنها على وجه الأرض. (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل وشجر ونبات وبناء (وَحَشَرْنَاهُمْ) : جمعناهم من كل صوب. (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) : فلم نترك منهم أحداً دون حشر .

(وَوُضِعَ الكتبُ) : « أل » فى الكتاب لجنس الكتب ، والمقصود كتب صحائف الأعمال .

(مُشْفِقِين) : خائفين مما فى كتبهم. (يَاوَيْلَتَنَا) : الويلة الهلاك وحلول الشر والحسرة .

(إِلَّآ أَحْصَاهَا) : أى عدها وأحاط بها .

التفسير

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ . . .) الآية .

يخبر الله سبحانه بهذه الآية وما بعدها عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام ، تحذيراً للمشركين وترهيبا .

والمعنى : واذكر لهم أيها النبى يوم ننقل الجبال . ونزيلها من أماكنها . ونسيِّرها على هيئاتها كما نسيِّر السحاب يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ

تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »[١]. ثم تتشقق وتتفتت فتكون كحبات الرمل المتناثرة كما قال سبحانه : « وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا »[٢]. ثم تصير غبارا منتشرا تسوقه الرياح حيث أراد الله كما قال تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا »[٣] وفى نهاية أمرها . تصبح كسراب يُرى من بعيد حتى إذا جئته لم تجد شيئا ، وذلك لتفرق أجزائها تفرقا تاما كما قال سبحانه : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »[٤].بعد هذا الصنيع من القوى القادر ، يظهر سطح الأرض مستويا ، لا عوج فيه ولا أمتا أى لا انخفاض به ولا ارتفاع . ويشير إلى ذلك قوله جل شأنه :

(وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولكل من تتأتى منه الرؤية ، أى وترى الأرض من جميع جهاتها بادية ظاهرة ، ليس عليها ما يسترها أو يحجب جزءا منها من أودية وكُثبان ، وجبال وأشجار وأبنية وبحار ، وزروع وأعشاب ، حيث اجتثت جبالها وهدمت أبنيتها ، واقتلعت أشجارها ، وغاضت بحارها ، وانمحت زروعها وأعشابها وغدت قاعا صفصفا[٥] . أى أرضا مستوية جرداء .

وقيل بارزة أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ، كما قال تعالى : « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ »[٦].واستغنى بذكر زوال الجبال فى الآية عن ذكر زوال غيرها.لأنه يُعلم من ذكر زوالها ، زوال غيرها بطريق الأولى : إذ هى أعظمها وأثبتها وأضخمها .

(وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : أى وجمعناهم إلى الموقف من كل حدب وصوب بعد قيامهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا ، هانَ شأنُه أو عَظُم كما قال سبحانه : «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »[٧].وأُثر التعبير بالماضى فى قوله : « وَحَشَرْنَاهُمْ »للدلالة على تحقق وقوع الحشر التابع للبعث الذى أنكروه حيث قالوا : « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » تكذيبا لهم وتقريعا ؟ .

---

(١) سورة النمل من الآية – ٨٨ (٢) سورة المزمل الآية – ١٤ (٣) سورة الواقعة الآيتان – ٥ ، ٦

(٤) سورة النبأ الآية – ٢٠ (٥) القاع : المستوى من الأرض ، وزاد ابن حارس الذى لا ينبت .

(٦) سورة الانشقاق الآية ٤ (٧) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠

٤٨ - (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا . .) الآية .

أى أنهم يُحضَرون يوم الموقف العظيم لا يتخلف منهم أحد فيقفون مجتمعين غير متفرقين ، ليقضى الله بينهم بالحق وفى قوله : « صَفًّا » ما يشير إلى اجتماعهم صفوفا ، وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً » . وقال مقاتل يعرضون صفا بعد صف لا أنهم صف واحد .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : تقريع للمشركين المنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد ، وذلك بأن يقال لهم لقد جئتمونا على هيئة تشبه الهيئة التى كنتم عليها عند خلقكم أول مرة ، حفاة عراة غُرْلا أى غير مختونين ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا . قلت يارسول الله الرجال والنساء ، ينظر بعضهم إلى بعض قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . وفى رواية أخرى « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

أويقال لهم : لقد جئتم وليس معكم شىءٌ مما كنتم تفتخرون به من الأموال والأنصار لقوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » [1] . أى بعثناكم بعد الموت فرادى كهيئتكم عند خلقكم وإحيائكم أول مرة بلا مال ولا ولد ولا سلطان .

(بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا) : انتقال لمواجهة منكرى البعث بالتوبيخ والتقريع أى ادعيتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، ولن نجعل لكم موعدا نُنْجِزُ فيه ماوعدنا من البعث وتوابعه ، وقد خاب ظنكم ، وكذب زعمكم ، وتحقق عيانا ما أنكرتموه ، فقد أحييناكم بعد موتكم وجئتمونا للحساب .

٤٩ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية .

الآية معطوفة على قوله : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا » داخلة تحت الأمور الهائلة العظيمة من أهوال يوم القيامة التى أريد تذكيرهم بها .

---

(١) سورة الأنعام من الآية - ٩٤

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يضع الكتاب . ويُقصَد به صحائف الأعمال وكتبها ، وذلك بِجَعلها فى أيدى أصحابها يأخذ كل منهم كتابه بيمينه أو يشماله ، وحينئذ تُبْصِر العصاة جميعاً خائفين مما فى الكتاب من الجرائم التى اقترفوها . والذنوب التى باءوا بإثمها ، ويدخل فيهم منكروالبعث دخولا أوليًّا .

(وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا) :

أى أنهم عند وقوفهم على كلما فيه وعلمهم بما فى تضاعيفه . ترتفع منهم أصوات الحسرة والحيرة . ويتمنون الموت والهلاك حتى لا يروا العذاب الأليم ، وقد دعاهم إلى ما صنعوا ، ماوجدوه فىالكتاب الذى وضع فى يد كل منهم مما يدعو إلى العجب والفزع الذى أشار إليه قولهم : « مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ » إلخ حيث إنه ليس له نظير ولا مثيل من الكتب الأخرى . فهو على حال لم يَتْرك معها صغيرة ولا كبيرة إلا عدها وأحاط بها . قال سعيد بن جبير : إن الصَّغيرة اللَّمم كالمسيس والقُبَل ، والكبيرة كالمواقعة والزنى .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : ياويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قَبْلَ الكبائر .

(وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً) : أى ماعملوه فى الدنيا وجدوه مسطورا فى كتاب كل منهم أو وجدوه حاضرا بين أيديهم حالا غير مؤجل ، أو وجدوا جزاء أعمالهم .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) :

أى لا يأخذ أحدا بجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ، وقد وعد سبحانه بإثابة المطيع والزيادة فى ثواب ماعمله مما أَمَرَهُ بهِ ، وارتضاه منه ، كما وعد بتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة على ماعمل ، وأنه قد يغفر له ماعدا الكفر كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ »[1] . سبحانه جل وعلا يفعل مايشاء ويختار .

---

(١) سورة النساء من الآية ١١٦

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ) : للسجود معنيان ؛ معنى لغوى وهو : التواضع والخضوع تحية وتعظيما بانحناء وغيره لا بوضع الجبهة على الأرض. ومعنى شرعى :بوضع الجبهة على الأرض للعبادة ولا يكون هذا إلا لله تعالى .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) :أى فخرج عن أمره . لأن معنى الفسق الخروج ،من قولهم فسق الرُّطَب فسوقًا إذا خرج عن قِشْرِه . وفعله فسق كنصر وضرب وكرُم فسقا وفسوقا . وقيل صار فاسقاً بسبب عصيانه أمر ربه فعن للسببية .

التفسير

٥٠ ـ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...) الآية .

أى . واذكر أيها الرسول وقت قولنا لهم « اسْجُدُوا لِآدَمَ » سجود تشريف وتكريم وفق المعنى اللغوى للسجود ؛ وهو يحصل بانحناء ونحوه دون وضع الجبهة على الأرض ، وهذه تحية أبطلها الإسلام . وأحل السلام والمصافحة محلها .

أما وفق المعنى الشرعى فلا لأنه لا يتحقق إلا بوضع الجبهة على الأرض قصدا إلى العبادة وهو مأمور به لله وحده .(فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ) : أى سجد الملائكة جميعًا امتثالا وطاعة ما عدا إبليس ، فإنه لم يكن من الساجدين إباءً منه واستكبارا ، وقد حمله على هذا التمرد أنه (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) :فهو أجنبى عنهم حيث خلق من مارج من نار . وخلقوا من نور . فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنهاعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خُلِقَت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار » وهذا ظاهر فى أنه ليس منهم بل كان معهم ومعتبرا فى عدادهم لوجوده بينهم ، ولذا قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « قاتل الله أقوامًا زعموا أن إبليس من الملائكة والله يقول : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنبارى فى كتاب الأضواء وأبو الشيخ فى كتاب العظمة أنه ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأَصْل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس .

ولكون إبليس عليه اللعنة من الجن ، وليس من الملائكة استكبر فاستحب العمى على الهدى ، وتنكَّب الطريق .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) : أى فخرج عن طاعته سبحانه ـ قاله الفراءُ ، وأصله مِنْ فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وقيل معناه صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه . بمعنى أتاه الفسق لما أمر فَعَصَى : فعن للسببية ، وقيل ففسق عن رَدِّ أمر ربه بخروجه عن الطاعة ، ففى الكلام مضاف مقدر والفسق يقع على القليل والكثير من الذنوب ، ولكن تُعُورِف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر .

وذُكِرتْ قصة إبليس هنا لتشديد النكير عليه والتنفير منه ، تبعيدا عن المعاصى ، وعن امتثال ما يوسوس به ، وذلك لا يعد تكرارا مع ذكرها قبلُ ، حيث إن لها فائدة غير الفائدة التى كانت لذكرها قبلا وهى أنه سبحانه لما ذكر يوم القيامة والحشر ، وذكر خوف المجرمين ورهبتهم مما سُجِّل فى كتبهم من كل صغيرة أو كبيرة ، ناسب الإتيان بها تذكيرا لهم بأن إبليس اللعين هو الذى حملهم على المعاصى ، واقتراف الآثام ، واتخاذ الشركاء والأنداد ، فهم فى ذلك تابعون لتسويله وإغرائه كما ينبىءُ عنه قوله تعالى :

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) : بهذا الاستفهام وبَّخ الله المشركين وأنكر عليهم بعد علمهم بقبائح الشيطان وأباطيله أن يستجيبوا له فيتخذوه وذريته أولياء وأعوانا لهم من دونه . مع أنهم لايجهلون حالهم من العداوة والبغضاء لهم ، والمراد من « ذريته » أعوانه وأشياعه ممَّن سلك طريقه فى الإضلال والإفساد مِنْ شياطين الجن والإنس ، وقال ابن عطية فى قوله : « وذريته » ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من

الشياطين الذين يأتون بالمنكر، ويحملون على الباطل ، ونقل الآلوسى فى تفسيره ، أن بعضهم قال : لا ولد له والمراد من الذرية الأتباع من الشياطين وعُبِّر عنهم بذلك مجازًا تشبيهًا بالأولاد . ا هـ .

وأعدل الأقوال وأسلمها فى المسألة قول القشيرى أبو نصر كما نقله القرطبى : إن الله أخبر أن لإبليس أتباعًا وذرية ، وأنهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم. ولا يثبت عندنا كيفيةٌ فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس . فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح : ا هـ .وهو يتمثل ويتصور ، ويظهر ويختفى ، ويَرى من حَيْثُ لايُرى . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال « : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى فيُحَدِّثهم بحديث الكذب . فيتفرقون يقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أعرف ما اسمه يُحَدِّث » . وفى التنزيل يقول الله تعالى : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُم »[1] .

(بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) : أى بئس البدل عن الله تعالى للظالمين : إبليس وذريته ، أو بئس عبادة الشيطان ، بدلا عن عبادة الله .

والالتفات من الخطاب فى قوله تعالى : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ » إلى الغيبة فى قوله تعالى : « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ » مع وضع الظاهر موضع ضمير المخاطبين ، ليشير اللفظ الظاهر إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح يؤْذِن بأنهم أهل لشدة السخط ، وبالغ الازدراء .

(۞ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾)

المفردات :

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ): ما أريتهم . (عَضُدًا): العضد مابين المرفق والكتف من الذراع ، والمقصود هنا . المعين أو النصير .

(١) الأعراف : من الآية ٢٧

التفسير

٥١ - (مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ) :

بعد أن أبرزت الآية السابقة موضع العجب من اتخاذ هؤلاء الظالمين إبليس وذريته أولياء لهم من دون الله أوضحت هذه الآية الكريمة عدم صلاحية إبليس وجنوده لأن يكونوا شركاء لله وأعواناً له ، كما بينت ضلال تابعيهم وغباءهم ، حين اتخذوهم أولياء لهم . والمعنى :

أن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما وحده ولم يهيئ لإبليس وذريته مشاهدة هذا الخلق ولا المشاركة فيه. حيث خلقت السموات والأرض قبل خلق إبليس وذريته فكيف جعلهم أتباعهم الظالمون أولياء لهم من دون الله ، وهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئا عن كيفية خلقهم وتدبير أمورهم فإنهم : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ.وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »[1] .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) : ولا ينبغى لى - وأنا القوى العزيز- أن أحتاج إلى مُعين أو نصير يساعدنى فى الخلق والتدبير من هؤلاء الضالين المضلين .

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَوْبِقًا) : أى مهلكًا يشتركون فيه وهو النار ، والموبق اسم مكان من وَبَقَ - كوثب - بمعنى هلك . (فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : الظن هنا بمعنى التَّوقع والعلم ، أى توقعوا وأيقنوا أنهم مخالطوها واقعون فيها ، ومثل ذلك قوله تعالى: « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[2] . أى يوقنون أنهم ملاقوه . (مَصْرِفًا) : مجالا للانصراف أو الهرب والفرار .

(١) سورة الفرقان : الآية ٣ (٢) سورة البقرة : الآية ٤٦

التفسير

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) : واذكر لهم يامحمد يوم الجزاء الذى ينتظرهم طال الزمن أو قصر ، يوم يقول لهم العلىُّ الأَعلى مؤنِّبًا لهم على اتخاذهم إبليس وذريته أولياءَ لهم من دونه - اذكر يوم يقول لهم - ادعوا شركاءَكم الذين عبدتموهم من دونى لينقذوكم من العذاب المحيط بكم؛ وفى هول الموقف ينادى الظالمون شركاءهم فلا يلبون نداءهم ولا يستجيبون لاستغاثتهم ، لأنهم فى مهلكهم مشتركون ، وفى جهنم خالدون ، فكيف يستجيبون ؟ ولهذا قال سبحانه :

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا) : أى وجعلنا بين الداعين من المشركين والمدعوين من الشياطين ، موبقًا ومهلكًا مشتركا وهو النار التى يصلونها جميعًا .

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : وشاهد المجرمون النار فأيقنوا أنهم واقعون فيها لا محالة . قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة ». رواه أحمد وابن جرير.

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) : ولم يجدوا مجالا للهرب من هذا المصير الأَليم قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »[1] .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾)

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥٤

المفردات :

(صَرَّفْنَا) : نوَّعْنا ووضحنا . (من كُلِّ مَثَلٍ) : المثلُ الحكمة أو الموعظة .

(جَدَلًا) : مُمَاراةً ومخاصمة . (سُنَّةُ الأَوَّلينَ) : أى طريقة الله فى المشركين السابقين ، والمراد بها العذاب الذى حل بالأمم السابقة حينما أصروا على الكفر والعناد .

(قُبُلًا) : بضمتين جمع قبيل أى أنواعًا ، وأجاز أبو عبيدة أن يكون معناه مقابلة وعيانًا كقراءته قِبَلًا بكسْر ففتح ، فإن معناه كذلك عند ابن عباس .

التفسير

٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . .) الآية .

ولقد بينا ووضحنا فى القرآن الكريم من التوجيهات الرشيدة والمواعظ الحكيمة ، بطرق عديدة وأساليب متنوعة ، من القصص والعبر والحكم التى يثْبُتُ بها الحق فى الأذهان ، ولا تدعُ مجالا للشك والإنكار . وتملك على القارئ مشاعره ، لأنها فى الغرابة والحسن واستمالة النفس كالأمثال ليتلقوها بالقبول ، فلم يمتثلوا .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا) : وكان الإنسان منذ نشأته حسب فطرته ، أكثر شىء جدالا فى الدفاع عن رأيه بالباطل متلمسًا المعاذير التى يبرر بها تصرفاته[١] ، إلا من عصم الله . أخرج الإمام أحمد والشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه طرق بيت على وفاطمة ليلا فقال : ألا تصليان ؟ فقال على : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى ، إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىَّ ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : « وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا » . .

٥٥ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ...) الآية .

ساقت الآية الكريمة مثلا من أمثلة الإمعان فى الضلال واللجاج والجدال بالباطل ، مع وضوح الحق وأسباب الهداية .

(١) يذكر علماء النفس أن كل مخطئ يتلمس تبرير خطئه بما يسمونه « نظرية التبرير » وقد ساق القرآن الكريم أمثلة عديدة بما برر به المشركون عقائدهم وأعمالهم .

والمعنى : وما حمل الناس على ترك الإيمان بعد قيام أدلته ووضوح حجته ، إلا إصرارهم على العناد واللجاج ، وتحديهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم العقاب الذى توعدهم الله به ، كما أنزله بالأمم السابقة التى أصرت على الكفر والعناد ، وقد حكى الله طلبهم العذاب بقوله : « وَإِذ قَالُوا اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) : أو يحل بهم العذاب الأليم عيانا جزاء إمعانهم فى الكفر والضلال فى صور شتى من النكال والوبال ،ويجوز أن يكون المعنى أن الله حال بينهم وبين الإيمان ، لأنهم غير أهل له بما جبلوا عليه من عناد ولجاج ، فقد انصرفوا عن دواعى الهدى والرشاد كما قال سبحانه : «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(٢)

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) : ليزيلوه ويبطلوه .

(أَكِنَّةً) : أغطية ــ جمع كنان .

(وَقْرًا) : ثقلا فى السمع ، يقال : وَقِرَت أُذُنُه وَقْراً ، كفَهم فهِما إذا أصابها ثقل فى السمع أو صمم وَوَقَرَها الله وقرا من باب وَعَدَهُ وعْدا .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٢.   (٢) سورة التوبة ،من الآية : ١٢٦

التفسير

٥٦ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) :

ومابنعث الرسل إلى الناس إلا لتبشيرهم بالمثوبة الحسنى إن آمنوا بالله وأطاعوه فيما شرعه لهم على ألسنتهم ، وإنذارهم بالعقاب الخالد إن كفروا به وعصوا رسله .

« لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[1] . فلم يبعثهم الله ليقترح أقوامهم الآيات عليهم بعد ظهور المعجزات التى أيدهم الله بها .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) :ولكن الكافرين يستقبلون دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل ، للقضاء على الحق بعد وضوحه ، دون استناد إلى دليل أو برهان ،كما قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ »[2] . ومن أمثلة هذا الجدل الباطل قول مشركى قريش فى القرآن الكريم :

« لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »[3] . وقولهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[4] . يعنون أن الرسول ليس من عظماء القريتين ، فلا يصح أن يكون رسولا أنزل عليه القرآن .

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) :أى قابلوا آيات الله البينات بالسخرية والاستهزاء فقد سخروا بحديث القرآن الكريم عن شجرة الزقوم (راجع شرح الآية ٦٠ من سورة الإسراء) كما سخروا بالقرآن ، فزعموا أنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، كما سخروا بوعيده بالبعث والنشور فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »[5] .

٥٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) :

ولا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق ممن أعرض عن آيات الله البينات وانصرف عن أدلتها الواضحات إلى الباطل ، فأمعن فى ارتكاب الذنوب والآثام ناسيا ماجناه على نفسه وعلى الناس من بغى وعدوان .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا) :إن الحق واضح ، وأصحاب العقول السليمة يدركون الرشد من الغى ويميزون الحق من الضلال ، والله سبحانه حال بين

(١) سورة النساء ،الآية : ١٦٥ (٢) سورة الحج ،الآية: ٨ (٣) سورة الأنفال ،الآية: ٣١
(٤) سورة الزخرف الآية ٣١ (٥) سورة الإسراء ،الآية: ٤٩

هؤلاء المشركين وبين الإدراك السليم ، فجعل على عقولهم أغشية كراهة أن يفهموه فهماً يؤدى بهم إلى السلوك السَّوِىِّ ، لأنهم طبعوا على الخبث والضلال ، وجعل الله فى آذانهم صَمَماً عن الاستماع إلى الحقائق وإدراكها وذلك لانصرافهم عن الحق ، وتواصيهم بعدم سماعه ، حيث قالوا : « لَاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون[1] » ولهذا باعد الله بينهم وبين الإصغاء والاستفادة منه جزاءً انصرافهم ، ولو علم فيهم خيرًا لهداهم وأسمعهم سماع قبول قال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ ، وَلَو أَسْمَعَهُمْ لَتولَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ[2] »

والمقصود من جعل الله الأكِنة على القلوب ، والوَقْر فى الآذان أن لايأْخذ بقواهم العلمية نحو الحق لإعراضهم عنه .

(وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوآ إِذًا أَبَدًا) : وإن تدعهم إلى طريق الهدى فلن يستجيبوا لك ، لأنهم الآن ليسوا أهلا للهداية ، ولأن الهداية ليست بيدك ، وإنما هى بيد الله « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » وذلك حينما يحين أوان الهداية ، وقد هداهم الله إلى الحق فى فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة .

(وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(الْغَفُورُ) :واسع المغفرة والصفح . (مَوْئِلاً) :ملجأً يلجئون إليه . (مَهْلِكِهِمْ) : هلاكهم .

التفسير

٥٨ ـ (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) : وربك ـ أيها الرسول ـ واسع المغفرة صاحب الرحمة ، حيث كتبها على نفسه فضلا وكرما ، فلا يعذب أحدا من عباده المحسنين الطائعين .

(١) سورة فصلت من الآية ٢٦ (٢) سورة الأنفال الآية ٢٣

«مَايَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً» [١] . أما هؤلاء المشركون فهم الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والعناد فاستحقوا سوء الجزاء ، ولكنه تعالى يتأنى بهم ، ولايتعجل معهم – كما قال :

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) :أى أنه لسعةرحمته لو يؤاخذهم بظلمهم لعَجَّل عقابهم ، ولكنه أمهلهم لعلهم يرجعون إلى الصواب ، ويفيئون إلى الرشاد .

(بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً) : وهذا الإمهال موقوت بأجل معدود «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ» [٢] .فإذا حان الأجل وهم مُصِرُّون على كفرهم وعنادهم أخذهم الله بعقابه الأليم حيث لايجدون ملجأً للنجاة والخلاص. «فَلَيْسَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» .

٥٩ – (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) :

المراد بالقرى هنا أهلها ، والمعنى : وأهل تلك القرى المهلكة المعروفة ، من قرى عاد وثمود وقوم لوط عصوا ربهم ، وكذبوا رسله فأمهلهم لعلهم يؤمنون ، فلمَّا أصروا على الكُفر وأمعنوا فى الضَّلال أخذهم الله بعذاب الهلاك والاستئصال فى الموعد الذى حدده لهم «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [٣] .

روى الشيخان والترمذى وابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله تعالى ليملى للظالم حتى إذَآ أخذه لم يُفْلِتْه» .

قصة موسى والعبد الصالح

قصَّ اللهُ سبحانه علينا فى الآيات التَّالية قِصَّة موسى والعبد الصالح وقد رأينا أن نقدم لها مايعين على إدراك أهدافها السامية :

(١) سورة النساء ١٤٧ .

(٢) سورة هود ١٠٤

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢

(١) جمهور المفسرين على أن العبد الصالح هو الخضر ، وقيل اليَسَع وقيل إلْياس ، قال الآلوسى : والحق الذى تشهد له الأَخبار الصحيحة هو الأَول .

ولقب بالخضر ، استنادا إلى مارواه الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنما سُمّىَ الخضِر لأَنه جلس على فروة بيضاء فاهْتزَّتْ تحته خضْراء» ومثل ذلك رواه البخارى بسنده .

(٢) قد يعجب بعض الناس من أن يحْتاج موسى وهو كليم الله ورسوله إلى مَنْ يتعلَّم منه العِلم ، وليس هذا موضع عجب فإنَّ الله « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[1] لحكم يعلمها .

روى الشيخان والترمذى عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس إن نوفلا لبكالى يزعم أن موسى صاحب الخضرِ ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل فقال : كذب عدوُّ الله ، حدَّثنى أُبَىُّ بن كعب أنه سمع النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسُئِل : أىُّ الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعَتبَ الله عليه إذْ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأَوحى الله إليه إنَّ لى عبْداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : ياربِّ فكيف لى به ؟ قال تأْخذ معك حوتا فى مِكْتَل فحيثما فقدْت الحوت فهُو ثَمَّ ، فأَخذ حوتا فى مِكْتل ثم انطلق ومعه فتاه يوشع بن نون . . . . » وذكر الحديث ، والمكتل وعاءٌ مصنوع من الخوص يحفظ فيه المتاع .

(٣) كثير من العلماء يقولون إن الخضر ــ عليه السلام ــ حَىٌّ ، وقد أَجمع الصوفية على حياته إلى الآن كما نقله النووى عنهم ، وقد استدلوا بأَخبار غير مقطوع بها ، ومنها ما أَخرجه الدارقطنى فى الأَفراد بسنده عن ابن عباس أنه قال : « الخضر ابن آدم من صلبه ، ونُسِىءَ له فى أجله حتى يُكذِّبُ الدجال » ومثله لا يقال من قِبل الرأى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٥

وذهب جمع من العلماء إلى أنه ليس بِحَيٍّ اليوم ، سئل البخارى عنه وعن إلياس عليهما السلام – هل هما حيان – فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لايبقى على رأس المائة مِمَّنْ هو اليوم على ظهر الأرض أحد» وفى صحيح مسلم عن جابر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامِنْ نفس مَنْفُوسَة يأْتىعليها مائة سنة وهى يومئذ حية » كما استدلوا بأدلة نقلية وعقلية أُخرى ، فارجع إليها فى الموسوعات ، والإمساك عن الخوض فى الخلاف بين الرأيين أولى ، مع الجزم بقصته مع موسى عليه السلام – كما جاءت فى هذه السورة .

(٤) اخْتُلِف فى الخضر ، فقيل هو نبي وليس برسول ، وهو قول الجمهور ، وقيل هو رسولٌ ، وقيل هو ولِيٌّ ، وبه قال القشيرى ، ويستدل القائلون بنبوته ، بقوله تعالى فى شأْنه : « آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » والرحمة تطلق على الوحى والنبوة فى عدة مواضع من القرآن ، ولأَن الله حكى عن قوله لموسى : «وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » أى أَن ماحدث منه كان بوحى من الله ، ولأَن النبى لايتعلم إلاَّ من نبى ولا يصح أَن يكون المتعلم فوق المعلم... إلخ .

(٥) وفى القصة توجيهات رشيدة :

(ا) أن لله حِكماً عالية فيما يقضيه من أُمور ، وهذه الحكم قد ندركها وقد تغيب عن عقولنا ، ولكننا ينبغى أَن نؤْمن بها كل الإيمان .

(ب) أن الهجرة فى طلب العلم مطلوبة ، روى مسلم بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طرِيقاً فى الجَنَّة » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَتَاهُ) : الفتى هو الشاب ، وأُضيف إلى موسى لأَنه كان يخدمه ويتعلم منه .

(مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ) : موضع التقائهما ولعل المقصود بهما التقاءُ خليج العقبة بخليج السويس أَو التقاءُ أَحد فروع النّيل القديمة بالبحر الأَبيض . (حُقُبًا) : الحقب الدهر ، ومقداره ثمانون سنة ، كما قيل . (حُوتَهُمَا) : الحوت ؛ العظيم من السمك . ،

(سَرَبًا) : السرب فى اللغة النفق ، وسيأْتى تفسير المراد منه فى الآية .

(غَدَاءَنَا) : طعامنا فى الغُدْوة أَى الصباح وما يُسَمَّى الآن بالفطور .

(نَصَبًا) : تعبًا ومشقة وجهدًا .

(عَجَبًا) : غريبًا عن العادة مخالفا لها يدعو إلى عجب الناس منه .

(فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : فرجعا يقصان أثر سيرهما السابق .

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) : أى نعمة كبرى فيها رحمة منا وسيأتى فى الشرح بيانها .

التفسير

٦٠ ـ (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) :

أبرزت الآيات السابقة لَجَاج الكفار وعنادهم وإصرارهم على الباطل ومُحَاولتَهمْ طَمْسَ الحقائق الواضحة التى ساقها الله لهدايتهم ، وفى هذه الآية والآيات التالية يضرب القرآن مَثَلاً ساميًا لنبى من أنبيائه ، أوحى الله إليه وكلمه تكليمًا ورزقه علمًا ومعرفة ، ومع هذا سعى جاهدًا ليتعلم ما لم يعلم ، وتحمَّل فى سبيل المعرفة ما تَحَمَّل من مشاق ، وهو موسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد قصة موسى عليه السلام إذْ صَحب فتاه طالبًا لقاء العبد الصالح (الخضر) عليه السلام ليتعلم منه بعض ما لم يكن يعلم . وفتاه هو يوشع بن نون تابعه وتلميذه وخليفته من بعده كما ورد فى صحيح البخارى ومعهما مِكْتل[1] فيه حوت أَعَدَّاه للطعام وأخبر موسى فتاه أنه لايزال مُجِدًّا فى السير حتى يصل إلى مكان العبد الصالح فى مجمع البحرين ، ولعل المراد بمجمع البحرين التقاءُ خليج العقبة بخليج السويس أو أحد فروع النيل السبعة القديمة بالبحر الأبيض فى دلتا النيل ، وعلى أى حال فتحديد المكان لا يتعلق به كبير غرض .

وانطلق موسى مع فتاه وقد عقد العزم أن يواصل السير وإن طال الزمن حتى يبلغه .

٦١ ـ (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) :

أى فلما وصلا إلى موضعٍ يَجْمَعُ بين البحرين نسيا حوتهما فاضطرب فى المكتل وقفز إلى الماء يشق طريقه فيه كأنما صنع الحوت لنفسه فى الماء نفقًا ، فقد صح من حديث الشيخين وغيرهما . « أن الله أمسك عن الحوت جرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق » قال الآلوسى : والمراد به : البناءُ المقوَّس كالقنطرة .

(١) وعاء مصنوع من الخوص يشبه الحقيبه يحمل التمر والطعام وغيرهما فيه .

٦٢ ـ (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) :

فلما جاوزا المكان وأمعنا فى السير حتى الصَّباح شَعُر موسى عليه السلام بالجوع والتعب فقال لغلامه آتنا طعام الغدوة (وهى الصباح) ليَشْبَعا من جوع ، ويستردًّا عافيتهما وينعما بالراحة بعد التَّعب .

٦٣ ـ (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) :

قَالَ له الغلام : إنى نسيت الحوت عند الصخْرة وإن الحوت قفز إلى الماء .

(وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا) : واتخذ فى الماء طريقًا عجيبًا كالنفق ، ونسبة الإنساء إلى الشيطان لأنه ربما شغله بوساوس عن الأهل والوطن ، جعلته يذهل عن هذه الحالة العجيبة بتقدير العزيز العليم ، وإلا فتلك الحالة لا تنسى .

٦٤ ـ (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) : قال إن فقدان الحوت إنما يكون عند التقاء البحرين وهو المكان الذى نريده حيث نلقى العبد الصالح .

(فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : ذكر البخارى فى باب التفسير : « رَجعا يقصان » . أىْ يَتَتَبَّعَان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة .

٦٥ ـ (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) :

أى فوجدا عند الصخرة التى نسى يوشع ما حدث من الحوت لديها ـ وجدا ـ عبدا صالحا من عباد الله آتاه رحمة كثيرة من عنده ، وعلَّمه علما لايكتنه كنهه من لدنه سبحانه وتعالى .

واختلف فى الرحمة التى آتاه الله إياها ، فقيل هى الوحى والنبوة ، وقيل الرزق الحلال ، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم ، وأما العلم اللَّدنىُّ فهو علم الغيوب والأسرار الخفية ، كما سيأتى بعضه فى قيصته .

٦٦ ـ (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) :

تحكى هذه الآية أن موسى حين وجد العبد الصالح سأله الصحبة واتباعه بشرط أن يُعلمه مما علّمه الله علما ذا رشد .

٦٧ - (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِى صَبْرًا) : قال الخضر : إنك لو أردت الصبر - لما استطعت، لأن ما يجريه الله على يدىَّ من الأُمور يَجْعَلك تسارع إلى الاعتراض عليه ، لخفاء حكمته عليك، روى الإمام البخارى والترمذى فى حديث طويل بسند كل منهما يحكى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قصة لقائهما مع العبد الصالح ، وقد جاء فيه أنهما ، (انتهيا إلى الصخرة) ، فإذا رجل مُسَجًّى - أى مغطى - بثوب ، فسلم عليه ، فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدًا ، قال يا موسى إنك لن تستطيع معى صبرًا ، يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علَّمكَ الله لا أعلمه . . .) الحديث .

٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا) : أى وكيف تصبر على مصاحبتى . وأنت ترى من الأُمور المخالفة لشريعتك ، ما لم تحط بأسراره عِلْمًا ، يقول الخضر ذلك لأنه كان يفعل أُمورا خفية المراد منكرة الظواهر ، مما يجعل موسى عليه السلام لا يتمالك إلا أن ينكر وقوعها عند مشاهدتها .

(قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(صَابِرًا) : ضابطًا لنفسى حين أرى ما يقتضى الإنكار .

(فَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) : فلا أُخالف ما تأْمرنى به .

(حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) : حتى أُفسره لك دون سؤال منك .

التفسير

٦٩ - (قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) :

وعد موسى عليه السلام الخضر بأنه سيجده صابرًا على ما يراه مما أخفى عليه سببه ، وقرن ذلك بمشيئة الله ، لأن أفعال العباد مرتبطة بمشيئته تعالى ، كما وعده أن يلتزم طاعته فلا يخالفه فى أمر من الأمور ، وهذا ما ينبغى للمتعلم مع معلمه .

٧٠ - (قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) :

بعد أن وعد موسى صاحبه الخضر بأنه سيصبر على ما يراه من الأمور الخفية الأسباب ، التى يجريها أمامه وأنه لا يعصى له أمرًا - لما حدث ذلك من موسى - أذن له الخضر بصحبته وأرشده إلى ما يقتضى دوامها بقوله : فإن اتبعتنى وصحبتنى فى رحلتى هذه فلا تسألنى عن شىء رأيته بعينك وأنكرته بقلبك ، واصبر حتى أحدث لك فى شأنه ذكرًا وبيانًا يفسر ما عمى عليك من سببه .

(فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا) : أى لقد أحدثت منكرًا فظيعًا .

(وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا) : لا تحمّلنى من اتباعى لك ما لا أطيق مما يشق علىّ حمله .

التفسير

٧١ - (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) :

جاء فى حديث البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهما « انطلقا يمشيان على الساحل فَمَرَّتْ بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل »[1] إلى أن قال : « فَلَمْ يُفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوحًا بِالْقَدُوم ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : مَا صَنَعْتَ ؟ قَوْم حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدت إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » ويحكى الله اعتراض موسى عليه ، بأُسلوب موجز مستنكرًا ما فعل ، إذ يقول :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) :

وهنا نرى موسى عليه السلام ينسى ما عاهد عليه الخضر ويوجه إليه لومًا شديدًا ويقرر أن فعله هذا قد يفضى إلى إغراق السفينة بمن فيها ، وأنه قابل إحسان أصحابها بالإساءة . ويحكم عليه حكمًا قاسيًا - حسب ما بدا له - بأنه ارتكب ذنبًا عظيمًا قبل أن يستمع إلى سبب هذا الفعل .

٧٢ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

ذكَّره الخضر بالعهد الذى ارتبط به معه فقال له : لقد قُلت لك ما توقعتُ حدوثَهُ منك وهو أنك لن تستطيع الصبر على صُحبتى حينما ترى ما أفعله ، مما يخالف ظاهر شريعتك .

٧٣ - (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) :

اعتذر موسى عليه السلام للخضر بأنه نسى ما تعهد له به . والنسيان مَظِنَّة العفو ، وطلب إليه ألَّا يحمِّله فوق طاقته ، فإنه نبي والنبي لا يسكت عن أمر يراه خطيئة ؛ روى البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كانت الأُولى من موسى نسيانا » وورد فى هذا الحديث : « وجاء عصفور فوقع على حَرْفِ السفينة فنقر من البحر نقْرَة[2] فقال له الخضر : « ما عِلْمِي وعلْمُك فى علم الله إلا مثلُ ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر » وقبل الخضِرُ عُذْر موسى وسارا فى طريقهما .

---

(١) أى بغير أجر .

(٢) هذا دليل على أن البحر كان ماؤه عذبا .

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(غُلَامًا) : الغلام الصبي الذي لم يبلغ . (زَكِيَّةً) : طاهرة ، وفي قراءة « زَاكِيَة » . أي نامية أو طاهرة . (نُكْرًا) : منكرًا لا يقره العقل .

التفسير

٧٤ - (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) :

روى البخارى بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « . . . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخَضِرَ غُلَامًا يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله . . » .

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) : لم يُطِقْ مُوسَى صبرًا على ما رأى من قتله الغلام فقال فى استفهام إنكارى :أقتلت نفسًا طاهرة بريئة دون أن ترتكب تلك النفس جريمة تستحق عليها القتل؟ثم أصدر عليه حكمًا حاسمًا بأنه ارتكب أمرًا خطيرًا منكرًا .

٧٥ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

نبَّهه الخَضِر عليه السلام إلى خروجه عمَّا عاهده عليه للمرة الثانية ، وأكد ذلك بزيادة الجار والمجرور (لك) أى إن هذا هو ما قلته لك لا لغيرك ، ولكنك لم تلتزم بما تعهدت لى به فى قولك : « سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا » .

روى البخارى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « وهذه أشد من الأولى . . » .

٧٦ ـ ﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ :

أدرك موسى خطأه فلم يجادل فيه ، ووعد بتحمل تَبعة اعتراضه عليه مرة أخرى فقال للخضر عليه السلام : إذا اعترضت عليك فى أمر آخر فإن لك أن تفارقنى ولا لوم عليك فى ذلك ، بل لك العذر كل العذر فى ألا تصاحبنى ، وقبل الخضر عليه السلام اعتذاره ومضيا فى طريقهما .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

(جِدَارًا) : الجدار ؛ الحائط .

(يَنقَضَّ) : ينهار .

(أُنَبِّئُكَ) : أخبرك .

(تَأْوِيلُ) : تفسير .

التفسير

٧٧ ـ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ :

أى فسارا فى طريقهما حتى حَلاَّ بإحدى القرى ـ يذكر بعض المفسرين أنها إنطاكية ـ وطلب من أهلها إعطاءهما طعامًا يأكلانه ، فرفض أهلُها إطعامهما شُحًّا وَبُخْلًا .

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ) : فرأيا فى القرية جدارًا يكاد يقع فهدمه الخضر ثم أعاد بناءه ، فعجب موسى عليه السلام من تصرف الخضر ، وما بذله من جهد فى هدم الجدار ثم إقامته ، لقوم بخلاء يضنون عليهم بالطعام [1] .

روى البخارى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا . . . » ؟ .

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى لو أردت لطلبت من هؤلاء القوم أجرًا جزاء عملك .

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يعترض على الخضر ولم يصدر عليه حكما بالخطإ كما فعل فى المرتين السابقتين ، فقد استفاد من الدرسين الماضيين واكتفى هنا بقوله : لو أردت أن تنال أجرًا على عملك لنلته ، وعلق الأمر هنا على مشيئة الخضر وإرادته ، وهنا أدرك الخضر عليه السلام أن موسى قد استفاد مما مر بهما من أحداث ، وأثمرت التجربة ثمرتها المرجوة ، فأنهى الخضر لقاءه مع موسى عليهما السلام مبيناً له حكمة ماصنع مما لم يستطع موسى الصبر عليه .

٧٨ – (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) :

أى قال الخضر لموسى عليهما السلام ، بعد أن اعترض عليه لهدمه الجدار ثم بنائه لقوم بُخَلاء : حان لى فراقك وفقا لتعهدك ، ولكنى قبل الفراق سأُنبئك بتفسير ماقمت به من أعمال استدعت اعتراضك عليها ،لتدرك بواعث وأهداف هذه التصرفات ولكنك تعجلت فى الحكم عليها دون أن تدرك أسبابها وتقف على بواعثها .

جاء فى حديث البخارى عن هذه القصة بعد قول الخضر لموسى عليه السلام : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ... » الآية . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَدِدْنَا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما » .

---

[1] (١) والتعبير عن قرب سقوط الجدار بأنه يريد أن ينقض صورة بلاغية ، من باب الاستعارة المكنية التخييلية .

تنبيه وشكر للقراء الكرام

تم تفسير نصف القرآن عند الآية الثامنة والسبعين من سورة الكهف ، ويبدأ تفسير النصف الثانى بمشيئة الله من قوله تعالى حكاية عن الخضر : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يعملُون فى الْبَحْرِ . . . » الآية ٧٩ .

وقد جاء هذا التفسير – بتوفيق الله تعالى – بعيدًا عن التعقيد خالياً من الإسرائيليات والفنيّات الصعبة ، والأحاديث الموضوعة ، مع تحرى الدقة فى التعبير عن المعنى الأساسى للنصوص الكريمة بقدر الإمكان ، ولا نبرىء نفوسنا من الخطإ أو التقصير – فالكمال لله وحده .

وحسبنا أننا بذلنا الوسع ، ومهّدنا السبيل إلى فهم كتاب الله تعالى على الوجه الأمثل .

وتتألف لجنة التنسيق حالياً من السادة الآتية أسماؤهم – حسب ترتيب الحروف الهجائية – أصحاب الفضيلة :

(١) الشيخ السيد مصطفى شريف . (٢) الشيخ طه الساكت .
(٣) الشيخ عبد المهيمن الفقى . (٤) السيد الأستاذ على عبد العظيم .
(٥) صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بمراجعة أعمال اللجنة بعد الفراغ من تنسيق كل حزب وتحقيقها ، تحرياً للدقة والصواب، وإبراء لذمة اللجنة ، وهو يباشر هذا العمل الدقيق منذ تفسير فاتحة الكتاب حتى الآن ، ولهذا ترى التفسير متقارب الأسلوب بقدر الطاقة .

ولقد أسعدنا قراؤنا الكرام فى العالم الإسلامى ؛ بإقبالهم المنقطع النظير على اقتنائه – فما إن يظهر منه حزب فى المكتبات حتى تنفد عشرات الألوف من نسخه ، ولهذا نتقدم إليهم بالشكر الجزيل على هذا الإقبال ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحنا مزيدًا من التوفيق فى تفسير النصف الثانى من كتابه ، وأن يجزى القراء عنا خير الجزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحديدى الطير

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

محاسب / صـالح زكـريا

رقم الايداع بدار الـكتب ١٦٧٩ / ١٩٨١

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢١٧٤ س ١٩٨٠ - ٢٥٠٠٤

Bibliotheca Alexandrina
0327081